جامعة القاهرة

كلية دار العلوم

قسم الدراسات الأدبية

الأرض ومفرداتها و السماء وعوالمها

فى القرآن الكريم

دراسة تحليلية فنية

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الباحثة

حنان السيد محمد شكري

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور محمد أبو الأنوار

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم

٢٠٠٧

جامعة القاهرة

كلية دار العلوم

قسم الدراسات الأدبية

الأرض ومفرداتها و السماء وعوالمها

فى القرآن الكريم

دراسة تحليلية فنية

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الباحثة

حنان السيد محمد شكري

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور محمد أبو الأنوار

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم

٢٠٠٧

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان ، وجعله سامق البيان ، رفيع التبيان ، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .

فالكون هو كتاب الله المفتوح ، وهو الدعوة البينة الدلالة ، العظيمة الإيحاء التي تفوق في صمتها كل بيان ، عدا القرآن الكريم الذي تولى الدلالة عليها ، والتبصير بها ، لتتوجّه القلوب إليه سبحانه لا إله إلا هو .

ولأن الكون هو الدعوة الصامتة للتوحيد ، فقد جاء القرآن الكريم يحمل بين دفتيه آيات عظام ، يفوح منها شذا هذا الكون الذي نعيش فيه .

تلك الآيات التي تنتشر في الأسلوب القرآني بصورة لافتة للنظر ، مثيرة للتأمل مبهرة للعقل .. إنها الآيات الكونية ، معجزات الله في هذا الكون ، في السماء والأرض ، تلك السماء الحافلة بما فيها من كونيات عجيبة ، وهذه الأرض المتخمة بمفرداتها العظيمة .

ومن هنا كان التساؤل ، لماذا يوظِّف الأسلوب القرآني هذا الحشد الهائل من الآيات الكونية ؟ وقد توقفت كثيرا أمام هذا الإبداع في البناء الأسلوبي ، كيف تناسقت كل هذه الآيات الكونية سماء وأرضا على هذا النحو العجيب في الأداء القرآني ؟!

و لنتأمل هذا الزخم الكوني في قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٢، ٣٣] . من أجل ذلك كانت فكرة هذه الدراسة ، التي تتناول تحليل أبرز هذه الآيات الكونية سماء وأرضا .

ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذا الموضوع بداية ، يرجع الفضل فيه إلى الله سبحانه، ثم إلى أستاذي الدكتور " محمد أبو الأنوار" الذي أشار عليّ بهذا الموضوع ، ووجهني إليه ، وقد كنت أبحث عن موضوع يتناسب مع دراستي في الماجستير، حيث كانت في الأدب الإسلامي .

لذلك فقد صادف هذا البحث مني هوى ، ووقع من نفسي موقع الماء من ذي الغُلّة الصادي . وهذا من باب إرجاع الفضل إلى أهله ، فلقد تفضل به علي أستاذي الدكتور" أبو الأنوار " ، حيث أجرى الله – عز وجل – الفضل على يديه .

فشكرا له وامتنانا أن جعلني في تواصل دائم مع كلمات الله ، في ظلال القرآن الكريم ، وإنني أبدا لن أنسى كلمات أستاذي الفاضل لي : " إنك بهذا العمل في عبادة متصلة ".

ولكن الموضوعات الجسام ، صعابها جسام أيضا ، حيث عانيت كثيرا في هذا البحث ، بداية من اختيار المادة موضوع الدراسة ، والتي تتمثل في الآيات الكونية نطاق البحث ، حيث قمت بإحصاء هذه المادة وجمعها من الأصل نفسه ؛ أي من القرآن الكريم .

وكم كان المجهود شاقا ، وكم استغرق وقتا ، ثم عاودت مرحلة الانتقاء مرات ومرات حتى أستطيع أن أختار الآيات المناسبة ، والتي تُبرز فكرة هذه الدراسة وهدفها ، من حيث كونها بيانا تحليليا لذلك الأسلوب الرفيع في عرض الآيات الكونية وما كان ذلك يسيرا .

ثم بدا لي بعد ذلك أمر آخر ، وهو كيفية تصنيف هذه الآيات وتوظيفها في مكانها المناسب ، وقد كان الأمر جد عسير ؛ لاتساع هذا الموضوع ، فآيات السماء والأرض كثيرة جدا في القرآن الكريم ، وهي في الوقت نفسه متشابكة بصورة محكمة بحيث يصعب فصلها ، مما أدى بالضرورة إلى أمر آخر ، ألا وهو صعوبة اختيار عناوين الأبواب والفصول ، بل والمباحث أحيانا ، وخاصة أن هذه الدراسة تتعامل مع النص القرآني الكريم.

ذلك الأمر جعلني دائما بين حالتين من الرهبة والرجاء ، الرهبة من جلال وهيبة التصدي لهذا العمل ، والرجاء في الله أن أصل به إلى درجة التوفيق ، وأن أُبرز جانبا من جوانب الإعجاز الأسلوبي والفني لهذا البيان الرفيع .

ثم بعد ذلك كانت صعوبة إخراج هذا العمل في أفضل صورة طباعية ، لذلك قمت بكتابة هذه الرسالة بنفسي على الحاسوب ، لأنني أتعامل مع الآيات القرآنية التي تتطلب طريقة خاصة في الكتابة أساسها الدقة والإتقان ، ولأنني ترددت على مكاتب فنية كثيرة فاعتذرت عن كتابة الآيات القرآنية على نسق المصحف الشريف .

ولقد استغرق هذا مني جهدا عظيما ، ومجهودا أليما ، ولكن كل هذه المعاناة تهون أمام شرف وسمو الهدف ، وهو العمل في ظلال القرآن الكريم .

وقد قامت هذه الدراسة على المنهج التحليلي ، ولكن نظرا لسعة المادة وتشعبها كان الأمر صعبا ، فكيف يتسنى لي الجمع بين هذا الكم الهائل من الآيات الكونية في منهج واحد ؟ وما الخيط الذي يربط هذا الزخم من الآيات الكونية ؟ ولقد هداني الله – عزوجل – إلى أن تقوم هذه الدراسة على الجمع بين الآيات المتشابهة في معنى ما ، أو وظِّفت لإبراز غرض ما ، وتوضع في باب خاص بها في معناها العام ، ثم يقسم الباب إلى فصول ومباحث ، ويدرج في هذه الفصول والمباحث الآيات التي ينتظمها محور مشترك طبقا للسياق الخاص بها .

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة أبواب :

الباب الأول بعنوان :

" **كونيات الأرض والسماء في الأسلوب القرآني** " ، ويقع في فصلين :

الفصل الأول بعنوان : " **بسط الأرض وإبداع مفرداتها** " .

ويندرج تحته عدة مباحث :

المبحث الأول : الإشارات الكونية في :

" مد الأرض – الرواسي – الأنهار – الإنبات " .

المبحث الثاني : " البحر وعوالمه " .

المبحث الثالث : " مفردات الأرض وخلق الإنسان " .

المبحث الرابع : " توظيف الأنعام والحيوان والطير والحشرات في الأسلوب القرآني " .

أما الفصل الثاني فهو بعنوان: " **خلق السماء وعوالمها** " .

ويندرج تحته عدة مباحث :

المبحث الأول : " خلق السماء وما فيها من عوالم أبرزها :

" الشمس والقمر والنجوم والكواكب والشهب " .

المبحث الثاني : " الظواهر الكونية في :

" الغمام – البرق والرعد والصواعق – الرياح والمطر والغيث " .

المبحث الثالث : " معجزة الليل والنهار " .

والباب الثاني بعنوان :

" **الطبيعة في قصص الأنبياء والقسم والأمثال** " ويقع في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : " **الطبيعة في قصص الأنبياء** " . ويندرج تحته عدة مباحث :

المبحث الأول : " الطبيعة في قصص نوح عليه السلام " .

المبحث الثاني : " مفردات الطبيعة والظواهر الكونية في قصص هود عليه السلام ".

المبحث الثالث : " عوالم السماء في قصص إبراهيم عليه السلام " .

المبحث الرابع : " الطبيعة في قصص لوط عليه السلام " .

المبحث الخامس : " العناصر الكونية في قصص يوسف عليه السلام " .

المبحث السادس : " العناصر الكونية في قصص داوود وسليمان عليهما السلام " .

أما الفصل الثاني فهو بعنوان : " **الطبيعة في القسم القرآني** ".

ويقع في المباحث التالية :

المبحث الأول : " القسم بالسماء والأرض " .

المبحث الثاني : " القسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار " .

المبحث الثالث : " القسم بالنجوم ومواقعها " .

والفصل الثالث بعنوان : " **الطبيعة في الأمثال القرآنية** " .

ويقع في المباحث التالية :

المبحث الأول : " تمثيل الحياة بالنبات والزرع والأشجار والثمار " .

المبحث الثاني : " التمثيل بالرعد والبرق والوابل والمطر " .

المبحث الثالث : " التمثيل بالحيوانات والحشرات " .

و الباب الثالث بعنوان :

" لقطات متناغمة ولمحات متنوعة لعوالم السماء ومفردات الأرض " .

ويقع في فصليين :

الفصل الأول بعنوان : " **التناغم بين كونيات السماء والأرض** " .

ويقع في المبحثين التاليين:

المبحث الأول : " تشابك عوالم السماء ومفردات الأرض وما يتوالد عنهما " .

المبحث الثاني : " لمحات ومشاهد متنوعة لعوالم السماء ومفردات الأرض " .

والفصل الثاني بعنوان : " **التصوير الفني لمشاهد السماء والأرض في الغيبيات**" .

ويقع في المبحثين التاليين :

المبحث الأول : " السماء والأرض في آيات القيامة " .

المبحث الثاني : " عناصر الطبيعة في آيات الجنة " .

يلي ذلك خاتمة توجز أهم ما أبرزته الدراسة ، ثم قائمة بالمصادر والمراجع ، ثم الفهارس الخاصة بالدراسة .

وبعد .. فالله يعلم كم عانيت وتجشمت في سبيل إتمام هذه الدراسة على سعتها وتشعبها ، وكم كنت في حالة رهبة وتخوف حينما أمسك بالقلم ، وأتصدى لتحليل النص القرآني ، ولكن كان يحدوني الأمل في توفيق الله ، وأن يكون هذا العمل مساهمة صادقة في حقل التحليل الفني لأسلوب القرآن الكريم .

وأسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا العمل ، فإذا أصبت فمن الله ، ثم الفضل لأساتذة كرام لم يبخلوا عليّ بالمساعدة ، وحسن التوجيه ، وأخص أستاذي ، الأستاذ الإنسان الدكتور " محمد أبو الأنوار" لمشاركته الصابرة معي ، كما أشكر أستاذي الأستاذ الدكتور عبد اللطيف " أبو همام " ، بتفضله في المشاركة في الإشراف ، وجميل رعايته لي ، وعنايته بي ، وكريم توجيهاته التي أجدني دائما في أشد الحاجة إليها ، وإن أخطأت فمن نفسي . وأعتز بأستاذي الدكتور " أبو الأنوار" ، فقد كانت صحبتي معه طويلة ، وكان صبره جميلا ، أسأل له الله – عز وجل – أن يكون كل هذا الجهد في ميزان حسناته .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

الباب الأول

كونيات الأرض و السماء فى الأسلوب القرآنى

ويقع في فصلين :

الفصل الأول : بسط الأرض وإبداع مفرداتها.

الفصل الثاني : خلق السماء وعوالمها .

الفصل الأول

بسط الأرض وإبداع مفرداتها

ويقع في المباحث التالية :

* تمهيد

المبحث الأول : الإشارات الكونية في :

مد الأرض – الرواسي – الأنهار – الإنبات.

المبحث الثاني : البحر وعوالمه .

المبحث الثالث : مفردات الأرض وخلق الإنسان .

المبحث الرابع : توظيف الأنعام والحيوان والطيروالحشرات في الأسلوب القرآني .

تمهيد لبيان الأغراض التي وُظِّفت فيها الأرض في الأسلوب القرآني :

خلق الأرض معجزة كونية كبرى ، تكِل الأذهان عند تتبعها ، وتأخذ بالألباب عند تأملها ، وقد حفل الأسلوب القرآني بفضل بيان ، وعظيم تبيان ، لإبراز هذه المعجزة في كل جنباتها ، مشيرا بذلك إلى عظيم مشيئته تعالى ، وطلاقة قدرته .

وقد ورد ذكر " الأرض " في القرآن الكريم كثيرًا ، وبصورة لافتة للنظر ، تستدعى الانتباه والتوقف . حيث ذُكِر لفظ " الأرض " بصيغة التعريف بـ " أل " ٤٥١ مرة ، وهذا بخلاف الإحصاء التالي ، حيث ورد اللفظ معرّفا بالإضافة على هذا النحو :

" أرضِكم " : ثلاث مرات .

" أرضِنا " : ثلاث مرات .

" أرضَهم " : مرة واحدة .

" أرضي " : مرة واحدة .

ومرتين معرّفًا بالإضافة إلى لفظ الجلالة " أرض الله " .

كما ورد مرتين فقط في صورة النكرة : " أرضا ".

وقد وُظِّف لفظ الأرض في الأسلوب القرآني لبيان وعرض كثير من القضايا ، نوضحها فيما يلي من خلال عرض نماذج لها .

١ – **الأرض ، خلقها وإحياؤها بعد موتها :**

وهى الآيات التي تتناول خلق الأرض ، وإحياءها كذلك بعد موتها ، بما يتضمن ذلك من إشارة إلى البعث والنشور بعد الموت . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة : ١٦٤]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ....﴾ [الروم : ٥٠]

---

٢ – **الأرض ، والاستخلاف والإعمار :**

وهى آيات تبين استخلاف الإنسان في الأرض ، وإعماره لها بعد أن مكنّه الله سبحانه منها ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ..... ﴾

[البقرة : ٣٠]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ .. . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .... ﴾

[هود : ٦١]

---

٣ – الأرض ، تسخيرها وتذليلها :

وهى الآيات التي تشير إلى طلاقة القدرة ، في تسخيرالأرض وتمهيدها من أجل الإنسان ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً ....﴾ [البقرة : ٢٢]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ...﴾ [الرعد : ٣]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ...﴾ [الحج : ٦٥]

---

٤ – الأرض ، والخيرات والإثمار والإنبات :

وهى الآيات التي تتناول بيان ما في الأرض من خيرات ، وتتعرض لمعجزة الإنبات في الأرض ، وتنوع ثمارها على الرغم من سقايتها بماء واحد . مشيرة بذلك إلى طلاقة القدرة في ذاك التنوع وتوازن الخلق .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً ....﴾ [البقرة : ١٦٨]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾

[الرعد : ٤]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٧]

٥ – الأرض ، وتبدُّلها وتغيُّر أحوالها يوم القيامة :

وهى الآيات التي تتناول رجَّ الأرض وزلزلتها ودكّها يوم القيامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ .....﴾ [إبراهيم : ٤٨]

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ... ﴾ [الواقعة : ٤]

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .... ﴾ [الزلزلة : ١]

---

٦ – الأرض ، والخسف والتدمير :

وهى الآيات التي تعرض عقاب الله عزوجل للكافرين المعاندين .

ومنها قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ ....﴾

[النحل : ٤٥]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء ﴾ [سبأ : ٩]

---

٧ – الأرض ، والتسبيح و الخضوع والسجود :

وهى الآيات التي تبرز طاعة وخضوع المخلوقات الكونية لله عزوجل ، وتسبيحها له . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾[الحج : ١٨]

٨ – <u>الأرض ، واستلهام العبرة :</u>

وهى آيات الدعوة إلى التأمل والتدبر ، والتماس العظة . ومنها قوله تعالى :
﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
[آل عمران : ١٣٧]

وكذلك قوله تعالى :
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾
[يوسف : ١٠٩]

وكذلك قوله تعالى :
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ...﴾
[الحج : ٤٦]

---

٩ – <u>الأرض ، زينتها وسعتها وكرويتها :</u>

وهى الآيات التي تناولت ذكر الأرض وزينتها ، وسعتها ، والإشارة إلى كرويتها ، بما يتضمن كذلك الإشارة الدلالية ، إلى عظيم تصريفه سبحانه لهذا الكون وطلاقة قدرته فيه .

ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ...﴾ [الكهف : ٧]
وكذلك قوله تعالى :
﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ...﴾ [العنكبوت : ٥٦]
وكذلك قوله تعالى :
﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٣٠]

١٠ – الأرض ، والإفساد فيها :

وهى الآيات التي تتناول الإفساد في الأرض ، والنهى عن الإفساد فيها .
ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾
[البقرة : ١١]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ...﴾
[البقرة : ٢٠٥]

وقوله تعالى :

﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ...﴾ [الأعراف : ٥٦]

---

١١ – الأرض ، و وراثة الله و الصالحين لها :

ومنها قوله تعالى :

﴿ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾
[الأنبياء : ١٠٥]

تلك هي أهم ، ومعظم المحاور التي وُظِّف فيها لفظ " الأرض " .. ويجدر أن نشير قبل دراسة هذا الفصل إلى عدة نقاط ، حتى يتضح منهج البحث وأسلوبه ، وهذه النقاط هي :

أولا :

أن هناك بعض المواضع يشترك فيها اللفظان (السماء والأرض) ويصعب الفصل بينهما ، لأن ذلك يؤدى إلى بتر المعنى . ولذلك يتم دراسة هذه الآيات المشتركة بين السماء والأرض ، في فصل خاص بها في الباب الثالث .

ثانيا :

أنه لسعة المادة العلمية ، وتشعبها فسوف يتم اختيار بعض النماذج التي تستوعب هذه الدراسة ، وتحقق هدفها ، وتخدم رؤية البحث في إبراز الإبداعات الكونية في دراسة تحليلية فنية .

ثالثا :

لن نورد تحليل الآيات موضع الدراسة متتاليًا ، الآية تلو الأخرى حسب ورودها في المصحف ، ولكن سوف تصنَّف آيات الأرض ومفرداتها ، حسب كل مبحث وكل موضوع ، فعلى سبيل المثال ، الآيات الخاصة بالقَسَم تُدرَس في مكانها في مبحث القسم ، وكذلك ما يتعلق بالأمثال يدرس في مبحث الأمثال . وهكذا .

وهذا يعنى بالضرورة ، أن النماذج المختلفة سوف تُدرَس - بمشيئة الله- منجمة ، ويتجمع كل منها في مجموعة خاصة ، حول محور محدد ، هو فكرة الفصل أو المبحث كما سبق من الإشارة إلى الأمثال أو القسم أو قصص الأنبياء .... إلخ .

المبحث الأول

الإشارات الكونية في

مد الأرض – الرواسي – الأنهار – الإنبات

ونطاق بحثه الآيات التالية:

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[الرعد ٣ : ٤]

٢- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ [الحجر ١٩ : ٢٠]

آيات تفرّدت بالإثمار وبالإنبات :

وقد تفردت آيات بالإنبات فقط على النحو التالي :

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

٢- ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

٣- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ٧ : ٨] .

٤- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] .

ونظرا للتداخل الواضح بين هذه المفردات ، تعَسّر الفصل في الدراسة بين الأرض وما فيها من مفردات كونية ، حيث يرد في الموضع الواحد منها ، مد الأرض وتثبيتها بالرواسي وجريان الأنهار فيها ، ثم الإثمار والإنبات .

ولذلك حاولت تقسيم هذا المبحث لمحورين هما :

الأول : المواضع التي تتداخل فيها تلك المفردات الكونية من رواسي وأنهار وإثمار وإنبات .

الثاني : مواضع اختصت وتفردّت بالإثمار والإنبات فقط .

(أ) مد الأرض – الرواسي – الأنهار – الإنبات:

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[الرعد ٣ : ٤]

العرض الموضوعي:

تتحدث الآيتان السابقتان عن عدة معجزات كونية لا تستقيم الحياة إلا بها ، ولا تعمر الأرض إلا بمقوماتها. ومن هذه النعم المسخرة المذللة ، بسط الأرض ومـدها وجعلها صالحة للحياة ، ثم تثبيت هذه الأرض بالجبال الرواسي لئلا تميد بالعباد ، ثم جريان الأنهار، وهى شريان الحياة ونبض الوجود . أليس من الماء كل شيء حي؟ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء :٣٠] ، حياة الإنسان والأنعام والثمار والزرع بل كل كائن حي نعلمه أو لا نعلمه .

وحتى تتوازن المعايش خلق الله عزوجل من كل شـيء زوجـين ، حتـى إن الطبيعة الفلكية لهذا الكون قائمة على فكرة الازدواجية هذه ؛ فخلق الله الليل والنهار يتعاقبُ كلاهما لتدورَ عجلة الحياة ما بين النشاط والسكون والعمل والراحة ؛ لنصـل بذلك أيضا إلى زوجية الإحساس الإنساني ما بين السكون والحركة والاسـترخاء والعطاء .

ومن تمام وكمال الإعجاز المبهر في هذا الكون ، تلك الإشارة البارعة التي قد يمر بها الإنسان ولا يلتفـت إلى عظيم محتواها وعميق دلالتها . وأقصد بذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءِ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ..... ﴾
[الرعد : ٤]

فالأرض الواحدة يُزرع فيها النباتات والزروع المختلفة الأشكال والألـوان والطعوم ؛ فهذا حلو،وهذا مر،وهذا حامض،وهذا مستدير ، وذلك محبب ... وهـى في كل ذلك تسقى بماء واحد لا اختلاف فيه ، ولكنها تتمايز في الثمـار ودرجـة قبولها والإقبال عليها .

وفى تفسير هذه الآية يقول الإمام القرطبي :

"متجاورات أي قرى متدانيات ، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت في الثمار والتمر فيكون البعض حلوا، والبعض حامضا، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف فيه الثمر من الصغر والكبر واللون والمطعم " . (١)

التحليل الفني : ظاهرة "هو الذي " :

تبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ﴾ ، وقد توصلنا من خلال استقراء الآيات التي تبدأ بهذه البداية ، أنها جميعا تأتى في سياق التعبير عن طلاقة القدرة الإلهية وأن ما يليها دائما لابد وأن يكون آية كونية أو إعجازا مبهرا ، لا يصح ولا يحق إسناده إلا إلى الله العلى القدير ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وعلى نفس النهج وردت هذه الآية التي بصدد البحث متصدرة بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي.. ﴾ يلي ذلك الآيات الكونية العظيمة التي تنطق وتبرهن على تلك القدرة الإلهية المتفردة وهى بداية قوية لافتة ، لها إيقاعها في النفس ، فعلى الرغم من بساطة هذا التركيب من الضمير المنفصل والاسم الموصول ؛ إلا أنه شديد الإيجاز والإعجاز وكذلك عظيم الدقة والدلالة ، فمن خلال هذا القصر المعجز ، تهتز النفس بقوة ، ولعل الإنسان عندما يتأمله بحق يشعر أن قلبه ونفسه تنبض بوحدانية حقة ، ويستشعر بوعي وإحساس صادق ، أنه لا يجوز مطلقا أن يكون هناك إلا إله واحد هو الذي أبدع كل هذه العجائب من حولنا . وهذه البداية القوية بما تلقى من ظلال الرهبة في النفس ، تقسر الإنسان قسرا للالتفات لما يليها ، فنجد هذه الجملة الصغيرة البناء العظيمة الدلالة في قوله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي مجلد ٥ – ص ٣٦١٦ / ط / دار الغد العربي.

" **مد الأرض ...**" تعبير موجز ، ولكنه يوحى بالعطاء الممتد ، الذي لا ينقطع نفعه إلى قيام الساعة ، والمد هنا ليس امتدادًا وسعة فحسب ؛ بل إن الكلمة توحي بالبسط والتمهيد ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [النبأ : ٦] .

وقد ورد في تفسير الرازي أن : " المد هو البسط إلى ما لا يُدرك منتهاه ". [١]

والمد كذلك " زيادة ، يُقال مَدَدْتُ الأرض مدا إذا زدت فيها ترابا أو سمادا ". [٢]

وقد وردت هذه المادة المعجمية بمعنى مد الأرض وتمهيدها في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم على النحو التالي :

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ [الرعد : ٣]
- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ [الحجر : ١٩]
- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ [ق : ٧]

ومما لا شك فيه أن استعمال هذه المادة المعجمية مع لفظ الأرض له دلالة كونية علمية توصّل إليها العلماء ، وهى أن هذه الأرض التي نحيا عليها ليست مسطحة بل هي كرة عظيمة الاتساع ، وتلك إشارة أسلوبية لطيفة تؤكد إعجاز القرآن فقد تلطف الأسلوب القرآني بالعقلية العربية البدوية عندما أنزل عليهم هذا الكتاب . فكيف يخبر مثل هذه العقلية بكروية الأرض ؟ وكيف كان من الممكن استيعابها في ذلك الزمان ؟ ويؤكد هذا أيضا أن ذلك الدين صالح لكل زمان ومكان ، ولا يبلى على كثرة الرد .

ثم بعد ذلك يرد السياق بمعجزة كونية ثانية ، وهى (الجبال الرواسي) في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ .

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ٩ / ص ١٨٣ / / دار الغد العربي .

(٢) لسان العرب / مجلد ٩ / ص ٤٣٥ / مادة (مدد) / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

و " **الجَعْــلُ** " له في اللغة معان كثيرة منها:

جَعَلَ الشيء يجْعَله جَعْلاً : وضعه ، وجَعَلْــتُ متاعك بعضه فوق بعض : ألقيتــه وجَعَلَه يجْعــلَهُ جَعْلا : صنعه ، وجَعْــلَه : صيّره ، وجَعَــلَ : عَمِل وهـــيّأ ، وجَعَلَ : خلَقَ [١]

وعند تأمل المادة المعجمية للفعل " جعل " يتضح الفرق بينها وبين أي مـــرادف آخر مثل " أنشأ " مثلا .

" فالجَعْلُ " بمعنى الوضع و الإلقاء ؛ هي أدق كلمة في هذا السياق ، وقد اتضح ذلك من خلال العلم الحديث والاطلاع على طبيعة الجبال وتكوينهـــا ، وقـــد بـــيّن الدكتور زغلول النجار وصفا لعملية تكوُّن الجبال توضح قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ.... ﴾ يقول الدكتور النجار: " توصف الجبال بأنها أشكال أرضية فوق سطح الأرض تتسم بقممها العالية وسفوحها المنحدرة ، وبوجودهـــا فـــي مجموعـــات أو سلاسل أو أحزمة ، وإن كانت بعض الجبال توجد على هيئة مرتفعات فردية بصورة جبل واحد ، والمرتفعات الفردية تتكون عادة من الطفوح البركانية " [٢] .

ومن خلال شرح الدكتور النجار لعملية تكوّن الجبال من الطفوح البركانية بطريقة جيولوجية متخصصة – لا مجال لذكرها – نستخلص أن معظـم البـــراكين تلقـــي بحممها بطريقة ما ، وتظل تلك الحمم تتراكم فوق بعضها البعض لتكـــوّن الجبـــال وبذلك نجد الحقائق العلمية التي ظهرت حديثا تتوافق مع اللفظ القرآنـــي ، فالجبـــال تتكون نتيجة إلقاء البراكين لحممها حيث تتراكم تلك الحمم مكونة المرتفعات الجبلية، والفعل " جعل " بمعنى الوضع والإلقاء يعبر عن ذلك التراكم المشار إليه تقريبًا.

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٢ / صـــ ٣٠٠ ، ٣٠١ / مادة (جعل).

(٢) جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ٢٠٠٢ / ص ١٢ .

" **فيها** ... " .. جار ومجرور ، و لحروف الجر دلالات عظيمة في الأسلوب القرآني ، وقد أفرد الإمام السيوطي في " الإتقان " فصلاً كاملا للأدوات ومن بينهـا حروف الجر، وقد أورد الإمام أن من أشهر معاني " في" الظرفية مكانا أو زمانا. (١)

"**وفيها** " هنا تدل على الظرفية مكانا ، فالرواسي بالفعل وكما ثبت علميا تمتـد جذورها في أعمق أعماق الأرض متفقة فى ذلك مع الحقيقة الكونيـة القرآنيـة : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : ٧] والمعروف أن الوتد هو ما يثبت به الخيمة ونحوها في الأرض ، ومعظمه يكون تحت الأرض وأقله فوقها ، وهذا شأن الرواسي ، فالجزء البارز من الجبال فوق سطح الأرض هو في الحقيقة ليس إلا القمم البارزة . (٢)

وفى ضوء هذه الحقيقة العلمية المبهرة ، نلحظ دقة الأداء الأسلوبي المعجز مع الحقيقة العلمية ، فحرف الجر فيها يوحى بالتمكن والتثبت و الانغماس .

وقريب من هذا التحليل ما أورده الإمام السيوطي في تفسير استعمال حـرف الجر " في " في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ... ﴾ [سبأ : ٢٤] ، حيث استعمل " في " في جانب الضلال .. " لأن صاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض لا يدرى أين يتوجه ". (٣)

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن ج ١ / ص ١٦٦ / ط / المكتبة الثقافية / بيروت / لبنان .

(٢) راجع مقال د. زغلول النجار جريدة الأهرام المصرية ص ١٢ بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/١٩ .

(٣) راجع " الإتقان " ج ١ ص ١٤٥ / ط / المكتبة الثقافية / بيروت .

ومما يؤكد ذلك أن الأسلوب القرآني – دائما – يستعمل حرف الجر " **في** " حين يتحدث عن الأرض وتثبيتها بالرواسي . وفيما يلي إحصاء يوضح ذلك :

ورد لفظ الرواسي في الأسلوب القرآني تسع مرات ، ثماني مرات مع حرف الجر " **في** " ومرة مع " اللام " وللبحث عليها تعليق بعد عرض المواضع .

والمواضع كما يلي :

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .... ﴾ [الرعد : ٣]

٢- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ...... ﴾ [الحجر : ١٩]

٣- ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ .... ﴾ [النحل : ١٥]

٤- ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ..... ﴾ [الأنبياء : ٣١]

٥- ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .... ﴾ [لقمان : ١٠]

٦- ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا .... ﴾ [فصلت : ١٠]

٧- ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ..... ﴾ [ق : ٧]

٨- ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ .... ﴾ [المرسلات : ٢٧]

أما الموضع التاسع فهو من سورة النمل الآية ٦١ وهو قوله تعالى :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ... ﴾

[النمل : ٦١]

فأغلب الميل إلى اعتبار (اللام) – هنا بمعنى (في) – والله أعلم – حيث إن اللام قد تأتي بمعنى (في) كما ورد في " الإتقان" مثل قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ..... ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤].

فيصح التفسير ونضع الموازين القسط في يوم القيامة . وكذلك يصح يـــا ليتنـــي قدمت في حياتي ، وقد يكون التفسير : يا ليتني قدمت لحياتي الآخـــرة [١] ويجـــوز الأمران .

" **رواسي** " : والرواسي جمع مفرده : راسٍ وراسية. ومادة : رسَوَ – تدل على الثبات ومنها : رَسَا الشيء يَرْسُو رُسُوًا وأرْسَى : ثَبَتَ ، ورسا الجبل ثَبَتَ أصله في الأرضِ. [٢]، وهذا المعنى بالضرورة من المعاني التي عمدت إليها الآية ، فالهـــدف الواضح من خلق هذه الرواسي هو تثبيت الأرض وإرساؤها ، وذلك مصداق قولـــه تعالى في سورة النحل : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .... ﴾
[النحل: ١٥] ، وكذلك ما ورد في سورة الأنبياء :
﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ..... ﴾ [الأنبياء : ٣١]
وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ.... ﴾ [لقمان: ١٠]

ونلاحظ من خلال هذه الآيات وغيرها من آيات إرساء الأرض بالجبال ذلـــك الترادف الدقيق العميق الدلالة بين اللفظين : (جعلنا – ألقى) ، ممـــا يؤكـــد مـــا وصل إليه البحث من أن (الجَعْل) في هذه الآيات بمعنى الإلقاء والوضـــع . وهـــو كذلك ما أتفق مع المعنى العلمي لتكوين الجبال ، فسبحان الله العظيم الذي أبدع هذه الكونيات فصارت ومازالت معجزات تبهر النفس والعقل .

" **وأنهارا** " .. وهـــنا نلاحظ عطف الأسلوب القرآني الأنهار على الرواســـي ، فما علاقة الأنهار بالرواسي ؟ مما هو واضح أن الآية التي بين يدي البحث تتنـــاول المعجزات الكونية التي بها تستقيم حياة الإنسان ، ولا تستقيم الحياة بدون الماء.

---

(١) انظر (الإتقان في علوم القرآن) مجلد ١ / ص ١٧٠ / فصل استعمالات (اللام) / ط / المكتبة الثقافية / بيروت .

(٢) راجع لسان العرب / جـــ٤ / صـــ ٤٠٨ / ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت.

ولذلك فبعد أن ذكرت الآية الكريمة نعمة الأرض ومدها ، وأردفتهـا بنعمـة الجبال الرواسي ، وتلك نعمتان يتحقق بهما استقرار الأرض ؛ كان لابد من ذكر نعم أخرى يتحقق بها استقرار الإنسان ، لذلك ورد ذكر الأنهار وقد أوثرفيهـا صـيغة الجمع " الأنهار " حتى تتلاءم مع مد الأرض وبسطها ، كما وردت الرواسي بصيغة الجمع كذلك ، وهذا ما يتعلق بالدلالة والبناء الأسلوبي .

ويتبقى بعد ذلك تفسير علمي لعلاقة إرداف الأنهار بعد الجبال فـي السـياق القرآني ، فقد أثبت العلماء في العصر الحديث ، أن هناك أواصر بين الجبال وتكوّن الأنهار وتوضيح ذلك فيما يلي : من بين روافد تغذية الأنهار بالماء: المطـر الـذي يسقط وينحدر من فوق المرتفعات مثل الجبال ، وأن بعض قمم الجبال تكون ثلجيـة أحيانا ، وبذلك تصبح مصدرا مهما من مصادر إمداد النهر بالماء حتى لا يجـف أو ينضب .*

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾.. آية أخرى من الآيات الكونية التي لا تستقيم الحياة إلا بها ، وهى أن الله خلق من كل الثمار زوجين اثنين ؛ فبعد أن أوضح الأسلوب القرآني هذه الدلائل الكونية العظيمة أشار إلـى عجيـب خلـق النبات من ذكر وأنثى فى قوله : ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .. وقد فسرها الأسـتاذ سـيد قطب " بأن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنونا أن ليس لها من جنسها ذكور . تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر" . (١)

---

* بتصرف عن مقال د . زغلول النجار ، جريدة الأهرام المصرية ص ١٢ بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/٩ .

(١) في ظلال القرآن جـ ٤/ ص ٢٠٤٦ / ط / دار الشروق .

وقد أورد الإمام الرازي تفسيرا آخر لكلمة " زوجين" فقال إن المراد بـــ " زوجين اثنين : صنفين اثنين ، والاختلاف من حيث الطعم كالحلو والحامض..."(١).
وهذا لا يتفق مع الطبيعة ، بل الأدق ؛ التفسير الذي يدل علـــى النمـــاء والتكـــاثر وتحقيق التوازن والعدل في هذا الكون فالزوجان دائما – ذكروأنثـــى حتـــى تعمـــر الأرض وتتوازن الحياة – أما مسألة اختلاف الأنواع من حلو وحـــامض ، وحـــار وبارد ، فقد أشار الأسلوب القرآني إليها في قوله تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات.... ﴾ فتلك إشارة إلى تنوع الثمرات وتعددها وشموليتها ، ويتبقى بعد ذلك التكاثر للتزايـــد والنماء ، فيرد قوله تعالى : ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.. ﴾ – وبذلك يكتمل هذا المشهد الحي مؤديا هدفه في التعمير والإنماء .

ولكن ما قيمة وصف الزوجين بـــ " اثنين " ؟ فالمعروف أن الزوجين اثنان . جاء هذا على غرار قوله تعالى : " ﴿ وَقَالَ اللّـــهُ لاَ تَتَّخِـــذُواْ إِلـــهَيْنِ اثْنَـــيْنِ ﴾ [النحل : ٥١] للتأكيد على النهى عن الإشراك ، ولإفادة أن النهى عن اتخاذ إلهين هو لمحض كونهما اثنين فقط لا لمعنى عن كونهما عاجزين أو غيـــر ذلـــك" .(٢) ، وكذلك وصف الزوجين هنا باثنين لمحض العدد ، والتأكيد على وحدة النـــوع ، ولا يخفى كذلك أن لفظ اثنين بعد زوجين فيها دلالة عميقة تؤكد على فكرة توازن خلـــق هذا الكون ؛ فالازدواجية واضحة في كل مخلوقات الكون فالليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض ، والذكر والأنثى وهكذا .. ازدواجية وثنائية في كـــل شيء ، وهى كذلك ترمز لعدالة الله في خلقه ، فبالحـــق قامت السماوات والأرض .

---

(١) راجع مفاتيح الغيب مجلد ٩ / ص ١٨٦ / ط / دار الغد العربي.

(٢) الإتقان / مجلد ٢ / ص ٦٩ – ط / المكتبة الثقافية / بيروت.

﴿ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن ٧ : ١٠] أليس في هذا إشارة إلى ميزان العدل والتوازن في خلق الكون ؟ وقد آنست في هذا التحليل إلى الأسلوب القرآني ذاته فعند تتبع لفظ زوجين في القرآن ؛ وجدتها وردت ست مرات منها ثلاث مرات وصف فيها " زوجين " بلفظ اثنين وهى على النحو التالي :

[١] ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ [هود : ٤٠]

[٢] ﴿ من كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ... ﴾ [الرعد : ٣]

[٣] ﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون : ٢٧]

وآية " هود " وآية " المؤمنون " أمر لنبي الله (نوح) أن يحمل زوجين اثنين لبدء خلق حياة جديدة قائمة على التوحيد ، بعد أن جفاه قومه واتهموه بالجنون ويأمره عزوجل بألا يخاطبه في الذين ظلموا ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ .. ﴾ [هود : ٣٧] ؛ أليس هذا عدلاً ؟ فكلمة " اثنين " ترد في المواضع الثلاثة للتأكيد على أهمية هذا التوازن والعدل .. والله أعلم .

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

*** العرض الموضوعي :**

وينقلنا التعبير القرآني إلى مشهد كوني أرضى آخر، هو مشهد تلك القطع الزراعية المتجاورة المتقاربة ، تسقى بماء واحد ولكنها مختلفة الثمار والأشكال والألوان والطعوم .

فكما ورد عن الإمام الزمخشري أنها " بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة إلى سبخة وكريمة ، إلى زهيدة وصلبة ، إلى رخوة وصالحة للزرع لا للشجر، إلى أخرى على عكسها مع انتظامها جميعا في جنس الأرضية ". (١)

والملفت للنظر أن الأسلوب في الآية السابقة ، يؤدى وظيفة الريشة للرسام ، فالمشهد في الآية متعدد العناصر والألوان ، فهذه قطع متجاورة في الأرض وتلك جنات رائعة من الأعناب والزرع ، وذلك نخيل باسق شامخ يخرج من أصول مجتمعة أو أصل واحد .

أليست هذه الآية الكونية غاية في الإعجاز ؟ أن تكون قطع الأرض متجاورة وتسقى بماء واحد ، ثم يكون الثمر بعد ذلك مختلفاً في كل شيء ؟! في الشكل والطعم والتأثير والفائدة ، وتعدد العناصر الغذائية وتنوعها .

<u>التحليل الفني :</u>

عند التوقف أمام البناء الأسلوبي للآية ؛ يتبدى ذلك الإعجاز اللغوي المعبر العميق الدلالة ، فبما أن الحديث هنا عن مد الأرض وعن الإشارات الكونية بها ، فقد تصدرت الآية بالخبر شبه الجملة المقدم وجوبا ﴿ **وفى الأرض** ﴾ فجميل أن يتصدر الحديث عن كونيات الأرض بلفظ " الأرض " ، وقد أردف بعد ذلك بالمبتدأ المؤخر" الجمع .. النكرة " " **قطع** " ؛ بدلالتها على الشمولية ، فهذا الحكم لا يخص قطعة دون أخرى ، بل جميع " **قطع** " الأرض المتجاورة تقع تحت ذات الحكم الكوني ، من أنها تُسقى بماء واحد وتتجاور، ثم تختلف ثمارها .

---

(١) الكشاف مجلد ٢ / ص ٣٤٩ / ط / دار الفكر .

وهناك لفتة علمية ذكرها د. زغلول النجار في إيثار الأسلوب القرآني لصيغة النكرة ، حيث يبين الدكتور أن البحوث العلمية النباتية قد أثبتت تغيّر قطع الأرض بصفة مستمرة ولذلك فهي " قطع " وليست " القطع " . (١)

والمقصود من قول د.زغلول أن هذه القطع ليست ثابتة على صورة واحدة ؛ ولذلك كان التعبير بالنكرة إعجازًا لغويًا يتفق مع الحقيقة العلمية ولا يصطدم بها .

وعلى الرغم من وجاهة ذلك التفسير العلمي الذي قدمه الدكتور ، إلا أنني أجد أن استعمال النكرة وإيثارها دون غيرها من الصيغ له دلالة أسلوبية أشمل وأعم من التفسير العلمى ، فقد آثر الأسلوب استعمال صيغة النكرة فى كل العناصر الكونية موضع الدراسة فى هذه الآية ما عدا قوله تعالى : ﴿ في الأُكُل ﴾ ، وكان ذلك على النحو التالي: (قطع ، متجاورات، أعناب ، زرع ، نخيل ، صنوان ، غير صنوان ، ماء ، واحد).

كما نلاحظ استعمال صيغ الجمع وإيثارها على المفرد ، وفيما يبدو للبحث أن علة إيثارالنكرة بصيغة الجمع ؛ لدلالتهاعلى التهويل ، وتعظيم شأن هذه الإشارات والدلائل الكونية.

فالمعاني المذكورة في الآية عظيمة الدلالة ، ولذلك وردت المباني متسقة مع تلك المعاني .

ثم نلاحظ لفتة أسلوبية أخرى وهى إيثار صيغة جمع السلامة للنعت " **متجاورات** " على الرغم من أن المنعوت " قطع " جمع تكسير ؛ وترجيح ذلك أن جمع السلامة هنا يؤدى المعنى موفورًا ؛ فإيحاء ودلالة " مُتَجَاوِرَاتٌ " يختلف تماماعن " متجاورة " لو فُرِضَ استعمالها . وضخامة الدلالة تستوجب صيغة الجمع، والعدول عن المفرد على الرغم من صحة مجيئه نعتا لجمع التكسير .

---

(١) عن مقال للدكتور زغلول النجار / جريدة الأهرام المصرية ص ١٢ بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/١٦ .

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾

ولفظ " **أعناب** " قد ورد في القرآن ثماني مرات ، اقترن فيه بلفظ النخل والنخيل وليس هذا من باب المصادفة ، تعالى الله عزوجل عن ذلك ولكنه من قبيل الإعجاز على كل مستوياته الفني والعلمي .

فالإعجاز الفني ، واضح في تلك الصورة الملونة بألوان الطبيعة المختلفة ، لون الخضرة والأعناب ، ثم لون وأشكال النخيل المختلفة ، بما تحمل من ثمار متعددة الألوان ، متباينة الطعوم ، تناغم عظيم و تناسق بديع ، أدواته الألفاظ بما تحمل من ظلال ومعانٍ ، ولنتأمل هذا المشهد وكأننا نراه ، فهذه جنات مثمرة من أعناب ، يحفها النخيل ويحيط بها، وبينهما الزرع بأشكاله المتنوعة وأحجامه المختلفة وألوانه المبهجة ، وقد ورد بسورة الكهف مشهد تفصيلي لهذه العناصر الكونية وترتيبها وتناسقها وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف : ٣٢] .

وكأن مشهد الجنات لا يتوازن ولا يكتمل إلا باقتران الأعناب والنخيل ، بما لهما من إيحاءات فنية جمالية أو علمية نفعية ، ويجرنا الحديث عن منفعتهما إلى بيان الإعجاز العلمي في هذه الأعناب والنخيل : " ثبت علميا أن ثمرة العنب متميزة بمحتواها السكري العالي ، بالإضافة إلى احتوائها على كثير من الفيتامينات مثل فيتامين (أ) ، (ج) ؛ وكذلك فهي تحوى كثيرا من البروتينات النباتية والأحماض والخمائر ، كما ثبت علميا أن ثمرة العنب لها فعالية في تنقية الدم من السميات والفيروسات والفطريات المسببة لكثير من الأمراض ، وعام ١٩٢٨ وفى مدينة نيويورك قدمت الدكتورة : جوهانا براندت ، كتابا تبين فيه وتثبت بالدلائل أن ثمرة العنب تشفى من مرض السرطان ، وكانت هي نفسها خير دليل على ذلك .

أما بالنسبة للنخيل :

فقد أثبت العلم الحديث أن ثمار النخيل سواء كانت " رطبا " أو " بلحا " أو "تمرا " تعتبر من الثمار النباتية المتميزة بقيمة غذائية عالية ، كما أنها تشتمل على هرمونات تلعب دورا مهما في جسم الإنسان مثل إيقاف النزيف ، إدرار اللبن ، المساعدة على يسر المخاض ، وعلى اندمال الرحم وانقباضه بعد الولادة ؛ ولعل هذا التفسير العلمي يعضده قول الله تعالى في سورة مريم :

﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ﴾ [مريم : ٢٥]

كما أن ثمار النخيل تسهم في ترقيق المشاعر وتثبيت الفؤاد وانشراح الصدر". (١)

" **صنوانٌ وغير صُنوان** " : " والصنوان : جمع صنو مثل قنو وقنوان ". (٢)

صنوان بالرفع على اعتبارها نعتا للنخيل ، فالنخيل منه ما ينبت من أصول مجتمعةً، ومنه ما ينبت من أصل واحد. وقد فسره الإمام الرازي بما يلي :

"والصنو أن يكون الأصل واحدا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو..ومنها لا يكون كذلك ". (٣)

وأيضا هناك من العلماء من فسر الصنو بالمثل وعلى ذلك يكون تفسير الآية بأن الله عزوجل خلق النخل منه المتشابه ومنه غير ذلك. (٤)

وفي ضوء ذلك التقابل السلبي بين "صنوان وغير صنوان " تبرز طلاقة القدرة الإلهية ، في خلق المتناقضين من أرض واحدة ، تُسقى بماء واحد .

---

(١) عن مقال للدكتور " زغلول النجار" بتصرف / جريدة الأهرام المصرية ص ١٢ بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/١٦ .

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري / ج ٢ / ط / مكتبة الدعوة / القاهرة .

(٣) مفاتيح الغيب / مجلد ٩/ ص ١٩٠ / ط / دار الغد العربي

(٤) مفاتيح الغيب / مجلد ٩ / ص ١٩٠ / ط / دار الغد العربي .

﴿ .. يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ .. ﴾

و" يسقى " : بالياء لتغليب صيغة المذكر بعد ذكر النخيل ، وهى كـذلك أقـرب مذكور وقد أوثر الإيجاز في هذا الموضع ، من خلال استعمال صيغة الفعل " يُسقى" مبنيا للمفعول ، وذلك للعلم بالفاعل ، والتعظيم من شأنه .

ومن عجيب هذه الكونيات ، أن هذه النباتات والزروع على اختلاف أنواعهـا وأشكالها، وثمارها وألوانها تُسقى بماء واحد ، وتزرع في قطع متجـاورات فكيـف تسنى هذا الاختلاف والتباين ؟ أضف إلى ذلك تفضيل بعضها على بعض في الثمار المهيأة للأكل . مما لاشك فيه أن هذا الحشد من المعجزات الكونية في بضع سطور لا تتجاوز الآيتين لهو إشارة عظيمة ، ولفتة قوية إلى طلاقة القدرة ، وبيان عظمـة الذات الإلهية.

وهذا البناء الأسلوبي لتلك الآيات الكونية يُعد تعميقًا لهـذه الـدلالات الكونيـة المحيطة بنا لعل النفوس تستيقظ بعد التبلد الحسي الذي يصيبنا مـن تكـرار هـذه المشاهد بصورة دائمة ، دون الانتباه أو الالتفات إلى تلك الكونيات المبهرة ، ولذلك أُردف هذا التعبير القرآني بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ...

فمن خلال الأسلوب المؤكد ، بين التعـبير القرآني أن هذه الآيات دعوة للتفكر والتثبت ، ثم هي أيضا لقوم يعقلون ، فليس هناك صاحب عقل ولب ، لا يعقـل ولا يدرك هذه الكونيات المبهرة ، وهى كونيات ملموسة ، محسوسـة ، فكيـف يتـولى الناس بعد ذلك مشركين منكرين جاحدين لنعم الله عزوجل ...... وقد ظهرت طلاقة قدرته في كل ما يحيط بهم ، ولذلك جاء الأداء الأسلوبي مشيرا لهذه الكونيات بتلـك الدقة وذلك التفصيل ، وروعة التصوير .

أما الموضع الثاني لآية مد الأرض وتثبيتها فهو قوله تعالى :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ *وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ [الحجر ١٩ : ٢٠]

العرض الموضوعي :

تتناول هذه الآيات الكونية الموضوع نفسه الذي عرضته آية سورة الرعد تقريبا مع بعض الاختلاف ، فهي تتحدث عن عدة آيات كونية كبرى مثل مد الأرض وبسطها ثم تثبيتها بالرواسي ، كما تتناول بيان المعجزة الإلهية في خلق وإنبات النبات بصورة متوازنة ومتناسقة ، وبذلك تتحقق منافع الناس في الأرض .

التحليل الفني :

عند مقارنة هذا الموضع بالموضع السابق من سورة الرعد ، نلاحظ أن الآيتين تتصدران بهذه المعجزة الكبرى ، وهى مد الأرض وبسطها، مع اختلاف الأداء الأسلوبي في كل منهما، ففي الموضع السابق نجد الآية تتصدر بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ....... ﴾ ، بينما في هذا الموضوع من سورة الحجر، نجد أن الأسلوب يستخدم صيغة الماضي المسند لـ " نا " العظمة على النحو التالي :

(مددناها – ألقينا – أنبتنا – جعلنا) وعند تتبع ذلك ؛ لاستبيان علة اختلاف الأسلوب على الرغم من تقارب الموضوع ، وجدت أن الأداء الأسلوبي لكل موضع مرتبط بالسورة التي ورد فيها وتوضيح ذلك فيما يلي :

بالنسبة لآية سورة الرعد ، تبدأ السورة ببيان المعجزات الكونية السماوية ، بقوله تعالى :﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .... ﴾ [الرعد : ٢] .

ثم ننتقل إلى معجزة ﴿ مَدَّ الأَرْضَ ﴾ فنجد الآية تتصدر بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ... ﴾ [الرعد : ٣] ....

ثم بعد ذلك ترد آية كونية أخرى متصدرة بنفس الجملة : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ .... ﴾ [الرعد : ١٢] وإن دل هذا على شيء ؛ فهو يدل على الانسجام والترابط داخل أجزاء السورة الواحدة .

بينما في سورة الحجر، فعند تتبع السياق وجدنا أن الآيات والمعجزات الواردة بها أوثر فيها صيغة الماضي المسندة لـ " نا " العظمة ، وذلك على النحو التالي :

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ .... ﴾ [الحجر : ١٠]
- ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء ..... ﴾ [الحجر : ١٤]
- ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : ١٦]
- ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ..... ﴾ [الحجر : ١٧]

يأتي بعد ذلك الآية نطاق البحث :

- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا .... ﴾ [الحجر : ١٩]

يلي ذلك :

-﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .... ﴾ [الحجر : ٢٢]

- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ .... ﴾ [الحجر : ٢٦]
- ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ .... ﴾ [الحجر : ٢٧]

ونخلص من هذا إلى إثبات معجزة لغوية كبرى ؛ وهي ذلك التوازن والتناغم والتناسق في الأداء التعبيري بين أجزاء السورة كلها ، ليس على مستوى الجملة أو الآية أو الصدر و العجز ، بل وعلى مستوى السورة كلها ، وهناك شمولية شعورية جمالية تصل إلى المتلقي من خلال تتبع هذه الظواهر، ولذلك فالآيات لا تتكرر ، لأنه برغم تقارب مواضيع بعض الآيات .. كموضع الدراسة – إلا أنها لها تميُّز خاص ودلالات جمالية مختلفة.

فجملة ﴿ هو الذي ... ﴾ – فى الآية (٣) من سورة الرعد – قمة العظمة والقدرة وقد سبق تحليل ذلك الأسلوب ، ولكن في سورة الحجر، نجد أن الأداء قد اختلف ، وأوثرت صيغة الماضي المسندة لـ " نا " العظمة بدلالتها على طلاقة القدرة ، وذلك لتتوافق مع الأسلوب في السورة ككل ما قبلها وما بعدها ، وبذلك يصل إيقاع الآيات إلى المتلقي جميلا معبرا مؤثرا ، من خلال ذلك الأداء التعبيري والموسيقي والتصويري المتناسق .

وننتقل إلى وجه آخر من وجوه المقارنة وذلك في قوله تعالى في سورة الرعد :
﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ..... ﴾
بينما في سورة الحجر نجد قوله تعالى :
﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ....... ﴾، فالمعنى في الآيتين عن معجزة الإنبات والإثمار ، ولكن الأداء التعبيري مختلف ، ففي سورة الرعد ورد قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..... ﴾ ، حيث عبر عن الإنبات وتوازنه وازدواجيته وشموليته من خلال ﴿ كل الثمرات ﴾ للإنبات ، و﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ للتوازن والازدواجية ، بينما في سورة الحجر عبر الأسلوب القرآني عن الإنبات بلفظه صريحا في قوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا ﴾ ثم عبر عن الازدواجية والتوازن والشمولية بقوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ ، ولا تخفى دلالة كلمة ﴿ مَّوْزُونٍ ﴾ بما توحي به من دقة وعدل وإحكام ، وأنه بالعدل والتوازن قامت السماوات والأرض . وهكذا يتضح مما سبق أن الدلالة تتقارب ولكن الأداء الأسلوبي يختلف ، وباختلافه تتباين الإيحاءات ، وتتنوع الصور بظلالها، ولذلك فالإحساس بالآيات يتجدد مع كل آية ، وكأنها تُقرأ لأول مرة .

وبعد الحديث عن مد الأرض وبسطها وتهيئتها لاستقبال وتعمير الحياة ، وتوفير المعايش بها لتستقيم أمور الخلق، ننتقل إلى مفردات الحياة على هذه الأرض ومنها الإنبات وهو رمز الحياة.

(ب) آيات تفردت بالإثمار والإنبات :

ونطاق بحثه الآيات الآتية وهى الآيات التي تفردت بظاهرة الإنبات فقط :

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١].

٢- ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

٣- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٧]

٤- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] .

العرض الموضوعي للآيات :

عند تتبع المواضع السابقة ، نلحظ أن هناك معنى مشتركا بين هذه الآيات ، وهو الإنبات بأنواعه المختلفة ، من نخيل وأعناب وزرع وزيتون ورمان على اختلاف هذه الأنواع ، وتشابهها وتنوعها في الأشكال والألوان والطعوم .

كما تشير أيضا إلى فكرة التوازن الخلقي في الازدواجية ، كما ورد في آية الشعراء : ﴿ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٧]

وكذلك تشير إلى إحياء الأرض الجرز، وبعثها خلقًا جديدًا كما في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا..... ﴾ [السجدة : ٢٧] ، ويظل الخيط الذي يربط بين هذه المعاني السابقة هو آية إنبات الأرض ، وتنميتها بما يُهيئ حياة طيبة سلسة للعباد ، تساعدهم على التعمير والبناء .

الموضع الأول : آية ١٤١ من سورة الأنعام :

التحليل الفني :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

تتصدر الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي... ﴾ وقد سبق الحديث عن هذه الظاهرة اللغوية في التعبير القرآني ، وأثبت البحث من خلال الاستقصاء والتحليل أنها ترد وتتصدر الآيات الكونية المبهرة ؛ تلك الآيات التي تؤكد على وحدانية الله عزوجل واستحقاقه للتوحيد والعبادة ، وإخلاص التوجه إليه ، كما تدل هذه الآيات – أيضا – على طلاقة القدرة .

لذلك نجد قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي... ﴾ يرد متصدرا آيات كونية عظمى ، يقف أمامها العقل عاجزا ، فتخضع النفس مسبِّحة مُقِرَة بجلال الله وهيمنته ، وكأن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي... ﴾ يظلل ما يليه ويلبسه ثوب الهيبة والإجلال ، فتتلقاه النفس برعدة ورهبة وخضوع وامتثال .

" **أنشأ** " : ونتوقف هنا أمام المادة المعجمية للفعل (أنشأ) .... ونتساءل عن هذا التنوع في الأسلوب القرآني بين أفعال الخلق والجعل والإنشاء فأحيانا نجد الفعل (خلق) مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.. ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفى أحيان أخرى نجد الفعل (جعل) مثال قوله تعالى : ﴿ وهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ... ﴾ [الرعد : ٣] ... كما نجد الفعل (أنشأ) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ .. ﴾ [الأنعام : ١٤١].

فهل تحمل هذه الأفعال دلالة واحدة ؟ من خلال البحث وجدنا أن الأسلوب القرآني الدقيق يفرق بين هذه الأفعال ، وأن لكل مادة معجمية مهما تشابهت المعاني ؛ دلالة خاصة في موضعها من التعبير القرآني .

وبالقطع إن الفعل (أنشأ) في موضعه من الآية ، له دلالة خاصة ، فالمقصود بالإنشاء هنا الابتداع والابتداء ، فكما ورد في لسان العرب في التفسير اللغوي لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ... ﴾ أي ابتدعها وابتدأ خلقها ؛ وكل من ابتدأ شيئا فهو أنشأه. (١)

أي أنه تعالى قد ابتدع وبدأ خلق هذه الجنات من غير سابقة ، فهو الإنشاء الأول ، والإيجاد من العدم ، مما يدل على طلاقة القدرة وكمال الإعجاز ، فتُصحَح العقيدة ، ويثبت التوحيد وهذا هو المقصود الأصلي للآية ، مخاطبة العقل والنفس البشرية لتصل إلى العقيدة الصحيحة ، وهذه هي سمة السور المكية ، ومنها سورة الأنعام محل الدراسة .

﴿ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾

قيل أن " الجنات المعروشات وغير المعروشات كلاهما الكرم فإن بعض الأعناب يعرش وبعضها لا يعرش ". (٢)، وورد في روح المعاني أيضا عن أبى مسلم " أن المعروش ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يُحمل عليه يمسكه ، من الكرم وما يجرى مجراه وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغنى باستوائه وقوة ساقه عن التعريش " (٣).

---

(١) راجع لسان العرب / مجلد ١٠ / مادة (نشأ) / صـ١٣٥/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

(٢) مفاتيح الغيب / مجلد ٦ صـ٢٠١ / ط . دار الغد العربي

(٣) روح المعاني / مجلد ٣ / جـ ٤ / صـ٢٨١/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

واجتمعت الآراء في تعددها حول هذين التفسيرين، وأيا كان التفسير ، فـالمهم هو المحتوى الدلالي له ، ودلالة الألفاظ هنا موَجّهة إلى لفت الانتباه إلـى التنـوع والتعدد ، بما في هذا التنوع ذاته من دلالة على كمال القـدرة وتمـام الإعجـاز ، فالخالق المبدع القادر، لا يحد قدرته حدود ، وتَتَبُّع باقي عناصر الآية بما تحمله من تعدد وتنوع إنباتى يعضد هذا التفسير والتحليل .

ولنتأمل قوله تعالى : ﴿والنخل والزرع ﴾.....ألا يشير هذا إلى فكرة التعدد والتنوع، فالنخل معروف للجميع بشكله وطوله اللافت للنظر، وقد أشار الأسـلوب القرآني إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ.... ﴾ [ق: ١٠] ، أما الـزرع فهو كل ما يزرع على الأرض بأطواله المختلفة ، وهو بدون شك تباين مع النخل .

والواو هنا عاطفة حيث تم عطف النخل والزرع على جنات ، وهـو عطـف للتخصيص بعد التعميم ؛ فهي جنات متنوعة ومختلفة فيها النخل والزرع .

﴿ **مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ** ﴾ ..أي مختلف الثمار الذي يؤكل منه ، وفي ذلك أيضا إشارة إلى التعدد والتنوع ، ونلحظ هنا إيثار الأداء القرآني لصيغة اسم الفاعـل العاملـة دون استعمال الفعل (يختلف أو اختلف) ؛ ولعل هذا لما تتميز به صيغة اسم الفاعل من الثبات والاستمرار معًا ، فاختلاف الأُكل ليست ظاهرة منقضية أو مرتبطة ومقيـدة بزمن ما ؛ ولكنها مستمرة وثابتة إلى قيام الساعة ؛ لأنها آية كونية دالة على وحدانية الله وطلاقه قدرته ، لذلك كان الأدق استعمال صيغة اسم الفاعل .

﴿ **والزيتونَ والرمانَ** ﴾ .. أيضا تخصيص بعد التعميم فهـذه الجنـات منهـا الزيتون والرمان ، أي أنشأهما الله تعالى بصورة متشابهة وغير متشابهة (متشـابها وغير متشابه) . وهنا أيضا آثر الأسلوب صيغة اسم الفاعل بدلالتها المذكورة آنفا ، ثم يرد بعد ذكر هذه النعم المتعددة المتنوعة ، الأمر بالتمتع بها وإيتاء حق هذه النعم وأداء الشكر عليها في قوله تعالى :

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فهذان أمران :

الأول : هو التمتع بهذه النعم والأكل منها.

والثاني : هو شكر هذه النعم بأداء حق الفقير . وقد اختلف المفسرون حول تفسير ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ ؛ لأن سورة الأنعام مكية وفرض الزكاة كان في المدينة ، فكيف يكون ذلك ؟ وذهب فريق من العلماء إلى أن الأمر هنا ليس يتحتم بالضرورة أن يكون المقصود به الزكاة ؛ لأنها فرضت بنصابها بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة ، ولكن قد يكون المقصود الصدقة غير المحددة. (١)

ومن خلال هذا التحليل نلاحظ أن آية الإنبات في سورة الأنعام صوّرت لنا مشهدا كونيا، عناصره تلك الجنات بأشكالها المتباينة المعروشة وغير المعروشة وذلك النخل وكذلك الزرع بكل ضروبه وأشكاله ، والزيتون والرمان بأنواعه المختلفة المتعددة ، ولا يعوز هذا المشهد اللون ، فاللون واضح ومتعدد ، فهو ظاهر في لون النخل بما تحمله من ثمار متباينة الألوان ، وكذلك في لون الزرع الأخضر والثمار المختلفة الأشكال والألوان ، وكذلك لون الزيتون والرمان ، وهذا التعدد وذلك التباين يتجه جميعه لإبراز طلاقة القدرة الإلهية، وبيان عطاء الربوبية .

الموضع الثاني: من سورة النحل :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

يسبق هذه الآية في سورة النحل آية فيها ذكر لنعم الله وهى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

---

(١) انظر " روح المعاني " مجلد ٣ / جـ ٤/ صـ ٢٨١/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .
وكذلك انظر " في ظلال القرآن " مجلد ٣ صـ ١٢٢٣ / ط . دار الشروق .

ولذلك قدّر بعض العلماء أن الآية موضع الدراسة ، بها محـذوف " تقـديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرها ، وحذف لدلالة نسقيكم قبلـه عليه". (١)

فالمقصود أن من نعم الله عزوجل على عباده ، أنه يسقيهم كذلك من عصير هذه الثمار الطيبة ، فهذه الآية إحدى نعم الله عزوجل على عباده ، ولعل من أجلِ هـذه النعم ، سُميت هذه السورة بسورة النعم .

تعد هذه الآية مرحلة تالية لمرحلة الإنبات ، فبعد الإنبات والإثمار ، يسـتفيد الإنسان من ذلك ، وتم التعبير عن هذه الاستفادة ، بصيغة الفعل ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْـهُ ﴾ أى يستفيدون باتخاذ أشربة منه، وقد اعتبر صاحب الكشاف أن الضمير في " منـه " للتوكيد ، يقول: "ومنـه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك : زيد في الدار فيها ". (٢)

﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾.... سكرا ، مصدر ، مفعول به للفعل ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾، والسكر هو الخمر ، وليس في هذا إباحة للخمر ، ولقد تعددت آراء العلماء في تفسير هذا الجزء ؛ بعضهم قال بنسخها ، والبعض قال إنهـا مـن أشـربة أهـل الكفـر والمشركين فهي منفعة في حقهم وهم المقصودون بالخطاب . (٣)

وواضح أن " السَكر" هو الخمر ، ومن المؤكد أن الخمر ليس رزقا حسـنا ، فكيف نحل هذه الإشكالية ؟ والتقط طرف الخيط من كلام الإمام فخر الدين الـرازي من أن الخطاب القرآني للمشركين ، وعلى ذلك استعمل الأسلوب القرآني اللفظ على اعتبار ماكان ؛ أي أنه على هيئة المجاز والإيجاز لما كانوا يفعلون في جـاهليتهم ، وما زال البعض يفعله .

---

(١) الكشاف مجلد ٢ / صـ ٤١٧ / ط / دار الفكر .

(٢) الكشاف مجلد ٢ / صـ ٤١٧ / ط / دار الفكر .

(٣) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ٩ / صـ ٥٧٣ / ط / دار الغد العربي .

ولعل الآية موضع الدراسة نفسها تقودنا إلى هذا التحليل ذاته ؛ لأن الأسلوب ميّز بين السكر والرزق الحسن في قوله تعالى :

﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ومعنى ذلك أن السكر ليس من الرزق الحسن ونأنس في هذا التحليل بقول الأستاذ سيد قطب :

" والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ... " [(١)].

ثم تختم الآية بعد ذلك بعجز مؤكد بمؤكدين هما (إن واللام) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ونلحظ أن آية سورة النحل ، تتجه إلى نفس الاتجاه السابق في آية سورة الأنعام؛ وهو عرض الأدلة الكونية الدالة على وجود الله ؛ بل وتفرده وسيطرته على هذا الكون بما يؤكد طلاقة القدرة لكل من يعقل . وهذا هو شأن السور المكية مخاطبة العقل ، للوصول بالإنسان إلى الحقيقة الأزلية في هذا الكون ، حقيقة الوحدانية .

<u>الموضع الثالث</u> : من سورة الشعراء :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٧]

ترد هذه الآية بين مجموعة من الآيات التي تناقش قضية العقيدة في سورة الشعراء ، وشأن سورة الشعراء كغيرها من السور المكية ؛ قضيتها الأولى ترسيخ العقيدة وإقرار التوحيد في النفوس ، وذلك من خلال بيان وعرض لكثير من الدلائل الكونية والأدلة المنطقية .

---

(١) فى ظلال القرآن / جـ٤ / صـ ٢١٨١/ ط. دار الشروق .

ومن بين هذه الدلائل تلك الآية العظيمة موضع الدراسة ؛ آية الإنبات ، وعملية الإنبات هذه تحدث في كل ثانية تمر بنا بصورة متكررة ، ولكن العجز ،هو عدم تأمل وتدبر هذه الظاهرة ، وكيف يخرج الله النبات من الأرض بصورة متوازنة مزدوجة، فجعله ذكرًا وأنثى منفصلين أو مقترنين تتكون أعضاء التذكير والتأنيث في عود واحد ، ولأن الإنسان تلازمه الغفلة ، فقد بدأت الآية بهذا الاستفهام الاستنكاري ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ... ﴾ ؟

استفهام للاستنكار والتوبيخ ، فآية الله تحيط بهم في كل مكان ، والأمر لا يحتاج منهم أكثر من رؤية المتدبر ، الذي يفتح مغاليق قلبه ليستقبل نور التوحيد .

ونلحظ توسط حرف الواو بين همزة الاستفهام و " لَمْ " النافية وهى هناعاطفة ، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى :

- ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠]
- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [الإسراء : ٩٩]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء : ٣٠]
- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [العنكبوت : ١٩]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧]

﴿ **كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾.... وكم لها نوعان استفهامية – ولم ترد في القرآن مطلقا – وخبرية وهى التي موضع الدراسة ، وهى تدل على الكثرة وتقع غالبا في مقام الافتخار والمباهاة بالقدرة ، وهى هنا تدل على طلاقة هذه القدرة ، ويؤكد ذلك الجمع بين (كم وكل) بدلالة الأولى على الكثرة ، والثانية على العموم

= والشمول لكل أزواج وأنواع النبات ، وفي هذا دون شك تأصيل لقضية التوحيد وترسيخ للعقيدة . من خلال عرض ذلك المشهد الكوني بعناصره البارزة من الأرض وإنباتها ، ومعجزة الإنماء في ازدواجية هذا النبات .

ومن جمال وتناغم هذا الأسلوب الراقي ؛ وصف الزوج بأنه كريم في قوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ولم ينعت الأسلوب القرآني لفظ الزوج بأنه نضير مثلا ، أو بأي صفة أخرى وقد استوقفني هذا اللفظ ، لماذا هذه الصفة تحديدا ؟ وهل ينعت النبات بأنه كريم ؟!

وقد ذكر الإمام الزمخشري أن " الكريم صفة لكل ما يُرضِى ويُحَمّد في بابه ". (١)

وذكر الإمام الرازي أن " النبات الكريم هو المرضى فيما يتعلق به من منافع ". (٢)

وورد في تفسير القرطبي أن كريم معناه : "حسن شريف " (٣)

والكريم في اللغة أي : الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل . (٤)

من خلال هذه التفاسير ، والمعنى المعجمي ؛ نلحظ أن كلمة " كريم " لها دلالة فضفاضة بحيث تشمل كل أنواع الخير والشرف والفضل والعطاء ، فالزوج كريم بما فيه من منافع وخير ، وتشريف لأنه عطاء ربوبي من الكريم .

ولعل إيثار صيغة النكرة فى قوله تعالى : ﴿ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ قد ساهم فى بيان شرف وعظمة وسمو هذا الكرم .

وللأستاذ سيد قطب كلمة طيبة في إيحاء لفظ كريم حيث يقول :

" واللفظ يوحى إلى النفس باستقبال صنع الله ، بما يليق من التكريم والحفاوة والاحتفال لا بالاستهانة والغفلة " . (٥)

---

(١) الكشاف / مجلد ٣ / صـ ١٠٥ / ط / دار الفكر

(٢) مفاتيح الغيب / مجلد ١٢ / صـ ١٠٢ / ط / دار الغد العربي

(٣) تفسير القرطبي/ مجلد ٧ / صـ ٤٩٦٩ / ط / دار الغد العربي.

(٤) لسان العرب / مجلد ٩/ مادة " كرم " / صـ ٧٥ / مادة " كرم ". دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٥) في ظلال القرآن / مجلد ٥/ صـ ٢٥٨٦ / ط / دار الشروق .

الموضع الرابع : من سورة السجدة :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧]

ترد هذه الآية في سورة السجدة ، وهى من السور المكية ، ذات المنهج الواضح في ترسيخ العقيدة ، وتدور هذه السورة حول عدة محاور ، تجتمع جميعها لتأصيل قضية التوحيد ، ومن هذه المحاور ، بيان قدرة الله في خلق السماوات والأرض في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا.... ﴾ [السجدة : ٤]
وكذلك خلق الإنسان من طين والإعجاز في ذلك في قوله تعالى :
﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧]
وكذلك قصة موسى عليه السلام :
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴾ [السجدة : ٢٣]
وكذلك إهلاك الأمم السابقة بظلمها وذلك في قوله تعالى :
﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ.... ﴾ [السجدة : ٢٦]
ثم ترد الآية موضع الدراسة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء... ﴾ أي أن هذه الآية الكونية ، ترد في سياق مجموعة من الأدلة والبراهين علي وحدانية الله ، وحاكميته في هذا الكون .

وهذه الآية واضحة مشاهَدة ومرئية ، ولا ينقصنا إلا تدبرها والنظر والتأمل فيها. ولذلك نجد البداية مع هذا الأسلوب الاستفهامي الاستنكاري " أو لم يروا ...؟ " واختيار الفعل (يروا) اختيار دقيق حقا ، لأن الرؤية والمعاينة أصدق دليل ، ولا مجال فيها للشك والتكذيب ، فالمحك هنا في هذه الآية للرؤية ، بعدما كان سماعا في الآية السابقة عليها ، وهى تحكى قصص الغابرين فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. ﴾ [السجدة : ٢٦]...

ولذلك نجد عجز الآية ينتهي بقوله تعالى : ﴿.. إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ أَفَلَـا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٦] . أما في الآية موضع الدراسة فتختم الآيـة بقولـه : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] حيث يناسب صدرها في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء ... ﴾ [السجدة : ٢٧].

﴿ ... أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ... ﴾

" أنَّا نسوق " ، آثر الأداء القرآني استعمال (أنَّا) بتلك الصيغة الدالة على تأكيـد القدرة وذلك من خلال (نا) العظمة ، ثم إن إيثار صيغة الفعل (نسوق) على هـذا النحو فيه تأكيد لهذه العظمة .

إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ... الْجُرُز: " الأرض اليابسة التي لانبات فيها والْجَرّْز هو القَطْعُ وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات" .[1]

ومما لاشك فيه أنه عند تحليل هذه الآية، يستوقفنا لفظ " الْجُرُز " فهو لفظ غير مألوف، له إيقاع صوتي خاص جدا يستلفت المتلقي ، وإيثار الأسلوب له هنا لـيس مصادفة ، بل لهذا الإيقاع الصوتي اللافت ، ولمادتـه المعجميـة الثريـة الدلالـة. " فالْجَرُوز : الأكول .. ويقال امرأة جَرُوز إذا كانت أكولا .. والناقة جَـرُوز . إذا كانت أكولا تأكل كل شيء ، والجَرُوز : الذي إذا أكل لم يترك على المائدة شيئا .. وأرض مَجْرُوزة و جُرُز وجُرْز : لا تنبت كأنها تأكل النبت أكلاً وقيل هي الأرض التي لم يصبها مطر ... والجُرُز : السنة المجدبة ..

وأجْرَز القوْمُ : وقعوا في أرض جُرُز ... وأرض جارِزَة : يابسة غليظة .. وامرأة جارز : عاقر . والجرزَة : الهلاك" . [2]

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ١٢ / صـ ٥٦٣ / ط / دار الغد العربي

(٢) لسان العرب /مجلد ٢/ صـ ٢٤٦ ، ٢٤٧ / مادة (جَرَز) . ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

من خلال هذا العرض للمادة المعجمية ، نلاحظ أنها ثرية جـدًا - فـي كـل تصريفتها - في تأصيل معنى النضوب والجفاف والعدم ، والبعد عـن الإخصـاب والإنماء ، وهذا هو المعنى المقصود في الآية؛ من أن هذه الأرض الجـرز - بكـل إيحاءات ومعاني اللفظ - يحييها الله عزوجل بقدرته عندما يسوق ماء الحياة إليهـا، وإذا كانت الأرض بكل هذا الجفاف والسوء والموات ، ثم تتحول إلى جنات وثمـار وزروع ؛ فهذا من باب كمال القدرة وتمام الإعجاز .

فكما يبين الله عزوجل في الآية ٢٦ في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٦].

أقول كما بيّن الله عزوجل قدرته على الإماتة بعد الإحياء فهو يدلل في الآية [٢٧] موضع الدراسة على قدرته على الإحياء بعد الإماتة ، فهو الذي أحيا الأرض الجرز بعد موتها ونضوبها ، مما يدل على طلاقة القدرة ، ويدعو إلى الإقـرار بواحدنيتـه سبحانه .

﴿ ... فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ .... ﴾

" فنخرج " : فعل مضارع معطوف على " نسوق " ، يوضح نتيجة سَوْق المـاءِ للأرض ، وهو إخراج الزرع . ويرد الفعل متصدرا بفاء العطف ، التـي تسـتلفت الانتباه في هذا الموضع ، لأن ظاهر الأسلوب يقتضـي اسـتعمال حـرف المهلـة والتراخي (ثم) ؛ لأنه بالتأكيد أن هناك زمنا بين سوق المـاء لـلأرض وظهـور الزرع والانتفاع به ، لذلك فالنظرة السريعة تحكم باختيار حرف العطـف (ثـم) بدلالته على التراخي ومرور فترة من الزمن ، ولكن الأسلوب القرآني خالف مقتضى الظاهر ، وعدل عن " ثم " إلى " الفاء "؛ لما في ذلك من الجمال والإعجاز وبيـان للقدرة الإلهية التي لا يحدها حدود ، فكأن الزمن يُطوى ويُختزل ، فالزمن هنا ليس=

= المحك ، بل التركيز كل التركيز على قدرة الله المعجزة على الإحياء بعد الإماتة ، ومن هذا القبيل كثير في الأسلوب القرآني ، نورد على سبيل المثال قوله تعالى :
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج : ٦٣]

" **زَرْعًا** " ... بالتنكير والجمع ؛ لما في ذلك من دلالة على عظمة هذا الــزرع الذي تتحقق به المنافع على جميع مستوياتها ، ففيه طعام للأنعام ، ومنفعــة وغــذاء للإنسان ... ولكن ما وجه الجمال في تقديم الأنعام على الأنفس ؟
وللإمام الرازي تفسير لهذا التقديم نوجزه فيما يلي :
" **الوجه الأول** : أن الزرع أول ما ينبت ، يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان .
الوجه الثاني : وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لابد منه ، وأما غذاء الإنسان فقــد يحصل من الحيوان فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان ".[١]

ولهذا التأويل وجاهته ، ولكني أرى أنه تأويل لا يرقى إلى سماء بلاغة الأسلوب القرآني ، فالأمر أعظم من ذلك . وفيما يبدو للبحث أن تقديم الأنعام علــى الأنفــس لمسة رحمة وربوبية من الذات الإلهية المقدسة ، فبعد ضمير العظمة في قوله تعالى : " **أنا نسوق** ... " بدلالته على العلو والمهابة والتقــديس ، يطمــئن الله عزوجل عباده بعطاء ربوبيته . وإذا كان عطاء الله لا يغفل الحيوان بل يمنحه رزقه ويرحمه به ، فكيف يكون العطاء للإنسان المكرّم العزيز على خالقه ؟!

فالتقديم لمسة رحمة ؛ لتتفتح لها القلوب المغلقة ، فالله عزوجل كما عذّب الأقوام الغابرة ، وضرب بهم المثل في الآية (٢٦) من سورة السجدة ، هو ذاته رب الرحمة والأرزاق والإحياء .

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ١٢/ صـــ ٥٦٤ / ط / دار الغد العربي .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يُبْصِرُونَ...** ﴾ استفهام للتعجب واستنكار أحوال هؤلاء الذين يمرون بآيات الله الكونية ، ومنها تلك الآية في إحياء الأرض وإنباتها ولكنهم لا يتدبرون ، ولا يبصرون .

وبعد هذا التحليل لتلك الآيات نطاق المبحث ، نخلص إلى أن الأسلوب القرآنى وهو الصورة العُليا للبيان ، قد وظَّف من كونيات هذا العالم مايبرز طلاقة قدرته ، واستحقاقه بالتفرد والألوهية ، حيث وَظَّف الأرض وما بها من مفردات فى تلك الآيات المحكمات ، بصورة أدبية رائعة ، تبرهن على عظمة وجمال وتفرُّد هذا الأسلوب القرآنى .

المبـحـث الثـانـي

البحـر وعوالمـه

تمهيد :

البحر من أعظم العناصر الكونية التي وظّفها القرآن الكريم لخدمة الكثير من جوانب الحياة ، التي تتعلق بالتوحيد والعقيدة ، كما سوف يرد في تحليل مواضعه – بإذن الله – وقد أحصيت مواضع ذكر البحر فوجدت أن لفظ (البحر) ورد في ثلاثةٍ وثلاثين موضعا ، وقد تخيرت بعض المواضع التي تخدم هدف البحث والدراسة .

وقد قسّـمت المواضع في هذا المبحث على المحاور الآتية :

أ – البحر والفلك والموج .

ب – البحر وكلمات الله .

ج – البحر واللحم الطري .

أ - البحر والفلك والموج :

ونطاق بحثه الآيات الآتية :

[١] ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

[يونس : ٢٢]

[٢] ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء ٦٦ : ٦٧]

[٣] ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥]

[٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

[لقمان ٣١ : ٣٢]

[٥] ﴿ اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢]

الموضع الأول : العرض الموضوعي :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾
[يونس : ٢٢]

تتناول هذه الآية موقفا إنسانيا خطيرا يتعلق بالعقيدة ، فالمشهد الذي تعرضه الآية مشهد هؤلاء القوم الذين ركبوا البحر ، والرياح طيبة ، والأمن والرخاء يحيط بهم ، مما جعلهم يفرحون بما هم فيه ، ثم فجأة وعلى غير توقع ، يصيب هذا الهدوء ، وذلك الأمن زلزال عنيف ، يهز نفوسهم حيث تهب الرياح عاصفة ، وتتلاطم الأمواج ويحيط بهم الخطر من كل مكان ،"عندئذ فقط ، وفى وسط هذا الهول المتلاطم ، تتعرى فطرتهم مما ألم بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات ، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه " . (١)

التحليل الفني :

هذه الآية من سورة يونس، وسورة يونس من السور المكية التي لها طابع خاص يتميز بإثبات الوحدانية ، وإقرار حقيقة الألوهية، وقد تناولت هذه السورة مجموعة من الأدلة والآيات الكونية التي تؤكد وتثبت حقيقة التوحيد ، وتفرد الله عزوجل بالحاكمية والألوهية، وكذلك بالربوبية . ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] .

---

(١) في ظلال القرآن / سيد قطب / مجلد ٣ / صـ١٧٧٤ / ط / دار الشروق .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا .... ﴾ [يونس : ٥]

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦]

وعلى نفس النهج يرد قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... ﴾ حيث تتصدر الآية بقوله تعالى : " هُوَ الَّذِي..." وهذه ظاهرة لغوية في التعبير القرآني ، وقد أثبتت الدراسة أن هذه الصدارة ؛ ترد عند الحديث عن أمر عظيم معجز ، فيه دلالة على هيمنة الذات العلية وسطوتها .. ولذلك تصدَّرت هذه الآية موضع الدراسة بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي .. ﴾ لأن ما يلي ذلك أمر عظيم ، وهو تسخير البر والبحر للإنسان وتسييره فيهما بأمر الله ، والآية هنا تعرض مشهدا إنسانيا من خلال عناصر كونية متنوعة ، أبرزها ظهورًا في هذا المشهد :

البحر **وهو العنصر الأول** : بماله من سطوة ومهابة في نفوس الناس .

والعنصر الثاني : الفلك : التي يُحمل عليها الناس .

والعنصر الثالث : الريح الطيبة : التي اطمأن لها من بالفلك وسُيِّرت الفلك بأمر الله .

والعنصر الرابع : الريح العاصف : التي أدت إلى اختلال الموازين ، وضياع حالة الأمن والأمان .

أما **العنصر الخامس** : فهو الأمواج المتلاطمة : التي أحاطت بالفلك ومن فيها من كل مكان حتى شارفوا الهلاك .

هكذا تبدو الآية ثرية بكل هذه العناصر الكونية ، والإطار العام للآية ذلك المشهد الذي تستحضره النفس عند القراءة ، البحر ، وقد كان العرب يخافون من البحر ولا يركبونه إلا لضرورة كالجهاد والحج . فهو مجهول بالنسبة إليهم يهابونه ويخشون طرقه ، ومازال كثير من الناس إلى وقتنا الحالي ، يهابون البحر=

= ويخشون من تقلباته. ومن هنا تتضح هذه الصورة التي عرضها الأسلوب القرآني ، بمالها من إيحاءات ومخزونات في النفس ، عن البحر وتقلباته ، فالآية تبين نِعَم الله العظيمة على الإنسان ، من تسيير وتذليل لأدوات السير والحركة في البر والبحر ، ففي البر مكّن الله الإنسان من السير وسخر له الدواب ، وفي البحر سخّر له الفلك الجاريات بأمره .

وقد وردت هذه الآية على سبيل ضرب المثال للآية السابقة عليها في السورة وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٢١]

فالآية (٢٢) تدليل وتأكيد على قوله تعالى السابق في الآية (٢١) من أن الإنسان عندما يذيقه الله الرحمة والرخاء ، بعد الشدة والضراء ؛ يمكر ويعود إلى كفره تماما مثل الصورة التي عرضها مشهد التسييرفي البر والبحر ، حيث لجأ المشركون إلى الله عزوجل عندما أحاط بهم الخطر وأصابهم الضر ، وعندما صرف الله عنهم هذا الضر عادوا إلى شركهم وكفرهم . انظر إلى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .... ﴾ [يونس: ٢٣]

وقد عُرِض هذا المشهد من خلال ألفاظ موحية ذات دلالات متسقة مع المعنى المراد للنص القرآني ، ومن ذلك الجمع بين (البر والبحر) للدلالة على كمال وتمام النعمة على الإنسان ؛ فقد سيّره الله مسخرًا له ما في البر والبحر .
بما في ذلك أيضا من دلالة على طلاقة القدرة الملازمة دائما للآيات الكونية .

﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ.... ﴾ .. حتى للغاية وما بعدها كله يفيد الغاية ، فمضمون الجملة الشرطية كلها بعد حتى للغاية . [١] وليس الغاية المستفادة من " حَتَّى " كونهم في الفلك ، ولكن بالإضافة إلى هذا ما حدث وما وقع بعد ذلك من كذا أو كذا ..".

(١) راجع الكشاف / مجلد ٢ / صـ٢٣١ / ط / دار الفكر .

إذا : الشرطية ، وكنتم : فعل الشرط والضمير فيه للمخاطب .

﴿ في الفلك ﴾ .. " **في** " حرف جر يدل هنا على الظرفية .

الفلك .. السفينة ويستعمل ذلك للواحد والجمع . (١)

وكما ورد في روح المعاني أن : لفظ الفلك "واحد وجمع يذكر ويؤنث وكأن ذلك باعتبار المركب والسفينة " .(٢)

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. ﴾ ... والضمير (ن) النسوة في جرين للفلك ، " بهم " المقصود بهؤلاء الذين في الفلك ، والضمير في (بهم) للغائب بعد ما كان للمخاطب في كنتم، فلماذا عدل الأسلوب عن ضمير المخاطب في (كنتم) إلى الغائب في (بهم) ؟ للعلامة الرازي رأى في هذا حيث يرى أن ذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد .(٣) وهذا هو المقام اللائق بمن عاد إلى كفره وشركه بعد إحسان الله إليه.

ومع وجاهة هذا التحليل وقيمته ، إلا أنني أرى أن هناك ملمحا جماليا آخر يضاف إلى ذلك ، ولعله أقرب لما هو مقصود من هذه الآية ، من ضرب المثل وإلقاء الضوء على هذا النموذج الإنسانى الجاحد . لقد آثر الأسلوب استعمال ضمير المخاطب في البداية ثم عدل عنه إلى الغائب بعد ذلك ، على سبيل الالتفات وجذب انتباه المتلقي إلى هذا المشهد المتكرر ، الذي يدل على جحود الإنسان في كل زمان ومكان ، فالأمر هنا ليس متعلقا أو خاصا بفئة المخاطبين فقط ، وليس المهم هنا الحديث معهم ولكن الأهم هو الحديث عنهم ، وتسليط دائرة الضوء عليهم ، لإبراز تلك الصورة القبيحة القميئة للإنسان الجاحد لفضل الله ، ولذلك عدل الأسلوب من المخاطب إلى الغائب . والله أعلم .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن / للراغب الأصفهاني / صـ ٣٨٧ / ط. المكتبة التوفيقية . القاهرة.

(٢) روح المعاني/ مجلد ٤ / جزء ٦/ صـ٩١ / ط / دار الكتب العلمية / بيروت .

(٣) راجع مفاتيح الغيب / مجلد ٨ / صـ٣٢٣ / ط / دار الغد العربي .

" **بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** " ... و الريح لا تفرد إلا في مقام العقوبة والتنكيل – غالبًا – ، ولكنها في هذا الموضع وردت على غير هذا ، ولذلك وُصِفت بكونها " طيبة " . ولكن لماذا عدل الأسلوب عن الجمع إلى المفرد ، مادام الجمع يستعمل في الخير، وإبراز قدرة الله ؟ وتفسير ذلك ؛ بأن تمام الخير وكمال النعمة في أن تكون الرياح مفردة في هذا الأمر ؛ أي أمر البحر وتسيير السفن ؛ لأنه لو تعددت الرياح ومهابّها ربما كان ذلك سببا في هلاك السفن ودمارها ، وهذا أداء معجز ودقيق للأسلوب القرآني .

" **وَفَرِحُواْ بِهَا** " ... تعبير بصيغة الفعل الماضي، للدلالة على اطمئنان هؤلاء إلى استقرار الفلك ، وأمان سيرها في البحر ، وكذا إحساسهم بالأمان والدعة لذلك . والواو عاطفة و " فَرِحُواْ بها " معطوف على " جرين " ، والهاء في بها ضمير يعود على الريح فهي أقرب مذكور .

" **جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** " ... جواب الشرط (إذا) وفيه مفاجأة ومباغتة ، حيث جاء جواب الشرط على خلاف المتوقع ، وفيه إبراز لذلك التناقض الكوني المسخّر بإذن الله ، فبعد أن كانت الريح طيبة لينة رُخَاء ، أصبحت عاصف شديدة الهبوب ، هذا التناقض الكوني ؛ أبرز بدوره التناقض النفسي والعقدي ؛ حيث توجهوا بفطرتهم إلى الله عزوجل مخلصين الدعاء بقلوب موحدة بعد الشرك والضلال ، ولكن ليتهم ثبتوا على ذلك . وإيثار صيغة الماضي هنا، أدى إلى تناغم الأحداث في الآية، وتناسق أزمنة الأفعال من خلال الإيقاع المعنوي والصوتي على هذا النحو: (كنتم ، جرين ، جاءتها ، جاءهم ، ظنوا ، أحيط ، دعوا ، أَنجَيْتَنا)

كما نلحظ أن هذه الأفعال جميعها – ما عدا أحيط – قد اتصلت بضمير على تعدد صور هذا الضمير . فهو في " جاءتها " هاء الغائبة، وقيل إنها تعود على الفلك أو على الريح الطيبة .*

---

* انظر روح المعاني / مجلد ٤ / جزء ٦ / صـ٩٢ / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت .

وإنني أرى أن الضمير المنصوب في جاءتها ،عائد على الفلك ويصح ذلك باعتبار أن " الفلك " مفرد وجمع ، لذلك ذكر في " جرين " ضمير الجمع ، وفى"جاءتها " المفرد ، وإنني أرى ذلك لأكثر من وجه :

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ.. ﴾ يليه مباشرة قوله تعالى: ﴿ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ..... ﴾ ولنستعرض معا المشهد من أوله ونرى عناصره الأولية :

﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ... ﴾ .. فالعنصران في الجملة " الفلك والبشر" ، وإذا كان الموج جاءهم ؛ وهم أحد عناصر الصورة ، إذًا جاءتها ريح عاصف ألصق بالفلك وليس بالريح الطيبة . ويفهم هذا من ترتيب الأداء القرآني نفسه .

الثاني : أن الريح العاصف أشد تأثيرا على الفلك ، وأشد وقعا في النفوس من مجيئها للريح الطيبة ، ولنتأمل أي التفسيرين أقوى في إبراز المشهد القرآني بدلالته المقصودة ، مجيء الريح العاصف وتأثيرها على الفلك ؟ أم مجيء الريح العاصف للريح الطيبة ؟! مما لاشك فيه أن مجيء الريح العاصف للفلك لها تأثير عظيم ومباشر على من فيها، مما يساهم في إبراز المعنى المقصود من عرض هذا المشهد.

" **ريح عاصف** ".. أي ريح ذات عصف شديدة الهبوب . ونلحظ استعمال اسم الفاعل في وصف الريح بـ" عاصف " ؛ لما لهذه الدلالة من الثبات والاستمرارية وكأن هذه الريح العاصف مستمرة مسلّطة عليهم ، مما يبرز الجو النفسي والمعاناة التي يعيشها من بهذه الفلك ، ويبين ذلك النموذج البشرى الجاحد حين يتعرى .

" **وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ** " ... الموج عنصر مشخَّص جديد من عناصر الصورة ، يظهر فجأة ، فيصيبهم بالخوف والرعب .

" **من كل مكان** ".. تدل على الإحاطة والشمولية و يؤصل هذا المعنى استعمال لفظ " كل " بدلالته على العموم ، ثم بإضافته إلى النكرة " مكان " بدلالتها على التهويل .

كما نلحظ التشخيص الواضح للريح والموج وكأنهما ضيفان ثقيلان ، مكروهان .....

"**وظَنُوا أنهُم أُحيطَ بهم** "... والظن هنا على غير ظاهر معناه ، لأن المقصود من الآية ، أنهم أدركوا أنهم مهلكون لا محالة ، ولذلك انجلت عن قلوبهم غشاوة الشرك وضلالة الكفر ، وليس المقصود بالظن الشك أو ما شابه ذلك .*

ولعل التوكيد بـ" أنهم " بعد ظنوا يفيد ذلك ، إذا لا يجوز استعمال التوكيد بعد لفظ يدل على الشك ، إذا اعتبرنا أن الفعل (ظنوا) في هذا السياق يفيد الشك . وهذا التركيب اللغوي موجود في الأسلوب القرآني حيث يرد الفعل (ظن) كثيرا بمعنى اليقين على خلاف ظاهر المعنى،ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ ﴾

[البقرة : ٢٤٩]

﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

[الأعراف : ١٧١]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ..... ﴾

[الكهف : ٥٣]

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾

[الحشر : ٢]

ونلاحظ فى ضوء العرض السابق لهذه الآيات، استعمال (أنّ) المؤكدة بعد الفعل (ظن) مما يدل على أن المعنى المقصود ليس الظن بل التحقق واليقين .

---

*ورد في المحرر الوجيز في تفسير قوله تعالى (وظنوا) أنه على بابه في الظن ، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه محذور . صـ٩٠٤ / ط / دار ابن حزم - بيروت .

" **أُحيط بهم** " .... نلحظ هنا أن الأسلوب قد عدل عن صيغة بناء الفعل للفاعل إلى صيغة بناء الفعل للمفعول ، مغايرا بذلك استعمال الأفعال في الآية ؛ حيث وردت في صيغة المبنى للمعلوم ، فما سبب إيثار النظم الشريف لهذه الصيغة وتحوله عن الأصل ؟ ولعل سبب ذلك هو جذب الانتباه و الالتفات عن طريق تغير الصيغة ، بحيث يلتفت المتلقي إلى هذا الخطر الداهم الذي أحاط بهم ، وكذلك فإن عدم التصريح بالفاعل ، يزيد المعنى مهابة وخوفا من هذه الإحاطة الغامضة التي لايدرون كيف يتقونها ، أو من أي مكان يواجهونها ؟ فهذه الإحاطة دليل ورمز لهلاكهم حيث تسد عليهم منافذ النجاة ، وسبل الخلاص ، تماما كما يحيط العدو بقوم أو ببلد ما.

﴿ ... **دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ... ﴾ .. عند هذا الحد ، عندما يشعر الإنسان بانقطاع كل وسائل النجاة ، تتكشف بداخله الفطرة السليمة الموحّدة فتتوجه إلى الله بالعبادة الخالصة ، لذلك نجد الفعل (دعوا) يرد في النظم دون عطف من أي نوع ، حتى الفاء الدالة على السرعة ، فليس هناك وقت ، لذلك كان التوجه إلى الله مباشرة دون أي وساطة ، وأصدق ما يدل على سرعة هذا التوجه مجيء الفعل (دَعَوُا) مباشرة بعد قوله تعالى : (أُحِيطَ بِهِمْ) ، وكذلك مجيئه على صيغة الماضي المتسقة مع أفعال الآية ، والدالة على تحقق وحدوث الفعل .

" مخلصين ".. حال منصوبة ، فهي تبين هيئة عودتهم إلى الله عزوجل وقت المحنة ﴿ ... **لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** .... ﴾.... ذلك هو دعاؤهم يرد مفسرا لقوله تعالى السابق : ﴿ دعوا الله مخلصين ﴾ ، " لئن " اللام موطئة للقسم المقدر " إن " : شرطية ، " أنجيتنا " : جملة من الفعل (أنجى) المبنى على السكون ، و" التاء " مبنية على الفتح في محل رفع فاعل ، و" نا " ضمير في محل نصب مفعول به ، وفي تصوري أن هذه الكلمة الجملة وردت على هذا النحو الموجز السريع لتعميق الإحساس بالاضطراب والقلق والحالة السيئة التي هم فيها .

" **من هذه** " : جار ومجرور ، اسم إشارة يشير إلى المصيبة التي هم فيها من اشتداد الريح العاصف ، والأمواج المتلاطمة والفلك المرتجة ، فهي تشير لكل معاناتهم في هذه المحنة .. واختيار اسم إشارة على هذه الصورة ، أقصد بصيغته الدالة على القرب ، يوحى باستحضار الصورة ، ويدل على استمرارية هذه المحنة وتورطهم فيها ، فهي مازالت قريبة محيطة بهم لا يدرون كيف يتقونها .

" **لنكونن** " جواب القسم ، واللام للقسم ، ونكونن : فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

" **من الشاكرين** " من حرف جر يفيد التبعيض أي نكون من بعض الشاكرين ، ولكن تستوقفنا صيغة اسم الفاعل (الشاكرين) ولماذا أوثرت في الأسلوب على صيغة الفعل (لنشكرن) مثلا على غرار " لنكونن" ؟

من خلال سياق الآية ، علمنا أن هؤلاء المنافقين في أسوأ حال ، وأجل مصيبة، لذلك فقد توجهوا إلى الله بالدعاء الخالص ، والعبادة الصادقة ، والشكر على النعمة وهم في هذا المجال يحتاجون إلى تأكيد قولهم لأنهم ليسوا محل ثقة ، لذلك تم توكيد كلامهم من خلال أسلوب التوكيد في قوله تبارك وتعالى : " لنكونن " ، ثم باستعمال صيغة اسم الفاعل (شاكرين) ، بدلالة هذه الصيغة على ثبوتهم على الشكر ودوامهم فيه ، وهى مما لاشك أنسب وأدق للسياق من صيغة الفعل " لنشكرن"، ولكنهم للأسف نكصوا وعادوا إلى كفرهم بعد أن نجاهم الله .

﴿ **فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [يونس : ٢٣]

الموضع الثاني :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَـرِّ أَعْرَضْـتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء ٦٦ : ٦٧]

العرض الموضوعي :

وردت هاتان الآيتان في سورة الإسراء ، وهي سورة مكية ، شأنها شأن السور المكية ، من حيث إقرار عقيدة التوحيد في النفوس ، وإزالة ما علق بها من شوائب الجاهلية ، وفيها تثبيت للنبي – صلى الله عليه وسلم– ومن معه . وقد وردت هاتان الآيتان عقب جدال وتحد من إبليس لربه ، حيث قال له مجادلا متبجحا :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢]

وبعد رد المولى عزوجل عليه ، يختم هذا الرد بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٥]

فالعبد الخالص لله عزوجل ، المتوجه إليه بالعبادة ، ليس لإبليس سلطان عليه ، وكفى بالله وكيلا وناصرًا ، ثم يعدد الله عزوجل نعمه ، ودلائل ربوبيته ووحدانيتـه على عباده في قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ ..... ﴾ فهو سـبحانه – وحده – الذي يسوق ويحرك السفن في البحر ابتغاء وطلبا لفضله ، وهذا الإنعام من باب رحمة الله بعباده ، ثم يعقب ذلك آية جحود الإنسان فهو صادق التوجه إلـى الله في محنته وشدته ، ولكن عندما يصرف الله عنه الضر ؛ يعود لشيطانه وينصـرف عن توحيد الله الذي توجه إليه من قبل .

التحليل الفني :

تؤكد الآية (٦٦) من سورة الإسراء على وحدانية الله عزوجل ؛ موظِّفة في ذلك أحد العناصر الكونية المبهرة وهو : **البحر** ، حيث يشكل محور المشهد الكوني من خلال بيان حركة الفلك فيه ، ثم تقلباته في الآية (٦٧) ، وتوَجُّه المشركين إليه بالدعاء .. تبدأ الآية بقوله تعالى :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي ﴾.... ويذكرنا هذا التركيب اللغوي بظاهرة ﴿ هو الذي ﴾ و ﴿الله الذي ﴾ التي ناقشها البحث من قبل ، حيث أثبت الإحصاء والدراسة أن هذه التراكيب اللغوية ، ترد في سياق إثبات الوحدانية ومطلق الربوبية ، وهذا التركيب الذي نحن بصدده " **رَّبُّكُمُ الَّذِي** " له نفس الدلالة على القدرة والتفرد ، ولكن مع شيء من الاختلاف الدقيق بين التركيبين " **الله الذي** " و " **رَّبُّكُمُ الَّذِي** " .. فـ " الله الذي " تعبير يدل على الهيمنة والسيطرة والجبروت ، بينما قوله تعالى " ربكم الذي " يدل على القدرة الحانية والعطاء الربوبى الرحيم ؛ لذلك كان الأدق في هذا الموضع إيثار " رَّبُّكُمُ الَّذِي " على غيرها من التراكيب ؛ لأن ما ورد بعدها يتفق ويتسق مع هذا التصوير ، حيث الحديث عن رحمة الله بعباده ، من خلال إزجاء السفن في البحر وتسخير البحر لذلك ، حتى يبتغوا من فضله. وتُختَم الآية بما يؤكد هذا التحليل ، حيث يرد الأسلوب المؤكد على رحمة الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

" يزجى " .. و" التزجية : دفع الشيء لينساق ". [1]

وقريب من ذلك قوله تعالى ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ ... [يوسف : ٨٨] والبضاعة المزجاة " كأن صاحبها يزجيها أي يدفعها بكلفة ليقبلها المدفوعة إليه ".[2]

---

(١) بصائر ذوى التمييز / الفيروزابادى / جـ٣ صـ١٢٤ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) التحرير والتنوير / مجلد ٧ صـ٤٦ / ط / دار سحنون . تونس .

إذن " يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ " ؛ كناية عن تحركها ، وسوقها شيئا فشيئا في البحر ، وقد آثر الأسلوب التعبير بصيغة المضارع الدالة علـــى الاســـتمرار ، لاستحضـــار الصورة ، وبيان ديمومتها ، فالأمر الذي تعرضه الآية ، ليس مقصورا على عصر دون عصر أو فئة دون أخرى ، بل هو قضية أزلية ؛ قضية التسخير والربوبية التي يقابلها كفران وجحود الإنسان . كما أن صيغة المضارع هي الأدق والأنســب مــع حركة الفلك وحركة البحر وطبيعته .

" **لكم** " .. تقديم الجار والمجرور " ضمير المخاطب " على المفعول ؛ لأن في ذلك دلالة على التخصيص ، أي تخصيص ذلك الإنعام للبشر ، لعلهم يشكرون نعمة الله . هذا على غرار قولنا لمن يعز علينا ، إننا نفعل ذلك لك ومن أجلك، ولله المثل الأعلى .

" **الفُلك** ... بالضم السفينة وهو لفظ يذكّر ويؤنث ". (١)

وكذلك يستعمل للجمع وللمفرد ، ومما لاشك فيه أن المقصود بــه هنــا الجمــع ليتناسب مع عظمة هذا الإنعام ، فلن يبين لنا الله عزوجل هذا الإنعام المعجــز مــن خلال سفينة واحدة ، وخاصة أن الخطاب لعموم الناس ، وأن هــذه الآيــة كانــت ومازالت قائمة أمام الأعين، ففي كل دقيقة تبحر سفينة، بل سفن في كل أنحاء العالم.

" **في البحر** ".. " في " حرف جر يدل هنا على الظرفية ، فالسفينة متمكنة فــي البحر المسخّر لها بأمر الله ... والبحر: الماء الكثير ، مِلْحًا كان أو عَذْبا ، وســمي بذلك لعمقه واتساعه. (٢)

ولفظ البحر في هذا الموضع ، يزيد المشهد الكوني المعروض حيوية وحركة بما نحسه من إزجاء السفن ، وحركة البحر وهدير أمواجه ، ولونه ورائحته ممــا هــو مختزن في ذاكرة الإنسان ، عن ذلك العنصر الكوني المبهر في خفاياه وظواهره.

---

(١) انظر " بصائر ذوى التمييز "/ مجلد ٤ /صـــ٢١٥ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة.

(٢) انظر " لسان العرب "/ مجلد ١ /صـــ٣٢٣ / مادة " بحــر" / ط .دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

﴿ **لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ** ﴾.. تعليل لإزجاء السفن في البحر ، فالأمر له مقصد وغاية إنه لابتغاء الرزق وفُسّر الرزق بأنه التجارة . (١)

ولكني أرى أن " الفضل " المذكور في الآية ، لا يقتصر على التجـارة ، بـل اللفظ يحتمل أكثر من ذلك بدلالته المعجمية على الفضل والزيادة ، إضافة للتجـارة وهى من معاني الفضل، كما أوردها صاحب البصائر. (٢)

ويُرجّح أن يكون الصيد وطلب مكنونات البحار ، نوعا من أنواع هذا الفضـل . فالواقع لا يتعارض مع ذلك ، بل يؤكده ، مما يبين ، بل ويؤكد أن القرآن معجزتـه ليست مقصورة على زمن فقط ، بل هو دين كل زمان إلى قيام الساعة .

﴿ **إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًـا** ﴾ .. أسلوب مؤكد بإن الناسخة ، مضافة لضمير الغائب المُفسَّر بما قبله .. ذاك الأسلوب الذي يؤكد على معنى محوري في الآيـة ، وهـو رحمة الله بعباده ، فهذه الجملة تعليل لما قبلها ، حيث أبان الأسلوب أن سبب تزجية السفن وتسخير البحر لابتغاء الرزق ،هو رحمة الله بعباده .

والتعبير بالفعل (كان) .. له دلالة دقيقة ، فالفعل الماضي فـي حـق الـذات الإلهية ، لا يدل على حدث مر وانتهى، ولكنه له حيثية خاصة فهو يؤكد على ثبوت واستقرار هذه الصفة في الذات الإلهية مع ديمومتها، فالرحمة صفة أصيلة دائمـة ، وثابتة ومتحققه في الرب ، ولذلك تصدرت الآية بلفظ ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي﴾ بتلك الصـيغة الدالة على القصر والحصر من خلال تعريف طرفي الجملة، وانتهت الآية بلفظ

﴿ **رحيما** ﴾ بما لها من دلالة على عظيم وتمام هذه الرحمـة ، تلـك الدلالـة الظاهرة فى استخدام صيغة المبالغة " رحيما ".

---

(١) راجع التحرير والتنوير / مجلد ٧ / صـ١٥٨ / ط / دار سحنون . تونس .

(٢) راجع بصائر ذوى التمييز / مجلد ٤/ صـ١٩٨ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة .

ونلحظ التحول في حرف الجر في صدر الآية من (اللام) في (لكم) إلى (الباء) في (بكم) في عجز الآية ، وفى ذلك دلالة على دقة الأسلوب ، فالتزجية تكون للإنسان تحقيقا لمنافعه ، بينما الرحمة تكون به ، على غرار قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٢]

ثم يعقب ذلك بيان لحال هؤلاء المشركين عندما يمسهم الضر ، وكذلك حالهم عندما يصرف الله الضر عنهم ، وهو حال شديد التناقض . نلحظ ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧]

و " البحر " هو الخط الأساسي في هذا المشهد الكوني ، وهو العنصر البارز في الآية ، وخاصة عندما تتبدل أحواله ، ويصبح مصدر الضر والخطر ، وتتصدر الآية بالإخبار الشرطي فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ﴾ ، الذي يقيم على هؤلاء المشركين الحجة ، يلي أداة الشرط فعل " مَسَّكُمُ " ، والمس في هذا الأسلوب القرآني له أكثر من معنى ، وتوقفت أمام هذا اللفظ ، وحاولت أن أبحث عن سبب لإيثار هذا الفعل دون غيره مثل (أصابكم) مثلا .. فوجدت أن هذا اللفظ دقيق فى موضعه حيث ذُكر في مقام ما ينال الإنسان من أذى ، وهذا ما ذكره الراغب الأصفهاني في كتابه حيث يقول : "والمسُّ يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى " . [١]

وقد حاولت استقراء مواضع مادة " مس " في التعبير القرآني ، فوجدتها وردت اثنتين وستين مرة ، وهى غالبا ما ترد في موضع الضر والنصب والإيذاء فيما عدا ثلاثه مواضع فقط ، اقترن لفظ " المس " بالخير وهى المواضع الآتية :

---

(١) المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني صـ٤٧٠ / مادة " مسّ " / ط / المكتبة التوفيقية / القاهرة .

[١] ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾
[المعارج ١٩ : ٢١]

[٢] ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُم ﴾ [ال عمران : ١٢٠]

[٣] ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧]

وذلك – أيضا – بخلاف الآيات التي لا يقترن فيها " المس " بضر أو خير مثال قوله تعالى :

﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ...... ﴾ [البقرة : ٢٣٦]

وكذلك على سبيل المثال ما ورد على لسان العذراء :

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .... ﴾ [مريم : ٢٠]

" **وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ** " ... والضر في هذا الموضع : " تعنى اختلاف الرياح والأمواج وخوف الهلاك ". [1] بما في ذلك من دلالة على حدوث الأذى والضرر وقيل أن : " المراد من الضر : الخوف الشديد كخوف الغرق ".[2] والإشراف على الغرق ، شعور مريع للنفس حقا ، مزعزع لثباتها ، وخاصة عندما نتخيل أسباب التعرض لهذا الغرق وذاك الهلاك ، من اشتداد الرياح وتقلباتها ، وكذلك اضطراب أحوال البحر وأمواجه ، ثم نتخيل أثر هذا على النفس .. ونتأمل هذه الحالة من الضعف البشرى ، ذلك الضعف الذي يوّجه النفس والعقل إلى دعاء واحد ، تردده الفطرة الإنسانية ، عندما تتقشع عنها ضبابات الكفر والشرك ، أنه دعاء التوحيد ، والتوجه إلى الله الواحد الأحد ، في أصدق لحظات النفس ، وأحلك أوقاتها ، ولذلك يرد جواب الشرط معبرًا تعبيرًا معجزًا عن تلك الحقيقة ...

---

(١) بصائر ذوى التمييز / جـ٣ / صـ٤٦٩ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) مفاتيح الغيب / مجلد ١٠ / صـ ١٣٧ / ط / دار الغد العربي .

حقيقة التوحيد في قوله تعالى :

﴿ **ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلاَّ إِيَّاهُ** ﴾... فهم في هذه الحالة ذهب عنهم أسماء الذين يدعونهم من دون الله ، من صنم وشجر وشمس وقمر ، فالتوجه لله وحده ، و(ضلَّ) هنا بمعنى (نسى) وليس الضلال على معناه الحقيقي ، ونأنس في ذلك بالقرآن نفسه فهو يفسر بعضه بعضا، وأقصد قوله تعالى:

﴿ أن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

وقد أورد صاحب " التحرير والتنوير " بيانا في هذا الاستثناء على وجهين :

الأول : أنه استثناء متصل .. لأن اسم الله مما يجرى على ألسنتهم في الدعاء كما تجرى أسماء الأصنام على ألسنتهم .

الثاني : أنه استثناء منقطع ، حيث يجوز أن يكون الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ من تدعون ﴾ خاصا بأصنامهم ، دون اسم الله تعالى . [١]

ثم ختم حديثه بقوله : " ولعل هذا الوجه أرجح لأنه أنسب بقوله : (أعرضتم) ". [٢]

وفى حقيقة الأمر، فإن استقراء الآية موضع الدراسة يوجهنا إلى الرأي الثاني الذي رجحه مؤلف التحرير ؛ لأن محور الآية أن هؤلاء المشركين، ضالون في عقيدتهم ؛ لذلك فالله عزوجل بعيد عن محيط عبادتهم المذمومة ، وعقيدتهم المنحرفة،

وعلى هذا يكون الاستثناء في الآية مفرّغ ، للتأكيد على توجههم بفطرتهم في ضُرهم هذا إلى الله الواحد ، المستحق بالعبادة والإفراد ، بعد كفرهم وشركهم .

ولكن هذه الطبيعة البشرية الجاحدة لا تعتبر بما مر بها،وهذا ما يصوّره القرآن بصورة غاية في الإبداع والإيجاز في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ..... ﴾

---

(١) انظر التحرير والتنوير / مجلد ٧ /صـ١٦٠ / دار سحنون / تونس .

(٢) نفس المصدر السابق / صـ ١٦٠.

" **فلما** " .. لما الحينية ... شرط غير جازم ، " ونجاكم " ..... مادة (نجو) و" الفعل منها نَجَا نَجْوا ، ونَجاءً ونَجاةً ، ونجَايَة : خَلَصَ " . [١]

وورد في معنى النجاة كذلك :

" نجو: أصل النّجَاءِ : الانفصال من الشيء ". [٢] وليس ثمة تعارض بين المعنيين فالانفصال عن الشيء يعنى الخلاص ، وهذا عينه هو المقصود من الآية موضع الدراسة . والله أعلم . حيث توضح أن الله عزوجل خلّصهم ونجاهم من ذاك الضر الذي لحق بهم .

والفعل " نَجَا " يرد لازما ومتعديا، فهو يتعدى بالهمزة أو التضعيف ، وهو في الآية موضع الدراسة يتعدى بالتضعيف ، فهل هناك فرق في الأداء والدلالة بين صيغتي الفعل (نجّى – أنجَى) ؟ وإذا كان هناك فرق ، فلمَ آثر الأسلوب صيغة التعدي بالتضعيف في هذا الموضع ، وعدل عن صيغة التعدي بالهمزة على الرغم من كثرة ورودها في القرآن ؟ [٣] ، ورد في شذا العَرف أن صيغة " فعّل" المتعدية بالتضعيف تنفرد بستة معانٍ عن صيغة " أفعل " مِنْها : التكثير في الفعل.[٤] وذلك يعنى أن الفعل " نجّى " في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ .... ﴾ يراد منه المبالغة في تلك النجاة ، والتكثير في معطياتها ، فهي ليست نجاة وحسب بأن بلّغهم سبحانه البر ، بل تتعدى هذا الأمر إلى الوصول والبلوغ بأمان وإسدال الرحمة ، وتوفير أسباب الحياة _ والله أعلم _ وهذا أدعى في قيام الحجة عليهم .

ولذلك آثر الأسلوب صيغة الفعل " نجّى " بالتضعيف – والله أعلم – .

---

(١) بصائر ذوى التمييز / جـ٥ / صـ٢٠ / ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة .

(٢) المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني صـ٤٨٦ / ط / المكتبة التوفيقية .

(٣) انظر الآية ٦٣ من سورة الأنعام، والآية (٦) من سورة إبراهيم ، و الآية (٢٤) العنكبوت وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

(٤) شذا العرف في فن الصرف / للأستاذ الحملاوي / صـ٤١ / ط / المكتبة الثقافية. بيروت .

وهو كذلك يرسخ ويبرز الفجوة العظيمة ، والهوة العميقة بين حالهم وضعفهم عندما مسهم الضر فلجأوا إلى الله ، وبين طبيعتهم الغادرة في إخلاف عهدهم مع الله عزوجل ، ولقد عبّر الأسلوب القرآني عن ذلك بأدق لفظ يدل على جحودهم وإنكارهم للفضل ، وذلك من خلال الفعل (أعرضتم) بدلالته المعجمية ، وصيغته الزمنية .....

والفعل أعرض معناه : " ولى مبديًا عرْضَه " . (١)

وذلك يعنى أنهم تولوا تولية ظاهرة واضحة متبجحة ، لا حياء فيها ولا استتار، مما يدل على جبروتهم وجحودهم ، وإنكارهم للنعم وفضل المنعم .

ومما يعضد هذه الصفات فيهم إيثار الأسلوب لصيغة الماضي دون غيرها ، وذلك لدلالتها على تحقق هذه الصفة الذميمة فيهم بالفعل .

﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾... تذييل يتسق مع صدر الآية ٦٦ في قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ .... ﴾ حيث يبين الهوة الشديدة الاتساع بين عظمة الرب المعطى المانح بلا حساب ، وبين ضآلة الإنسان وجحوده وكفره .. وقد عبر الأسلوب عن هذا المعنى بعدة دقائق لفظية ، أولها :اختيار صيغة الماضي للفعل (كان) بدلالتها على تحقق حدوث الكفر وتأصله في نفوس هؤلاء .

وثانيها : تعريف الإنسان بأل للاستغراق ،للدلالة على أن كفران النعمة ، صفة أصيلة في الإنسان ، تستغرق الجنس البشرى كله إلا من رحم الله .

ثالثها :إيثار صيغة المبالغة في قوله تعالى : (كفورا) للدلالة على تعمّق الكفر في نفوس هؤلاء ، عندما تستتر الفطرة الطيبة بالشرك والجاهلية .

---

(١) المفردات في غريب القرآن . مادة " عرض " صـ٣٣٣ / ط / المكتبة التوفيقية

وفى هذا التعقيب والتذييل ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ملمح جميل جليل ، حيث تحول الأسلوب القرآني من خطاب هؤلاء المشركين كما في :
(مسكم – تدعون – نجاكم – أعرضتم) إلى تجاهلهم ، بالحديث عن الكائن البشرى بصفة عامة ، وكأن الله تعالى بذلك يعرض عنهم كما أعرضوا عنه ، حيث لا يستحقون إلا ذلك .

ثم ننتقل إلى موضع آخر يوظِّف ذلك العنصر الكوني المهيب (البحر) ..

الموضع الثالث والرابع :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

[لقمان ٣١ : ٣٢]

العرض الموضوعي :

يتفق هذان الموضعان مع الموضع السابق ، في المعنى العام من حيث توجّه هؤلاء المشركين إلى الله عزوجل في وقت الشدة وإعلان التوحيد ثم الإعراض والتولي والشرك ، عندما يصرف الله عنهم شدتهم ، ويفرّج كربهم ولكن يتبقى دقائق في طريقة العرض تختلف من آية إلى أخرى .

<u>**التحـليل الفنـي**</u> : (آية العنكبوت : ٦٥)

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُـمْ يُشْرِكُونَ ﴾

وردت هذه الآية في عقب مجموعة من الآيات ، تناقش وتقدم أدلة على وحدانية الله عزوجل وطلاقه قدرته ، ولهذا فهي متصلة بما قبلها ، موضحة لما سبقها ، في بيان طبيعة الإنسان الجاحد ، الذي يتوجه إلى الله في وقت شدته ، ثـم يعـود إلـى شركه بعد انكشاف الغمة عنه ؛ ولذلك تصدّرت الآية بالإخبار الشرطي ، (فـإذا) مخالفة بذلك الإخبارات السابقة عليها ، و ذلك التحوُّل من شأنه لفت الانتباه إلى مـا يقال ، وما يأتي بعده .(**فإذا**).. الفاء للاستئناف ، وقد أورد الشيخ ابن عاشـور أن الفاء للتفريع ، حيث أفادت تفريع ما بعدها على ما قبلها، والمفرع عليه محذوف. [١]

إذا : شرط . (**رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ**) ... جملة فعل الشرط ، فعلها ماضٍ " **ركبـوا** " لبيان تحقق الوقوع ، والفعل " ركب " يتعدى بذاته ، فلماذا آثر الأسلوب هنا تعديتـه بحرف الجر، وهل هناك علة لذلك ؟ والأصل : " أن الفعل " ركب " يـدل علـى استعلاء الشيء المركوب ومنه رَكِبَ الدابة يركَبُ ركُوبا : علا عليها". [٢] وفى هذه الآية إشارة إلى دقة الأسلوب ، حيث آثر التعدي بحرف الجار (في) بدلالته علـى الظرفية ، لأن الأصل في ركوب السفن ، أن تكون فيها وليس عليها ، فالركوب هنا يتضمن معنى الدخول. ويرى الشيخ الألوسي أن هذا الرأي مرفوض " وأن حـرف الجر **في** ، للصيرورة ؛ لأن أظهر الروايات أن نوح عليه السلام ركب هو ومن معه في أعلى السفينة ". [٣]وذلك في تفسير قوله تعالى:(وقال اركبوا فيها...) [هود : ٤١]

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٠ / الجزء الحادي والعشرين / صـ٣٢ / ط / دار سحنون / تونس.

(٢) لسان العرب / مجلد ٤ / صـ٤٨٦ / مادة " ركب " / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

(٣) روح المعاني / مجلد ٤/ جـ٦ / صـ٢٥٤ / ط / دار الكتب العلمية ، بيروت .

وأرد على ذلك بأنه – الإمام الألوسي رحمه الله – اعتمد على روايات ، وإن تحققت فليس هذا هو الأصل في ركوب السفن ، بل الأصل في الركوب ، أن نكون بداخلها ، وقد يتفرع عن ذلك الركوب في أعلاها ، وأستند في ذلك إلى القرآن الكريم نفسه ، حيث يرد لفظ الفلك – غالبا – مسبقا بحرف الجر " في " ، على النحو التالي :

١- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الأعراف: ٦٤]

٢- ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ... ﴾ [يونس : ٢٢]

٣- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ.......... ﴾ [يونس : ٧٣]

٤- ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.. ﴾ [الشعراء : ١١٩]

٥- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ..... ﴾ [العنكبوت : ٦٥]

٦- ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس : ٤١]

وتغليب حرف الجر " في " في استعماله مع الفلك ليس من قبيل المصادفة ، بل هو لدقة الأسلوب وإحكامه وبيان المعنى المقصود . ونأنس في ذلك إلى رأى الشيخ ابن عاشور الوارد في كتابه " التحرير والتنوير" حيث يقول ما نصه : " وعُدّى فعل " ركبوا " بـ " في " جريا على الفصيح فإنه يقال رَكب الدابة إذا علاها ، وأما ركوب الفلك فيعدّى بـ في " لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار فلا يقال ركب السفينة " . (١)

ثم أضيف إلى ذلك أن إيثار حرف الجر " في " له وجه آخر من وجوه الإعجاز، حيث يدل على كمال وتمام نعمة الله عليهم ؛ بأن جعلهم مستقرين متمكنين من الفلك فالأمر يتعدى نعمة الركوب، إلى نعمة أعظم ، نعمة الاستقراروالتمكن والاحتماء والتمتع .

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ٦ / الجزء ١٢ / صـ٧٣ / ط. دار سحنون / تونس .

﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.. دعوا جملة جواب الشرط إذا ، " مخلصين "حال مشتقة تبين توجههم إلى الله بالعبادة والتوحيد. و" **الدين** " .. يقصد به هنا الطاعة. (١)

وقد يكون المقصود به: الدعاء ، استنادا إلى " دعوا " وليس ثَمَ خلاف بين المعنيين ، وإن كان الأول أشمل وأعم على الانقياد والانصياع لأوامر الله .

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ... الفاء للعطف .

" لما نجاهم " .. شرط آخر ، وقد آثر الأسلوب فعل الشرط " نجَّى " في صيغته المضعّفة للدلالة على عظيم هذه النجاة وتكامل أسبابها ، من نجاة للنفس والبدن ، والأموال والمنافع .. إلخ ، ولكن الملاحظ على هذا الموضع من الدراسة ، أن هذه الآية من سورة العنكبوت ، لم يُذكر فيها أدنى ذكر عن أي ضر أصاب هؤلاء ! فهل ذلك اختصار لجزء مفهوم من سياق الآيات الأخرى ، كما ورد في سورة يونس مثلا – حيث إنها سبقت سورة العنكبوت في النزول (٢) – :

﴿ جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ... ﴾ [يونس : ٢٢]

أو ما ورد في سورة الإسراء :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ... ﴾ [الإسراء : ٦٧]

فاكتفى في آية العنكبوت ، بالإشارة إلى النجاة ، مما يدل على أنه سبقها ضرر و هم وإلا فمن أى شيء تكون النجاة ؟

أم أن الأمر غير ذلك ، وأن هؤلاء المشركين لم يتعرضوا بالفعل لأي أذى ، ولكنهم كانوا يتوقعونه من خلال ركوبهم البحر ؟ حيث إنهم يهابونه ،ويعتريهم منه

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / صـ١٨١/ مادة " دين " / ط . المكتبة التوفيقية .

(٢) راجع بصائر ذوى التمييز / جـ ١ / صـ ٩٨ في ترتيب نزول سور القرآن / ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الخوف الشديد ، فهو عالم مجهول بالنسبة لهم ، يختلف عن عالم البراري الــذي يسافرون فيه آمنين مسلمين ، فلا يعترضهم الخوف من المجهول؟

وأيا كان سبب التوجه إلى الله تعالى بالإخلاص ، فالمهم هو النتيجة ، وهي :
﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ...

(إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) تلك هي المفاجأة .. التي عبر عنها الأسـلوب بـالحرف " إذا " بدلالته على المفاجأة ، وتباين وتناقض أفعالهم ، فكان هذا الحرف هو الفاصل بـين حالتيهما ما بين الخضوع والتذلل، إلى الشرك والمبادرة إليه ، حين وصولهم إلـى البر.

(هم) .. ضمير مبنى منفصل ، للجمع الغائب ، لا يخفى ما فيـه مـن ملمـح التوكيد على أنهم بذاتهم مشركون ، ذلك الضمير الذي يتناسق مع سياق الأفعال في الآية ، (ركبوا – دعوا – نجاهم) وكلها تدل على ضمائر جمع للغائبين ..

(يُشْرِكُونَ) فيها إبراز لما خفى من نفاقهم وشركهم ، وقد عبر عن ذلك الإمـام ابن عاشور فى قوله إنهم رجعوا إلى "ما اعتادوه من زيارة أصنامهم والذبح لهـا ، والمفاجأة عرفية بحسب ما يقتضيه الإرساء في البر والوصول إلى مواطنهم فكـانوا يبادرون بإطعام الطعام ". (١)

التحليل الفني: لآيتي لقمان (٣١ : ٣٢) قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ فَلَمَّـا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ .

---

(١) انظر التحرير والتنوير/ مجلد ١٠ / جـ٢١ / صـ٣٣ / ط . دار سحنون / تونس .

يشكل " البحر " في هذا المشهد الكوني الإطار العام ، الذي ينتظم باقي عناصر الصورة ، من فلك وموج وظلل .... وهذا المشهد الكوني آية من آيـات الله الدالـة على طلاقة القدرة ، وعظيم التدبير ، وقد وردت هذه الآية كشاهد ودليل على القدرة الإلهية في آية من مفردات الأرض وهى البحر .

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ..**) استفهام للتقرير والدعوة إلى الانتباه لآيات الله ، و نلحظ أن الاستفهام يعقبه الفعل (ترَ) ولم يقل مثلا : ألم تسمع ؟ ألم تعرف ؟ فلماذا آثـر فعل الرؤية على غيره ؟

مما لاشك فيه ، أن الرؤية أكثر يقينا ودفعا للشك من غيرها ، فليس مـن رأى كمن سمع ، وفى هذا إقامة الحجة على هؤلاء ، فهم يرون آيـات الله أمـامهم رأى العين ، ومع ذلك قلوبهم جاحدة ، وعقولهم جامدة !!

يلي هذا الإنشاء الجملة الاسمية المؤكدة بأن المشددة ؛ لتدعيم التقرير السابق .

(**أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ....**) ، وترد هذه الجملة متعددة الإشارات الكونية ، ففيها إشارة إلى هذا الخلق العظيم المسمى " بالبحر " على عظيم اتسـاعه وهول منظره ومخبره ، ثم إشارة إلى تسخير الله عزوجل له لينتفع الناس منه وبه ، ثم تسخير الفلك وإلهام الإنسان طريقه صناعتها ، بمواد خاصة تجعلها طافية علـى وجه الماء ، ثم بعد ذلك تسخير الرياح لتحريك هذه الفلك وجريانها في المـاء ، أي قدرة تلك ، وأي عظمة ، وأي نعمة غمرت الجنس البشرى ؟!

وللشيخ ابن عاشور كلمة رائعة في تفسير هذه الآية حيث يقول :

" وجريُ الفلك في البحر آية من آيات القدرة في بديع الصنع أن خلقٌ ماء البحـر بنظام ، وخلق الخشب بنظام وجعل لعقول الناس نظاما فحصل من ذلك كله إمكـان سير الفلك فوق عباب البحر " . (١)

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٠/ جـ٢١ / صـ١٨٩ / ط . دار سحنون .تونس

أما في قوله تعالى : (**بنعمة الله**) فالباء هنا للمصاحبة ، للتدليل على عظمة هبة الله وعطاياه ، فهذه الفلك تجرى مصحوبة بنعمة الله ، في تهيئة أسباب السلامة لها من تذليل الرياح وتسخير الموج ، كما يجوز أن يكون المراد بنعمة الله " ما أنعم جل شأنه به بما تحمله الفلك من الطعام والمتاع ونحوه " . [(١)]

وفى تصوري أنه لا يمتنع الجمع بين النعمتين ، نعمة تهيئة أسباب الجريان والسلامة ، ونعمة تسيير المصالح والمنافع من خلال ما تحمله السفن ، بل هذا أدعى لكمال القدرة ، وتمام غشيان الرحمة .

(**لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ**) ... تقع هذه الجملة موقع التعليل لما قبلها ... أي أن الله يقدم هذه الآيات للناس لتكون لهم دليل على وحدانيته ، ونلاحظ هنا إيثار الأسلوب لصيغة الفعل الذي تصدر الآية ذاته ، وهو (يرى) ، وذلك لدلالته على التحقق والتيقن من خلال هذه الرؤية ، فالرؤية أصدق يقين .

يلي ذلك ، التعقيب والتوكيد على أن هذه الآيات تُعتَبر بها فئة خاصة من الناس، ولا يستدل بها إلا كل صبّار شكور ﴿ .. **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** .. ﴾.

(إنَّ) .. توكيد بأن هذه الآيات لا تجدي إلا مع فئة خاصة ، هم الصابرون الشاكرون.

(**في ذلك**) .. إشارة للبعيد ، على ما تقدم من الحديث عن النعم والتسخير .

(**لآيات**) .... آثر الأسلوب صيغة الجمع والنكرة في آن واحد ؛ لبيان عِظَم هذه الآيات وكثرتها لمن أراد التدبر والتفكر ، فهي آيات مبهرة ، ولكن(**لكل صبار شكور**) ، صيغ مبالغة ، الأولى بوزن فعّال ، مبالغة في الوصف بالصبر ، والثانية بوزن فعول ، مبالغة في الوصف بالشكر .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٨ / جـ١١/ صـ١٠٣ / ط الكتب العلمية . بيروت

(... وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ...).. الواو عاطفة على ما قبلها من آيات سير الفلك .

" إذا " .... إخبار شرطي عن حال هؤلاء المعاندين .

(غَشِيَهُم مَّوْجٌ) ... " غشى : أي أتاه إتْيَانَ ما قد غَشِيَه أي ستره والغِشَاوةُ ما يُغطى به الشيء " . (١)

ومعنى ذلك أن الموج آتاهم وغطاهم ، وهذا أبلغ في التعبير عن المحنة التي أصبحوا فيها فجأة .

(مَوْجٌ) ... آثر الأسلوب صيغة النكرة ، لبيان هول هذا الموج ، فهو مجهول بالنسبة لهم ، لا يدرون كيف جاء ، ولا كيف سينتهي بهم هذا الأمر ، وما ماهيته، فإيثار النكرة هنا أنسب للأسلوب .

(موْجٌ كَالظُّلَلِ) .. والظلل جمع ظلة ، وفسِّرت في هذا الموضع بأنها موج كقطع السحاب . (٢)

وقيل (مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ) ، أي كالجبال . (٣) ، وأيا كان فالمعنى أن هذا الموج هائل وقد داهمهم وغطاهم ، وأصبحوا في فزع عظيم ، ولا يخفى ما في هذا المشهد من حركة وحيوية ، نشأت من توظيف الموج والظلل بشكل عميق حي تستحضره النفس فكأنه ماثل أمام العين ، وهذا هو شأن الأسلوب القرآني في بث الحياة في مشاهده الكونية .

(دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ... للمرة الثالثة يتكرر جواب الشرط على هذا النحو الأولى في سورة يونس الآية (٢٢) ، والثانية في سورة العنكبوت الآية ٦٥ ، والثالثة في هذا الموضع ، فما علة هذا التكرار ؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن / صـ٣٦٣ / ط. المكتبة التوفيقية .

(٢) بصائر ذوى التمييز / جـ ٣ / صـ٥٣٩ / ط .المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ١٢ / صـ٥٢٩ / ط . دار الغد العربي .

في الحقيقة ليس هناك تكرار في الأسلوب القرآني لمجرد التكرار ، ولكن لابد له من سبب أو توجيه ، وفيما يبدو للبحث أن تكرار جواب الشرط في المواضع الثلاثة على هذا النحو ، لبيان أن موقف هؤلاء المعاندين واحد ، وأن ادعاءهم- كذلك - واحد ، لا يتغير في كل زمان ومكان ، فهم للشرك أقرب وعليه أدوم ، وهم كذلك لا يلجأون إلى الله إلا في شدتهم ثم يكون الانصراف والتولي ، وهذا موقف واحد لا يتغير في الإنسان الجاحد ، ومن أجل ذلك آثر الأسلوب عدم التحول عن هذا المعنى وبهذه العبارة (**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) ، للتأكيد على ثباتهم على موقفهم وخداعهم .

(**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**) ... يتباين هذا الشرط مع ما ورد في آية العنكبوت (٦٥) في قوله تعالى :

﴿ ... فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ... ﴾ ، فجواب الشرط في سورة العنكبوت يجزم ويؤكد على إشراكهم بعد نجاتهم ، بينما في آية لقمان التي نحن بصددها ؛ فالأمر يختلف بعض الشيء ، نتج هذا الاختلاف من قوله تعالى :

﴿ ... فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ... ﴾ ... والقصد .. استقامة الطريق ومنه الاقتصاد ، وهو على ضربين أحدهما محمود على الإطلاق كالجود ، فإنه بين الإسراف والبخل .. والثاني يُكنى به عما يتردد بين المحمود والمذموم ، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم كالواقع بين العدل والجور " . (١)

ولعل هذا المعنى الأخير هو المشار إليه في الآية بقوله تعالى :

(فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) ، أي أنه يتردد بين الإخلاص والكفر .

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / صـ٤٠٥ / ط . المكتبة التوفيقية.

وقد يكون هذا ما قصده الإمام الرازي في تفسيره لهذا المعنى :

" فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص فبقى معه شيء منه ، ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص". [١]

وإنني أميل إلى أن هناك حذفا لجواب الشرط (لما) في قوله تعالى :

﴿.. فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. ﴾ ، وتقديره (انقسموا) ودلالة ذلك قوله: " فمنهم" ، أي انقسموا فمنهم مقتصد ومنهم جاحد ، ويعضد ذلك ، التعقيب الذي جاء في قوله تعالى : ﴿.. وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.. ﴾

فقوله تعالى : (وَمَا يَجْحَدُ) يدل على لفظ محذوف، وقد يُقدَّر بـ " جاحد " .

الجحود : قمة الإنكار وأعلاه ، وهل هناك إنكار أشد من ذلك ، فلقد دعوا الله مخلصين ، وعندما نجاهم ؛ كان منهم ما كان من الكفر والشرك ، فذاك قمة الجحود وأبجحه .

(بِآيَاتِنَا) ... والآيات هي الدلائل والبراهين على وحدانية الله ، والمقصود بها في هذا المقام ، ما سبق ذكره من الفلك المهيأة ، والبحر المسخر والمذلل بقدرة إلهية حكيمة ، والرياح المسَيَّرة بإذنه ، والمنافع والنعم التي تحقق لبني آدم من جراء ذلك.

(**ختّار**).. والختّار : شديد الغدر، فالخَتْرُ : غَدْرُ . [٢] والكفور : الشديد الكفر.

وهل هناك غدر أشد من ادعاء الإيمان وقت الشدة ، ثم الجحود والنكران في الرخاء ، ولهذا آثر الأداء القرآني ، التعبيرعن هذا المعنى بصيغتي المبالغة :

(ختار ، كفور) لبيان تمادى هؤلاء المعاندين في الغدر والكفران ...

ونلحظ أن الإيقاع النغمى لهاتين الصيغتين في عجز الآية ٣٢ في قوله تعالى :

﴿ .. وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ **كَفُورٍ**.. ﴾ يتوازن مع الإيقاع لعجز الآية ٣١، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ **شَكُورٍ** ﴾ .

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ١٢ / صـ٥٢٩ / ط / دار الغد العربي.

(٢) المفردات في غريب القرآن / الراغب الأصفهاني / صـ١٤٨ مادة (ختر) / ط . المكتبة التوفيقية .

فالتوازن الصوتي واضح تماما ، وكذلك التوازن اللفظي والمعنوي ، فصبّار وختّار على نفس الصيغة والوزن ،(فعّال) ، وبينهما تضاد معنوي .

وقد فسّره الإمام الرازي تفسيرا لطيفا ، حيث بيّن أن الغدر، قلة صبر على العهد والوعد والتكاليف . (١)

وكذلك الشكور والكفور.. بنفس الوزن (فعول) ، والتضاد المعنوي بينهما ظاهر .

الموضع الخامس والأخير :

أما الموضع الأخير في هذا المحور من الدراسة فهو قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢]

تبدأ فواتح سورة الجاثية بآيات قوية مُزلْزِلة ، حيث تتناول دلائل وحدانية الله في هذا الكون ، مُبيِّنة آية الله في خلق السماوات والأرض في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]

ثم تنتقل إلى آية أخرى ، وهى اختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح في قوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ [الجاثية: ٥]

بعد ذلك يرد قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]

ثم يرد التحذير من الكفر وبيان عذاب الله للمعاندين في قوله تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١١]

ثم ترد آية الله العظيمة في تسخير البحر لبيان عزة الله وقدرته، وتقريعا لهؤلاء المعاندين .

---

(١) مفاتيح الغيب مجلد ١٢ صـ٥٣٠ / ط. دار الغد العربي.

فتسخير البحر آية عظيمة من آيات الله في هذا الكون ، لذلك نجد الآية تتصـــدر بقوله تعالى :

(**الله الذي...**) .. بدلالتها على الهيمنة والقدرة ، والتفــرد الظــاهر بالحصــر والقصر من خلال تعريف طرفي الجملة .

(**سخّر لكم البحر**)... والتسخير هنا، يُفسَّر على وجــه التذليل ... [1]

أي أن الله عزوجل ذلّل البحر لمنفعة الناس ، فما مظاهر هذا التذليل ؟

هناك ما لا نعلمه عن هذا التذليل . أما وجوه تذليل البحر التي نراها ... خلقه بهذا الشكل والنظام الذي يسمح بحمل الفلك عليه ، لتجرى لتحقيق منافع الناس ومصالحهم وكذلك حركة الأمواج التي تسمح بالانتفاع به من خلال جرّيان الفلك ، أو الصــيد ، ومن مظاهر التذليل – أيضا – تمكُّن الإنسان منه ســواء بالســباحة أو الركــوب ، وكذلك تسخير الرياح ، وتطويعها ومن التسخير – كذلك – خلق الأخشــاب بتلــك الخاصية أقصد الطفو ، الذي يسمح للسفن بالحركة ، وقد عبّر الأسلوب عن ذلك كله من خلال صيغة الفعل المشددة (**سخّر**) بدلالتها على عظيم هذا التسخير، والمبالغة فيه ، فالتعدي بالتضعيف ، يفيد التكثير والمبالغة فيه . [2]

ثم يأتي ضمير المخاطب في (**لكم**) ؛ للدلالة على أن التسخير خاص بالمخاطبين فتكون إقامة الحجة عليهم أبلغ ؛ لأن الله أسبغ نعمه عليهم ، وسخّر البحر من أجلهم وهم لا يشكرون ولا يؤمنون .

(**البحر)** .. أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير. [3]

وقد عرفت بـــ" أل " للاستغراق، أي أن صفة التسخير قد استغرقت جنس البحــر فكل بحر مسخّر مما يدل على إسباغ النعمة وشمولها .

---

(١) انظر الوجوه والنظائر للدامغاني / جـــ١ / صـــ٢٠١ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) انظر شذا العَرف في فن الصرف / صـــ٤١ / ط . المكتبة الثقافية.

(٣) المفردات في غريب القرآن / صـــ٤٨ / ط . المكتبة التوفيقية.

(لتجرى الفلك فيه بأمره ...) .. اللام للتعليل ، أي أنه من أسباب التسخير جريان الفلك في البحر بأمر الله وقدره ، ومن الواضح من السياق أن هذه الفلك حاملة للناس وأمتعتهم ومنافعهم ؛ حتى تعم الفائدة ، وتظهر نعمة الله جلية واضحة .

(بأمره) ... جار ومجرور للتأكيد على قدرة الله . فالأمر لم ينته عند تسخير البحر وحسب ، بل إن جريان السفن وتحريكها في الماء ، يتوقف على أمر الله لها بالسير والجريان ، وعلى هذا فالجار والمجرور في هذا الموضع يعمق ويرسّخ الإحساس بالقدرة الإلهية ، والسلطة المطلقة لله عزوجل في كل شيء .

(ولتبتغوا من فضله) .. الواو عطف ، واللام للتعليل ، فالجملة تعليل لما يسبقها من جريان الفلك ، فهي تجرى لتحقيق المنافع وتحصيل فضل الله ، فهو تعليل لتعليل سابق .

(ولعلكم تشكرون).. أي لكي تكون هذه النعم سببا في شكركم ، والشكر هنا ليس على معناه الأصلي بل على معنى (التوحيد). [١] أي لعلكم توحدون الله سبحانه. فالشكر لا يُنتظر من الكافر.

وكل هذه النعم التي وردت في الآية ، لهي من دلائل قدرة الله عزوجل ، التي من شأنها أن يفطن إليها الإنسان، فتوجهه إلى التوحيد .

<u>ب ــ البحر وكلمات الله :</u>

ورد توظيف (البحر) – كذلك – كعنصر عظيم من عناصر هذا الكون ، في التعبير عن عظيم واتساع كلمات الله التي لا تنفد ، وقد أوثر البحر دون غيره في ذلك الشأن لعظمه واتساعه ، وهذا الاتساع ملموس ظاهر للجميع ، لذلك كان أبرز عنصر كوني يمكن توظيفه لتوضيح ذلك الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم.

---

(١) انظر (الوجوه والنظائر) للدامغانى جـ١ صـ٤٥٨ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد ورد توظيف (البحر) على هذه الصورة في موضعين فقط في القرآن :

الأول : في سورة الكهف في قوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩]

والثاني : في سورة لقمان في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧]

العرض الموضوعي :

وردت في كتب التفاسير أقوالٌ كثيرة في مناسبة هاتين الآيتين ، اجتمعت هذه الأقوال حول سببين :

الأول :

ما ذُكر من أن رجلا يهوديا يدعى حُيَيَ بن أخطب قال :

في كتابكم ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

ثم تقرأون ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥]

وكأن حُيَيَ هذا يجد تناقضا بين الآيتين ، فأراد الله عزوجل أن يوضح ذلك : فنزلت آية الكهف لتبين أن ذلك خير كثير ، ولكنه قطرة من علم الله وحكمته . [١]

والثاني :

إن مشركي مكة قالوا : أن الوحي كلام سينفد ، فنزّل الله هذه الآية ليُعْلِم ويؤكد على أن كلامه أبدا لا ينفد . [٢]

---

(١) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ١٠ / صـ٣٨٩ / ط .دار الغد العربي .

(٢) انظر الكشاف / مجلد ٣ / صـ٢٣٦ / ط / دار الفكر . وكذلك التحرير والتنوير / مجلد ١٠/ جـ ٢١ /صـ١٨١.

وتشير هاتان الآيتان إلى أن علم الله أبدا لا ينفد ولا ينتهي ، ولو تحولت كل مياه البحار إلى مداد ، والمداد ما يُمَدُّ في الدَّوَاة، والمقصود الحبر الذي يكتب به.
ولو تحولت كذلك كل الأشجار إلى أقلام يكتب بها ، وتحول البحر ومن خلفه سبعة أبحر إلى مداد يكتب به ؛ ما نفدت كلمات الله وعجائبه.

التحليل الفني: آية الكهف ١٠٩ :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

على طبيعة الأسلوب القرآني، وردت هذه الآية لتنقل المعنى المجرد ، وهو سعة علم الله بلا حدود إلى حيز التوضيح وتقريب المعنى ، عن طريق التصوير والتمثيل..

وخاصة أنها تعد من خواتيم سورة الكهف ، فجاءت هذه الخاتمة متسقة مع صدر السورة ومحتواها ، من إشارة إلى عظم هذا الكتاب المنزّل من عند الله ، وبه قصص الأولين والسابقين، كقصة " أصحاب الكهف "، و " موسى والخضر " ، و " ذي القرنين " .

لذلك وردت هذه الآية في الخاتمة ؛ لتؤكد على أن علم الله واسع غير محدود ، وأن ما تقدم قطر من غيث لا ينتهي .

وقد بدأت الآية بإنشاء طلبي فى قوله تعالى : " قل " ثم بافتراض تقريبي، لتوضيح المعنى ، وتبسيط الفكرة ، ليتلقاها العقل البشرى بعيدا عن التجريد والغموض ، لأن سعة علم الله وعجائبه ، لا يستطيع العقل تقبلها بصورتها المجردة المطلقة التي تنتمي لعالم اللامحدود .

وتبدأ الآية بأسلوب شرطي أداته (**لو**) بدلالتها على الافتراض فى سياق الكلام.

(**البحر**) .. قد آثر الأسلوب استعمال (البحر) في توضيح الصـورة نظـرا لعظمته واتساعه ؛ فالبحر معروف معهود عند الناس، مُشَاهَد لهم، لذلك فهو أقـرب إلى أذهانهم عند التصوير والتمثيل به ، بما له من مخزون بصري وسمعى وفكرى عندهم .

(**مدادا**).. المداد في الأصل اسم لكل ما يُمَد به الشيء ، كالحبر الذي يُمَـدُّ في الدَّواة أو الزيت الذي يُمَد به السراج ، ولكن غلب إطلاقه على الحبر.

(**كلماتِ ربى**)... أي عجائب صنعه. [١]

وفسّرها الإمام الألوسى بأنها : معلوماته سبحانه وحكمته. [٢]

ولا يمتنع أيضا أن يكون المشار إليه بـ " كلماتِ ربى " هو القرآن الكـريم كلـه، وورد لفظ (**كلمـات**) على سبيل المجاز ، فإلى قيام الساعة ، لا يستطيع إنسـان أن يحصر علوم القرآن ، سواء الكونية أو العلمية أو الطبية أو النفسية ... إلخ

فمازال هناك بون واسع بين ما يحتويه القرآن ، وبين ما توصل إليه الإنسان وسوف يظل القرآن وعلومه هكذا إلى قيام الساعة ، فهو لا يبلى على كثرة الـرد . وعلى الرغم من أن الكل يدلو فيه بدلوه إلا أن إحاطته مستحيلة ، وعجائبه لا تنتهي.

ولا يخفى ما في هذا التركيب الإضافي (كلمات ربى) من تفخيم لهذه الكلمات بإضافتها إلى رب ، وتشريف وتكريم للنبي صلى الله عليه وسـلم – بإضـافة يـاء المتكلم إلى رب .

﴿ .. **لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي** .. ﴾ .. اللام لربط جـواب (لـو) ... فالبحر مع عظمته واتساعه ينفد وينتهى ، أمام علم الله اللامتناهى .

والنفاد هو الفناء والانتهاء ، وهو قد يتحقق فى جانب البحر فيجف ماؤه .

---

(١) انظر الوجوه والنظائر / للدامغانى جـ٢ صـ١٨٧ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) روح المعاني مجلد ٦ / جـ ١٦ / صـ٣٧١ / ط. دار الكتب العلمية . بيروت .

ولكن هل يعنى قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ إمكانية نفاد كـــلام الله ؟ بالطبع لا .. فذاك مستحيل ، ولكن البناء اللغوي للآية منذ البداية ، على سبيل الافتراض والتمثيل والتقدير ، فالتعبير هنا مجازى للتخييل والتصوير ، ولعل هذا ما قصده الشيخ ابن عاشور عندما قال في تفسير هذه الآية :

" فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف ، وهو " قبل " إمكان نفاد كلمـــات الله ، ولكن لما بنُى الكلام على الفرض والتقدير بما يدل عليه (لو) كان المعنى لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، وكانت كلمات ربى مما ينفد ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى " . [1]

وتكرار (البحر) و (كلمات ربى) في قوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـــاتُ رَبِّـــي ... ﴾ تقرير للحقيقة التي تعرضها الآية ، كما أنها تعظيم لهذه الكلمات بإعادتها مضافة إلى لفظ (رب) المضاف لياء المتكلم والله أعلم ...

(**وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**) : والتقدير أي : "ولو جئنا بمثل هـــذا البحـــر عونـــا وإمدادا ، لنفد قبل أن تنفد كلمات ربى " ، فجواب (لو) محذوف ، لدلالـــة الجـــواب السابق عليه ، وتعد هذه الجملة توكيدا على عظمة عجائب الله وقدرته ، واســتحالة نفاد كلمات الله ، وقد ساهمت الكلمات في إبراز ذلك ، من خلال إعادة أداة الشـــرط (لو) ، ثم إيثار صيغة الفعل الماضي (**جِئْنَا**) للدلالة على التمكـــن ، وكذلك إسنـــاده لـــ (نا) العظمة ، بدلالتها على القدرة والسلطة المتفردة .

أيضا فإن عدم تكرار لفظ (بحر) مرة ثالثة ، وإيثار لفـــظ (مثلـــه) مضـــافًا لضمير الغائب العائد على البحر ، تنويع فى الأداء .. كل هذا يؤكد دقـــة الأســـلوب القرآني وإعجازه ، فالألفاظ تؤدى دورها ومعناها ، ولا يصح أن تتبادل مواضعها .

---

(١) التحرير والتنوير/ مجلد ٨ / جـ١٦ / صـ٥٣ / ط . دار سحنون. تونس.

والتكرار يرد لحاجة وهدف ، لا لمجرد التكرار، وعندما لا يصح التكرار نجد الأسلوب يعدل عنه إلى لفظ آخر يؤدى المعنى دون تكرار أو إطالة .

أما **الموضع الثاني** في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧]

مشهد كوني آخر يتشابه مع المشهد السابق فى مقصوده وهدفه ، حيث نجد أكثر من عنصر كوني موظفًا من أجل إبراز القضية نفسها ، وهى سعة علم الله الذي لا يحاط ، وعجائب صنعه التي لا تنفد . ولكن توظيف العناصر هنا مختلف عن الآية السابقة ، وفيما يلي بيان بذلك :

تتصدر الآية هنا – أيضا – بأداة الشرط غير الجازمة (لو) وأغلب أهل اللغة على أنها حرف يفيد امتناع لامتناع ، ولكنها في هذا الموضع ؛ جاءت على غير ظاهر معناها .

مما جعل جماعة من المحققين ، يرفضون دعوى دلالتها على الامتناع مطلقا. (١) لأن هذه الآية تنقض قاعدة (لو) المعروفة من إفادة الامتناع لامتناع .

لأنه لو قلنا بذلك لانهار المعنى المقصود من الآية ، ولكان المعنى أن امتناع تحول أشجار الأرض إلى أقلام يتبعه امتناع عدم النفاد ، وذلك مخالف للمعنى الذي تقرره الآية ومغاير للحقيقة .

ولعل هذا ما دعا بعض المحققين أن يقول : " فلو كانت حرف امتناع لامتناع لزم نفاد الكلمات مع عدم كون كل ما في الأرض من شجرة أقلامًا تكتب الكلمات ". (٢)

---

(١) انظر بصائر ذوى التمييز. جزء ٤/ صـ٤٤٩ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) انظر بصائر ذوى التمييز. جزء ٤ / صـ٤٤٩ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ... ﴾ .. تماما كما في آية الكهف ، تستعمل (لو) للدلالة على افتراض ما يأتي بعد ذلك ، وهذا الفرض – كما سبق – لتوضيح وتقريب الحقيقة المجردة – وهى عظيم علم وعجائب صنع الله – من الأذهان بصورة مجسدة واضحة ، قريبة المأخذ ..

(.. أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ..) .. أن ناسخة مؤكدة ، وما الموصولة اسمها ، (في الأرض) فيها دلالة على الاتساع والشمولية ، حيث أن المقصود : كل أشجار الأرض .

(مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ) .. تفسير وبيان لـ(ما) الموصولة ، ويشد الانتباه هذا التحول من المفرد في (شجرة) إلى (الجمع) في (أقلام) .ومما لاشك فيه أن إيثار الأسلوب لهذا التركيب اللغوي ، له إعجازه ودلالته ، التي تناولتها معظم كتب التفسير.. وتوجيه ذلك أن إفراد (شجرة) دون استعمال اسم الجنس " شجر"، أو جمع التكسير" أشجار"، أبلغ وأعظم في بيان المعنى المقصود .

لأن المقصود : لو أن كل شجر الأرض، شجرة، شجرة لو بريت أقلامًا بمقدارما فيها من أغصان وأعواد ثم كتب بهذه الأقلام ؛ مانفدت كلمات الله ، فهي إشارة إلى المبالغة في الكثرة ، عما لو قال أشجار أو شجر؛ لأنه ليس المقصود أن كل شجرة تصبح قلما ، بل المقصود ما تقدم ، وهو بذلك أبلغ وأدق في الدلالة .

ولكن يبقى سؤال .... إذا كان المقصود للسياق المبالغة في الكثرة ، فلماذا وردت (أقلام) على جمع القلة ، دون الكثرة (قِلام) ؟

والأمر هنا يتعلق بالتذوق ، فجمع (قِلام) [1] مستهجن وغير مطروق ، فهو في حكم المهمل ، والنظم الجليل ينبو عن كل ما يصدم الحس الفني والجمالي ، لذلك آثر الأسلوب جمع القلة (أقلام) المألوف ، وابتعد عن جمع الكثرة الغريب .

---

(١) راجع روح المعانى / مجلد ٨ / جـ ١١/ صـ ٩٦ / ط. دار الكتب العلمية . بيروت ، وكذلك التحرير والتنوير / مجلد ١٠ / جـ ٢١ / صـ ١٨٢ / ط. دار سحنون . تونس .

ثم إِن جمع القلة هذا اكتسب دلالة الكثرة ، من خلال السياق الذى ورد فيه .

ولقد حاولت أن أتخيل ما أقرأه في الآية ، من تحول شجر الأرض إلى أقلام، فأعيتنى فكرة التخيل والتمثُّل، لأنني شعرت بكثرة منقطعة النظير ، حجما، وشكلا وأعدادا لا يعلمها إلا الله من هذه الأقلام ، فكرة هائلة ، وعرض موجز معجز حقا ، كلمات بسيطة في حروفها ، فضفاضة في معانيها..

(**وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ**).. والبحر.. قيل الواو للعطف أي عطف البحر على اسم إن ، وذلك لمن قرأ (البحر) بالنصب.

ولكني أميل إلى أن تكون جملة (وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ) حالا من الاسم الموصول ، فلا تتعارض مع القراءة المشهورة ؛ أي برفع البحر وبذلك يعرب مبتدأ و (يَمُدُّهُ) بعده خبر ، والواو للحال . ويكون تقديرها :

" لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاما في حال كون البحر ممدودا بسبعة أبحر " . (١)

(البحر) .. معرّف بأل للاستغراق ، فالمقصود كل بحار الدنيا* ، كل جنس البحار مما في ذلك من دلالة على الكثرة والاتساع ، فكل بحر هو مداد له من بعد نفاده .

---

(١) انظر روح المعاني / مجلد ٨ جـ١١ صـ٩٧ / ط / دار الكتب العلمية / بيروت.

*** روح المعانى / مجلد ٨ / جـ١١ / صـ ٩٧ / ط. دار الكتب العلمية . بيروت .**

ويرى شيخنا الألوسى أن " أل " في البحر عهدية ، وأن البحر يقصد به المحيط . ولكني لا أجد مبررا لما يقول وحمل معنى البحر على المحيط ، وأجد أن " أل " لاستغراق الجنس أبلغ ، وألصق بالمعنى المراد – والله أعلم .

ثم نلحظ صيغة (**يمده**) ومجيئها للمضارعة ، وإيثارها دون غيرها مثـــل : "البحر مداد " مثلا ... وذلك لأن صيغة المضارع على هذا النحو تستوفى أكثر مـــن معنى ودلالة ، فلاشك أن الفعل (يمده) يستوعب معنى المداد ، كما يزيد على ذلك بأن المداد متواصل لا يتوقف ولا ينقطع ، يُلحظ هذا من دلالـــة المضــــارع علـــى الاستمرار . وهذا بلا شك أبلغ في أداء المعنى وبيان الاتساع وعظم المداد .

(**من بعده**) .. أي من خلفه أو من ورائه ، أي البحر له مداد من سبعة أبحـــر من ورائه ، فيضان من المداد ، يعجز العقل البشرى القاصر عن تخيّل مداه .

(**سبعة أبحر**) ... نتوقف عند العدد (سبعة) ودلالته فـــي هـــذا الموضـــع .. ونتساءل ما قصة هذا العدد في الأسلوب القرآني ، فقد ورد كثيرا في مواضع متعددة منها على سبيل المثال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَـــى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩]

﴿.... كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ [البقرة : ٢٦١]

﴿.... سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ [يوسف : ٤٣]

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ : ١٢]

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ [الحجر : ٨٧]

وفى ضوء العرض السابق نجد أن العدد (سبعة) ورد كثيرا في القرآن ، فقـــد ورد ثماني عشرة مرة بلفظ (سبع) ، ومرتين بلفظ (سبعا) ، وأربع مرات بلفـــظ (سبعة) ، ومرة بصيغة (سبعون) ، ومرتين بلفظ (سبعين).

هذا إحصاء للعدد سبعة ، توقفت أمامه كثيرا ، وأنا أتساءل لماذا إيثار القرآن له دون غيره ؟ وتوصلت إلى أن العبرة ليست بخصوص العدد ، بل بدلالتـــه علـــى الكثرة، فالعرب – قديما – كانت تستخدم هذا العدد للدلالة على الكثرة ، ونزل القرآن عليهم بلغتهم التي يفهمونها ويدركون دقائقها ...

ولعل هذا ما جعل الإمام الرازي يتساءل عند تفسير قوله تعالى :

﴿... فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ... ﴾ [البقرة : ٢٩]

فيقول : " فهل يدل التنصيص على سبع سماوات على نفى العدد الزائد ؛ قلنا أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد ". (١)

ومما لاشك فيه أن في هذا القول إشارة إلى أن تخصيص العدد بالذكر ، لا يعنى خصوص العدد ، بل قد يتجاوزه . وهذا – والله أعلم– هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ ... وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ .. فالعدد هنا، ليس إلا مجرد إشارة إلى الكثرة والسعة ، وأغلب ظني كما سبق ، أنه استعمال عربي قديم لهذا العدد وله دلالات ومخزونات في العقلية العربية ، التي نزل هذا البيان المعجز عليها. *

وثمة اعتراض قد يرد على الذهن ، إذا فُسِّر العدد (سبعة) بالكثرة ، ثم يأتي تمييزه (أبحر) بوزن القلة دون الكثرة .

وللإمام الألوسى توجيه في هذا الأمر حيث قال :

" جاء تمييزها أبحر بلفظ القلة دون بحور، وإن كان لا يراد به إلا الكثرة ليناسب بين اللفظين فكما تجوّز في السبعة واستعملت للتكثير تجوّز واستعمل فيه أيضا ". (٢)

فالشيخ الألوسى يريد أن يقول أن لفظ (السبعة) يستخدم للعدد المعروف ، ولكنه استعمل في هذا الموضع من الآية للتكثير ، ومن الممكن أن يستعمل جمع القلة (أبحر) على غير ظاهر معناه ، حيث أنه للقلة ، فيستعمل تجاوزا في هذا الموضع للكثرة....

---

(١) مفاتيح الغيب مجلد ١/صـ٥٧١ / ط / دار الغد العربي .

* لقد كان الرسول " صلى الله عليه وسلم " يستخدم العدد سبعة لبيان الكثرة مما يؤكد أن هذا العدد له مخزون عربي عن الكثرة، ومن ذلك حديث النبي " صلى الله عليه وسلم " عن أبى هريرة قال الرسول " صلى الله عليه وسلم " – (يأكل المسلم في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء) .

فتح الباري بشرح صحيح البخاري مجلد ١٥ صـ١٩٧ / ط / دار الغد العربي.

(٢) روح المعاني / مجلد ٨ / جـ١١ / صـ٩٧ / ط . دار الكتب العلمية / بيروت.

ومع كل التقدير لاجتهاد عالمنا الجليل، إلا أنني أرى رأيا يضاف إلى ذلك .
لقد بينت في بداية تحليل هذه الآية ، أن الأسلوب القرآني قد آثر جمع القلة (أقلام) دون (قِلام) وذلك لشيوع الأول ، واستهجان الثاني .

وفيما يبدو للبحث أن التناسق بينَ أجزاء الآية ، استدعى أن يرد تميز (سبعة) على وزن القلة – كذلك – ليحدث ذلك التوازن اللغوي والنغمي والإيقاعي ، ولنحاول قراءة الآية بكلمة (بحور) " ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة بحور..." مما لاشك فيه إننا نشعر بنشاز الموسيقا ، بعد أن فقدت الآية النغم الصادر من إيقاع (أبحر) و (أقلام) ، والتناسق النغمي هذا ليس بالأمر الهين ، بل هو أحد وجوه إعجاز هذا البيان الخالد ، لذلك لا نستطيع إغفال هذه اللفتة.

أضف إلى ذلك صيغة (أبحر) على رغم مجيئها على وزن (قلة) ، قد اكتسبت من خلال معنى الآية ؛ دلالة (الكثرة) التي أشار إليها الإمام الألوسى .

﴿ ... **مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾ .. جواب الشرط غير الجازم (لو) وظاهر القول أن هناك إيجازا بالحذف ، حيث يفهم المحذوف من المذكور وتقديره : أنه لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتب بتلك الأقلام واستنفد ذلك المداد في كتابة كلمات الله ، ما نفدت كلماته وعجائبه اللامحدودة ونفدت الأقلام ونفد المداد لمحدوديتهما . (١)

وإيثار الأسلوب لصيغة الماضي المنفية في قوله تعالى : " ما نفدت " ؛ لدلالة تحقق ذلك واستقراره إلى قيام الساعة ، وأنه أمر غير قابل للتغير والتحويل .

---

(١) راجع روح المعاني مجلد ٨/جـ١١/صـ٩٩ / ط / دار الكتب العلمية / بيروت.

﴿ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ .. إضافة تعظيم وتقديس ، فهي ليست أية كلمات ، بل كلمات الله، بما توحي به هذه الإضافة من مهابة وإجلال ، وقد يكنى به أيضا القرآن الكريم كله ، فهي ضرب من المجاز للإيجاز، ويجوز أن يكون المقصــود بهــا علــم الله جميعه.

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .. تذييل يتوافق مع مدلول الآية وهدفها، من إثبات العزة والحكمة لله ، يزيد هذا التذييل رصانة ، ذلك التحول من الجملة الفعليــة فــي قوله تعالى : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ إلى الجملة الاسمية ، المصدّرة بأداة التوكيد (إنّ) الثقيلة.. بدلالة الاسمية على ثبات المعنى ورسوخه- والله أعلم - .

ج ــ البحر واللحم الطري ، والحلية ، والعذب الفرات :

هذه صورة أخرى من صور توظيف البحر ، باعتباره عنصرًا عظيمًا مــن عناصر الكون.واتضح فيما سبق ، أن هذا العنصر تم توظيفه أكثر من مرة ، في بيان طلاقة القدرة الإلهية ، وقد وظّفه الأسلوب القرآني مرة بالتسخير ، وأخــرى ببيــان حركة الفلك ، وثالثة في بيان سعة وامتداد علم الله عزوجــل، وعجائبــه التــي لا تنتهي..

والمشهد الكوني الذي نبحثه الآن ، يبرز محورًا جديدًا من محاور القــدرة ؛ حيث يبين نعمة الله وقدرته في هذا العالم .. عالم البحــار ، ذلــك العــالم الملــيء بالخيرات والنعم ، ومنها تلك الأسماك ذات اللحم الطري....

وقد ورد ذلك اللفظ (لحما طريا) في الأسلوب القرآني كله مرتين على النحــو التالي:

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٤]

٢- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر : ١٢]

العرض الموضوعي:

وردت الآية الأولى في سورة النحل ، تلك التي تسمى – أيضا – بسورة النعم ، حيث وردت في سياق الحديث عن نعم الله . فبدأت بالحديث عن خلق السماوات والأرض ، ثم بيَّنت طلاقة القدرة في خلق الإنسان والأنعام ، وكذلك تعرضت لنعمة إنزال الماء من السماء ، ثم تسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ثم تسخير البحر ....

والآية تعتبر مشهدا كونيا عظيما ، خطوطه وألوانه البحر بشكله ولونه ، واللحم الطري ، والحلية بتعدد أشكالها وألوانها ، والفلك المواخر بتنوع هيئاتها وأحجامها.

والإطار العام لكل هذا بلا شك ، هو البحر المسخَّر بما فيه من نعم من أجل الإنسان ، فمنه نأكل الأسماك بأنواعها ، وكذلك نستخرج اللؤلؤ والمرجان ، أضف إلى ذلك حركة الفلك ، وتوفير التهيئة اللازمة لتلك الحركة من تسخير للماء ، وخلقه على نظام معين يسمح بحركة هذه الفلك ، إلى تسيير الرياح وجريانها بصورة طيبة، لكل هذه العوامل التي تساهم في جريان السفن لابتغاء رزق الله وفضله .

أما **الموضع الثاني** من سورة فاطر أو الملائكة :

فقد ورد في عقب مجموعة من الآيات، تبين قدرة الله عزوجل ؛ من تسيير الرياح وإثارة السحاب ، وإنزال المطر والإحياء ، وضَرْب المثل بذلك ، في الإحياء والبعث ، كما بينت هذه الآيات وكشفت عن دقة خلق الله للكائن البشرى ، وإحاطه علمه لكل شيء . ﴿.. وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر :١١]

وهكذا إلى قوله تعالى :

﴿ ... وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ... ﴾ وقد فسَّر بعض المفسرين قوله تعالى السابق ، بأن المراد التمثيل بذلك للمؤمن والكافر فالمؤمن يشير إليه بالعذب الفرات ، والكافر هو الملح الأجاج . (١)

وهذا التوَجه في التفسير ، يبدو تَزَيُّدا على النص القرآني ؛ لأن دلالة النص واضحة من خلال السياق ، ثم إن مفردات النص القرآني ذاته ، لا تتناسق مع هذا التفسير ، فالسياق كله يشير إلى هدف أسمى من ضرب هذا المثل ، المشار إليه سابقا ، فالمقام مقام بيان ، وإعجاز لدقيق وعظيم صنع الله . وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ..﴾

كذلك فإن الآية مجال واسع خصب لبيان واسع عطاء الله ، من اللحم الطري ، والحلية ، والفلك المواخر لابتغاء الفضل .

---

(١) انظر الكشاف مجلد ٣ / صـ٣٠٣ / ط / دار الفكر ، وكذلك مفاتيح الغيب / مجلد ١٣ /صـ٣٣ / ط . دار الغد العربي .

التحـــليل الفـــني :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[النحل : ١٤]

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر : ١٢]

عند التعرض لهاتين الآيتين ، نجد تشابهًا كبيرا بينهما ، فهل هذا من باب التكرار أو إعادة الإشارة ؟!

في حقيقة الأمر ، يبدو أن هناك تشابها شديدًا ، بل تماثلا في بعض مفردات الآيتين ، وهو مما لاشك فيه تكرار ، ولكنه تكرار موجَّه ، له أسراره ولطائفه .

وسوف يتضح ذلك من خلال التحليل على المحاور الآتية :

أ – الإطار العام والهدف :

في سورة النحل ، ذكرنا أنها تبرز تعدد النعم والهبات الإلهية ، ولذلك سُميت بسورة (النعم) ؛ لما فيها من عطاءات ومنح ، ولهذا فالسياق فيها يتجه لبيان هذا الهدف .. أي واسع عطاء الله وفضله ، بما يتضمن ذلك من إبراز لطلاقة القدرة ... أي أن سعة العطاء وتعدده ، تأتي في المنزلة الأولى لمقاصد السورة.

بينما في سورة الملائكة ، فإن الإطار العام والهدف ، ليس بيانًا لسعة العطاء بالدرجة الأولى ، بقدر ما هو بيان لدقة وإحكام صنع الله ، بما يتضمنه ذلك من إبراز طلاقة القدرة ثم سعة العطاء .

أي أن دقة الصنع وإعجازه في المنزلة الأولى لمقاصد السورة ، ثم سعة العطاء تلى ذلك . وعلى ذلك فالهدف الرئيسي بين الموضعين مختلف ، وإن اتفقتا بعد ذلك في الفرع ...

ب – تصدير الآيتين :

تصدّرت آية (النحل) بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ...﴾ ولا يخفى ما في هذا التركيب الإسنادى ، من دلالة على الحصر والقصر ، وإسباغ الهيمنة والقدرة على المعنى ، ولقد تعقبت هذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم ، وأطلقت عليها ظاهرة (وَهُوَ الَّذِي) و (الله الذي) ووضحت أنها تأتى دائما في سياق التعبير عن طلاقة القدرة الإلهية ، وسيطرتها اللامتناهية ، وأوضحت كذلك أنها لا ترد إلا ويعقبها أمر عظيم ، مثل تسخير الشمس والقمر ، أو الليل والنهار ، أو تصريف الرياح، أو كما في هذا الموضع ، تسخير البحر ، المهم أنه دائما يعقبها إعجاز كوني مذهل ، جدير أن يسبق بهذا القول المزلزل ﴿ وَهُوَ الَّذِي .... ﴾ وكأن هذا التصدير يقرع الآذان ، لتلتفت لأمر عظيم يرد بعده ، والأمر العظيم هنا .. هو " تسخير البحر" ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من دلالة التذليل ، والتوطئة ، والتهيئة للانتفاع بهذا العنصر الكوني العظيم ، من ركوب وإرفاء وغوص وسباحة وصيد ، وابتغاء للفضل .

بينما في سورة فاطر، نجد الآية تتصدر بنفي يثير الذهن لاستقبال ما بعده ، فعلى الرغم من خبرية الأسلوب ؛ إلا أنه كان أدعى إلى التشويق ، وإثارة فضول المتلقي . فنجد الآية تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ...﴾

عن أي بحرين تتحدث الآية ؟ ثم يرد التفصيل والتوضيح بعد هذا الإجمال والإبهام.... ﴿ ... هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ..﴾.

عَذْبٌ فُرَاتٌ : " هو الماء العذب".[١] ومن ثَم كانت تسمية أحد نهـرى العـراق بالفرات . **سَائِغٌ شَرَابُهُ** ... سَائِغٌ اسم الفاعل ، من الفعل (ساغ) والمقصـود بـه سهولة التناول والبلع ، لأنه طيب فرات ، فهو " من ساغ الشراب في الحلق سَـهُلَ انحداره" . [٢]

وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. المِلْحُ معروف ، وليس المِلْحٌ كالمالح حيث " لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح ، وإنما يقال له مِلْحٌ .. وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه مِلْحٌ حتى مَلُحَ لا يقال له إلا مالح ، وماء مِلْحٌ يقال للماء الذي صار من أصـل خلقته كذلك ". [٣]

وهذا التفسير للمِلْحِ والمالح ، تفسير دقيق جليل من الإمام الرازي ولا يتعارض مع السياق ، بل على العكس ، يوضح ويبرز إعجاز الأسلوب على مستوى اللفـظ والكلمة ، فاختيار كلمة بعينها دون غيرها ، يدل دلالة قاطعة لـيس علـى جمـال الأسلوب القرآني فحسب ؛ بل على دقته ورصانته .. وأقصد بذلك اختيار الأسـلوب لكلمـة (مِـلْحٌ) دون (مالح) ، حيث آثر الأسلوب اللفظ الأول ، وعـدل عـن الثاني ، لما في كلمة (مِـلْحٌ) من عمق معنوي ، ولغوي يتوازن مع كلمة (عذب) فالتقابل هنا لا يقف عند حدود المعنى ، وإنما يتعدى ذلك إلى التقابل في أصل الخلق والصنع ، وما يتبع ذلك من اختلاف طبيعة كل من البحرين ، وتباين ما بينهما مـن صفات .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف وذلك التباين ، إلا أن المنافع فيهما مشـتركة ومتشابهة ومتعددة ، مما يؤكد بالضرورة الحتمية ، والأدلة العقلية أن لهذا الكون إلهًا وخالقًا حكيمًا قادرًا ، بل الأمر يتعدى القدرة إلى طلاقة القدرة .

---

(١) بصائر ذوى التمييز / جـ٤ / صـ١٧٧ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب/ صـ٢٢٤ / ط . المكتبة التوفيقية .

(٣) مفاتيح الغيب / مجلد ١٣ / صـ٣٤ / ط .دار الغد العربي .

وانظر التحرير / مجلد ١١ / جـ٢٢ / صـ٢٨٠ / ط . دار سحنون .تونس .

ولهذا أشرت سابقا ، أن آية سورة فاطر ، تهدف في المرتبة الأولى إلى إبراز معنى خاص جدا ، عبرت عنه الآية بدقة بالغة ، وأقصد بذلك المعنى ، إبراز الدقة والإحكام في عجيب صنع الله من خلقه ، على غرار قوله تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[الرحمن ١٩ :٢٣]

فهذه وتلك ، لفتة وإشارة إلى التأمل في عجيب هذا الصنع ، وإحكام ذلك التدبير.

" **الأُجَاج** " : الشديد الملوحة لدرجة المرارة ، وهو كذلك شديد الحرارة من قولهم أجِيجُ النار. (١) ، وتقابل هذه الكلمة في السياق لفظ (الفرات) ، بدلالتها على الماء العذب ، ليتأصل نفس المعنى والهدف ، وهو عظيم القدرة في دقة تلك الكونيات المتضادة ...

ونلحظ أن النسق القرآني في قوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ...﴾ قد استفاض في الوصف ، وكان مقتضى الظاهر للسياق ، أن يتوقف عند قوله تعالى : ﴿ عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قياسًا على قوله : ﴿ .. مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴾ فما سبب هذا التحول عن مقتضى الظاهر ؟

في تصوري – والله أعلم – أن الاستفاضة في وصف العذب الفرات ، بأنه (سَائِغٌ شَرَابُهُ).. هي أيضا دليل على دقة هذا الأسلوب القرآني ؛ لأنه قد يكون الماء عذبا فراتا ، ولكن لا يسوغ لشاربيه ، ولا يروق لهم ، بل هو أداة لكسر العطش وحسب ، ولكن دقة الأسلوب وبيان سعة الفضل وكرم العطاء ، اقتضت وصف الماء الفرات بأنه (سَائِغٌ شَرَابُهُ) .

---

(١) المفردات في غريب القرآن / صـ٢٠ / ط .المكتبة التوفيقية .

وذلك على غرار قوله تعالى في بيان عظيم المنة وكمال النعمة :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء :٥٧]

وكان من الممكن ، أن يقتصر الأداء القرآني ، على لفظ (جَنَّاتٍ) بما تحمله من دلالة ، ولكن تأكيدا على سعة الفضل والعطاء ، أتم الوصف بأنها تجرى من تحتها الأنهار، وفيها الأزواج المطهرة ، والظل الظليل ...

وكذلك قوله تعالى في السورة نفسها:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦]

ولا يخفى كذلك دقة الاستعمال اللغوي ، في إيثار صيغة اسم الفاعل (سائغ) عدولاً عن (يسوغ) مثلا ؛ لأن الأولى تتميز بالجمع بين الثبات الناتج عن اسمية الجملة ، وكذلك بالاستمرار لقربها من صيغة الفعل في معناها ....

ج – البناء الأسلوبي :

بعد الانتقال من تلك المقدمة التصديرية في الآيتين ، نلحظ التشابه العظيم في المفردات والألفاظ ، بل في البناء الأسلوبي ككل ... على النحو التالي :

بعد المقدمة القصرية الحصرية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ... ﴾ يرد التعليل بقوله تعالى : ﴿ ... لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا... ﴾ ؛ لبيان جزء من علة هذا التسخير ، ويرد التعليل بصورته المعروفة ، من خلال المضارع المتصل بلام التعليل ، ثم يأتي الجار والمجرور (مِنْهُ) المتعلق بـ(لِتَأْكُلُواْ) ،ولكن السياق يختلف عن ذلك النحو في آية فاطر، حيث يرد بعد التصدير المشار إليه قوله تعالى :

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ، متصدرا بالجار والمجرور ، فآثر السياق هنا تقديم الجار والمجرور على الفعل (تأكلون) ؛ ولعل هذا التحول عن سياق آية النحل ، للهدف نفسه المشار إليه من الآيتين ، فآية فاطر ، تؤكد على معنى عظم الخلق ودقته ؛ ولذلك تقديم الجار والمجرور (وَمِن كُلٍّ) إشارة إلى البحرين ، بينما المعنى الأساسي في آية النحل ، بيان لعطاء ونعم الله ، تلك النعم التي تمتد في سورة النحل كلها ، ولذلك ورد الفعل (لتأكلوا) ؛ للتأكيد على النعم الموهوبة من الله عزوجل ، فهذا التسخير لتأكلوا ، ولعل الطعام والأكل ، من أول احتياجات واهتمامات بنى الإنسان ، ولذلك ورد السياق في آية النحل على ظاهره من تقديم (لتأكلوا) ، ثم الجار والمجرور المتعلق به (مِنْهُ) بينما في آية فاطر ، عدل عن ذلك إلى تقديم الجار والمجرور (مِن كُلٍّ) .

لَحْمًا طَرِيًّا .. يُكَنى بها عن السمك ، بكل أنواعه وفصائله ، وقد اختلف المفسرون حول تفسير لفظ (طَرِيًّا) ، وعلة وصفة بهذه الصفة ، وأبان الإمام الألوسى أن :

" وصفه بالطراوة للإشعار بلطافته ، والتنبيه على المسارعة إلى أكله ، لئلا يتسارع إليه الفساد ". (١)

وفيما يبدوللبحث – والله أعلم – أن المقصود بـ (لَحْمًا طَرِيًّا) أشمل وأعم من المتقدم في القول السابق ، وأتصور أن هذا الوصف ، ما هو إلا إشارة علمية لمعجزة كونية ، وهى هذا اللحم الطري ، المكنّى به عن الأسماك ، حيث إن هذه الطراوة لها مدلول علمي ثبت حديثا ، وذُكِر في الآونة الأخيرة كثيرا في الصحف السيارة ، فقد أشار العلماء إلى أهمية غذاء السمك ، في مقاومة الأمراض ، والوقاية من كثير من الأمراض الفاتكة ، موضحين أن طبيعة خلقة السمك على هذه الكيفية ؛

---

(١) روح المعاني / مجلد ٨ / جـ١١ / صـ٣٥٢ / ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

جعلته كذلك أفضل أنواع البروتين ، وأقلها ضررا وأبسطها هضما ، لبساطة نسيجها وتركيبها. (١)

وأظن – والله أعلم – أن بساطة هذا النسيج ، ماهو إلا صفة الطراوة التي أشار إليها الأسلوب القرآني سابقا ، فالأمر أعظم من أن صفة الطراوة ، لكونه يسرع إليه الفساد أو غير ذلك مما قيل ....

وقد آنست في هذا التحليل – كذلك – إلى إيثار الأسلوب القرآني لصيغة النكرة في قوله تعالى : (لَحْمًا طَرِيًّا) بدلالتها في هذا الموضع ، على تعظيم هذا اللحم ، وتفخيم فائدته ...

أما النعمة الثانية التي أشارت إليها آية النحل ، وكذلك آية فاطر ، فهي استخراج مكنونات هذه البحار ، وذلك في قوله تعالى في سورة النحل :
﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (١٤) ، وفي قوله تعالى في سورة فاطر :
﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (١٢) ، ونلاحظ عند المقارنة بين الآيتين أن آية النحل، قد ذكرت الجار والمجرور (مِنْهُ) المتعلق بـ (وَتَسْتَخْرِجُواْ) ، بينما حذف ولم يُذكر في آية فاطر ، فما سر الإثبات هناك والحذف هنا ؟

نلحظ في آية فاطر أن الأسلوب ، قد قدّم الجار والمجرور (مِن كُلٍّ) ، وبالتالي أجد أن لا قيمة لإثبات الجار والمجرور بعد الفعل (وَتَسْتَخْرِجُون) ، وخاصة أنه سوف يكون بصيغة المثنى (منهما) ، وأنه لو أثبت وقرئ على هذا النحو(ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون منهما حلية تلبسونها) لانكسر الأسلوب ، وذهبتموسيقاه ، بطريقة ينبو الأداء القرآني عنها .

---

(١)انظر كتاب (من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) جـ٢ / د. زغلول النجار صـ ٢٧ ، ٢٨ / ط / مكتبة الشروق الدولية .

بينما السياق مختلف في آية النحل ، وتكرار الجار والمجرور (مِنْهُ) يؤكد على عظم هذه النعم ، وكما سبق القول فسورة النحل ، هذا هدفها الأول ، فهي سورة النعم.

(حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) ... قالوا هي اللؤلؤ والمرجان ، والصدف وما يخرج من البحار ، وذكر بعض المفسرين أنها حُلى للنساء فقط ، دون الرجال " والمراد : بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم ، ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ". (١)

وفيما يبدو للبحث ، أن هذا تحميل للآية فوق معناها ... فالمعنى على ظاهره واضح ، من أن هذه الحلية يلبسها الجميع ، وهذا ظاهر في قوله تعالى :

﴿ ... وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾ هكذا على إطلاق اللفظ ، دون تحديد لنساء أو رجال ، فلماذا نتأول على الآيات ، ونخص النساء من دون الرجال ؟! فاللؤلؤ والمرجان ، والماس وما شابه ذلك، ليس محرمًا على رجال المسلمين ، فلماذا إذن تم تفسير الآية من قبل البعض على هذا النحو ؟!

وصحيح أن النساء ، أكثر استعمالا لهذه الحلية من الرجال ، ولكن الأمر بينهما في ذلك مشترك بنص الآية ، وعلى هذا يجوز اعتبار الرأي السابق للرازي على التغليب – فقط – باعتبار النساء أكثر ميلا للزينة من الرجال ، وليس على سبيل المنع والتحريم ، واختصاص المرأة بهذا الذكر دون الرجال .

ونأنس في هذا إلى ما ورد عن الإمام القرطبى حيث قال :

" امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير".(٢)

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ٩ / صـ٤٩٤ / ط . دار الغد العربي .

(٢) تفسير القرطبى / مجلد ٥ / صـ٣٨١١ / ط .دار الغد العربي .

والحلية كما سبق القول ، يُكَنّي بها في الآية ، عن اللؤلؤ والمرجان وما يشبههما ، فهل تستخرج هذه الحلية من العذب الفرات ، والملح الأجاج سويا ؟ أم من الملح الأجاج فقط ؟

أشار الإمام الألوسى إلى اختصاص البحر المِلْحِ فقط بهذا الاستخراج، وهذا قوله : " والحلية التي تُستخرَج من البحر المِلْحِ اللؤلؤ والمرجان .. ولا نعلم حلية تستخرج من البحر العذب ". (١)

ولكن العلم الحديث يؤكد على أن الاستخراج مشترك بين البحرين ، ولا يقتصر على البحر المِلْحِ فقط ، وقد وضح الأستاذ/ مدحت حافظ * ذلك قائلا :

" وبديهي أن بعض الحلي ، تستخرج من البحر المالح ، وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة ، مصدرا للحلي أيضا ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك .

أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى ، من صدفيات الأنهار . فتوجد اللآلئ في المياه العذبة في إنجلترا واسكتلندا واليابان" . (٢)

وفى تفسير آية الرحمن ﴿ ... يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ... ﴾ ذكر الدكتور/ زغلول النجار أن : " اللؤلؤ يحيا في الماء العذب ، والماء المالح ، والمرجان لا يحيا إلا في الماء المالح " . (٣)

ومادام العلم الحديث لا يتعارض مع النص القرآني ولا يصطدم به ، فيجب أن نستفيد منه في تفسير تلك الكونيات ، وعلى هذا فلا تناقض في قوله تعالى في آية فاطر ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٨ / جـ١١ / صـ٣٥٢ / ط . دار الكتب العلمية . بيروت.

* هو المستشار مدحت حافظ / مؤلف كتاب الإشارات العلمية في القرآن الكريم .

(٢) الإشارات العلمية في القرآن الكريم / المستشار . مدحت حافظ صـ٧٩ / مكتبة غريب .

(٣) من آيات الإعجاز في القرآن الكريم . د.زغلول النجار جـ٢ / صـ٢٢ / مكتبة الشروق الدولية .

فظاهر الآية أن قوله تعالى : (مِن كُلٍّ ...) ، يفيد اشتراك المِلْحِ ، والعذب في هذه الخاصية ، وقريب من ذلك ما ورد في قول د. زغلول النجار ، من أن اللؤلؤ يوجد في البحرين المالح والعذب . وهذا إن دل ، إنما يدل على دقة النظم القرآني وبديع صنع الله .

أما صيغة الفعل (تستخرجون) ، بزيادة السين والتاء ، فهي لافتة للنظر ، حيث عدل الأسلوب عن الفعل الثلاثي تأكلون في قوله تعالى :

﴿ ... وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ...﴾ ، إلى الصيغة المزيدة (تستخرجون) في قوله تعالى : ﴿ ... وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وهذه دقيقة لغوية من دقائق الأسلوب القرآني ، فالأكل لذيذ ، سهل المتناول ، ويحدث دون مجهود ، لذلك وردت صيغة فعله ، يسيرة مجردة من حروف الزيادة ؛ التي قد تزيد المعنى ملمحا أو آخر،

بينما استخراج تلك الجواهر واللآلئ من البحار ، يحتاج إلى همة واجتهاد في الحصول عليها ، فهي ليست يسيرة التناول ، ولذلك آثر الأسلوب صيغة الفعل المزيدة بالسين والتاء؛للدلالة على الاجتهاد في الحصول عليه طلبا له وبحثا عنه. (١)

وتعتبر هذه النكتة إشارة بليغة وموجزة ، إلى المعاناة في الاستخراج ، وضرورة بذل الجهد لذلك ، تلك المعاناة وهذا الجهد الذى عبرت عنه صيغة الفعل (يستخرج) دون غيرها ... فسبحان الله العظيم على دقة هذا الأسلوب المبين.

ولا يفوتنا في هذا المقام ، أن نشير إلى الاهتمام العظيم لذلك البيان المعجز ، بالقيمة الجمالية ، فهذه الآية لفتة حية وواضحة إلى احتفاء الأسلوب القرآني بالجمال والزينة ، والتعبير عن ذلك بلفظ (حِلْيَةً) بما له من دلالة على التجمل والتزيُّن .

---

(١) انظر شذا العَرف / فصل في معاني صيغ الزوائد / صـ٤٤ / ط . المكتبة الثقافية . بيروت .

ثم نلحظ انعطافا واضحا في كلتا الآيتين ، حيث يتحول أسلوب الخطاب من الجمع إلى المفرد على النحو التالي :

(١) سورة النحل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ ....[١٤]

(٢) سورة فاطر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ....[١٢]

يظهر هذا التغيير واضحا ، بعدما تحول الخطاب فجأة إلى المفرد ، من الجمع سابقا ولاحقا ... فما دلالة هذا التحول ، وقد تعلمنا من خلال البحث ، أن مثل هذا الانعطاف في الأسلوب ، لا يأتي إلا وله دلالة جديدة ، يجب التوقف عندها ...

وفى تفسير هذا التحول يقول تاج القرّاء الإمام الكرماني :

" أنه اعتراض يجرى مجرى المثل ، ولهذا وحّد الخطاب وهو قوله: "وَتَرَى" وقبله وبعده جمع " . (١)

وهو في حقيقة الأمر، اعتراض فعلا بين الجمل المعطوفة ، ولكن ما سره ؟ وما دلالته ؟

ولقد حاولت أن أتدبر هذا الأمر ، واستكنه دلالة هذا التحول ؛ لأنني على يقين أن هذا الانعطاف الأسلوبي ، لابد وله مغزى ودلالة ، وتوصلت بفضل الله إلى أن هذا التحول طبيعي ، نتيجة لاختلاف المخاطب فعلا ، فالخطاب السابق على الفعل (ترى) واللاحق له ، موجّه إلى من في البحر ، ومن يبحرون ويصطادون ويستخرجون الحلية ، فالخطاب السابق كله ، يدل على أنه خطاب لمن في الماء وينتفعون بها.

---

(١) أسرار التكرار في القرآن / للكرمانى / صـ١٥٨ / ط / دار الفضيلة .

والخطاب اللاحق كذلك في قوله تعالى : (وَلِتَبْتَغُـواْ – وَلَعَلَّكُـمْ) ، بينمـا الخطاب في (ترى) للإفراد ، فهو للمخاطب المفرد عامة . لكل من يتلقـى هـذا الخطاب في البحر ، أم خارجه وخصوصا من هم خارجه ، ويتتبعون حركة الفلـك فيه ، فهو تحوُّل من الجمع إلى المفرد ، وانتقال خطاب من الخاص إلـى العـام . ليتأمل الإنسان عظيم نعمة الله – والله أعلم – .

واستعمال الفعل (ترى) بدلالته على المشاهدة والتحقق ، يبين ويدل على أن نعم الله ظاهرة واضحة ، ولا تحتاج إلى دليل ، فهي جلية بالرؤية والتدبر .

وقد اعتبر الإمام الكرمانى : " أن الرؤية هنا ظنية ، لأنه اعتبر أن مـواخر.. مفعول به ثان. [1] والميل أن تكون مواخر حالاً ؛ لأن الرؤية هنا عينية ، وليسـت ظنية. على الأرجح – والله أعلم – .

ومن دقائق الأسلوب في الآيتين ، الجار والمجرور الظرفي (فيه) ، حيث ورد في آية النحل ، بعد " مواخر" في قوله تعالى : ﴿ ... وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ... ﴾ وورد في آية فاطر، قبل " مواخر" في قوله تعـالى : ﴿ ... وَتَـرَى الْفُلْـكَ فِيـهِ مَوَاخِرَ.. ﴾ فما علة بعدية الظرف في الأولى ، و قبليته لمواخر في الثانية ؟

نعود مرة أخرى إلى ما سميته الإطار العام للآية ، وقد بينت فيـه الهـدف الرئيسي من كل آية على حدة، وأوضحت أن الهدف العام والرئيسـي ، فـي آيـة النحل، هو بيان تعدد نعم الله وتنوعها ، وعلى هذا الـنهج ، ورد الظـرف (فيـه) متأخرا على (مواخر) لأن الأهمية هنا للمتقدم ، ونعمة مخور الفلك في المـاء هـي المقصودة ؛ ولذلك قدَّم الأسلوب (مواخر) على الجار والمجرور(فيه) ، لأهمية تلك النعمة وفضل ذلك العطاء ، بينما في آية فاطر ، فـالأمر مختلـف ؛ لأن المعنـى الرئيس ، هو الالتفات والتنبه إلى عظيم ودقيق صنع الله في خلق البحر، بهذه

(١) انظر أسرار التكرار في القرآن / للكرمانى / صـ١٥٨ / ط / دار الفضيلة .

- الطبيعة المختلفة بين الفرات والملح ؛ ولذلك تقدم الظرف (فيــه) لأن الهــدف الأعظم هنا ليس مخور السفن ، بل الإعجاز في خلق البحــرين ؛ بــذلك التمــايز والتميُز ، ومن هنا كان تقديم (فيه) هو الأدق والأنسب للسياق ... والله أعلم.

ثم نجد في آية النحل قوله تعالى : ﴿ ... وَلِتَبْتَغُواْ من فَضْلِه... ﴾ معطوفا على ما قبله ، بينما في آية فاطر نجد قوله تعالى : ﴿ ... لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ مباشرة دون عطف ، فما سبب هذا التباين على دقته وبساطته ؟

وهذا أيضا يفسره ما سبق ذكره ، من أن الهدف الرئيسي الذي تؤصله الآية ، ينتظم سياقها ويحدد مفرداتها ، وأقصد بذلك أن إيثار الأسلوب للعطف في آية النحل يعمّق ذلك الهدف الرئيسي للآية ، بل للسورة كلها من بيان الفضل وتعــدد الــنعم ، ومما لاشك فيه أن العطف في قوله : ﴿...وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْــلِه.. ﴾ تحــوُّل يبــرز ويكشف عن هذه النعمة الجليلة ، وهى ابتغاء طلب الفضل والــرزق عــن طريــق البحر، وكأنها نعمة مستقلة عما سبقها ، فتضاف هذه النعمة إلى ما قبلها ، وتصــبح من جملة النعم ، فيرسخ بها المعنى العام ، ويتواصل .

بينما آية فاطر، هدفها إبراز دقة الصنع الإلهي وعجائبه ؛ لــذلك ورد التعليــل مباشرة دون العطف ، وهذا أيضا كان أدق في موضعه .

﴿ ... **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ... ﴾ .. عجز متناسق لصدر كل من الآيتين ... أي أن كل ما تقدم ، يستوجب شكر الله المنعم المسخرِ المذلل .

ومن خلال هذا العرض وذلك التحليل ، يتضح لنا كيف أن العناصر الكونيــة ، كانت وسيلة من أهم وسائل الدعوة إلى الله عزوجل ، وأن الكون ومشــاهده كانــت ومازالت ، دليلا حيا على قدرة الإله القادر المهيمن ، تلك القدرة التي تُوجِد من عدم بطلاقة وبلا حدود .

فيَد الله القادرة المنطلقة فى هذا الكون تحيط بنا فى كل زمان مكان ، ولنتأمل قوله تعالى في سورة الرحمن :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[الرحمن ١٩ :٢٣]

أي إعجاز هذا ، بأن يلتقى البحران ، العذب والأجاج ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ، ولا يختلط هذا بذاك ، أي عقل يستوعب هذه القدرة المطلقة ، هـذا عـذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، يتجاوران ولا يمتزجـان ، ويتعجـب العقـل البشـرى ويندهش، ولا يجد تفسيرًا ، سوى أنها طلاقة القدرة ، فيلهج لسانه ، وقلبه بحمد الله ، وسبحان الله العظيم .

<u>تعـقـيـب :</u>

هناك وجوه عظيمة ، وضحها الدكتور / زغلول النجار ، لتسخير البحـار ، وقد كشف عنها التطور العلمي يقول :

" البحر يعين على تنقية الجو ، وعلى تحرك الرياح ، وعلى إنزال الأمطار ، وعلى أمور كثيرة للإنسان ، أمواج البحر تكسر الصخور، وتكون رسوبيات يتكـون مـن خلالها كم هائل من الثروات المعدنية التي تتجمع على شواطئ البحار ، وهذا مـن قبيل التسخير" .[١] ثم أضاف لذلك نعمة تسيير الفلك ، وتسخيرها مشيرا إلى قولـه تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٤]

(١) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم جـ٢/ صـ٢٦ / مكتبة الشروق الدولية .

ثم يقدم الدكتور / زغلول النجار ، وجها آخر من وجوه تسخير البحر ، وهو طبيعة هذا السائل المهم (الماء) حيث يوضح أن طبيعة تركيب الماء ، طبيعة خاصة ، فهو السائل الوحيد الذي تقل كثافته عند تجمده ، بخلاف كل السوائل يحدث فيها العكس ، فتلك نعمة كونية مبهرة . يقول : " أي مادة من المواد كثافتها السائلة أقل من كثافتها عند التجمد ، الماء هو المادة الوحيدة التي عندما تتجمد تقل كثافتها ، وذلك لحكمة ربنا ، لأن الماء إذا تجمد يطفو على السطح ، ويبقى الماء دونه دافئا فلا يقضى على الحياة في أسفل السطح " . (١)

وهذا يعنى أن الماء لو تجمد من أسفل إلى أعلى ؛ لانتهت حياة الأحياء المائية ، وفقدنا كثيرا من النعم ، منها نعمة اللحم الطري المشار إليها في موضع الدراسة .

وهذا غيض من فيض ، فوجوه التسخير والتذليل كثيرة ومتعددة ، أليس في خلق البحر ، وإيجاد مائه على هذا النحو معجزة ؟ التناسب في نسبة الملوحة ، كثافة الماء ، حركة الأمواج ، طبيعة الماء الملساء ، التي تسمح بسير الفلك وحركتها ، قابلية الطفو ، وتهيئة بعض المواد لذلك مثل الأخشاب ، ، تنقية الجو ،... فسبحان الله العظيم ، وسبحان ربك ، رب العزة عما يصفون .

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم / جـ٢ / صـ٢٧ / مكتبة الشروق الدولية .

المبحث الثالث

مفردات الأرض وخلق الإنسان

تمهيد :

هذا هو المبحث الثالث في هذا الفصل ، يتناول دراسة بعض الآيـات الكونيـة التي تتعلق بمفردات الأرض. وترتبط بخلق الإنسان مثل التراب والطين ، وكـذلك النطفة والعلقة ، وما يتعلق بمراحل خلق الإنسان .

وقد قسّمت هذا المبحث إلى محاور ثلاثة ، حتى أتمكن من تناول الآيات موضع الدراسة بطريقة موصَّفة تبين الغرض الذي تخدمه ، والهدف الذي تهدف له ، وكانت هذه المحاور على النحو التالي :

أ – توظيف التراب والطين في بيان الخلق الأول للإنسان .

ب– أطوار خلق الإنسان .

(التراب ، النطفة ، الماء المهين والدافق ، العلقة والمضغة).

ج– توظيف " الطين " في بيان كفر وعناد إبليس .

أ – توظيف التراب والطين في بيان الخلق الأول للإنسان :

ويتناول المواضع الآتية :

١- ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾
[آل عمران : ٥٩]

٢- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾
[الأنعام : ٢]

٣- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠]

٤- ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾
[الصافات : ١١]

العرض الموضوعي :

المحور الأساسي للمواضع الأربعة السابقة ، بيان أصل خلق الإنســان ، وأن هذا الكائن البشرى المعجز ، أصوله ترجع إلى التراب والطين ، باعتبار الأصــل ، وهو نبي الله آدم عليه السلام ... وقد وظّف الأسلوب القرآني تلك المعجزة الكونية ، أقصد خلق الإنسان ، لإثبات عقيدة التوحيد ، فالإنسان نفسه ، وفى ذاته معجزة حيّة ناطقة بعظمة الله وطلاقة قدرته ، ومن هنا وظّفت هذه المعجزة لخدمة عدة محاور وهى :

أ- التوحيد ، من خلال إثبات بشرية عيسى عليه السلام ، فهو بشر وليس إله ولا ابن إله .

ب- مناقشة الكفار، والمشركين المنكرين لوحدانية الله وطلاقه قدرته ، ويعدلون بالله مالا ينفعهم ولا يضرهم .

ج- مناقشة المعاندين ، المتشككيين في البعث ، وإثبات أن الله عزوجل ، أقدر ما يكون على ذلك .

ويتضح من ذلك ، أن مسألة خلق الإنسان ، وهو أبرز العوالم الكونية المحسوسة ، كانت من أهم وسائل الأسلوب القرآني ، للاستدلال على وحدانية الله عزوجل وتفرده ، والإقرار له بطلاقة القدرة .

الموضع الأول :

التحليل الفني :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾
[آل عمران : ٥٩]

ترد هذه الآية في سياق إبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله ، ومن جعلوا له شركاء أو أبناء ، وبيان طبيعة خلق " عيسى " عليه السلام ، والتوعد للكافرين بعذاب عظيم ؛ لذلك كان من الطبيعي أن تتصدر الآية ، بهذا التوكيد : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى) ؛ ليدحض أوهام النصارى ، وأباطيلهم ويضع الأمور في نصابها ليعتدل الميزان ، ويكفوا عن ادعاءاتهم .

وتُعرَض هذه الحقيقة من خلال مثلٍ [1] مقنع صادق ، وتلك هي سمة الأسلوب القرآني ، الذي يناقش بالحجة ، ويخاطب العقل بالمنطق ، والفكر الواضح ، لذلك نجد أن الأسلوب القرآني ، آثر في مثل هذه القضية الشائكة ، من ادعاء النصارى بألوهية عيسى ، بسبب غرابة مولده ، أن يتبع طريقة المثل ، في العرض والاستدلال .. على النحو التالي : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ...﴾
القضية واضحة ، وعلاقة " عيسى " عليه السلام بالله عزوجل ، كذلك واضحة ...

---

(١) ملحوظة .. على الرغم من أن هذه الآية تقوم على التمثيل ، إلا أننا فضلنا أن ندرس في هذا الفصل ، عدولا عن مبحث الأمثال الكونية في الباب الثاني ، ولذلك لأنها ألصق بخلق الإنسان ، وأوضح في دلالتها في هذا الموضع .

ويلفت النظر هذا الاعتراض .. (عِندَ اللّهِ) ، فلم يقل : " إنَّ مَثَلَ عِيسَى كَمَثَلِ آدَمَ " مباشرة ، وتأمل الأسلوب ، تشعر بإعجازه .. إن المحك الأساسي في هذه القضية هو (نسبة عيسى إلى الله عزوجل) ، ولذلك يرد المثل واضحا صريحا ، يعترضه قوله تعالى : ﴿ ... عِندَ اللّهِ ... ﴾ للتأكيد على حقيقة المماثلة ، ووضوح العلاقة ... فهو مثل آدم ، فلماذا لا يدعون ألوهية " آدم " أيضا ؟

وعلة ضرب المثل بآدم ، ظاهرة جلية ، لأن آدم أول إنسان خلقه الله ، وُجِد دون أب أو أم ، فهو على ذلك أغرب خلقًا من عيسى ، الذي ولد لأم بشرية ، أصيلة الآدمية .

والملفت في هذا الأداء الأسلوبي ، ذلك الإيجاز الرائع ، في عرض القضية ، ومناقشتها عقليا ، فيما لا يتعدى بضع كلمات ، يفهم منها أن كلا من عيسى وآدم عليهما السلام ، خارق للعادة في خلقته ، وإن كان ثمة اختلاف .

ولم يتوقف الأسلوب ، عند مجرد ضرب المثل ، بل أوضح وأبان عن طبيعة خلق آدم ، في قوله تعالى : ﴿ ... خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ... ﴾ حتى تكون هذه الجملة توضيحًا وتفسيرًا لما قبلها .

والخَلْق ... إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء . [١] والمعنيان كلاهما يجوز ، ومؤدٍ للغرض ، فخلق آدم إبداع على غير أصل سابق ، فهو أول الخلق ، وقد جعله الله في أحسن تقويم ، أليس هذا إبداع ؟!

---

(١) المفردات في غريب القرآن / الراغب / صـ١٦٣ / ط .المكتبة التوفيقية .

أما المعنى الثاني : وهو إيجاد الشيء من الشيء ، فهو جائز كذلك ، ودقيــق الدلالة على المعنى المقصود ، حيث وُجد آدم ، وخُلق من التراب ، وهو ما ورد في النص القرآني تمامًا في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ .....﴾ أي أوجده من التراب.

والتراب ، إحدى مفردات الأرض ، وهو معروف بشكله وطبيعته للجميع .

وهناك تفسيرات ، لبعض الأئمة الأجلاء ، لاختيار التراب دون غيره ، ليكــون مادة الخلق الأولى ، ومن ذلك ما قدمه الإمام الرازي ، حيث قدّم أكثر من وجه لعلة خلق آدم من تراب : فمن ذلك : ليكون متواضعا ، ليكون ستّارا ، ليكون أشد التصاقا بالأرض ، لأنه خُلِق لخلافة أهل الأرض . [١] .

ومما لاشك فيه ، أنه اجتهاد طيب وموجّه ، ولكن فيما يبــدو أن أشــد الوجــوه إصابة للدقة ، الوجه الأول ، وهو خلق الإنسان من تراب ، يجعله أكثر تواضــعًا ، فالإنسان عندما يتذكر كونه الأصلي من تراب ، يعود إلى إنسانيته البسيطة ، تاركًــا التفاخر والكبر والتعالي ، وإذا نسي وتناسى هذه الحقيقة الأولى ؛ كان منه ما كــان ويحضرني في هذا المقام ، قول إيليا أبى ماضي في نسيان الإنسان لأصل خلقته :

نسى الطين ساعة أنه طين حقيرٌ فصالَ تيهًا وعربدْ [٢]

وأضيف إلى ما تقدم ، أن خلق الإنسان من تراب له علة أعمق من ذلــك – والله أعلم – حيث أرى أن هناك تلاحما وترابطا عظيما ، بين بدايــة خلقــه ونهايتــه ، وأقصد بهذا ، انتهاء ذلك الإنسان بالموت ، وتحلله إلى تراب مرة أخرى ، ثم بــث الحياة في هذا التراب للبعث والحساب ، وهكذا ، فالأمر له بُعْد حِكْمــيّ ، يتعــدى التواضع ، وخلافة الأرض ، إلى فلسفة هذه الحياة . وأنها تنتهي إلى تراب يبعــث للحساب .

(١) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ٤ / صـــ٢٥٠ / ط . دار الغد العربي .

(٢) من قصيدة الطين ، انظر كتاب أجمل ما كتب (إيليا أبو ماضي) / صـــ٨٩ / مكتبة الأسرة .

ولماذا التراب تحديدا ؟ ، لعل ذلك يكمن في معرفة كل فرد ، بهذا العنصر الكوني ، فهو عنصر بسيط ، ليس له ولا فيه خصائص الحياة ، كالماء والدم مثلا ، وعلى الرغم من ذلك ، يمنحه الله الحياة ، ويُوجِد منه آدم عليه السلام ، ليكون دليلا على إيجاد من عدم ، وحياة من موت ، كما الشأن في البعث الذي يكذّب به المعاندون ولعلى أستند في ذلك ، إلى الأسلوب القرآني نفسه ، في إيثار صيغة النكرة (تراب) دون تعريف أو تخصيص ، لبيان بساطة وهوان هذا العنصر ، وهل هناك أقل من تراب ، وأهون .....؟! ولكن ما أعظمه ! بعد قوله تعالى :

﴿ .... ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

و(**ثم**) .. حرف يقتضى ثلاثة أمور : التشريك في الحكم ، والترتيب ، والمهلة [١].

وفيما يبدو أن (ثمَّ) هنا تفيد معنى الترتيب ، أو ما أطلق عليه علماء البلاغة ، التراخي الرتبى [٢] ، حيث إن منزلة البشرية ، وبث الروح بقوله تعالى : ﴿ ... كُن فَيَكُونُ ﴾ أرفع رتبة من كونه سبحانه خلَق آدم من تراب .

ثم يلفت النظر هذا البناء الأسلوبي للجملة ، لما اشتملت عليه من ثلاثة أفعال متباينة الزمن ، الأول : صيغة الماضي .. (قَالَ) ، والثاني : للأمر.. (كُن) والثالث : بصيغة المضارعة المقترنة بفاء السرعة .. (فَيَكُونُ) ......

أما **الأول** : " قال " ، بصيغة الماضي ، ففيها دلالة التمكن ، واستيفاء الحدث ، و" له " جار ومجرور متعلق بقال .

---

(١) انظر الإتقان / مجلد ١ / صـ١٦٠ / ط . المكتبة الثقافية / بيروت .

(٢) انظر من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم) / د. محمد أمين الخضري صـ١٨٣ / ط . مكتبة وهبة .

والثاني : " كُن " بصيغة الأمر ، لدلالة الحاكمية ، والسيطرة والألوهية ، والقدرة.

والثالث : " فيكون " بصيغة المضارع [(١)] ، المقترن بفاء العطف ؛ لاستحضار الصورة ، وبيان طلاقة القدرة في كل زمان ومكان ، من خلال دلالة الاستمرارية الخاصة بالفعل المضارع ، أضف إلى ذلك دلالة الفاء على سرعة تحقق الأمر الإلهي.

ولا يخفى ما في هذه الجملة (كُن فَيَكُون) من دلالة على عظيم بديع صنع الله فالتراب تحوّل إلى هذا الكائن البشرى المكرَّم من خالقه ، بتلك النفخة من روح الله مما يدل على أن التراب – كما سبق القول – ما هو إلا رمز ، لبساطة النشأة ، وهوان هذا المخلوق المعاند المتكبر .

الموضع الثاني :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

[الأنعام : ٢]

تبدأ سورة الأنعام ببيان صريح ، بأن الله عزوجل هو وحده المستحق الحمد والعبادة ، فهو وحده خالق السماوات والأرض ، وموجد الظلمات والنور ، ولكن عجبا لحال البشر ، فهم يكفرون ويعدلون بربهم غيره ، ويتوجهون إليه بالعبادة .

ولذلك وردت الآية موضع الدراسة ، استئنافاً لبيان حالة هؤلاء المكذبين المعاندين ، وتصدّرت الآية بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي ...﴾ وقد بيّنا من قبل ، أن هذا التركيب الإسنادى ، يرد بصورة مطردة في آيات بيان عظيم القدرة ، والانفراد بالألوهية والتقديس ، ودائما يليه أمر عظيم معجز.

---

(١) لم يرد هذا الفعل في مثل ذلك البناء الأسلوبي إلا مضارعًا ، لما في ذلك من استمرارية القدرة والحاكمية إلى قيام الساعة انظر – مثلا : البقرة آية ١١٧ ، وآل عمران ٤٧ ، ٥٩ ، مريم ٣٥ ، يس ٨٢.

﴿ **خَلَقَكُم مِّن طِينٍ** ﴾ ... أي أنه أنشأكم من طين ، وإيثار صيغة الماضي على غيرها ، ظاهرة مطردة في آيات الإعجاز الكوني ، وذلك لدلالة الجملة الفعلية بصيغة الماضي على التحقق ، وانقضاء الحدث . (**طِينٍ**) .. والطين هو : التراب المختلط بالماء . وقد يسمى به وإن زال عنه أثر الماء. (١)

إذن الطين ، هو التراب ، وهو أصل خلق البشر ، إشارة إلى أبيهم آدم ، كما ورد في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ ... خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ... ﴾ (٥٩).

وفى ذلك أكثر من إشارة دلالية :

الأولي : التذكير الدائم للإنسان ، أنه هين وضعيف جدا ، في هذا الملكوت ، لذلك فعليه الانصياع، والتوجه بالتوحيد والعبادة ، إلى من يستحقها، ولا يعدل به شيئا تعريضا لما ورد في الآية الأولى من سورة الأنعام:

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾

الثانية : إبراز هذه الحقيقة –خلق الإنسان من طين وتراب– يؤكد بالضرورة على حتمية البعث ، وطلاقة القدرة الإلهية في ذلك ، لأن الإنسان خلق من تراب ، ثم يموت ويتحلل إلى تراب ، أي إلى نفس المادة الأولى التي خُلق منها ، فما الصعوبة إذن في إحيائه من جديد وبعثه للحساب ، لذلك فلفظ (الطين) هنا يشير إشارة موجزة ، معجزة إلى طلاقة يد القدرة في البعث ، الذي ينكرونه متعللين بأنهم يصيرون ترابا بعد الموت ، فكيف يبعثون ؟

وكأن هذه الآية ونظيراتها ، تَرُدُّ على قولهم :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد : ٥]

---

(١) بصائر ذوى التمييز / جـ٣ / صـ٥٣٣ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

﴿ ... ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ..﴾ .. ثم للعطف والترتيب ، وقيـل إنها للترتيب في الذكر دون الزمان ، لتقدم القضاء على الخلق ، وقيـل : الظـاهر الترتيب في الـزمان . (١)

وفيما يبدو للبحث ، أن الرأي الثاني أدق ، لأنه ليس هناك مـا يمنـع أن تقـدَّر الآجال بعد الخلق .

(قَضَى أَجَلاً).. أي قدَّر وكتب أجلاً لكل كائن حي ، ينتهي هذا الأجـل بموتـه ، ووردت أجلاً " نكرة " ، لعموم وشمول تلك الآجال المكتوبة لكل بنى البشر ، فليس هناك مستثنى من تلك القاعدة .

(وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ) .. أجل : مبتدأ نكرة ، ومسمى : نعت ، وعنده : خبر شـبه جملة ، والملفت للنظر ، أن هذه الجملة جاءت مغايرة لظاهر البناء اللغوي ، مـن تأخر المبتدأ النكرة ، إذا كان الخبر شبه جملة ، وذلك لتخصيص المبتدأ بالنعـت ، وهذا التركيب الأسلوبي على غرار قوله تعالى :

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ...﴾ [البقرة : ٢٢١]

حيث سوَّغ الابتداء بالنكرة لأنها خصصت بالصفة بعدها .

وتقديم المسند إليه النكرة (وَأَجَلٌ مُّسمًّى) ، له دلالة التعظيم ، حيث إنه أمر عظيم فالمقصود بالأجل المسمى – عند معظم المفسرين – البعث والإحياء .(٢)

وهذه الجملة من المسند إليه والمسند ، جملة اعتراضية ، للتأكيد علـى تفـرده سبحانه بهذا العلم الغيبي ، سواء كان أجل الإنسان وموته ، أم موعد الساعة ، وبعث من في القبور .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٣ / جـ٤ / صـ٨٣ / ط . دار الكتب العلمية / بيروت .

(٢) انظر مثلا : الكشاف / مجلد٢ / صـ ٤ / ط. دار الفكر .

﴿ ... ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ... ﴾ ... ثم للعطف ، ويبدو للبحث أنها في هذا الموضع للتراخي الزمني ، لما في معنى الآية ، من دلالة على مرور الزمن ، وبيان الأمر على حقيقته لهؤلاء المعاندين ، ولكنهم بعد كل ذلك في شك من البعث والحساب.

(أَنتُمْ) ... إيثار السياق ، للضمير البارز المنفصل ، دون غيره ، وعدولا إلى صيغة المخاطب عن الغائب كما في الآية السابقة عليها : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] ؛ يدل على المواجهة لهؤلاء المعاندين ، مواجهة التوبيخ والتبكيت ، لهذا الموقف العجيب ، والعناد الرهيب .

وبعد ... نجد أن تأكيد فكرة طلاقة القدرة في الخلق والبعث ، قد انتظمها ، ذلك العنصر الكوني (الطين) ، فهو محور الآية ، وفكرتها ، لإثبات الوحدانية والبعث .

الموضع الثالث :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠]

وترد هذه الآية عقب قوله تعالى :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩]

لذلك اعتبر البلاغيون أن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم ...﴾ حسن تخلص ، من الآية السابقة عليها ، حيث بيّنت أن الله قادر على إخراج الحي من الميت والميت من الحي ، بما في ذلك من لفتة إلى طلاقة القدرة ، وضرب المثل بذلك لبيان طبيعة البعث والنشور . لذلك وردت الآية (٢٠) لتؤكد على حقيقة البعث ، حيث إنها أوضح من سابقتها لأنها في النفس الإنسانية ، ذلك المخلوق الكوني العجيب المبهر الصنع والإبداع ، على الرغم من بساطة مادته الأولى .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ ... تصدّرت الآية بالمسند ، الجار والمجرور (وَمِنْ آيَاتِهِ ..) ... وهى صدارة من شأنها لفت الانتباه لما يرد بعدها ، مشيرة بأن تاليها أمر عظيم ، فهو التفات من خلال مغايرة الأصل ، وهذه الظاهرة كثيرة في الأسلوب القرآني ، ففي سورة الروم نفسها ؛ تلي هذه الآية أربع آيات بنفس الصدارة أي من الآية (٢٠ : ٢٥) ، ثم ترد آية أخرى ، على غرارهم في خواتيم السورة وهى الآية رقم ٤٦ .

وعند استقصاء هذه المواضع ، تأكد للبحث ما سبق الإشارة إليه ، من أن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ...﴾ يتلوه – دائما – أمر جليل ، عظيم الشأن .(١)

والآيات : العلامات (٢) ، أي أن من وجوه وعلامات الاستدلال على تفرده سبحانه ، تلك المعجزة الكبرى خلق الإنسان من تراب . وقد آثر الأسلوب تقديم الجار والمجرور ، لإبراز هذه الآية الكبرى ، وجعلها محط الصدارة والاهتمام ...

وقد عدل الأسلوب عن المفرد (آية) إلى الجمع (آيات) ، لأن المقام بالفعل مقام ذكر ، للعديد من الآيات والدلائل البارزة على وحدانية الله ، فهذه الآية ، هي الأولى لست آيات تلتها ، جميعهن في نفس الغرض ، وقد تصدّرت جميع هذه المواضع بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ...﴾ ؛ إشارة إلى وحدة الغرض والهدف ... أضف إلى ذلك أن صيغة الجمع (آيات) المضافة لهاء الغائب ، العائدة عليه سبحانه ، قد منحت المعنى ، مهابة وفخامة وعظمة .

---

(١) راجع الآيات [٢١ : ٢٥] ، الآية ٤٦ من سورة الروم .

(٢) الوجوه والنظائر / للدامغانى / جـ١ صـ٣٣ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(أنْ خَلَقَكُم ..) ... المصدر المؤول في محل رفع بالابتداء ، وظاهرة تـأخير المسند إليه ، ومجيئه في صورة المصدر المؤول ، كثيرة بعد هذه الصدارة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ... ﴾ ، ففي سورة الروم ورد المسند إليه – أربع مرات – بصيغة المصـدر المؤول ، ولم يرد صريحا إلا في موضعين هما :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ....﴾ [الروم : ٢٢]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ....﴾ [الروم : ٢٣]

ولعل السبب في هذه الظاهرة ، مرونة اللغة فـي تنـوع الاسـتعمال والأداء الأسلوبي ، فالمصدر المؤول (أنْ خَلَقَكُم) في هذا الموضع ، يعمّق الإحساس بتلك القدرة الإلهية العظيمة ، كما أنه يرسّخ في النفس معنى الربوبية ، ومما ساهم فـي تأصيل هذا المعنى ، اتصال الفعل بضمير المخاطب (الكـاف) ، بدلالتـه علـى المواجهة ، وكأن الله عزوجل يريد أن يضع هؤلاء المعانـدين ، موضـع الإقـرار والاعتراف بوحدانيته سبحانه ، فالخطاب موجه مباشرة لهم ، والدليل على تفـرده ، قائم فيهم وفى طبيعة خلقهم من تراب ...

(مِّن تُرَابٍ) ... سبق القول في تحليل الموضعين السابقين ، بأن ذلك اللفـظ ، من قبيل الإشارة الكونية ، إلى هوان مادتهم الأولى ، وهى التراب الذي منه خُلـق آدم عليه السلام ، والبشر جميعا ينتسبون إليه ، فالكلام هنا عائد على الأصل ، لأن الكائن البشرى ، من بعد آدم وحواء ، له ميلاد مختلف وخلق مختلف ..

وخلاصة الأمر أن لفظ (التراب) فيه إشارة واضحة ، إلى هوان وبساطة نشأة الإنسان الأولى ، وأن عظمة هذا المخلوق ، تأتى من النفخة الربانية التي أحيت هذا الطين ، مصدقا لقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢]

﴿... ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ... ﴾ ...

ثم .. حرف عطف ، لإفادة التراخي الحقيقي ، لأن بين الخلق والانتشار مدة ...

إذا .. تصدير للجملة الاسمية ، يدل على المفاجأة ، ويظهر في هذه الجملة ، الإيجاز المعجز ، من خلال اختزال كل مراحل الخلق المعروفة من نطفة وعلقه إلخ ، ثم إبراز الصورة الأخيرة ﴿ ... أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ... ﴾ .

فقد طوي الأسلوب ، ما بين مرحلة الخلق الأول لآدم من تراب ، وبين اكتمال الخلق ، وانتشار البشر ، لقضاء المصالح وتعمير الأرض ، بالسفر والانتقال وما شابهما . وقد ساهم الحرف (ثم) بدلالته على التراخي ، في الإشارة إلى هذه المراحل المطوية ، والأطوار الخفية .

الموضع الرابع :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾

[الصافات : ١١]

في هذه الآية إشارة كونية ، وظّفت من أجل تأصيل قضية التوحيد ، والعنصر الكونى فيها : (**الطين اللازب**) ..

وهي الآية الحادية عشرة في سورة الصافات ، وقد بدأت هذه السورة ، بسرد أدلة التوحيد ، وبيان تفرد الله عزوجل ببديع صنع هذه العجائب ، منها على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات : ٦]

ثم ترد الآية موضع الدراسة ، لتناقش بمنطقية هؤلاء المنكرين للبعث ، من خلال الأدلة المتقدمة ، وتقارن بين هذه العجائب العظيمة ، وعجيبة أخرى من بديع صنع الله وهى : خلق الكائن البشرى . وأيهما أشد خلقا على الله ؟

لذلك تبدأ الآية بطلب الاستفتاء ، أي سؤالهم عن إنكارهم البعث ، أخلقهم أشـد على الله عزوجل ؟ أم خلق تلك المخلوقات المبهرة ، من سـماء وأرض وشـمس ونجوم وكواكب .

﴿ ... فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أم مَّنْ خَلَقْنَا...﴾ ... تبدأ الآية بإنشاء عدولاً عن الخبر ، وذلك للفت انتباه المتلقي ، بهذا التحول ...

وقيل الخطاب لمحمد عليه السلام ، وضمير الغائب في (اسْتَفْتِهِمْ) لمشركى مكة – المنكرين للبعث ... (أَهُمْ) ... إنشاء آخر ، للاستفهام ، ويبدو أن الأسـلوب قـد آثر، الهمزة الاستفهامية دون غيرها ؛ لدلالتها على التقرير مع التبكيت والتـوبيخ ، فهو تقرير بضعف خلق البشر - وبعثهم من جديد- إذا ما قورن بالمخلوقات والعوالم السماوية التي سبق ذكرها في السورة ، والتبكيت لهؤلاء المشركين المعاندين .

(أَشَدُّ خَلْقًا أم مَّنْ خَلَقْنَا)... أي أصعب .. وهو اسم تفضـيل ، لبيـان المقارنـة والتناسب بين إعادتهم إلى الحياة بعد الموت ، وبين خلق هذه العجائب ...

(خَلْقًا) تمييز منصوب ، والمقصود به ، أي خلقهم أشد أم خلق من خلقنا من هذه الكونيات .

(أم مَّنْ خَلَقْنَا...).. أم ، وتسمى (أم) المتصلة ، لأن ما قبلها وما بعدها ، لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ، ويتقدم عليها ، همزة استفهام قد تكون للتسوية ، كمـا في قوله تعالى : (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ...) أو للتعيين كما هي في هذا الموضع. (١)

---

(١) انظر الإتقان / جـ١ / صـ١٥٣ / ط .المكتبة الثقافية / بيروت .

(**مَّنْ**) موصول عام للعاقل ... وإيثاره في هذا الموضع ملفت للنظر ، لأن مجموع ما تقدم من آيات في خلق الله ، لا يعقل ، ولكنها أوثرت للتغليب ، أي تغليبا للعاقل من هذه المخلوقات على من سواهم .... بما في ذلك من دلالة (مَّنْ خَلَقْنَا) على العموم والشمول لكل المخلوقات ، العاقلة وغير العاقلة ، وهذا أوضح في بيان طلاقه القدرة ، والحاكمية ..

(خَلَقْنَا) .. إيثار صيغة الماضي في هذا السياق . أقصد سياق تكذيب الكفار بالبعث ، له دلالة التحقق والتأكيد على عظيم قدرته تعالى ، ويزيد هذا التوكيد فخامة ورصانة ، إسناد الفعل إلى (نا) العظمة بدلالتها الصوتية ، والدلالية التي لا تُخفى.

﴿ ... **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾ .. جملة اسمية جديدة ، تدل على ثبات صفة القدرة لله عزوجل ، ويساهم البناء الأسلوبي لها ، في تقرير حقيقة البعث وتوكيدها ، من خلال (إنّا) المشددة ، ثم الفعل الماضي بدلالته على التحقق ، وإسناده إلى (نا) العظمة ، ثم إلى ضمير الغائب (هم) .

(**مِّن طِينٍ لَّازِبٍ**) .. والطين اللازب : هو الثابت الشديد الثبوت . (١)

وقيل اللازب : هو اللاصق بغيره. (٢)

وفيه إشارة كونية إلى عنصر " التراب " أيضا ، كما ورد في المواضع السابقة وإن تحولت صيغته اللفظية إلى الطين اللازب ، والإشارة تتوجه إلى الخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام ...

ولكن لماذا عدل الأسلوب القرآني عن لفظ (تراب) كما في الموضع السابق في سورة الروم ، إلى لفظ : (طين لازب) في هذا الموضع ؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ٤٥٣ / المكتبة التوفيقية .

(٢) التحرير والتنوير / مجلد ١١ / جـ٢٣/ صـ٩٥ / ط . دار سحنون / تونس .

وفيما يبدو للبحث ، وفى ضوء ما تقدم من تفسير لهذه الآية أجد قوله تعالى :
(**طين لازب)** أدق وأنسب لسياق الآية ، فالآية تعرض عنـاد المتكبـرين ، وجدالهم في قضية الإحياء والبعث ؛ لذلك بيّن الأسلوب القرآني عظائم خلق الله من سماء ونجوم وكواكب وملائكة ، فأين هم من هذه المخلوقات ؟ وهل خلقهم من طين لازب أشد على الله مما سبق ذكره ؟

بما يوحى لفظ (طين لازب) من ضعف وحقارة وهوان ، فهم أضعف مما يتوهمون .. وخلاصة القصد .. أن دلالة الطين اللازب ، أكثر استيعابا – من دلالة (تراب) لهذا المعنى في الآية ، لأن المقام ، مقام مقارنة بين بديع وعجيب خلـق الله، وبين خلقهم وهو هين على الله يسير .

وثَمَّ إشارة أخرى في قوله تعالى (**طين لازب**) ... وهى عدم استبعاد البعث ، لأن بداية خلقهم مثل نهايته ، فهم يُخلقون من الطين ، ويتحللون إليه بعـد المـوت ويبعثون منه مرة أخرى ، فلماذا يستبعدونه إذن ؟!

ب – أطوار خلق الإنْسَان :

(التراب والنطفة والعلقة والمضغة ، والماء المهين والدافق) :

في الجزء السابق من هذا المبحث ، بيّنا كيف كان (التراب والطين) عنصرين أساسيين فى بيان أصل خلق الإنسان ، ووضحنا كيف أن الأسلوب القرآنـي ، قـد وظّف كلا منهما ، توظيفا فنيا مبدعا ، لخدمة هذا الغرض ...

وفى هذا الجزء من البحث ، نتناول مجموعة من الآيات الكونية المبهـرة فـي أطوار خلق الإنسان ، بداية من التراب ، ثم النطفة فالعلقة ، فالمضغة ، وما إلى ذلك من مراحل الخلق ..

ونبدأ بمواضع توظيف التراب ، والنطفة والعلقة والمضغة ، وكيف وظّفت هذه الكونيات لمناقشة قضايا العقيدة ...

[١] مفردات الأرض في أطوار خلق الإنسان من :

[التراب والنطفة والعلقة والمضغة]

وتدرس من خلال المواضع الآتية :

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُـمَّ مِـن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَـا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّـن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَـإِذَا أَنزَلْنَـا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥]

* ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٢ : ١٤]

* ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر : ٦٧]

* ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة ٣٦ : ٤٠]

العرض الموضوعي :

الإطار العام للآيات السابقة ، يدور حول خلق الإنسان ، وبيان مراحل وأطوار هذا الخلق ، وهى في الأول والثاني والثالث ، تشير إلى الخلق الأول للإنسان ، وأن أصله من تراب ، والمقصود نسبة هذا الإنسان إلى أبيه آدم ، الذي خلقه الله من تراب ، ثم تتوجه الآيات إلى الحديث عن أطوار الخلق التفصيلية ، مشيرة بذلك إلى التناسل الطبيعي للخلق بين آدم وحواء ، بداية من النطفة وهى ماء الرجل ، ثم تحول هذه النطفة إلى مضغة ؛ وهى قطعة لحم صغيرة مقدار ما يمضغ ، ثم تخليق هذه المضغة وتشكيلها ، ثم الوضع والولادة بعد الأجل المسمى ، أو المدة التي حددت للحمل .. بينما في الموضع الرابع ، يكتفى السياق بذكر النطفة ثم العلقة .

ولا يخفى ما في هذه الأطوار ، من صنع عجيب ، وإبداع تعجز عنه العقول ، لتردد الألسنة قولاً واحدًا " سبحان الله " ..

الموضع الأول :

التحـــليل الفـــني :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِـــن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَـــا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّـــن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَـــإِذَا أَنزَلْنَـــا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥]

اختصت المواضع السابقة ، وكذلك هذا الموضع ، بذكر أطوار خلق الإنسان ، كما تعرضت لذكر التراب ، باعتباره مادة الخلق الأولى .. ونجد أن آية الحج (٥) والآيات (١٢ : ١٤) في سورة المؤمنين ، تتناول عرض هذه المراحل كاملة ، كما نلاحظ تشابها بين الموضعين ، في بعض المراحـــل ، والألفـــاظ ، حيـــث وظّـــف الأسلوب تلك المفردات ، من تراب ونطفة وعلقة إلخ في بيان خلق الإنسان .

فتوظيف مفردات الطبيعة هنا ، مقصده الأول بيان طلاقة القدرة ، ثم إقـــرار حقيقة البعث ، يلي ذلك الامتنان على الإنسان ، بخلقه على هذه الصورة المكرّمة ، وإيجاده من عدم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .... ﴾

تبدأ آية الحج ، بنداء جهوري واضح مستوفٍ لكل عناصره ، بداية مـــن الأداة (يا) إلى (ها) التنبيه إلى المنادى ، فهو نداء صريح لإفاقة هـــؤلاء المعانـــدين ، الذين يرتابون في البعث ، ومما لاشك فيه أن المقصود بالناس هؤلاء المتشـــككون ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ... ﴾ .

يلي هذا النداء أسلوب الشرط المتصدِّر بإن التي تفيد الشك :

﴿ ... إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ... ﴾

(**فِي رَيْبٍ** ..) ... في تفيد الظرفية على سبيل المجاز ، مما له دلالة على انغماسهم في الريب ، وإحاطته بهم . (**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم** ...) ... جواب الشرط جملة اسمية ، مقترنة بالفاء .. بدلالة الجملة الاسمية على الثبات والتوكيد ، ذلك التوكيد المتحقق في (إنا) الثقيلة ، والخبر الجملة الفعلية ، بصيغة الماضي (**خَلَقْنَاكُم**) وإسنادها لـ(نا) العظمة .

ويرى صاحب التحرير والتنوير ، أن جملة (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ...) ليست هي جواب الشرط ، ولكنها واقعة موقع جواب الشرط ، حيث لا يصلح لفظها لأن يكون جوابا لهذا الشرط بل هي دليل الجواب .. والتقدير : فاعلموا أو فنعلمكم بأنه ممكن كما خلقناكم من تراب . (١)

وهو رأى حسن . ولكني لا أجد له داعيًا أو ضرورة ؛ حيث إن جملة جواب الشرط الموجودة في النص القرآني ، واضحة الدلالة على جواب الشرط .. وتتحقق فيها شروط جملة الجواب ، من كونها واقعة في الشرط ، مؤدية معنى الجواب ، مقترنة بالفاء لاسميتها .

(**مِّن تُرَابٍ**).. إشارة إلى الخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام ، كما أن هناك من يؤول ويفسر (التراب) بتفسير لا أجد له – كذلك – مبررًا ؛ فهم يقولون ما خلاصته : أن المنى يتكون من الأغذية ، وتلك الأغذية من الأرض ، وأهم وأعظم عنصر في عناصر الأرض التراب ، فلذلك خصه بالذكر من بينها. (٢)

---

(١) انظر التحرير والتنوير / مجلد ٨ / جـ١٧ / صـ١٩٦ / ط . دار سحنون / تونس .

(٢) انظر روح المعاني / مجلد ٧ /جـ٩/ صـ١١١ / ط / دار الكتب العلمية / بيروت

وأجد أن هذا التفسير ملتفًا مؤولاً ، والمعنى المقصود أقرب وأوضح من ذلك ، فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب فعلاً . فلماذا لا تكون الإشارة هنا إلى أصل الخلق فحسب ، دون الخوض في تفسيرات لا تخدم النص .

﴿ ... ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... ﴾

(ثُمَّ) ... حرف عطف ، للدلالة على الاستبعاد . [١] أي استبعاد خلق النطفة بعد التراب ، للاختلاف الشديد ما بين التراب ، والنطفة وهى ماء الرجل . وفى قوله تعالى : ﴿... مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ إشارة إلى التناسل الطبيعي ، من آدم عليه السلام وحواء . (ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ...) .. ثُمَّ .. عطف ، ولكنها هنا لها دلالة غير سابقتها ، حيث تفيد التراخي الرتبى والزمني ... لأن العلقة أعلى رتبة ، وأبعد زمنا من النطفة . والعلقة : هي قطعة الدم الجامد ، التي تتعلق بجدار الرحم .

وكلمة (علقة) في موضعها أدق ما تكون ؛ بما لها من معان واضحة ، على التمسك والتثبت ، تبرزها دلالتها المعجمية ، ولعل هذا ما دعا الراغب في مفرداته أن يفسر العلق بأنه : التشبُثُ بالشيء [٢].. ولا يخفى ما في لفظ التشبث من دلالة على التمسك والتعلق ، وهذا على وجه الدقة ما تقصده الآية ، من معان لكلمة (علقة) والله أعلم .

(ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ...) ثم .. عطف للتراخي والرتبة كسابقتها ، والمضغة : قطعة لحم متكونة من العلقة في حجم ما يمضغ ... ومما لاشك فيه ، أن الآية تتدرج في عرض تلك الأطوار ، من الأدنى إلى الأعلى ، وهذا ما دعا إلى تفسير (ثم) على التراخي والرتبة .

---

(١) انظر أسرار حرف العطف في الذكر الحكيم / د . محمد أمين الخضري صـ١٨٣ / ط / مكتبة وهبه. القاهرة .

(٢) المفردات في غريب القرآن / للراغب/ صـ٣٤٧ / ط / المكتبة التوفيقية .

(**مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـــةٍ**).. مخلقة أي مُستبينة الخلق ، وهى صفة لمضغة وكذلك غير مخلقة ، واشتقاق اسم المفعول ،من الفعل (خلّق) بتضعيف عينه ، يدل علـــى المبالغة في دقة هذا الخلق، وعجيب صنعه في صيرورته،من حال إلى حال.[١]

وقد سبق الإشارة إلى أن الأسلوب ، يترقى في عرض أطوار خلق الإنسان ، من الأدنى إلى الأعلى ، فما علة عدوله عن ذلك النهج في قوله تعالى : (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْـــرِ مُخَلَّقَةٍ) وكان ظاهر الأسلوب ، يقتضى العكس ؟! حيث بدأ بلفظ " مُخلَّقة " وهـــى أعلى رتبة من غير المُخلَّقة .

قوله تعالى : (مُخَلَّقَةٍ) نعت لكلمة (مُضْغَةٍ) ، وكذلك قوله تعالى : (وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) وأرى – والله أعلم – أن النعت (مُخَلَّقَةٍ) أسبق في الذكر لأنه الأدق والأليق في إبراز طلاقة القدرة ، و بيان عجيب صنع الله ، واختلاف أحواله ...

(**لِنُبَيِّنَ لَكُمْ**) .. اللام للتعليل ، والفعل مرتبط بقوله تعالى : (خَلَقْنَـــاكُم) فـــي بداية الآية أى خلقناكم لنبين لكم ، فالله عزوجل ، أبرز كل هذه الحقائق والـــدقائق ، لتتيقنوا من البعث والإحياء ، الذي يمارون فيه ، ليتحملوا مسئولية عنادهم وكفـــرهم بعد ذلك ، بعد هذا التبيان المستمر .

﴿ ... **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ... ﴾

(**وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ...**) .. أي نمكّن في الأرحام ، وقّر في مكانه ، يَقِـــرُّ قَـــرَارا إذا ثَبتَ ثُبوتا جامدًا ، وأصله من القُرّ وهو البرد ، وهو يقتضى السكون .[٢] ، ومنـــه قوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ... ﴾ [الأحزاب : ٣٣]

---

(١) انظر – شذا العرف صـــ٤١ فصل في معاني صيغ الزوائد / ط / المكتبة الثقافية / بيروت .

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب صـــ٣٩٨ / ط / المكتبة التوفيقية / القاهرة

وكذلك قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ... ﴾ [غافر : ٦٤]

فالمادة المعجمية تشير إلى الاستقرار ، بدلالة حرف القاف والراء ، على التمكن وكذلك آثرها التعبير القرآني ، للدلالة على المعنى المقصود في الآية ، من عظيم المستقر ، وصيانة تلك المضغة ، وتمكنها واستتارها ، بما في ذلك من استدلال على عظيم قدرة الله ، وحسن تقديره وتدبيره .

وقد آثر الأسلوب القرآني ، صيغة المضارع (نقرّ) ، لما لها من دلالة على الاستمرار والتواصل ، لأن عملية التناسل ، والخلق وتكوّن الأجنة ، بعلم الله وقدرته ، قائمة مستمرة إلى ما شاء الله ، وهذه القدرة المطلقة المستمرة ، يناسبها التعبير بصيغة المضارع دون غيرها . كما أنها تتواصل وتتناغم ، مع الأفعال الواردة في النص السابق لها مثل : (لِّنُبَيِّنَ) واللاحق مثل : (نَشَاءَ ، نُخْرِجُكُمْ) ...

(إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ..) ... أي مدة الحمل ، والمتعارف عليه طبيا ، تسعة أشهر تزيد أو تقل أسبوعًا ، و (مُسَمًّى) اسم المفعول للدلالة على تقدير ، وتدبير الله عزوجل ، فهذه المدة مسماة من عنده سبحانه ، ومُقَدَّرة بعظيم حسابه .

﴿ .. **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا** ..... ﴾ ثم .. للرتبة ، فهذه المرحلة رتبة ، ودرجة أعلى من السابق عليها ، والفعل (نُخْرِجُكُمْ) أيضا مضارعا ، لتواصل وتوالى حدوث هذا الأمر ، على مر السنين والأيام ، (طِفْلًا) .. مفرد لإرادة الجنس ، حيث ينزل هذا اللفظ منزلة المفرد والمثنى والجمع .. ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .... ﴾ [النور : ٣١]

والمقصود بالطفل فى الآية السابقة ؛ الأطفال أى الجمع وليس المفرد ، فنزل المفرد منزلة الجمع.

ولا تخفى إيحاءات كلمة (طِفْلًا) ، في بيان مدى الاحتياج إلى الرعاية والعناية. وبالضرورة يقتضي هذا ، إبراز قمة الضعف الإنساني، في بداية خلق هذا الجنس.

﴿ ... ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ... ﴾ ... بعد هذا الضعف ، تبلغوا الفتوة والشباب ، و(ثُمَّ) هنا تفيد التراخي الزمني مع الرتبة ، حيث إن بلوغ الأشُد ، يستغرق فترة من الزمن ، (لِتَبْلُغُوا) ... اللام للتعليل ، أي أن علة خروج الطفل ، بلوغ الأشد ، لما في ذلك من تحمل للمسئولية ، والقيام بأعباء التكليف .

﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ ....

اعتراض ، لبيان طلاقة القدرة ... فالآية تقوم مقام الحجة ، على هؤلاء المعاندين المكابرين في أمر البعث ، لذلك يعرض لهم الله عزوجل ، دلائل قدرته في الإحياء والإماتة ، فعلى الرغم من كل الأطوار السابقة ، هناك من يتوفى قبل بلوغ سن الفتوة والشباب ، وهناك من يمنحه الله عزوجل الحياة ، إلى أن يصل إلى مرحلة رديئة من العمر ... وكل هذه الأطوار ، دالة على عظيم خلق الله وقدرته.

ونلاحظ إيثار الأسلوب في هذا السياق لصيغة الفعل المبنى للمفعول (يُتَوَفَّى ، يُرَدُّ) وهو ضرب من الإيجاز للمعرفة التامة ، والكاملة بالفاعل .. وتكرار "منكم" للتوضيح والتقريع ...

﴿ ... لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ... ﴾ ... " اللام " حرف جر ؛ لإفادة التعليل ، " كي " ناصبة تعليلية ، أي أنه يصل إلى هذه السن (أَرْذَلِ الْعُمُرِ) لنرى فيه ، آية أخرى من آيات الله ، الدالة على طلاقة قدرته ، ففي مقابل (لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)، يظهر ذلك الضعف الإنساني ، الذي يعترى الإنسان في مراحل شيوخته .

وهو ضعف جسدي وعقلي في آن واحد ، ذاك الضعف العقلي ، الذي جعله لا يدرى شيئا قد علمه من قبل ، بل يصاب بالنسيان ، أو ما يسمى في لغة الطب حديثا (الزهايمر) وفى ذلك رمز إلى ارتداده عقليا في هذه السن ، إلى ما كان عليه في مرحلة الطفولة ....

وتنكير (عِلْمٍ) ... للدلالة على كثرة ، وعظم هذا العلم .. أيا كان نوعه بسيطا، أم معقدًا ، وفى ذلك عبرة وتأمل ، وبيان لحال الإنسان ، وأطواره المختلفة في مراحل عمره .

ثم ينتقل الأسلوب إلى صورة أخرى ، من صور طلاقة القدرة ، حيث يعرض مشهدا كونيا ، ملونا وناطقا بالحركة والجمال ، وهو مشهد الأرض الهامدة اليابسة ، أولنقل الأرض الموات ، وكيف أحياها الله بعد نزول الماء عليها ، فأنبتت وأثمرت من كل زوج يبهج النفس ويسر العين .

ويعد هذا المشهد الكوني ، من إحياء الأرض بعد موتها ، نموذجًا حيًا في الاستدلال على طلاقة القدرة في الإحياء والبعث وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ، وقد أوثر في هذا الجزء من الآية ، الفعل " ترى " في قوله تعالى :
﴿ ... وَتَرَى الْأَرْضَ ...﴾ فالرؤية دليل قطعي ، والرؤية المقصودة في الآية بصرية ، وليست ظنية ؛ لأن هذا المشهد الكوني للأرض ، مرئي ومدرك ، بخلاف بداية نشأة الإنسان ... فالله عزوجل ، في آية واحدة يقدم لنا آيتين للاستدلال على البعث ، الأولى في النفس ، والثانية في الكون ، وصدق الله عزوجل في قوله :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ....﴾
[فصلت : ٥٣]

الموضع الثاني :

– ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٢ : ١٤]

﴿ ... ولَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ... ﴾

ترد هذه الآية ، بعد إحدى عشرة آية في سورة المؤمنين ، تتحدث عن صفات المؤمنين ، ثم تبين جزاءهم عند الله عزوجل في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الوارِثُون * الذينَ يَرِثُونَ الفِردَوْسَ وهُمْ فيهَا خَالِدُون ﴾ [آية ١١] ... وبعد بيان هذا الجزاء العظيم ، وهو البعث والفوز بجنة الخلد ، يبين الأسلوب في سياق الامتنان على الإنسان ؛ أن الله قادر على الإحياء ، والإماتة والبعث . حيث خلقه الخلق الأول ، من سلالة من طين ، فهو حسن تخلص من السابق إلى اللاحق ...

وتبدأ الآية بالتوكيد الواضح فى هذا التركيب الأسلوبي (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا**) ... المؤكد باللام وقد ، ثم إيثار الفعل الماضي (خَلَقْنَا) بدلالته على تحقق وقوع الحدث، وقد زاد صيغة الفعل رصانة ، ودقة في الدلالة على المعنى المقصود ، إسناده إلى (نا) العظمة. و المقصود بالخلق هنا .. الإيجاد والابتداع ، على غير نموذج سابق . فهو إيجاد من عدم .

﴿ **... مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ...** ﴾ ... والإشارة فيها إلى الخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام ، و(السلالة).. من سلَّ ، وسَلُّ الشيءِ من الشيءِ : نَزْعُهُ ، كَسَلِّ السَّيْفِ مِنَ الغِمْدِ. [١]

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ٢٤٣ / ط / المكتبة التوفيقية / القاهرة .

أما معناها المقصود في الآية في قوله تعالى : ﴿ ... من سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ... ﴾ أي من الصَّفْو الذي يُسَلّ من الأرض. [١] ، وقيل أن السلالة كناية عن النطفـة ... ولست مع هذا الرأي ؛ لأن الأسلوب القرآني واضح في إشارته ، فالحديث في هـذا الموضع عن الخلق الأول لآدم ، ومثبت بالأدلة القرآنية أن آدم خُلق من التـراب ، فالحديث هنا ينسحب على الأصل .

﴿.. **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** .. ﴾ .. (**ثم**) .. عطف لإفادة الاستبعاد ، فشتان بين الطين والنطفة ، فطبيعة كليهما تختلف عن الأخرى ، لذلك فهي وجه من وجوه الاستدلال ، على عظمة هذا الخالق المبدع ...

(**جَعَلْنَاهُ**) ... نلحظ أن الأسلوب القرآني ، عدل عن (خَلَقْنَا) كما في الآيـة السابقة إلى (جَعَلْنَاهُ)... وهذا وجه من وجوه الإعجاز اللغـوي ، فـى الأسـلوب القرآني ، فعلى الرغم من تقارب المعنى بين الخلق والجعل إلا أن التعبير القرآني الدقيق ، يفرق بينهما – أحيانا – وفقا للسياق وللدلالة التي تتطلبها ...

وأقصد بذلك أن مادة " جعل " في هذا السياق الذي بصـدد البحـث ، أدق فـي دلالتها على المعنى المراد من " خلق " ؛ لأن " الجعل " هنا يحقـق معنيـين همـا: الوضع والإلقاء والتمكين ، ثم الصيرورة بعد ذلك من حال إلى حال ، وهـذا لا يتوفر في مادة " خلق " .

وقد يرد الخلق مع النطفة ، ولا يمتنع ذلك ، كما في قوله تعالى :
﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ .... ﴾ [يس : ٧٧]

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز جـ٣ صـ٢٥١ / ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ولكن كما سبق القول ، أن السياق الذي وردت فيه الكلمة يحدد معناها ، ودلالتها . لذلك كان الفعل " جعلناه " أدق في آية المؤمنين ؛ لأنه يتحدث عن القرار المكين ، حيث تقرُّ النطفة في رحم المرأة ، فالجعل مع القرار والتمكين ، أنسب وأدق دلالة على المعنى المقصود . والهاء في " جعلناه " عائدة على جنس الإنسان جميعه .. وقوله تعالى : (فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) ..."في" هنا للظرفية ، من إحاطة الظرف بالمظروف ، بما في ذلك من دلالة على التمكن ، وكذلك تساهم في هذه الدلالة حروف المصدر ، " قَرَارٍ " بدلالتها على الاستقرار والرسوخ ، و " **قرار مكين** " .. كناية عن الرحم .. ولفظ " مكين " يدل على ثبوت هذه النطفة واستتارها ، أنها مصونة من عند الله وبفضل الله ، بما في ذلك من دلالة على قدرة الله ، وعظيم فضله على الإنسان ...

﴿ ... ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ...﴾

(ثم) .. حرف عطف آخر ، للرتبة .. فالعلقة رتبة أرقى من النطفة ، (خَلَقْنَا) .. دلالة على الإبداع ، والإنشاء بصيغة الماضي المسندة لـ(نا) العظمة. (النُّطْفَةَ) .. بصيغة التعريف بأل العهدية ، أي النطفة التي تم الإشارة إليها سابقا في نفس الآية .

﴿ ... فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ...﴾

الفاء .. حرف عطف ، وقال الفيروز آبادي ، بتساوي الفاء وثم في هذا الموضع .. أي أن الفاء بمعنى ثم . [١]

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز/ جـ٤/ صـ١٥٨ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وأرى أن هذا الرأى لا ينطبق على هذا الموضع ، لأن الفاء أدق وأدلّ على المقصود من الآية ، فهى تدل على التعاقب والتتابع ، والعلقة أقرب في طبيعتها من المضغة ؛ لذلك كان العطف بالفاء بدلالتها على التتابع ، أولى من " ثم " في بيان التقارب بين العلقة والمضغة ، فالمضغة والعظام ، والعظام واللحم .

وإذا كان هناك احتجاج بآية [٥] الحج ، حيث عُطفت هذه المراحل بـ " ثم " .. فالقول بأن السياق في آية الحج – السابق تحليلها – مختلف ، لأن الهدف المقصود في آية الحج .. توظيف هذه المفردات الكونية ، في بيان دقيق مفصل لخلق الإنسان ، استدلالا بذلك على البعث وهذا يناسبه استعمال حرف العطف " ثم " ، بينما في سورة المؤمنين ، فالسياق مختلف ، حيث وظّفت هذه المفردات الكونية ، من نطفة وعلقة ومضغة .. إلخ في بيان فضل الله على الإنسان ، والامتنان عليه بنعمة الوجود ، والخلق من العدم ...

﴿ ... فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ... ﴾

(الْمُضْغَةَ) معرّفة بأل العهدية ، حيث سبق الإشارة إليها بصيغة النكرة ، في الآية نفسها ، (عِظَامًا) .. يلفت النظر ، ذلك التحول في الأسلوب من المفرد في (نُطْفَةٍ ، عَلَقَةً ، مُضْغَةً) على التوالي ، إلى الجمع في (عِظَامًا)... وتوجيه ذلك ينبع من طبيعة الخلق ذاتها ، فالنطفة واحدة ، وكذلك العلقة والمضغة ، بينما العظام لها هيئات وأشكال متعددة . فالهيكل العظمى – كما يسمى طبيا – متعدد الأشكال من أطراف علوية ، وسفلية وعظام الرأس ، وفقرات الرقبة والظهر ، والساق والأذرع .. إلخ

ولذلك التعدد في الشكل ، والتركيب والوظائف ، آثر الأسلوب ، صيغة الجمع عدولاً عن المفرد ، لدقة دلالتها ؛ ولأنها أبلغ وأوضح في مقام الاستدلال ، على عظيم وعجيب صنعه سبحانه ، وهذا والله أعلم .

(**فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ...**)... الفاء للعطف والتتابع .

(كَسَوْنَا) .. الكِسْوَة : اللباس . أي سترنا هذه العظام باللحم ، وتلك آية أخرى من آيات قدرة الله ، ذلك التكامل المبهر لخلق الإنسان ، حتى تستقيم لـــه الحيـــاة ، ويخلق في أحسن صورة ، ولنا أن نتأمل الخلق بدون هذا الطور ، فكيف تكون هيئة الإنسان ومنظره ، بل كيف تستقيم حياته ؟ وكيف يؤدى وظائفه البيولوجية كإنسان ؟ فسبحان الله العظيم .

﴿ ... **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ... ﴾

ثم ... حرف عطف للتراخي الزمني والرتبي . (**أَنشَأْنَاهُ**) ... " الإنشاء : إيجاد الشيء وتربيته". [1] وكما ذكر الراغب في مفرداته أنها تكثر في آيات خلق الإنسان، والفعل أنشأ ، على صيغة أفعل ، متعدٍ بالهمزة ، حيث نصب مفعولا بـــه ، وهـــو الضمير المبني (الهاء) في (أَنشَأْنَاهُ)، (خَلْقًا) منصوبة على الحالية .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ ...**أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**... ﴾

أي أوجدناه إيجادا مختلفا ، عن المراحل السابقة ، مغايرا للخلق الأول ، وذلك بعد نفخ الروح فيه ، محدثة ذلك التوازن الخلقي المبهر بين الروح والجسد ، ولذلك من الممكن أن يكون " أنشأ " في هذا الموضع ، بمعنى " جعل " للصيرورة ... أي صار خلقا آخر .

﴿ ... **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ... ﴾... تعقيب علـــى عظـــيم صـــنع الله ، وحسن تدبيره ، فهو البركة ، سبحانه أحسن الخالقين .

---

(١) المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـــ٤٩٤ / ط / المكتبة التوفيقية / القاهرة .

(تَبَارَكَ) .. صيغة التمام وكمال البركة ، على وزن تفاعل ، ولا تسند هذه الصيغة إلا للذات الإلهية ، وترد دائما مقترنة بنعم الله عزوجل ، حيث وردت في تسعة مواضع في القرآن الكريم ، تشير جميعها إلى عظيم قدرة الله ، وامتنانه على خلقه ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

[الأعراف : ٥٤]

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

[الفرقان : ١]

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

[الفرقان : ٦١]

(اللَّهُ) .. لفظ الجلالة .. فاعل (تَبَارَكَ) وذُكِر صريحا للدلالة على القدسية ، والاستعلاء والهيبة ، (أَحْسَنُ) .. مرفوع على البدلية ، وإيثار صيغة التفضيل ، دقيق للسياق ، فبعد ما تقدم من عظيم ، وبديع صنع الله ، فحتما وبالضرورة ، هو تعالى أحسن الخالقين ، خلقا وتقديرا وتدبيرا ...

ولقد ذُكِر في كتب التفسير أن هذه الجملة ﴿ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ...﴾ من موافقات " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه ، فعندما سمع الآيات السابقة عليها قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ... لما فيها من حسن النظم ، والتناسق بين صدر الآية ، وعجزها ... وهذه صورة أخرى ، من صور الإعجاز المبهرة في الأسلوب القرآني .

الموضع الثالث :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر : ٦٧]

تدور هذه الآية من سورة المؤمن ، في المعنى السابق نفسه ، من بيان لعظيم فضل الله ، والامتنان على عباده ، بأن أوجدهم من عدم ، ومن مادة أبعد ما تكون عن الحياة ، وهى " التراب " ، ولكن بمقارنة البناء الأسلوبي لهذا الموضع بالموضعين السابقين ، نلحظ أن هناك اختلافا على النحو التالي :

أ- تتصدر هذه الآية ، بالجملة الاسمية في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي ..﴾ .. بدلالة هذا التركيب على القصر والحصر ، من خلال تعريف طرفي الجملة ، وقد سبق الإشارة إلى ظاهرة ﴿ هُوَ الَّذِي ..﴾ في عدة مباحث من هذه الدراسة .
بينما في آيتي " الحج" و" المؤمنون " ، تتصدر الأولى بنداء عام (يأيها الناس) ، والثانية بأسلوب مؤكد (وَلَقَدْ خَلَقْنَا) .

ب- ثم نلحظ التفات آخر ، على مستوى استعمال الضمائر ... ففي الموضعين السابقين من " الحج " و " المؤمنون " ، كان الحديث بـ " نا " العظمة فى قوله تعالى : ﴿ فإنَّا خَلَقْناكم ﴾ [الحج : ٥] ، و ﴿ لقد خلقنا ﴾ [المؤمنون : ١٢] ، بينما في آية غافر تحول الضمير للغائب (هو الذى خلقكم) .

ج- اختزال بعض الأطوار في آية غافر ، حيث اكتفى السياق بذكر ثلاثة أطوار فقط ، وهى : التراب ثم النطفة ثم العلقة ، بينما في سورة " المؤمنون " ، كشف السياق عن أطوار خلق الإنسان كلها ، بداية من التراب إلى العظام المكسوُة لحما ، ثم الإنشاء الآخر بعد نفخ الروح ....

د- المخالفة في ترتيب بعض جمل السياق : بمعنى أنه في آية الحج ، جعل قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى ...﴾ جملة متوسطة بين قوله :
﴿... لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ... ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ ، بينما في آية غافر ، جاءت على نحو مختلف ، حيث تلت ﴿ ... لِتَكُونُوا شُيُوخًا ...﴾ في قوله تعالى:
﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ.. ﴾

وفيما يبدو للبحث ، في تفسير هذه التحولات في البناء الأسلوبي .. أن الالتفات من الجملة الاسمية ، إلى الفعلية والعكس ، وكذلك التحول من ضمير المتكلم إلى الغائب ، أمر مهم في جذب انتباه المتلقي ، وإلقاء الضوء ، على هذه الأمور الخطيرة ، التي تتعلق بخلق الإنسان ، وقضية البعث والتوحيد ، وإثبات الألوهية لله عزوجل .

أما اختزال بعض أطوار الخلق والتكوين من آية غافر ، فأمر طبيعي ، لأن هذه الأطوار ذكرت كاملة في سورة " المؤمنون" ، وشبيه من ذلك في سورة الحج ، والمستور يفسره المذكور ، ولا ضرر في ذلك ، وخاصة وأن الأسلوب القرآني ، لا يكرر من أجل التكرار ، بل كل تكرار له مغزى وهدف يحدده سياق الآيات .

أما بالنسبة للاختلاف الرابع ، من تقديم ﴿ ... لِتَكُونُوا شُيُوخًا ... ﴾ على ﴿ ... وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ... ﴾ وهو على عكس ما ورد في سورة الحج من قوله تعالى : ﴿ ... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ... ﴾ ، فالأمر – أيضا – يتعلق بالسياق ، والمقصد الأساسي من الآية ...

فعندما قدمت آية الحج قوله تعالى :

﴿ .. وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى .. ﴾ على ﴿ .. وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.. ﴾ كان ذلك لهدف يخدم مقصود الآية ، وهو إبراز الوفاة والموت ، كمرحلة أكيدة وحتمية في حياة الإنسان ، وبيان طلاقة القدرة في ذلك ، فهناك من يموت قبل بلوغ الأشُد وهناك من يرد إلى أرذل العمر . لأن الهدف الرئيسي من بيان هذه الأطوار ، التوكيد على إمكانية البعث مرة أخرى . وقد تصدّرت الآية باستهلال ، يبرز المعنى الرئيسي وهو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ....﴾.

بينما الأمر مختلف في آية غافر ، حيث أُخِّر الأسلوب ﴿..وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى..﴾ وقدّم ﴿ .. لِتَكُونُوا شُيُوخًا ...﴾ وذلك لأن مقصد الآية ، وهدفها الامتنان على بني آدم بتلك النعمة ، نعمة الإيجاد ، وبذلك يكون التقديم في ﴿ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ أولى وأدق ، لأن الإنسان – دائما – يحب طول البقاء ، ويكره الموت ... ويتمنى الحياة تطول به حتى يصير شيخا ، ثم يبلغ الأجل المسمى به .

الموضع الرابع :

– ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة ٣٦ : ٤٠]

تناقش هذه الآيات – أيضا – حقيقة البعث ، وطلاقة القدرة على الإحياء بعد الموت – كما ورد في سورة الحج – من خلال هذه المفردات الكونية للخلق ... النطفة والمنى والعلقة .

وتبدأ الآيات باستفهام استنكاري ، ولكنه يحمل في طياته ، تكريما عظيما للإنسان ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ ... أي يترك مُهمَلا بلا حساب ، فيكون كالأنعام والحيوان .. لا فالله رفعه وكرّمه بالبعث والحساب ، حتى لا تتحول دنيا البشر إلى غابة ، لا يرتدع فيها صاحب الرذيلة ، ولا يُثاب حامى الفضيلة .. وفى ذلك إشارة إلى الجانب الحِكْمِي من البعث ...

ثم شرع الأسلوب القرآني ، في مناقشة منكري البعث بالحجة والبرهان ، باستفهام إنكاري للتقرير ، والتقريع ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴾ ... تذكرة للإنسان بأنه خُلق من هذه النطفة ، من منى الرجل ، ومن ذلك الماء المهين ، الذي أعزه الله ، بأن نفخ فيه من روحه . وهو على إعادته قادر .

﴿ **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ ... (**ثم**) .. عطف للتراخي الرتبى والزمني ، و(العلقة) ... هي المرحلة الثانية بعد النطفة ، حيث تعلق بجدار الرحم ، ونلحظ أن هناك تباينًا فى صيغ الأفعال ، في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً** ...﴾ بصيغة المضارع ، ثم تحول عنها إلى الماضي في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً** ....﴾ وتفسير ذلك – والله أعلم – أن إيثار المضارع في الآية الأولى ، مع لفظ (نطفة)

لاستحضار تلك الحالة ، وبيان مدى ضعف الإنسان ، وتذكيره بضآلة حجمه ، فما هو إلا نقطة ماء . فليتذكر ولا يتكبر ولا يتعالى .. وليعلم أن النشأة الثانية أهون عليه سبحانه .

أما إيثار صيغة الماضي (كان) مع العلقة ، ففيه دلالة دقيقة على التثبت والتمكن ، بما تحققه صياغة الماضي ، من ذلك التحقق والتثبت ، وهى بذلك أعظم في باب الاستدلال على طلاقة القدرة ، وأوضح في بيان طبيعة العلقة.

(**فَخَلَقَ فَسَوَّى**) .. الفاء للعطف والتعقيب .. وقوله تعالى : (**فَخَلَقَ فَسَوَّى**) إيجاز معجز ، حيث اختصر أطوار الخلق ، السابق ذكرها في آيات " الحج " و" المؤمنون " ، في فعلين (فَخَلَقَ – فَسَوَّى) وحذف ما ذكر من باقى الأطوار.

(**فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى**) ... الفاء للعطف ، و (جعل) في هذا الموضع للصيرورة ، أي صيَّر هذا الماء (المنى) ، بشرًا تاما كاملا .. من ذكر وأنثى لعمارة هذا الكون .. وفي ذلك إشارة إلى نعمة التزاوج والسكن ، وكذلك إشارة إلى طلاقة القدرة الإلهية ، وحكمتها في توازن هذا الكون من إيجاد الذكر والأنثى ...

(**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى**) ... استفهام إنكاري أخير ، للتقرير والتوبيخ .. لأن ما تقدم من بيان خلق الإنسان ، هو أكبر دليل على إمكانية البعث ، والإحياء .

(**بِقَادِرٍ**) ... اسم الفاعل ، متصل بحرف الجر الزائد ، للتوكيد ، مع الإيحاء بالثبات والاستمرار ، اللذين تحققهما صيغة اسم الفاعل ، حيث تتفوق على الفعل والاسم ، لأنها تجمع بين خصائصهما ... وتعد هذه الآية بمثابة الإجابة والرد ، على الاستفهام ، الذي ورد في بداية سورة القيامة ، في قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة :٣]

مما يوحى بالترابط الشديد بين أجزاء السورة من أولها إلى آخرها .

[٢]- آيات انفردت بتوظيف " التراب والنطفة أو النطفة فقط ، أو الماء المهين والماء الدافق :

تتعدد وسائل الأسلوب القرآني ، في توظيف مفردات الطبيعة ، فأحيانا يجتمع في الآية الواحدة ، أو في مجموعة من الآيات ؛ عدة مفردات كونية ، مثلما رأينا في المواضع السابقة ، من توظيف الطين والتراب ، والنطفة والعلقة والمضغة إلى غير ذلك ، بيانا لأطوار خلق الإنسان ، وإقرارا للحقيقة الألوهية المتفردة ، وترسيخا لعقيدة البعث والإحياء ...

وفى حين آخر ، تنفرد الآية بملمح واحدٍ أو اثنين ، من مفردات الطبيعة ، وذلك نمثل له في الآيات موضع هذا الجزء من الدراسة ، حيث نجد أن الأسلوب القرآني اكتفى بتوظيف عنصر ، أو عنصرين فقط ، مثل : " التراب والنطفة " .. وقد تقتصر على " النطفة " فقط لعرض قضية من قضاياه .

ويتم تحليل هذه الظاهرة من خلال المواضع الآتية :

- ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ٤]

- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١]

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧]

- ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم ٤٥ : ٤٧]

- ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾
[الإنسان : ٢]
- ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾
[عبس ١٧ : ١٩]

الموضع الأول :

توظيف النطفة ، في بيان طبيعة الإنسان الجاحدة ، وترسيخ عقيدة البعث ، وقد ظهر ذلك في آية النحل في قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ٤]

وكذلك في آية يس في قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧]

العرض الموضوعي :

وردت الآيتان السابقتان في مقام الاستدلال ، على ألوهية الله سبحانه وتفرده بالوحدانية ، وإثبات عقيدة البعث والإحياء وبيان جحود بنى الإنسان ، وذلك من خلال الاستدلال، عليهم بخلق أنفسهم ، حيث سبق آية النحل موضع الدراسة ، بعض آيات الكون في الآفاق ، مثل خلق السماوات والأرض .

ثم ألمح التعبير القرآني ، إلى معجزة خلق الإنسان ذاته ، مبينا طورا بسيطا من أطوار خلقه وهو : " النطفة "، وكذلك كان الأمر في سورة يس ، حيث تقدّمت الآية (٧٧) مجموعة من الآيات ، تبين فضل ونعمة الله عزوجل على عباده ، ولكنهم على الرغم من ذلك ، يجحدون هذه النعم ، ويتوجهون لغيره بالعبادة .

التحـــليل الفـــني :

في الآيتين السابقتين توظف " النطفة " – كإشارة كونية في خلـــق الإنســـان – لخدمة قضية البعث ، وبيان طبيعة الإنسان الجاحدة ، المنكرة لفضل الله .

في آية سورة النحل يلفت النظر ، ذلك الأداء التعبيري الموجز ، بحيث إنه تم التعبير عن خلق الإنسان ، وموقفه من خالقه في إيجاز شديد ، من خـــلال جملتـــين الأولى فعلية فى قوله تعالى :(خَلَقَ الإنسان) ، والثانية اسمية (فإذا هـــو خصـــيم مبين) ، يتوسطهما شبه الجملة (مِن نُطْفَةٍ) .

(**الإِنسَـــانَ**) ... معرفة بأل للاستغراق ، أي كل جنس الإنسان ، فلا أحد يخرج عن دائرة هذا الخلق .

(**مِن نُطْفَةٍ**) ... هي " ماء الرجل "، وتم توظيفها بصفتها العنصر الأساسي في عملية التناسل ، وقد أُشير إلى أطوار الخلق ، من خلالها بإيجاز مبهر ، بحيث حذف الأسلوب جميع المراحل المشار إليها في مواضع سابقة كما في سورة " المؤمنون " وغيرها . وقوله تعالى : (مِن ..) للدلالة على بداية خلقه النسلي . كما أنها لفتـــة إلى بساطة خلق الإنسان من ذلك الماء المهين ، أو النطفة المهينة ، التي هي مبـــدأ خلقه ، ثم أنشأه الله مكرما معززا ، بالعقل والتكليف .

وتنكير لفظ (نُطْفَةٍ) في هذا السياق ، له دلالة دقيقة جدا ، هى إبراز بساطة هذا الخلق، وحقارة منشئه ، حتى يتضح ذلك البون الشاسع ، في طبيعـــة الإنســـان الجاحدة.

فقد كان المنتظر من الإنسان ، بعد امتنان الله عليه ، بنعمة الوجود بعد العدم ، أن يُقرَّ ويعترف بوحدانية الله، ولكنه كما توضح الآية : (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) ... حقا فالبون واسع ، بين المنتظر من الإنسان ، وبين موقفه الجاحد المنكر .

وإيثار الأسلوب لحرف المفاجأة (إذا) متصلا بفاء السرعة ، له إيقاع عظيم في النفس ، ببيان تلك الفجوة بين الواقع والمتوقَّع ، فالأمر مفاجأة ... ولكنها ليست للذات الإلهية -حاشا لله – لأنه أحاط بكل شيء علما ، بل المفاجأة التي أعنيها هنا هي مفاجأة المتلقي ...

فعندما يذكر الفضل ، يتُوقع الخير ممن أصابه ذاك الفضل ، وحرف (إذا) كان دقيقًا فى موضعه؛ لأنه ساهم فى إبراز هذه اللفتات :

الأولى : التعجب الشديد والامتعاض لموقف الإنسان وجحوده .

الثانية : التأكيد على هذا الكفران ، لأنه كان الأولى بالإنسان ، بعد أن خلقه الله من ذاك الماء الحقير ، ثم سواه وعدّله في أحسن صورة ومنحه العقل ، أن يعترف ويقر بوحدانية الله .

(**هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**) ... هو : ضمير مبنى فى محل الرفع بالابتداء ، يعود على الإنسان ، (**خَصِيمٌ**).. خبر "هو " صيغة مبالغة من الفعل (خصم) بوزن فعيل ، وقيل إنها بمعنى مخاصم .. أي صيغة مبالغة ، على معنى اسم الفاعل ... ولكني أرى أن يكون معناها ، على ظاهر لفظها من المبالغة أولى .. لأن هذه الصيغة تمنح المعنى الدلالة المقصودة من الآية ، وهى شدة الخصام ، وعظيم الجدل واللجاجة ، من هذا الإنسان ، بينما اسم الفاعل ، لا يفيد ما تقدم من دلالة ...

(**مُبِينٌ**) اسم فاعل من الفعل " أبان " أي واضح ظاهر ، وهذه قمة التبجح الإنساني على الذات الإلهية ، فخصامه هذا ، وجدله ومنازعته ، في إبطال الوحدانية، وتكذيب من يدعون لله الواحد ، ليس مستترا ، أو على استحياء ، بل ظاهرا واضحا ، وتلك قمة التبجح ، والجحود . وقريب من هذا ، قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧]

ولكن بمقارنة هذه الآية . بالآية السابقة في سورة النحل ، نلحـظ أنـه علـى الرغم من تقارب الهدف في كل منهما ، إلا أن البناء الأسلوبي يختلـف ... حيـث تتصدر آية " يس " بالاستفهام المنفى ، على خلاف آية النحل ، بدأت بإخبار، يتفق وسياق السورة التي وردت فيها ، وكذلك وردت آية يس مصدّرة بالاستفهام ، علـى غرار النسق السابق عليها ، في قوله تعالى مبرزا أنعمه على عباده :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾

[يس : ٧١]

وهو استفهام غرضه التوبيخ والتقريع لمشركى مكة. [١]

(الْإِنسَانُ) ... معرف بأل للاستغراق ، دلالة على استغراق الجنس الإنسـاني كله. وقيـل هي " أل " العهدية ... أي الإنسان المعهود المعروف بهـذه المقالــة يومئذ. [٢] وإن كنت أرى ، أن التعريف للاستغراق أولى ، لعموم القضية ، ، وإن تم استثناء المؤمنين من هؤلاء . لأنه ليس الكل كـافرا بالبعـث والإحيـاء . ولكـن الاستغراق في هذا الموضع على التغليب – والله أعلم .

وأستدل على ذلك بالقرآن الكريم نفسه ، لأن الآيات التي وردت في مثـل هـذا المقام وردت بتعريف (الْإِنسَانُ) ، دون أن يكون المقال ، محدّدا لشخص بذاتـه ، على سبيل المثال : آية (٤) في النحل : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ من نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ، وآية (٢) في الإنسان :﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

---

(١) قيل أن هذه الآية نزلت في " أبى بن خلف " ، وقيل في " أبو جهل " كما قيل فـي " العاصـي بـن وائل " ، انظر التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٣ صـ٧٣ / ط / دار سحنون /تونس .

(٢) سبق الإشارة إلى أن المقصود بالإنسان واحد من ثلاثة هم : " أبى بن خلف " ، " أبو جهل " ، " العاصي بن وائل " . انظر التحرير والتنوير مجلد ١١ جـ٢٣ صـ٧٤ .

(**أَنَّا خَلَقْنَاهُ**) ... صيغة توكيد بإنَّ المشددة المسندة لـــ(نا) العظمة ، ثم بصيغة الماضي المحققَة المسندة لــ(نا) العظمة .

(مِن **نُّطْفَةٍ**) ... **مِن** .. ابتدائية للدلالة على بدء خلقه ومنشئه . **نُّطْفَةٍ** .. دالــة على أن بداية خلق الإنسان ، مهينة وحقيرة ، لتعمّق الدلالة في تباين الموقف ، بعد خلق الإنسان ، وتحوله عن خالقه ، وهى بمثابة التوطئة لما يليهــا مــن مفاجــأة ، وغرابة فى تصرُّف هذا الإنسان.

(**فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**)... الفاء للعطف ، وإذا : دالة على المفاجأة ... أي ذلك الموقف الغريب من الإنسان من مجابهة ربه بالعداوة ، والمجــاهرة بالشــرك ، وليست المفاجأة هنا على ظاهر معناها . بل المقصود بالمفاجأة – والله أعلم – ذلــك الموقف المتباين المغاير، لما هو متوقَّع ، فقد كان المفروض أن يخضع الإنسان لربه مُقرًا بوحدانيته ، ولكن الأمر جرى على الضد ، وجــاهر ذلــك الإنســان ربـــه وخاصمه ، ناسيا نشأته الحقيرة المهينة من النطفة المهينة ، التي أعزهــا الله بــنفخ الروح فيها ، كما أكرمه وفضله على سائر المخلوقــات بنعمــة العقــل ... (**هُــوَ خَصِيمٌ**)... جملة اسمية من مبتدأ وخبر ، حيث تحول عن الجملة الفعلية ، في صدر الآية إلى الاسمية ، لما لها من دلالة على ثبات الإنسان علـــى مخاصــمة ربـــه ، واستمراره على هذه المخاصمة ، (خَصِيمٌ) .. بوزن فعيل للمبالغــة ، فـــي تلــك الخصومة ، من ادعاء شركاء لله عزوجل ، والطعن في الوحدانية والبعث . (**مُّبِينٌ**) ... أى واضح ظاهر الخصومة ، والجدل ، وهـــي دقيقــة الدلالــة علـــى التــبجح والمجاهرة بالكفر والإلحاد في دين الله .

وأحسب أن السياق قصدها قصدا ، لترسيخ وإظهار شدة جحود الإنسان وكفرانه . وهكذا رأينا كيف وظّف الأسلوب (النطفة) في آيتي النحل ويــس ، لبيــان مــدى جحود الإنسان وكفره .

أما الموضع التالي فمن سورة فاطر ،حيث وظّف التراب و النطفة ، في مقام الاستدلال على البعث و الإيجاد من العدم .

قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر ١١]

تتصدر الآية بلفظ الجلالة (الله) لإضفاء الهيبة ، و القدسية على الآية ، حيث وردت في مجموعة آيات ، تبرز طلاقة القدرة في خلق السماوات و الأرض ، وإرسال الريح و السحاب ، و إحياء الأرض ، مما له دلالة على وحدانية الله سبحانه. فوردت هذه الآية ، لبيان نعمة أخرى .. نعمة الخلق .. تلفت الإنسان إلى الاستدلال بذاته على الوحدانية ، و الإعجاز ، بعدما كان الالتفات إلى الآفاق ، وعجيب صنع الله فيها .

(**خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ**) .. إشارة إلى أصل الخلق " آدم " عليه السلام .

(**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**) ... ثم : حرف عطف للرتبة . **مِن نُّطْفَةٍ** ..إشارة كونية إلى التناسل ، و التحول عن الخلق الأول من التراب ، إلى الخلق من ماء مُسال . و هذا من أعظم الأدلة على وحدانية الخالق ، و دقيق صنعه .

(**ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا**) ... و فيما يبدو للبحث أن " الجعل " في هذا السياق بمعنى " التصيير " [١] أي صيّركم من تلك النطفة أزواجًا ، من الجنسين الذكر و الأنثى .

كما ورد في قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم٤٥:٤٦] .

---

(١) راجع لسان العرب/ مجلد ٢/ صـ ٣٠٠ ، ٣٠١ / مادة " جعل " / ط.دار إحياء التراث العربي.بيروت

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) .. الواو عاطفة على (جعلكم أزواجًا) و الجملة إشارة إلى أطوار الخلق و الحمل ، فهو من باب الإيجاز ، حيث حذف الأسلوب ، الأطوار التي تقدم ذكرها ، في مواضع أخرى .. لأن هدف الآية – و الله أعلم – إبراز سعة علم الله ، بكل هذه الأطوار و ما بعدها ، من شقاء و سعادة ، وطول العمر أو قصره إلخ .....

و الاستثناء في الجملة مفرغ ؛ لإفادة الحصر و القصر ، و التأكيد على قَصْر هذا العلم على الذات الإلهية فقط ... و هذا وجه من وجوه الاستدلال ، على وحدانيته و تفرده .

(تحمل – تضع) .. إيثار صيغة المضارع في السياق ، لدلالتها على الاستمرار، فالحمل و الوضع مستمران إلى ما شاء الله ، و علم الله متلبس بهما ، في كل زمانٍ و مكان . ولذلك كان الأولى و الأدق فى هذا الموضع صيغة المضارع عدولاً عن الماضي كما في " خلقكم – جعلكم " . و الباء في " بعلمه " للملابسة ، أي ملابسة علم الله و إحاطته و ملازمته الدائمة ، لكل مراحل و أطوار الخلق ، سابقا ولاحقا، في كل زمانٍ و مكان .

ولتأصيل هذا الاستدلال على سعة علم الله ، بيّن الأسلوب ما فيه دلالة على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ . وإيثار صيغة المبنى للمفعول ، في قوله تعالى : (**يُعَمَّرُ...**) فيها إيجاز بحذف الفاعل لقدسية هذا الفاعل و العلم به ، لأن لا أحد يملك ذلك ، إلا الله وحده عز وجل. و مما لا شك فيه أن إيثار الطباق السلبي بين : (**يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ** وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) له دلالة دقيقة على شمولية القدرة ، و طلاقتها فى زيادة الأعمار أو نقصانها .

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ... عجز مؤكد بإن ، يتفق مع صدر الآية من بيان لقدرته تعالى على الخلق . أضف إلى ذلك ، بساطة و يسر هذا الأمر عليه سبحانه .

* أما المواضع الباقية فقد وظّفت (النطفة) فيها لخدمة قضيتين :

الأولى : الامتنان بالخلق ، و بنعمة السكن و التزاوج .

و الثانية : الاستدلال على البعث ، كما في كل آيات الخلق .

و من هذه المواضع ، قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم ٤٥ : ٤٧]

وردت هذه الآيات متوسطة بين مجموعة أخرى ، من آيات القدرة و التوحيد .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ .. لا شك أن من آيات الله ، ذلك الإعجاز البشري المسمى بالإنسان ، و لذلك وردت آيات الخلق و التكوين ، لبيان طلاقة القدرة ، و الإقرار بالوحدانية .

و لعظَم هذا الخلق – خلق الإنسان – ، نجد أن الأسلوب القرآني ، يوظّف كونيات الخلق لبيان تلك القدرة في النفس ذاتها ، بعد أن بيّن كونيات الآفاق في مواضع كثيرة ، لعل ذلك يكون أقرب على الاستدلال ، و التوجه إلى الله ...

تتصدر الآيات موضع الاستدلال ، بالجملة الاسمية المؤكدة : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ .. لما للجملة الاسمية من دلالة على الثبوت ، و تجدد الفعل ... فالخلق مستمر إلى ما شاء الله ، غير مقيد بزمان أو مكان ...

و التعبير بقوله : ﴿ ... خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ .. يوحي بالامتنان على الخلق بتلك النعمة العظيمة ، نعمة التزواج ، بما في ذلك من سكن و مودة و رحمة ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١]

و تفصيل قوله تعالى : (الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) .. هو من باب الإطناب ، بذكر الخاص بعد العام ، لإبراز نعمة الله في هذا الخلق ، و لفت الانتباه إلى نعمة أخرى هي " التزواج " .

(مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى) **من** .. ابتدائية تشير إلى ابتداء الخلق ، من هذه النطفة المهينة ... و دائما ما ترد " نطفة " بصيغة النكرة . (١) و أجد أن ذلك لبيان حقارة و مهانة و بساطة بداية خلق هذا الإنسان الجاحد ، المتمرد ... فهي ترد على هذه الصورة لتوضيح تلك الفجوة العظيمة ، بين واقع الإنسان ، و بين ما كان يجب عليه أن يفعله .

(إِذَا تُمْنَى) .. إذا للظرفية ، أي عندما تمنى ، فهي تشير إلى عملية الإخصاب، ثم الخلق و الإيجاد . و هي إشارة لسرعة الخلق . و صيغة **(تمنى)** ... مبني للمفعول ، لأن هذه العملية تتم من خلال الوظائف البيولوجية فى الإنسان ، فالفاعل ليس ظاهرا. و تعد هذه الجملة ، توطئة و تمهيدا ، للآية التالية عليها ، و التي تؤكد على البعث .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾... **الواو** حرف عطف ، و **أن** للتوكيد ، و يساهم في هذا التوكيد ؛ تقديم الجار و المجرور **عَلَيْهِ** ، لأهمية ذلك المتقدم ، و التأكيد على تحقيق هذا الفعل على الله . و بيان طلاقة القدرة في إتمامه .

---

(١) هذا بخلاف تعريفها في الآية ١٤ من سورة " المؤمنون " ، حيث عرفت بأل العهد لنكتة أسلوبية وقد سبق توضيح ذلك ، حيث وردت في نفس الموضع الآية (١٣) من سورة "المؤمنون " نكرة .

(**النَّشْأَةَ الْأُخْرَى**).. أي الإيجاد و الخلق ، و البعث مـرة أخـرى ، وكلمـة **الْأُخْرَى** .. إشارة إلى نشأة سابقة ، و هي التي تدل عليها الآيتان السـابقتان (٤٥ ، ٤٦ النجم) ، من خلق الإنسان من نطفة ..إلخ . و الأخرى ... مؤنث الآخر ، أي أنها النشأة الأخيرة التي لا نشأة بعدها .

و الموضع التالي – كذلك – توظّف فيه (**النطفة**) ، لبيان طبيعة خلق الإنسان ، في سياق الامتنان عليه بهذا الخلق ، و منحه نعمة السمع و الإبصار و الهداية .

يقول تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [الإنسان :٢]

هذه هي الآية الثانية من سورة الإنسان ، و تعد السابقة عليها تمهيدا ، و توطئة و هي قوله تعالى :

﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان : ١]

لذلك ترد الآية [٢] موضع الدراسة ، لتوضح و تفصّل ، كيف أن الإنسان لم يكن شيئاً مذكورا ، فهي بمنزلة التوضيح ، و التفسير للآية [١] . مـن بيـان لعدميـة الإنسان ثم الخلق و الإيجاد .

تتصدر الآية بالجملة الاسمية المؤكدة بإن ، بدلالتها على الثبوت و الاستمرار ، ثم الفعل الماضي (**خلقنا**) بدلالة الماضي على التحقق الفعلي . أضف إلـى ذلـك إسناده لـ (نا) العظمة ، كل هذا من شأنه الإقرار و التوكيـد . (**الْإِنسَـانِ**) ... بصيغة التعريف ، لاستغراقها للجنس الإنساني كله ، باستثناء آدم و عيسى عليهمـا السلام ...

(**مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** .....) .. من للدلالة على بدء الخلق مـن هـذه النطفـة ، **أَمْشَاجٍ** جمع مِشْج ... و مَشَجه : أي مَزَجَهُ و خَلَطَهُ .[1]

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز/ جـ٤ / صـ٥٠٨ /ط .المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

و معنى هذا أن المقصود بأمشاج : أخلاط فقوله تعالى :
﴿ .. مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ .. ﴾ أي مختلطة . (١)
يقول الراغب : " أي من أخلاط من الدم ، و ذلك عبارة عما جعله الله تعالى بالنطفة من القوى المختلفة . " (٢)

و قوله تعالى : (أمشاج) صفة لنطفة .. و هنا لفتة لغوية ، هل يوصف المفرد " نطفة " بالجمع " أمشاج " ؟

يرى الإمام جار الله الزمخشري ، أن لفظ " أمشاج " ليس جمعا . إنما هو مفرد، و على ذلك يكون وصف النطفة به طبيعيا ، لا تأويل فيه ...
يقول صاحب الكشاف : " نطفة أمشاج ، كبرمة أعشار" (٣).

ولكني أميل إلى اعتبارها جمعا ، على ظاهر لفظها ، على وزن " أفعال " للقلة. واستند في ذلك لما ورد في لسان العرب ، من اعتبارها جمعا، مثل يتيم و أيتام .(٤)

وتأويل وصف المفرد بالجمع حينئذٍ ، يكون باعتبار ، أن النطفة فيها العديد من الخواص و الصفات ، و التي عرفت في العلم الحديث باسم (الجينات الوراثية) . حيث تحمل هذه الجينات الصفات الوراثية ، من الآباء لتنقلها إلى الأبناء وعلى هذا التأويل ، لا مانع من وصف " نطفة " ، بالجمع " أمشاج " على معناها وخواصها – والله أعلم – .

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز جـ٤ صـ٥٠٨ / ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(٢) المفردات في غريب القرآن . صـ٤٧١ / ط / المكتبة التوفيقية .
(٣) الكشاف مجلد ٤ صـ١٩٤ / ط / دار الفكر .
(٤) انظر لسان العرب مجلد ٩ مادة " مشج " صـ٤٩٥ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(نَّبْتَلِيه) ... فيما يبدو أن هذه الجملة الفعلية ، تعليل لما قبلهـا ، أي أن مـن أسباب خلق الإنسان ، الابتلاء ، بعد أن منحه الله العقل ، وأصـبح يتحمـل أمانـة التكليف . وطبيعة هذا الابتلاء تتضح من قوله تعالى في الآية اللاحقة عليها :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣]

وجملة (نَّبْتَلِيهِ) في موقع الحال ، فحاله أن الإنسان مبتلى ومكلَّف ، فلم يُخلَـق ليتُرك سدى . وفى جملة (نَّبْتَلِيهِ) إشارة لطيفة إلى البعث .. فالابتلاء يتحتم عليـه الجزاء ، والجزاء يوم البعث ، لترى كل نفس ما قدمت.

﴿ ... فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ... الفاء عطف للتعقيب .. (جَعَلْنَاهُ) .. تحول الأسلوب من الفعل (خلقنا) إلى (جعلنا) ، يعد لفتة لغوية ، فمن عجائب هذا البيان الرفيع ، الدقة المعجزة في اختيار كل لفظة في مكانها ، بحيث لا يصلح غيرهـا .. فالخلق هو الإيجاد من عدم ، ولذلك حرص كثير من العلماء ، آلا ينسب فعل الخلق إلا لله عزوجل ، لأنه إيجاد على غير نظام سابق ، إيجاد من لا شيء ، ولهذا كانت أدق مع الإنسان في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ... ﴾

أما (الجَعْل) ... فالأمر مختلف ، لأن الجعل ، هو إيجاد شيء من شيء آخر .. أو صيرورة شيء من آخر .. لأن الله صيّر الإنسان ، سميعا بصيرا ، بعد خلقه .. فهو إيجاد من موجود . (١)

(سَمِيعًا بَصِيرًا)... صيغتي مبالغة بوزن " فعيل " ، للدلالة على عظـيم قـوى الإدراك التي منحها الله عزوجل للإنسان ، من خلال حاستي السمع والبصر ، وبهما يتحصَّل العلم والمعرفة ، ويصح التكليف وتحمل أمانته .

---

(١) انظر الفرق بين الخلق والجعل في الكشاف / مجلد ٢ / صـ ٣ / ط . دار الفكر .

والملاحظ أن الأسلوب القرآني ، دائما يقدّم حاسة السمع على البصر .. فهذه ظاهرة في القرآن الكريم ، لا خلاف عليها .. وهى وجه من وجوه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم . الذي نزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ،على عقول بدوية بسيطة ، لا تفطن تلك الحقائق العلمية ، التي تتكشف يوما بعد يوم ، لتثبت صدق هذا الوحي ، وصدق مبلغه صلى الله عليه وسلم ، وأقصد بذلك تأكيد علم الأجنة ، على أن حاسة السمع ، أسبق من حاسة البصر ، في الخلق والتكوين .. فسبحان الله العظيم .

أما **الموضع الأخير** في هذا الجزء من الدراسة ، فهو قوله تعالى :
﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس ١٧ : ٢٢]

يتضح أن (**النطفة**) في هذا الموضع – أيضا – هي المحور ، والآيات تخدم قضية البعث والنشور ، من خلال بيان خلق الإنسان ، من نطفة مهينة حقيرة ....

تتصدر الآيات بدعاء خشن بالموت والهلاك **﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ... ﴾** .. ومما لاشك فيه ، أن الدعاء هنا ليس على ظاهر معناه ، لأن ذلك لا يناسب مقام الألوهية والربوبية ، وأغلب الظن أنه لتحقير شأن هؤلاء الكافرين ، وتهديدهم بالخروج من رحمة الله .

وعلى قِصَرِ هذه الآية وإيجازها ، إلا أنها تُعد غاية في الإعجاز .. فهي بكلمات قليلة بسيطة ، وجهت لهؤلاء المعاندين في الوحدانية ، خطابا مرا غليظا ، يدل على شدة غضب الله عليهم .

(قُتِلَ) ... بصيغة المبنى للمفعول ، لعدم أهمية العلم بالفاعل ، فالمقصود دلالة هذا الدعاء ، على اللعن والطرد من رحمة الله . (الْإِنسَانُ) ... معرفة بأل الجنس للتغليب فليس كل إنسان كافر ، ولكن المعظم من بنـــى الإنســـان كـــافر جاحـــد ، فالاستغراق هنا على سبيل التغليب ، لا على ظاهر معناه ، من اســـتغراق الجـــنس البشرى كله .

(مَا أَكْفَرَهُ)... أي ما أعظم وأشد كفره .. وقد تم التعجب من الفعل (كفـــر) مباشرة ، ودون واسطة ، للدلالة على عِظَم هذا الكفر والجحود ، فـــلا فاصـــل ولا واسطة . وقد أفادت هذه الصيغة ، التعليل لما قبلها ، أي للدعاء في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ ... ﴾ .

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) ... إنشاء للاستفهام ، وهو بمثابة التفنيد ، والدحض لكفر وتعالِى هؤلاء الجاحدين ، وكأن المعنى : لماذا تتعالون وتتكبرون ؟

ألا تعرفون أصل خلقكم ؟ وأرى أن الاستفهام في هذا المقام ، ليس للتشـــويق كما قال بعض المفسرين . ولكنه – والله أعلم – للتوبيخ والتقريع . وهذا أدق وأليق بالسياق السابق ، واللاحق على هذه الآية . (شَيْءٍ)... نكرة للتحقير ، وإبراز أن هذا المخلوق المتعالي المعاند ، قد خُلِقَ من شيء هينٍ حقير .

(مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) ... إجابة للاســـتفهام الســـابق ، بصـــورة ســـريعة ومباشرة ، لإبراز هوان نشأته وخلقه . (مِن نُّطْفَةٍ) .. تقديم الجار والمجـــرور ، للاهتمام بما فيه بداية الخلق وهو النطفة ، لأنه أدخل في باب الاستدلال على البعث، من خلال التأمل في خلق الإنسان . من نطفة في المرة الأولـــى ، فالإعـــادة عليـــه سبحانه أهون.

(**مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَــدَّرَهُ**) ... إيجاز معجز لمراحل الخلق ، وحُذف ما بــين النطفة والتقدير .وهذا أولى بالسياق ، لأن المقام ليس لبيان ، وتفصيل أطوار الخلق ولكنه مقام الاستدلال على البعث والإحياء ، من خلال هذا الخلق الأول .
وتنكير (نُّطْفَةٍ) ، يتناسق مع تنكير (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ) في الآية السابقة عليها . وهي تأكيد على هوان وحقارة شأن هذه النطفة .

وفيما يبدو للبحث ، أن تكرار الفعل (خلقه) ، له دلالتان إحداهما معنوية ، والآخرى إيقاعية صوتية ، أما الأولى :
فهي التأكيد على أن هذا الصنع العجيب الدقيق المسمى بالإنسان ، هو صــنيعة ربه فقط. وبالتالي لا يجب التوجه بالعبادة ، والامتنان إلا له سبحانه .
وأما الثانية :
فهي ذلك الإيقاع والنغم الصوتي ، المتوازن بين الآيتين . ولو فُــرِض وحُــذف الفعل من الآية الثانية فأصبحت (مِن نُّطْفَةٍ .... فَقَدَّرَهُ) .. لفقــدت الآيــات نغمــا متوازنا رخيما ....

(فَقَدَّرَهُ) ... **الفاء للعطف ، قَدَّره** ... فعل ماض بصيغة (فعّل) بدلالتها على المبالغة والتكثير في الفعل . لذلك فهي إشارة إلى عظم ودقة صنع الله .. فكل شيء مقّدر وموزون ، وهى على غرار قوله تعالى :
﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢]
ثم يعدد الأسلوب القرآني – بعد هذه الآية – كثيرا من النعم ، التي اختصــها الله بعباده . وهى في مجملها دليل على وحدانية الخلق ، واستدلال على النشأة الأخــرى والبعث . ومن هذه النعم هداية الله عزوجل للإنسان ، وتيسير السبل له لتعمير هــذه الأرض . وذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس : ٢٠] ...

من خلال العطف بـ(ثم) للدلالة على التراخي الرتبي ، وارتقاء الإنسان في درجات التكليف ، احتراما لعقله وملكاته الفكرية ، التي هيئها الله له ، وأكرمه بها وإيماءً إلى قوله تعالى : (فَقَدَّرَهُ) ..

ومن هذه النعم كذلك ، الإماتة في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : ٢١]

وقد يتعجب البعض ، من جعل الإماتة والإقبار نعمة !!

والمتأمل في الأمر ، يجد أنهما بالفعل من أجل النعم .. فما قيمة تخليد الإنسان في دنيا ليست دنياه .. بعدما يتغير كل ما حوله ، ومن حوله ، ويصبح غريبا في زمن غير زمنه ، ويصيبه المرض والملل والإحساس بالغربة . ألا يعد الموت نعمة في مثل ذلك ؟! ولعل ذلك ما دعا زهير بن أبي سلمى أن يقول في معلقته :

سئِمتُ تكاليف الحَياةِ ومَنْ يعَشْ ثَمانينَ حَوْلاً لا أبالَكَ يسْأمِ [1]

والإقبار كذلك نعمة من الله .. فهو تكرمة للإنسان ، بحيث لا يُترك جسده بعد الموت للسباع والهوام والجوارح .

ثم تصل الآيات إلى الهدف المقصود منها ، وهو إثبات الإحياء والبعث ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : ٢٢] كناية عن النشور والبعث للحساب .

ومن خلال ما تقدم يتضح كيف كانت " **النطفة** " ، محورا أساسيا في البرهنة والاستدلال على أصول خلق الإنسان ، وبيان هوان تلك النشأة على الله ، من هذه النطفة الحقيرة ، التي خُلق منها الإنسان ، وأعزه الله بأن نفخ فيه من روحه . كما كانت مثالا واضحًا في إمكانية البعث والإحياء ، والإقرار بالوحدانية .

---

(١) شرح المعلقات السبع / للزوزنى / صـ٨٦ .

وهناك مواضع أخرى في القرآن الكريم ، أشارت إلى توظيف " النطفة " لبيان بدء خلق الإنسان ، والاستدلال على البعث ، ولكن ليس بصريح لفظ " نطفة " ، بل بتعبيرين آخرين هما : **الماء المهين** ، **والماء الدافق** ، كما في قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة ٦ : ٩]

وكذلك قوله تعالى في المرسلات : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات ٢٠ : ٢٣]

وكذلك قوله تعالى في سورة الطارق :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق ٥ : ٨]

وفي القرآن كله ، لم يُذكر لفظ (مَّاءٍ مَّهِينٍ) إلا مرتين، وهما الموضعان السابقان ، وكذلك لم يرد (مَّاءٍ دَافِقٍ) ، إلا في سورة الطارق ، الموضع السابق ...

والتساؤل هنا ، لما عدل الأسلوب عن لفظ " نطفة " صريحا ، حيث وردت اثنتي عشرة مرة ، تم تحليل معظمها ، بما يخدم هدف تلك الدراسة ، إلى التعبير بالماء المهين ، والماء الدافق عن بدء عملية التناسل ؟

لقد حاولت وبحثت في هذا الأمر ، فوجدت – والله أعلم – أن العدول إلى التركيب اللفظي (مَّاءٍ مَّهِينٍ) في سورتي السجدة والمرسلات ، وكذلك إلى (مَاءٍ دَافِقٍ) في سورة الطارق .. هو نوع من التنوع اللفظي ، لإبراز حقيقة معنى النطفة فالمعروف أن النطفة " ماء الرجل " [(١)] ، ولكن صفة هذا الماء لا تتضح من اللفظ المجرد " النطفة " ... ولذلك كان التعبير بلفظ (ماء مَّهِينٍ) واضح الدلالة والصفة لبيان طبيعة هذا الماء ، فهو ماء حقير مهين ...

---

(١) لسان العرب / جـ ١٠ / صـ ١٨٧ / ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت .

وقيمة الوصف ، مهمة جدا في إبراز قضية التوحيد والبعث ... لبيان حقـارة وضآلة بداية هذا المخلوق المكابر المعاند ... كما أنها تؤكد علـى إمكانيـة خلقـه وإعادته من جديد للحساب .

(**مَهِينٍ**) ... صيغة مبالغة على وزن فعيل .. دلالة على شدة حقـارة هـذا الماء ، و (مَّاء مَّهِينٍ) : أي ماء قليل ضعيف . (١)

وكذلك (**ماء دَافِقٍ**) ... وصف لطبيعة هذا الماء الدافق ، التي قد لا تستوعبها كلمة " نطفة " ... ولهذا أوثر ذلك التركيب اللغوي (مَّاء دَافِقٍ ...) لبيـان صـفته وطبيعته ، وخاصة أن هناك وصفا آخر يلحق به ، وهو قوله تعالى :

﴿ .. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ .. ﴾ ... وهو من باب الإعجاز المعجـز .. لأنه إشارة بسيطة وموجزة ، لعملية التناسل بين الرجل والمرأة .

(**الصُّلْب**) : هو فقرات ظهر الرجل . و(**وَالتَّرَائِب**) : جمع : تريبة ، وهى : ضلوع الصدر. (٢) عند المرأة والرجل .

وفى هذا إشارة عظيمة ، لما أثبته الطب الحديث بعد ذلك ، من حقائق تؤكدها هـذه الآيات العظيمة .. حيث ورد في كتاب علم تشريح الأجنة ، للأستاذ الدكتور / محمد توفيق الرخاوى ما ترجمته :

أن الخصيتين أول نشأتهما ، في أعلى تجويف بطن الجنين ، فوق جدار البطن الخلفي ، ولكنها تضطر إلى النزول حتى تصل إلى أسفل داخل الصفن . وفيما يلي نص ذلك كما ورد في كتاب د / الرخاوى :

" The testis develops high up on the posterior abdominal wall " but has to descend to lie in the scrotum" (3)

---

(١) انظر لسان العرب مجلد ٩ صـ٥٩٦ مادة " مهين " .

(٢) المفردات في غريب القرآن . صـ٨١ ، المكتبة التوفيقية .

(3) كتاب EMBRYOLOGY د / توفيق الرخاوى . صـ١٢٢ / ط / الأهرام / القاهرة ١٩٧٧ .

ومعلوم أن جدار البطن الخلفي ، هو مكان العمود الفقري (الصُلب) ، وأعلى تجويف البطن ، هو ما يتميز في الجنين بعد ذلك إلى تجويف الصدر ، ويحده من أعلى عظام الصدر (الضلوع) .. والتي عبر عنها الأسلوب القرآني بالترائب .

وفي ضوء ذلك نجد لآية الطارق دلالة خاصة ، لما فيها من إشارة علمية دقيقة .. ما كانت تستوعبها العقول البدوية ، عندما نزل القرآن . ولكنه الأسلوب المعجز ، والمعنى الخالد ، الذي يَعْبُر من زمان إلى زمان ، ليمدنا في كل مرحلة ، وفي كل زمن ، بوجه ، بل وجوه من فضائل إعجازه ...

وصدق القول : " بأن كل ما هذه سبيله من الآيات العلمية في القرآن الكريم فأنت لابد واجد فيه من قوة المعاني ، أكثر مما في العقل العربي ، من قوة الفهم وقوة التعبير ؛ لتكون قوة الدلالة فيه يوم تتهيأ للأمم وسائلها العلمية ، دليلاً من أقوى أدلة الإعجاز". (١)

(١) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعى صـ١١٦ / ط / مكتبة الإيمان بالمنصورة .

ج – توظيف " الطين " في بيان كفر وعناد إبليس :

سبق في هذا المبحث بيان ، كيفية توظيف " الطين " للاستدلال على البعث والحساب ، وإمكانية خلق الإنسان من العدم ، ومن ثَم الاستدلال على الوحدانية ، وإقرارها لله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الجدير بالعبادة ، المستحق للثناء والحمد .

وفى هذا الجزء من المبحث ، نبين غرضا آخر من أغراض " توظيف الطين " كعنصر كوني ... حيث وُظِّف هذا العنصر ، لبيان جحود إبليس واستعلائه على ربه وكفرانه بالنعمة ، وعناده لله عزوجل .

وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع هي :

١- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ ﴾ [الأعراف ١١ : ١٢]

٢- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

٣- ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

العـرض الموضوعـي :

يدور المعنى في المواضع الثلاثة السابقة ، على تعالى إبليس ، ورفضه السجود لآدم ، بعدما أمره الله تعالى بالسجود .. معللا ذلك ، بأنه خُلق من نار ، بينما خُلق آدم من الطين ، ظنا منه أن خلقته أشرف ، ومنزلته أعلى ...

<u>التحــليل الفــني</u> :<u>عند تتبع الآيات نلحــظ ما يلي</u> :

١- أن الآيتين ١٢ من " الأعراف " ، و ٧٦ من " ص " تكررتا فيهما هذه العبارة :
﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

وأرى أن هذا التكرار ورد لفائدة ، وهى التأكيد على تبجح إبلــيس وعنــاده ، وتعاليه على ربه ، واعتزازه الباطل بنفسه ، نجد هذا واضحا في التعبيــر بضــمير المتكلم البارز (**أَنَا**) ملحقا به اسم التفضيل (**خَيْرٌ**) ، ثم المقارنة المتعالية بقوله :
﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

٢- استعمال لفظ " **الطين** " في المواضع الثلاثة ، بصيغة النكرة .. بما يدل علــى ازدراء إبليس لهذه النشأة وحقارتها.

٣- إيثار طور الطين دون غيره من الأطوار السبعة لخلق الإنسان ... لأن السياق في الآيات ، عن الإنسان الأول " آدم " عليه السلام ، وخلــق آدم ، كــان مــن التراب والطين .. ولذلك كانت المقارنة التي عقدها إبليس ؛ كلها بلفــظ الطــين ... لأنها هي الواقع الفعلي المشاهد له آنذاك .

تعقـــيب :

قد أُشير إلى عملية الخلق – كذلك – بالحمأ المسنون ، حيـــث عبـــر الأســـلوب القرآني عن خلق آدم بالصلصال والحمأ . عدولاً عن الطين والتراب ...

ولم يرد بهذا اللفظ إلا في ثلاثة مواضع ، كلها في سورة " الحجر " ، بخـــلاف آية وحيدة ذُكر فيها الصلصال فقط في سورة " الرحمن " ، على النحو التالي :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾
[الحجر : ٢٨]

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾
[الحجر : ٣٣]

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤]

المبحث الرابع

توظيف الأنعام و الحيوان و الطير و الحشرات في الأسلوب القرآني

من عظمة هذا الكتاب المعجز ، أنه يربط ربطا دقيقا ، و عميقا بـــين مـــا ورد فيه، وبين الإنسان ، و طبيعة الحياة التي يعيشها .

فنجد الأسلوب القرآني ينسج خيوطا متشابكة ، بين مفردات الطبيعة من حـــول الإنسان ، و يوظّفها لبيان بعض المعانى والأغراض.

ولذلك نجد الأسلوب القرآني ، يحتفي احتفاء عظيما ، بتوظيف بعض مفـــردات الطبيعة ؛ لبيان كثير من المعانى ، التي تضمنها هذا الكتاب المعجز ... و من أمثلة ذلك ، هذا المبحث الذي بين يدي الدراسة ، فهو يتطرق إلى مجموعة من الحيوانات والطيور و الحشرات ، التي ورد ذكرها في التعبير القرآني لخدمة بعض المعانى.

ونعتمد في هذا الجزء من الدراسة – بمشيئة الله – على رصد هذه الظاهرة ، ثم بيان الغرض الذى أشارت إليه ، و كيف تم توظيف هذه الكونيات في إبرازها ...
ويبدأ البحث بالأنعام و الحيوان ، ثم الطير ، ثم الحشرات .

أ- توظيف " الأنعام و الحيوان " لبيان بعض أغراض القرآن :

في هذا الجزء من البحث ، يتم رصد هذه الظاهرة ، مع بيان لأسماء هذه الحيوانات ، وتوضيح الأغراض التي وظّفت في عرضها . و كيف كان الأسلوب القرآني ، دقيقا وعميقا في بيان دلالة هذه المفردات الكونية ، الدالة على عظيم خلق الله و طلاقة قدرته ...

وقد آثرت الرصد لهذه الظاهرة ، عن طريق الترتيب الألف بائي للحروف ، أي أبدأ بالحيوانات التي وردت على حرف الهمزة ، ثم الباء و هكذا ... ما تيسر ذلك ...

(١) الهمزة : " الإبل " :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم كله مرتين ، إحداهما في سورة الأنعام الآية (١٤٤) ، والأخرى في سورة الغاشية الآية (١٧) ... أما الموضع الأول فهو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ .. ﴾ [الأنعام : ١٤٤].

التحليل الفني :

و **الإبل** .. اسم جنس لا مفرد له ، و المقصود بقوله تعالى : (اثْنَيْنِ) الجمل و الناقة ، و قد ورد هذا اللفظ في سياق ذكر مجموعة أنعام أخرى ، لإبراز قضية مهمة جدًا ، تتصل بتحليل ما حرمه بعض المشركين . يقول تعالى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٤٣ : ١٤٤] .

والمعنى الذي يوضحه لفظ " الإبل " ، و غيره من الأنعام فيما سبق ، هو: قول بعض مشركي الجاهلية – بغير علم – بتحريم بعض الأنعام ، مثل الضأن و المعز والإبل و البقر ، فاحتج الله عليهم ، و أنكر هذا في سورة الأنعام حيث سميت السورة بذلك ، لما ورد فيها من ذكر هذه الأنعام ، حيث ذكر لفظ الأنعام بها ٦ مرات .

و قد وظّفت هذه الأنواع الأربعة ، لإنكار زعمهم بتحريمها و بيان استحلالها ، ليست هي فقط ، بل كذلك ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين .

و جدير بالذكر ، أن العرب قد اختصت الإبل بلفظ الأنعام ؛ لكون الإبل عندهم أعظم نعمة . ثم ألحقت باللفظ البقر و الغنم .. و لكن لا يُطلق عليها لفظ أنعام إلا إذا كان الإبل من بينها أو في جملتها .[١]

أما **<u>الموضع الثاني فهو في سورة الغاشية</u>** في قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية :١٧]

وردت هذه الآية في سورة الغاشية – بعد مجموعة من الآيات ، تتناول التذكير بالقيامة ، و بيان مقام الصالحين و الطالحين .. و قد عُقب بالآية موضع الدراسة ، على هؤلاء الطالحين الذين لا يتدبرون آيات الله في كونه ... ولا يتأملون عجيب صنعه في خلقه ... لذلك وردت هذه الآية ، يتلوها ثلاث آيات أخرى لبيان المعنى ذاته ... و <u>أقصد بذلك التوحيد</u> ، من خلال الاستدلال بعظيم مخلوقات الله ، بتدبر آياته الواردة في قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية ١٧ : ٢٠]

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب / صـ ٥٠١ / ط المكتبة التوفيقية .

التحليل الفني :

و تتصدر الآية بالاستفهام الإنكاري (**أَفَلَا يَنظُرُونَ**) ، لاستنكار ما هم فيه من غفلة و جهل . و الفعل (**ينظرون**) بصيغة المضارع ، للدلالة على أن العبرة بعجيب الخلق قائمة مستمرة ، و ما عليهم إلا النظر ، ولكن ليس مجرد الرؤية والإبصار ، بل نظر التدبر ، الذي يصل بهم إلى منزلة الاستدلال ، ثم الاهتداء ، والتصديق بالبعث و الجزاء و الحساب .. و الإيمان بتفرد الخالق الواحد لا شريك له.

(**إِلَى الْإِبِلِ**) ... تعدية الفعل " ينظرون " بحرف الجر " إلى " ، إشارة إلى إنعام النظر ، للاهتداء إلى الله ، من خلال التدبر و التأني في دقائق المنظور إليه .

و " **الإبل** " اسم جنس معرّف بأل العهدية ، فهي " الإبل " المعروفة لديهم ، ولكنهم لا يتدبرون ولا يتأملون في بديع و دقيق صنعها ...

و قد تكون " أل " للاستغراق ، أي شمولية كل جنس الإبل ، و إن كنت أرجح كونها للعهد أولى و أدق – و الله أعلم .

و مما يلفت الانتباه تقديم " الإبل " ، على معجزة مبهرة مثل السماء ، و كذلك الجبال و الأرض .. في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية ، ١٨: ٢٠] .

فلماذا آثر الأسلوب هذا التقديم ؟ أرى – و الله أعلم – أن هذا التقديم لفتة معجزة للأسلوب القرآني ؛ و ذلك لأن هذا القرآن نزل على العرب البدو ، وهم أعلم الناس و أعرفهم بالإبل ، و خواصها و فوائدها آنذاك ... فمنها معاشهم ، و بها ظعنهم ، و هي كذلك تحمل أثقالهم ، و ينسجون من أوبارها بيوتهم ..

وذلك كله عبّر عنه الأسلوب القرآني في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ١٤٢]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : ٥]

وكما سبق الإشارة ، أن لفظ الأنعام عند البدوي ، يختص في أول معنى له بالإبل. [١] ولكثرة و تعدد فوائد الإبل الملموسة المحسوسة للإنسان البدوي العربي، ورد ذكرها متصدّرة تلك الآيات الكونية ، من سماء و جبال و أرض ...

و كذلك لعجيب خلقها ، و عظمته ، فقد " خلقها الله ، خلقا عجيبا بقوة قوائمها ويُسر بُروكها ؛ لتيسير حمل الأمتعة عليها ، و جَعَل أعناقها طويلة قوية ، ليمكنها النهوض بما عليها من الأثقال ، بعد تحميلها أو بعد استراحتها في المنازل ، والمبَارك ، و جعل في بطونها ، أمعاء تختزن الطعام و الماء ... " [٢]

وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ ... كَيْفَ خُلِقَتْ ... ﴾ ، فهي إشارة أسلوبية لعظيم هذا الخلق ، و بيان دقيق و عجيب صنع الله فيه .

وقد بنُي الفعل " **خُلِقَت** " للمفعول ، للعلم بالفاعل ، وكذلك لعظَمه وتعاليه .

ومن خلال ما تقدم ، نلحظ أن لفظ " الإبل " قد ورد لأمرين :

الأول : في بيان ما أحله الله من لحوم الأنعام ، و دحض مزاعم المشركين ، في تحريمها . و إرجاع الأمر في ذلك ، لله عزوجل .

والثاني: إبراز عقيدة التوحيد ، و الإقرار بعظمة الخالق ، و التوجّه إليه وحده بالعبادة و الخضوع ، بعد تأمل وتدبر عجيب خلقه .

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز/ جـ٥ / صـ٩٠ ، ٩١ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) التحرير و التنوير / مجلد ١٥ جـ٣٠ صـ٣٠٥ / ط . دار سحنون / تونس.

(٢) " **الباء " في : " البغال – بقرة – البقر – بقرات " :**

أولا : " البغال " : وردت هذه الكلمة ، مرة واحدة في الأسلوب القرآني في قوله تعالى :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

[النحل : ٨]

وقد وردت هذه الآية ، في سياق مجموعة من الآيات ، تتناول بيان فضل الله وإنعامه ، على عباده بكثير من النعم ، و سميت سورة النحل كلها ، بسورة " النعم " لما ورد فيها من تعدد لهذه النعم .. وهذه الآيات التي وردت فيها ، تبدأ بقوله تعالى:

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٥ : ٨]

التحليل الفني :

تعتبر هذه الآيات ، محفلاً عظيمًا لبيان عظيم فضل الله ، تصدرت فيه الآيات بلفظ " الأنعام " معرفًا مجموعًا ، لبيان عظيم فوائدها ، و جليل منافعها ..

و لم يكتف الأسلوب بذكر تلك المنافع ، بل راح يلفت الحس البشرى ، إلى تأمل ما فيها من جمال الهيئة ، و المنظر و الخلقة ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ .

وكأن في ذلك إشارة دقيقة ، و جميلة إلى إعلاء جانب الروح ، و الحس والتذوق . بعد الإشارة إلى المنافع و المكاسب المادية من دفء و طعام و شراب .

و قد جاء الأسلوب ، واضحا في إشارته إلى ذلك ، من خلال الأداء القرآني بلفظ صريح في هذا الشأن ، و هو " **جمال** " ، و تقديم الجار و المجرور " **لكم** " للفت الانتباه ، و بيان خصوصية الأمر بالبشر ، امتنانا عليهم و تكريما لهم .

وبعد الامتنان على بني الإنسان ، بهذه الأنعام و فوائدها المادية و المعنوية ، انتقل الأسلوب إلى بيان نعمة أخرى ... و هي إيجاد ، و خلق هذه الحيوانات لمنفعة الإنسان ، و ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ....**﴾

و التقدير : و خلق لكم الخيل .... فالفعل المقدّر : " خلق " ، يفهم من الفعل المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ..﴾

(**وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ..**) .. البغال جمع بغل .

و **البَغْلُ** : المُتَوَلّدُ من بين الحمار و الفرس . [1] وقد وردت معرّفة بأل العهدية ، أي أنها معهودة للعرب ، معروفة عندهم . " **لتركبوها** " .. بيان لعلة خلقها ، من أن هذه المخلوقات ، خُلقت للانتفاع بها من حيث الركوب ، و الانتقال بها من مكان إلى مكان . و " **زينة** " .. لفتة أخرى للجانب الجمالي ، بعد الحسي و النفعي .. تأكيدا من الأسلوب القرآني ، على الاهتمام بإزكاء الحس الجمالي و الذوقي ، و تؤكد على أن القرآن الكريم ليس كتاب دين – فقط – بل هو دستور شامل، لكل مناحي الحياة .

و هكذا رأينا كيف وُظّف لفظ " البغال " ، و غيرها مثل الخيل و الحمير ، لبيان نعم الله على الإنسان ، و الامتنان عليه بهذه الفضول ... و هذا في واقع الأمر يخدم أمرًا آخر وهو عقيدة التوحيد ... لأن دلالة السياق بذكر كل هذه النعم على الإنسان، تعمّق حجم جحوده ، و عناده عندما يتوجه بالعبادة لغير الله .. و تُبرز صورة الكفر واضحة المعالم منفرة . و كأن الآيات بما فيها من نعم ، إشارة لطيفة للتوجه لصاحب الفضل ، و الإقرار له بالوحدانية و الألوهية .

---

(١) المفردات في غريب القرآن / صـ٦٥ / ط . المكتبة التوفيقية .

ثانيا : " بقرة – البقر – بقرات " :

ورد لفظ " **بقرة** " في القرآن ٤ مرات ، في الآيات من (٦٧ : ٧١) من سورة البقرة، و ورد لفظ " **البقر** " بالجمع و التعريف ثلاث مرات . الأولي في سورة البقرة الآية (٧١) ، و الثانية و الثالثة ، في سورة الأنعام الآية (١٤٤ : ١٤٦) أما لفظ " **بقرات** " بصيغة الجمع ، فقد ورد في سورة يوسف الآيتين (٦٨ : ٦٩) و تفصيل ذلك و بيان توظيفه فيما يلي .

التحليل الفني :

* لفظ " **بقرة** " ... ورد هذا اللفظ في سورة " البقرة " ، و قد سميت بهذا الاسم لإيراد قصة بقرة بني إسرائيل بها . فاللفظ قد استخدم لتسمية سورة كاملة ...

والغرض الذى وُظّف اللفظ من أجله : بيان عناد و كفر و لجاجة بني إسرائيل و تطاولهم على نبي الله " موسي عليه السلام " ، و توقفهم عند أمور تعنتية ، لا هدف لها .. و ذلك في المواضع الآتية :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ **بَقَرَةً** قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا **بَقَرَةٌ** لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا **بَقَرَةٌ** صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ **البَقَرَ** تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا **بَقَرَةٌ** لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة ٦٧ : ٧١]

ملاحظات على الآيات :

١- تنكير لفظ " **بقرة** " في الآيات السابقة ، فلماذا آثرالأسلوب صيغة النكـــرة ، وعدل عن التعريف ؟

و فيما يبدو للبحث أن صيغة النكرة ترسِّخ و تعّمق ، الدلالة المقُصودة من هذه الآيات .. من بيان تعنت ، ولجاجة بنى إسرائيل ، فالله عزوجل ، لم يضيّق عليهم ، و لم يحدِّد لهم صفات هذه البقرة – في بداية الأمر – وصيغة النكرة هي الأكثر استيعابا لهذا المضمون، و الأعظم دلالة على العموم ، دون التحديد .

٢- صيغة الإفراد ... حيث ورد اللفظ ، بصيغة المفرد في الآيات السابقة ، عدا الآية (٧٠) . وذلك على وجه التحقيق ، فالأمر بالفعل ، يتطلب ذبح بقرة واحدة فقط ؛ لذلك كان التعبير بالإفراد ، هو المقصود ، و هو الأكثر طواعية ويسرًا بالنسبة لهم ، ولكنهم مع ذلك تعنتوا و لجوا في الأمر .

٣- عدول الأسلوب القرآني عن صيغة الإفـــراد و التنكيـــر ، إلـــى الجمـــع والتعريف ، في الآية (٧٠) ... وذلك – و الله أعلم – أدق و أكثر اتساقا مع المعنى المقصود من الآية .. فالجمع ضروري ؛ لأنهم ادعـــوا ، أن البقـــر تشابه عليهم ، و التشابه يقتضى التعدد ، و التعدد لا يتحقق بالإفراد ، بـــل بالجمع .

أما التعبير بالتعريف ، ففيه إشارة ، إلى تعنتهم من خلال تضييق الأمر علـــى أنفسهم بتحديده .

ومن دقائق هذه الآية ، أن صيغة التعريف على لسان بني إسرائيل ، تساهم في إبراز هذا التعنت ، في مقابل إيثار صيغة النكرة ، على لسان موسي عليه السلام أربع مرات ، رغبة فى التيسير عليهم.

وفي ضوء ما تقدم ، يتضح أن توظيف لفظ " **بقرة** " ، قد أوضح و أبان عن طبيعة بني إسرائيل في التعنت ، و اللجاجة و سوء الأدب مع الله سبحانه ، و نبيه موسي عليه السلام .

* و كذلك ورد لفظ " **البقر** " ، في سورة " الأنعام " في الموضعين الآتيين :

﴿ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام :١٤٤]

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] .

وقد وردت الآية (١٤٤) ، لبيان أمر تم التطرق إليه ، عند دراسة توظيف الإبل، وهو : دحض مزاعم و افتراءات المكذبين ، بتحريم لحوم الإبل و البقر و الضأن و الماعز ، أو ما يطلق عليها الأنعام . فالسياق لبيان حِلّ هذه الأنعام ، و دحض افتراءات الكافرين بتحريمها .

أما الموضع الثاني وهو الآية (١٤٦) ، فقد ورد لفظ " **البقر** " في سياق ما كان محرما على اليهود قبل الإسلام ، حيث حرّم الله عزوجل ، عليهم بعض الأشياء تحريما مؤقتا ، و لأسباب خاصة ، و ذلك قبل الإسلام ... و من هذه المحرمات شحوم البقر و الغنم إلا ما كان في الظهر ، و الحوايا أو ما اختلط بعظم ..

و قد ورد لفظ " **البقر** " جمعا و معرفة .. و إيثار الجمع ، أدق في هذا السياق لأنه يتناول حكمًا شرعيًا، وهو تحريم شحوم هذا البقر ، و التعريف لاستغراق الجنس ، و نفس القول في لفظ الغنم ، حيث ورد على نفس الصيغة ، بالجمع و التعريف .

أما التعريف ، فالترجيح أن تكون " أل " للاستغراق ؛ أي استغراق و شمول جنس البقر كله ، في إطار تحريم شحومها ... و تقديم قوله تعالى : (**وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ** ..) ، على الفعل (**حَرَّمْنَا**) ؛ لأهمية المتقدم ، و التفات – لجذب الانتباه إلى الحكم – عن السياق السابق : حيث بدأ بالفعل ، في قوله تعالى : ﴿ ... وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ... ﴾ .

أما لفظ " **بقرات** " ، فقد ورد مرتين، في سورة يوسف ، على النحو التالي :
﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ **بَقَرَاتٍ** سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[يوسف :٤٣]

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ **بَقَرَاتٍ** سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف :٤٦]

و الموضوع الذى يوضحه اللفظ هو بيان حالة مصر الاقتصادية ، في تلك الفترة من خلال رؤيا الملك ...

وقد ورد اللفظ بصيغة النكرة ، و الجمع " بقرات " ، وأرى – و الله أعلم – أن إيثار الأسلوب لصيغة النكرة، في هذين الموضعين ؛ لدلالة تلك الصيغة في هذا السياق على تهويل الأمر ، و غموضه ، فهو إشارة إلى السنوات الخصبة ، التي تأكلها سنوات الجوع والجدب ... و في ضوء ذلك تكون النكرة ، هي الأدق والأنسب للسياق .

أما إيثار الجمع " بقرات " دون المفرد ، فلا محيص عنه ، امتثالا لقواعد اللغة في الأعداد ، فالمعدود " سبع " و تمييز العدد من (٣: ١٠) جمع مجرور بالإضافة.

وفي ظل ما تقدم ، نخلص إلى أن لفظ " بقرة " ، قد وظّف على اختلاف أشكاله من الإفراد و الجمع ، و التعريف و التنكير ؛ لإبراز عدد من القضايا، والمفاهيم ، على النحو التالي :

– بيان تعنت و لجاجة اليهود ، كما ورد في سورة البقرة .

– دحض مزاعم الكافرين ، في تحريم ما أحل الله ، كما ورد في الأنعام آية ١٤٤ أو في بيان تحريم بعض الأشياء ، كما في الأنعام اية ١٤٦ .

و أخيرا في عرض الحالة الاقتصادية للبلاد في رؤيا الملك ، و تعبير يوسف عليه السلام – لها في سورة يوسف .

---

٣ – الجيم في : " الجمل " ، " جِمَالة " :

ورد لفظ " الجمل " على هذه الصورة ، مرة واحدة في القرآن الكريم وهى قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ **الْجَمَلُ** فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٠]

و ورد مرة أخرى مجموعا ، بلفظ " جمالة " ، في سورة المرسلات في قوله تعالى:

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ **جِمَالَتٌ** صُفْرٌ ﴾ [المرسلات ٣٢ – ٣٣]

التحليل الفني :

في الموضع الأول ، ورد لفظ " الجمل " مفردا ؛ لإبراز قضية مهمة جدًا ؛ وهى استحالة دخول المكذبين للجنة ، و كذلك استحالة تفتّح أبواب السماء لهم ...

و قد تم إجلاء هذا المعنى ، و ترسيخه لدى المتلقي ؛ من خلال عرض هذا المشهد في سورة الأعراف . و أهم عنصر فيه " **الجمل** " و استحالة دخول هذا الجمل بحجمه ، و هيئته المعروفة ، في ثقب إبرة الخياطة (**سَمِّ الْخِيَاطِ**) .. و بالتالي ترسيخ و تعميق المعنى ، باستحالة دخول هؤلاء المكذبين الجنة ، فالأمر ليس صعبا بل مستحيلا .. و هذه الاستحالة ظهرت ، و اتضحت جليّة بهذا المشهد المعروض .

و نلحظ أن الآية ، قد حرصت على ترسيخ هذا المعنى ، بأكثر من طريقة ، من ذلك تصدّرها بالتوكيد (**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ**) ،و كذلك صيغة تضعيف الفعل (**لا تفتّح**) بدلالتها على المبالغة ، في عدم نوالهم رحمة الله ، المشار إليها بأبواب السماء .

ثم إبراز استحالة ذلك تماما، عن طريق انتفاء دخول الجمل في سم الخياط.

*** ورد معنى آخر للجمل في هذا الموضع و هو " الحبل الغليظ " واستحالة دخوله في سم الخياط .. انظر لسان العرب / مجلد ٢ / صـ ٣٦١ / ط . دار إحياء التراث العربي / بيروت .**

و لعل استعارة " **الجمل** " لعرض هذه القضية ، يرجـــع ؛ لأنـــه مـــن أضـــخم الحيوانات عند العرب .. و هذا مناسب للسياق ؛ لأن المشهد يعتمد على إبراز قمـــة الضخامة ، في مقابل سَم الخياط ، و بهذا التفاوت الجلي ، تتضح تلك الاستحالة .

و ورد لفظ " **الجمل** " .. معرفاً بأل العهدية ، للدلالة على أنه هو ذلـــك البعيـــر المعروف عند العرب . أما إيثار الإفراد على الجمع ، فأرى أنه أوفى للمعنى ، حيث إن الاستحالة تتحقق بالمفرد ، و تتضح أشد ما يكون الوضوح ، عند تأمل هذا المشهد . فمن غير المنطقي ، أن يستطيع أي جمل الولوج من سَمِ الخياط .

<u>أما الموضع الثاني فهو قوله تعالى في سورة المرسلات :</u>

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ **جِمَالَتٌ** صُفْرٌ ﴾ [المرسلات ٣٢ – ٣٣]

و الحديث هنا عن جهنم ، و عذاب المنكرين بالبعث ، المكذبين بيوم الحساب . حيث يسبق ذلك الموضع قوله تعالى :
﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات ٢٨ : ٣١]

فالمقام مقام بيانٍ و تهويل ، لشأن هذا اليوم العصيب على هؤلاء الكـــافرين ... لذلك يتصدّر موضع الدراسة بالتوكيد بإن ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِـــي بِشَـــرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ و **الشرر** ، هو أجزاء النار المشتعلة ، المتطايرة في الهواء ، و لكنه ليس الشرر العادي البسيط ، بل هو يشبه القصور في ضخامته ، و ارتفاعـــه ، و ذلـــك التشبيه للتهويل و الترويع .

(**كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ**) .. تشبيه آخر للترويع ، حيث شبه الأسلوب القرآني الشرر المتطاير المندفع بالجمال .. و الجمالات .. جمع جِمَالَة ، و الجِمَالَةُ ، جمع جَمَل . (١)

وفي هذا التشبيه ، إشارة إلى عظم هذا الشرر ، و هيئته و لونه ، فهو عظيم مهول ضخم كالجمال ، و متفرق إلى طوائف متطايرة ، كما تتفرق مجاميع الجمال في سيرها أحيانا .

ثم إن الأسلوب البليغ ، لم يغفل الإشارة إلى اللون ، في قوله تعالى :
(**صُفْرٌ**) .. فهو لون الجِمَال ، وكذلك لون اللهب ، و الشرر المتطاير ..

وهذه لفتة معجزة ، من وجوه إعجاز هذا الأسلوب الخالد ، حيث يربط بين الواقع الملموس عند الإنسان ، و بين الغيب غير المرئي ، لتقريب المعنى المقصود إلى الأذهان و النفوس ، بطريقة ميسرة واقعية ، من خلال ما يحيط بهذا الإنسان البدوي ، من عناصر كونية بيئية ، مشاهدة ملموسة مثل الجِمَال ...

وليس من قبيل المصادفة – تعالى الله – أن يرد لفظ " الجمل " ، أو " جمالات " مرتين في سياق بيان حال أهل النار . فالأول في استحالة دخولهم الجنة ، و الثاني في وصف هذه النار – نعوذ بالله منها – أقول ليس ذلك من باب المصادفة ، بل الأمر أعمق من ذلك ، و إيثار هذا اللفظ ، له عميق الدلالة في نفس العربي والبدوي، و أهم هذه الدلالات ؛ ضخامة هذا المخلوق . تلك الدلالة ، التي أجلت و أوضحت المقصود من الآيات السابقة ..

أضف إلى ذلك ، إيثار لفظ " **الجمل** " ، على " الإبل " في هذا السياق، و أميل إلى تفسير ذلك ، بأن " الإبل " تُذكر في سياق النعم ، و الخيرات ...

---

(١) انظر المفردات / للراغب / صـ١٠٥ / ط . المكتبة التوفيقية .

و الأمر هنا مختلف ، فهو سياق العذاب ، و الوعيد و التهويل ، لذلك أوثر لفظ " **الجمل** " . و هذا لا يعنى أن للجمل ، دلالة معنوية ، أو لفظية خاصة على العذاب والوعيد ، بل أن كل ما أقصده أن سعة اللغة ، قد ساعدت في استبعاد لفظ ، الإبل من هذا السياق ، ليظل يحمل دلالة النعم ، و الرحمة والخير .

٤- " **الحاء** " في : (**الحمار – الحوت – الحية**)

أولا : " **الحمار** " :

ورد هذا اللفظ بصورتي الجمع و المفرد ، خمس مرات في القرآن الكريم على النحو التالي :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُـرْ إِلَـى **حِمَـارِكَ** وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَ**الْحَمِيرَ** لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٨]

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ **الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان :١٩]

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ **الْحِمَارِ** يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥]

﴿ كَأَنَّهُمْ **حُمُرٌ** مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٠] .

التحليل الفني :

- الموضع الأول :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩].

ورد لفظ " حمارك " من بين بضع عناصر ، موظفا لإثبات قضية البعث والنشور، وكثيرا ما توظف عناصر الطبيعة – كما سبق – لمناقشة ، و إثبات قضايا البعث و الإحياء ...

واختلفت الآراء [١] حول صاحب هذه القصة في قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ...﴾ ، و أيا كان صاحب القصة ، فالعبرة ليست بمن نزلت فيه ، بل العبرة بالحدث و المضمون .

فهو رجل يقرُّ بوجود الله و يؤمن به ، و لكنه (مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) فهاله منظرها ، ذلك المنظر الذي أبرزه الأسلوب بالألفاظ الدالة على الخراب الشديد ، و التدمير الذي يستحيل معه التعمير .. لذلك جاء التعبير معبرا عن دهشة الرجل، الذي مر على القرية في قوله تعالى : (أَنَّىَ يُحْيِي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ؟ ... وهى جملة استفهامية ، شديدة البلاغة ، واسعة الدلالة عن حجم الخراب ، و استبعاد فكرة التعمير و الإحياء من جديد ، بعد الخواء و الانهيار .

---

(١) انظر التحرير و التنوير / مجلد ٣ / جـ٣/ صـ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ / ط . دار سحنون .

و لعل هذا الاستبعاد الشديد في حديث الرجل ... جعله هو نفسه – بمشيئة الله – نموذجا واقعيا فعليا للإحياء و الإعادة ، و هذا واضح في قوله تعالى :
﴿ ... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾ .. و الأعوام المائة ، غير محسوسة بالنسبة له . فهو فاقد لوعيه ، فكيف يدرك الزمن ؟ لذلك فالأمر يحتاج لشواهد مادية محسوسة ، تبرز القدرة و طلاقتها ...
أنه الطعام و الشراب و الحمار ... في قوله تعالى :
﴿ ... فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ..﴾ .. أي لم يصبهما العفن والأسن.
وهذه هي مشيئة الله ... ثم قال تعالى : ﴿ ... وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ...﴾
فكأن " **الحمار** " رمز كوني لبيان طلاقة القدرة الإلهية ، في الإحياء و البعث في قوله تعالى : ﴿ ... وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ...﴾
عظام من ؟ هل هي عظام الرجل ؟ لو كان ذلك ؛ لما قال الرجل عند إحيائه ، لبثت يوما أو بعض يوم ! و لقد آنست في ذلك إلى منطق العقل ، فمما لا يدعو مجالا للشك أن الرجل – كذلك – لم تتغير هيئته و طبيعته ، بدليل إجابته ، ثم بدليل ما ذكر بعد ذلك من عدم تغيُّر الطعام و الشراب .

إذن ما هي العظام التي أُمر بالنظر إليها للاعتبار ؟
هي عظام الحمار – و الله أعلم – لقوله تعالى في ختام الآية : ﴿ .. وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ ... ﴾ .. و كذلك نأنس في ذلك التفسير بكلمة الأستاذ سيد قطب :

" نرجح أن الحمار هو الذي تعرّت عظامه و تفسّخت . ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض و كسوتها باللحم وردها إلى الحياة ، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلي ، و لم يصب طعامه و لا شرابه التعفن ". [١]

---

(١) في ظلال القرآن / مجلد١ / صـ٣٠٠ / ط . دار الشروق .

و من لفتات الإعجاز في هذه الآية ، ذلك التباين الواضح في المصائر ، بإشارته إلى طلاقة القدرة ، فالجميع معّرض لنفس الظروف و العوامل ، و لكـن الطعـام والشراب لم يتغير ، و لم يأسن، و بطل المشهد لم يصب ، و يُطِل لفـظ (حمارك) مضافا لكاف المخاطب ، بدلالتها على التخصيص ، شاهدا حيا ، و دليلاً واقعيا على الإحياء و البعث .

وهكذا يربط الأسلوب القرآني ، بين مفردات هذا الكون المختلفة ، و بين قضايا العقيدة الشائكة ، حتى في أبسط هذه المفردات ، نجد لله سبحانه ، أحوالا عجيبة في تصريف و توظيف هذه المفردات الكونية ، بحيث يربط ذلك المخلوق الإنساني بكل ما حوله من عناصر الكون في تناغم مبدع عجيب .

أما الموضع الثاني فهو قوله تعالى :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨]

وقد سبق تحليل هذا الموضع عند تناول لفظ (البغال) ، وبيّنـا أن هـذه الآيـة وردت في سياق مجموعة من الآيات الكونية ، تبدأ بقوله تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٣]

ثم خَلْق الإنسان ، ثم الأنعام ، و كأن الآيات تتدرج في الخلق من السماء ، إلى الأرض، إلى الإنسان ، إلى الحيوان .

والهدف الذي تخدمه هذه الآية الكونية ... هو الامتنان على الإنسان ، بكل هــذه النعم الخالصة له ... عله يتدبر في خالق هذه النعم ، و يتوجه إليه وحده بالعبــادة
وهذا واضح في قوله تعالى مُعَددا هذه النعم :
﴿ ... وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ.. ﴾ و نلحظ إيثار الأسلوب لصيغة الجمع (**الحمير**) لدلالتها على الكثرة ، مما يوحي بعظم النعمة و وفرتها ... كما أنها ملائمة للســياق في استعمال الجمع ، مع (الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ).

أما الموضع الثالث ، فهو قوله تعالى :
﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ **الْحَمِيرِ**﴾
[لقمان : ١٩]
ورد لفظ " **الحمير** " في سياق مجموعة من الآداب ، و الوصايا يوجهها " لقمان " الحكيم لابنه .. ينصحه في آخر نصيحة ، منهــا بخفــض الصــوت ، لأن أقــبح الأصوات صوت الحمير .

ونلحظ إيثار صيغة الجمع المعرفة " بأل " .. و إيثار الجمع أليق و أدق للسياق لتلاؤمه مع الجمع ، في لفظ " الأصوات " في قوله تعالى :
(**إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ**) ، وكذلك ؛ لأن الجمع هنــا أقــوى فــي بيــان المثــل ووضوحه، وكأننا نسمع تلك الأصوات المنكرة متجمعة ، فتزداد الصورة نفورًا .

أما التعريف ، فالأغلب هنا أن " أل " عهدية ... أي ذلك الصــوت المعــروف المعهود لديكم ، من خلال هذا الحيوان المعروف أيضا ...

والموضع الرابع ، قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥]

وكذلك الموضع الخامس :

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٠] .

فسوف يتم دراستهما، في الجزء الخاص بهما من فصل " الطبيعة في الأمثال القرآنية " في الباب الثاني .

ثانياً : " الحوت " :

ورد لفظ " الحوت " جمعا ، و مفردا في القرآن الكريم ، خمس مرات في المواضع الآتية :

﴿ واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ **حِيتَانُهُمْ** يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
[الأعراف : ١٦٣]

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا **حُوتَهُمَا** فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾[الكهف : ٦١]

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ **الْحُوتَ** وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٦٣]

﴿ فَالْتَقَمَهُ **الْحُوتُ** وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٤٢]

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ **الْحُوتِ** إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم:٤٨]

*** <u>الموضع الأول</u> من سورة الأعراف :**

﴿ واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ **<u>حِيتَانُهُمْ</u>** يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

ورد لفظ " الحوت " في هذا الموضع مجموعا ...

والحوت هو السمكة أو السمك العظيم. [1] وقد وردت هذه الآية في بني إسرائيل ، حيث أمرهم الله بالانشغال بالعبادة ، و التوقف عن العمل يوم السبت ، و لكنهم عصوا الله و تحايلوا على أوامره ، و كان عملهم الصيد ، باعتبار موقع مدينتهم على البحر .. فحرّم الله عليهم صيد السبت .. و لكنهم لم يطيعوا أمر الله في ذلك ...

إذن فالغرض من توظيف " الحوت " في هذا الموضع ، <u>إبراز عصيان بني إسرائيل ، و تحايلهم على أوامر الله .</u>

<u>التحليل الفني :</u>

إيثار الأسلوب لصيغة الجمع (**حِيتَانُهُمْ**) على المفرد ، مع أن المفرد يطلق على الجمع كذلك ؛ لدلالة الجمع على كثرة عدد هذه الحيتان ، و هو الأليق و الأدق للسياق ، لبيان مدى ابتلاء و اختبار الله تعالى لهم ، و إضافتها للضمير " هم " فيه إشارة إلى اختصاص هذه الحيتان بهم . و كأنها أتت على هذه الصورة الكثيفة ، بوحي من الله و تدبير ، حيث تأتيهم (يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً) أي يوم السبت ، و **شرّعا** ؛ أي .. ظاهرة واضحة ، وهى دلالة تعمق معنى الابتلاء وشدته ، و **عدم** انصياع بنى إسرائيل لأوامره سبحانه وتعالى .

---

(١) انظر المفردات للراغب / صـ١٤١ / ط . المكتبة التوفيقية .

(**تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ**) ... فيها تشخيص للصورة ، و إحياء لمشهد الابتلاء المتكرر و الذي توحي به صيغة الفعل المضارع (تَأْتِيهِمْ) ، مسندة إلى الضمير " هم " .. بدلالته في السياق على التخصيص ، و كأن هذه الحيتان – كما سبق – مأمورة مسيَّرة بوحي من الله لبيان هذا الغرض .

- **أما الموضعان الثاني و الثالث** من سورة الكهف :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا **حُوتَهُمَا** فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾
[الكهف : ٦١]

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ **الْحُوتَ** وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٦٣]

فيخدمان قضية أخرى مختلفة .. و هي بيان مكان التقاء نبي الله موسى بـ" الخضر" الرجل الصالح ..

فالحوت هنا ، مجرد علامة لبيان مكان عثور نبي الله موسي على مراده .. وقد ورد لفظ الحوت في الموضعين مفردا ؛ لأن العلامة تتحقق بالواحد ، كما تتحقق بالجمع . فالحوت كما سبق – علامة و دليل .. وأُضيف إلى ضمير المثنى " هما " في قوله تعالى : (حُوتَهُمَا) ؛ للإشارة إلى تحمل " موسي " عليه السلام ، لأمر هذا النسيان ، فليس فتاه فقط هو المسئول ، بل المسئولية مشتركة ، لأن نبي الله " موسي " عليه السلام هو المنوط به أمر هذه الرحلة ، و هو صاحب الاستفادة منها .

بينما في الآية (٦٣) من نفس السورة ، نجد لفظ " الحوت " يأتي مجردا من الإضافة السابقة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ .. فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. ﴾ ، لأن الحوار على لسان فتي " موسي " ، و كأنه يعلن مسئوليته الفردية عن هذا النسيان ، باعتباره الموكَّل بحفظ الحوت – والله أعلم .

كما نلحظ إيثار، صيغة التعريف " الحوت " بـأل العهدية لأن " الحـوت " معروف بالنسبة إليهم ، محفوظ في جعبتهم منذ بداية الرحلة ، فهو حـوت محـدد مخصوص ، وليس أي " حوت " ... و هو كذلك حوت معجزة مسخّر من عند الله ، ليكون مرشدا " لموسي " عليه السلام .

أما الموضع الرابع و الخامس ، فهما إشارة إلى نبي الله " يونس " عليه السلام.

الموضع الرابع في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَـانَ مِـنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ **الْحُوتُ** وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

[الصافات ١٣٩ : ١٤٢]

فهو إشارة إلى محنة نبي الله " يونس " عندما ابتلعه الحوت ، تأديبا له و توجيها من الله عزوجل ، عما بدر منه من ضعف في تبليغ الرسالة .

أما **الموضع الخامس و الأخير** في قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ **الْحُوتِ** إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾

[القلم : ٤٨]

فقد ورد لفظ " الحوت ، " لتذكرة النبي صلى الله عليه و سلم ، بقصة أخيه " يونس " فيثبت و يصبر في دعوته ، ولا يفعل مثلما فعل " يونس " عليه السلام ، لو لا أن تداركه الله برحمته و نعمته ...

وهكذا نلحظ من خلال التحليل ، و استقصاء المواضع أن لفظ " الحــوت " قــد وظّف لخدمة العديد من الأمور منها:

- بيان تحايل و عصيان بني إسرائيل لأوامر الله كما في سورة الأعراف .
- ومنها أن " الحوت " كان رمزا و علامة لنبي الله " موسي " للقاء الرجل الصالح، كما في سورة الكهف .
- وكذلك وظّف " الحوت " لبيان محنة " يونس " عليه السلام ، وعقاب الله لـــه على تعجله و غضبه و خوفه من قومه ، كما في سورة الصافات .
- وأخيرا تثبيتا للنبي – صلى الله عليه و سلم – و تذكرة كما في سورة القلم .

ثالثا : الحية (الثعبان) :

ورد لفظ " الحية " مرة واحدة في القرآن الكريم ، بصيغة التنكير، ومرتين بلفظ " ثعبان" ، ومرتين بلفظ " الجان " ، على النحو التالي :

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ **حَيَّةٌ** تَسْعَى ﴾ [طه : ٢٠] .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ **ثُعْبَانٌ** مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧]

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ **ثُعْبَانٌ** مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢]

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا **جَانٌّ** وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ١٠] .

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا **جَانٌّ** وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِــلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص : ٣١]

والملفت للنظر في هذه المواضع ، التعبير بألفاظ مختلفة عن معنى واحــد ، أو مضمون محدد . فمثلا في آية طه ، ورد ذكر لفظ " حية " في قوله تعالى :

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، بينما في آية الأعراف ، و الشعــراء ورد لفــظ " ثعبان " ، فما علة هذا التحول اللغوي للمرادفات ؟

ولقد استوقفني هذا الأمر كثيرا ... فهل ذلك من قبيل التوسع اللغوي ؟ و إثبات أن اللغة العربية ، لغة ثرية فضفاضة المفردات و الدلالات ؟ ومما لا شك فيــه أن هذا سبب من أسباب هذا التعدد اللفظي ، لكنى لم أشعر بالقناعة الكافية تجــاه هــذا المبرر ، ولقد حاولت التوصل إلى توجيه ، و تفسير لتلك اللفتة اللغوية ، فوجدت – و الله أعلم – أن دقة السياق و ملابسة الموقف ، كان لها أثر كبير في اختيار اللفظ و إن تشابهت ، أو توحدت المعاني .. ففي نهاية الأمر الحية ثعبــان ، و الثعبــان حية كما ورد في المعاجم. (١)

وسواء حية ، أو ثعبان ، أو جان ، فكلها وردت لخدمة قضية واحدة ، و هــي تدعيم موسي ، عليه السلام ، و تثبيته في دعوته أمــام فرعــون و قومــه ، و قــد اشتهروا بالسحر ؛ فجاءت معجزته من جنس سحرهم ، مع الفرق بأن عصى موسي تتحول ثعبانا بوحي و أمر من الله ، و عصيهم تتحول بسحرهم .

ونعود للآيات ، و ندرس كل آية في سياقها ، ففي الموضع الأول من سورة طه ، نلحظ أن هناك حوارا بين موسي و ربه ، حيث يكلم الله عزوجل " موســي " في شأن دعوته ، ثم يسأله عن عصاه و يطلب منه أن يلقيهــا ، وذلــك فــي قولــه تعالــى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ [طه ١٧ : ١٩]

وقد استجاب " موسي " عليه السلام للأمر الإلهي ، فرأى معجزة ربه الكبــرى التي أرسله بها سبحانه إلى فرعون و مَلَئِه، رأى العصا تتحول إلى " حية "..

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه : ٢٠]

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد٢ / صــ٩٨ ، وكذلك مجلد٣ / صــ٤٣١ / ط . دار إحياء التراث العربــي . بيروت .

واللفتة هنا في إيثار لفظ " حية " ، على " ثعبان " ، كما ورد في غير هذا الموضع .. و أرى أن علة ذلك – و الله أعلم – ترتبط بالمناسبة و السياق ؛ فهذه هي المرة الأولي التي يتعرض فيها نبي الله " موسي " لهذا الموقف ، ولأول مرة – أيضا – يري معجزات الله سبحانه ، ويرى تحوّل عصاه إلى حية ... تلك العصا الجامدة التي لا تنبض بأدنى قدر من الحياة ، تتحول إلى حية عظيمة تسعي .
ومادة " الحياة " ، تتشابه مع " حيّة " ، وقيل أن اشتقاق الحيّة من الحياة .[١]

وأرى أن لهذا الشبه ، كل الأثر في اختيار لفظ " حية " دون غيره ؛ لأن اللفظ يحمل دلالة معناه الأصلي ، وكذلك دلالة الحياة . فبعد أن كانت العصا من عالم الجماد ، أصبحت بمعجزة من الله ، في عالم الأحياء ... و لهذا أرى أن لفظ " حية " أدق و أنسب للسياق ، باعتباره المحك الأول بين موسي و ربه ... لأن لفظ " حية " بإيقاع حروفه المشتقة من الحياة ، أدق في بيان تمام النعمة و كمال الإعجاز .

وأرى أن وصف هذه الحية ، بالفعل " تسعي " ، يؤكد التحليل السابق ، لأن السعي يؤكد صفة الحياة ، و يؤكد على تحوّل هذه العصا إلى " حية " ، وفي ذلك تدعيم لموقف نبي الله " موسي " ، أمام فرعون ، حتى لا يهتز أو يهاب ما يرى .
فالموقف بكل ما فيه بمثابة المحك الأول ، أو التجربة الأولي قبل لقاء التحدي مع فرعون – والله أعلم – .

بينما في آيتي الأعراف و الشعراء ، نجد الأسلوب قد عدل عن لفظ " حيّة " إلى لفظ " ثعبان " في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾
[الأعراف : ١٠٧]

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٣ / صـ٤٣١ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

وذلك لأن السياق مختلف ، فالمقام هنا بين " موسي " عليه السلام ، وبين فرعون وأعوانه وهو مقام التحدي ، و إثبات وحدانية الله عزوجل ، والأمر أصبح مألوفا معتادا ، لنبي الله موسي ، فعندما ألقى عصاه تحولت إلى ثعبان واضح عظيم ظاهر.

ومادة " حيّة " في هذا المقام لا أهمية لها ، فلقد اطمئن موسي عليه السلام إلى معجزة ربه فى إحيائه للعصى، و تلك مرحلة تالية للسابقة ، و فيها إلقاء المهابة على معجزة " موسي " أمام فرعون و سحرته ... لذلك كان لفظ " ثعبان " واضح الدلالة على المهابة والتعظيم مناسبا لسياقه ، وللموقف الذي ورد فيه .

أما التعبير عن هذه المعجزة ، بلفظ " جان " في آيتي النمل و القصص .. فهو ملائم كذلك لموضعه على النحو التالي :

" **الجان** نوع من الحيات ، له حركة خفيفة ، والمعنى أن الحية تحركت أمام موسي عليه السلام بحركة خفيفة ، فشبهها الأسلوب القرآني بالجان ". [1]

كما أن لفظ " جان " يتسق مع لفظ (تهتز) في قوله تعالى في آية النمل :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ١٠]

وكذلك فإن حركة " الجان " ، تناسب مع قوله تعالى : (**تَهْتَزُّ**) في سورة القصص في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ [القصص : ٣١]

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٢/ صـ٣٨٩ ، صـ٣٩٠ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

فلفظ " جان " يحمل دلالتين :

الأولي : على أصل معناه ، أى نوع خاص من الحيات .

و الثانية : طريقة حركة هذه الحيات.

ونلحظ أن المواضع السابقة من سورة طه ، و الأعراف و الشعراء ، تتصدر بقوله تعالى : (فَإِذَا) بعد (فَأَلْقَى عَصَاهُ) و ذلك للدلالة على المفاجأة العظيمة ، وعدم توقع موسي عليه السلام لهذا الإعجاز ، وذلك فى آية طـه ، ثـم المفاجـأة العظيمة لفرعون وأعوانه فى باقى الآيات .

وهكذا نرى كيف أن توظيف مفردات الطبيعة في الأرض ؛ يخدم أمورًا عظيمة و جليلة فى عقيدة التوحيد . وبذلك يؤكد الأسلوب القرآني ، على عظـيم الـتلاحم والترابط بين كل مفردات هذا الكون .

٥- الخاء : في (الخنزير – الخيل) :

أولا : الخنزير :

ورد لفظ " الخنزير " في القرآن الكريم ، خمس مرات في المواضع الآتية :

* ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ...﴾

[البقرة : ١٧٣]

* ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

[المائدة : ٣]

* ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَـةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

[الأنعام : ١٤٥]

* ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ **الْخِنزِيرِ** وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ ﴾

[النحل : ١١٥]

* ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ**الْخَنَازِيرَ** وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾

[المائدة : ٦٠]

والمواضع الأربعة الأولي ، بيان لأنواع المحرمات ومن بينها " لحم الخنزير " . أما الموضع الأخير فهو لبيان أمر آخر وهو : عقاب بني إسرائيل ، ومسخهم قردة وخنازير ، لافترائهم وتجرئهم على حدود الله ، و التحايل على شريعته .

ويلاحظ أن لفظ " الخنزير " ورد في آية البقرة (١٧٣) و المائدة (٣) و النحل (١١٥) مفردا ، ومعرفا بأل .. بينما ورد في سورة الأنعام (١٤٥) بصيغة النكرة المفردة ، وفى سورة المائدة (٦٠) بصيغة الجمع المعرّف . فما علة هذا الاختلاف ؟

بالنسبة **للتعريف** في المواضع المذكورة ، فلفظ " **الخنزير** " ورد معرفا بأل الاستغراق ، لاستغراق التحريم لكل جنس " الخنزير " ، وكذلك الميتة و الدم وهما من المحرمات .

أما إيثار صيغة المفرد " **الخنزير** " دون الجمع ؛ لأن المقام و السياق لبيان المحرمات ، وحكم التحريم يثبت بالمفرد ، فلا حاجة لاستعمال الجمع ، كما أنه أيضا – نوع من التناسق اللفظي ، مع الإفراد في الميتة و الدم ...

وقد تصدّر لفظ " الخنزير " ، بكلمة " لحم " في كل مواضع التحريم الأربعة ... على الرغم من أن الخنزير كله محرم .. فما علة تخصيص اللحم إذن ؟

ذكر ابن عاشور في تفسيره : " أن اللحم هو مناط الأكل ، ولذلك توجه التحريم خاصة إليه في قوله تعالى : وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ " . (١)

وأضيف إلى ذلك – و الله أعلم – أن دقة الأسلوب ، و إعجازه تقتضي هذا التصدير ، بحيث يتوجه الفكر و العقل ، إلى مدى و حجم ضرر ذلك الحيوان ، فإذا كان اللحم – وهو أطيب ما في الذبيحة – يتوجه إليه التحريم القطعي الصريح ، فما بالك ببقي أجزاء الحيوان ؟! من دهون و عظام و حشايا و حوايا ، فلابد أنها أشد ضرارا ، و أعظم حرمة .

وتلك لفتة موجزة بليغة للأسلوب القرآني ، تشير إلى إعجازه على كلا المستويين العلمي و الأدبي ، حيث أجمع العلماء على ضراوة ، و شراسة الأمراض التي تتسبب فيها لحوم الخنزير ، بسبب تلك الدودة الشريطية التي تنتقل منه إلى آكله حيث يتغذى على القاذورات .

ثانيا : الخيل :

ورد لفظ " الْخَيْلَ " في القرآن الكريم ، خمس مرات في المواضع الآتية :

- ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .
- ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

---

(١) انظر التحرير والتنوير / مجلد ٢ / صـ١١٨ / ط . دار سحنون . تونس .

- ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٨].
- ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤]
- ﴿ وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر : ٦] .

ومرة بلفظ آخر في سورة (ص) في قوله تعالى :

- ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَـن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص ٣١ : ٣٢]

وقد وظّف لفظ الْخَيْل في هذه المواضع ، لبيان بعض الأمورعلى النحو التالي :

فالموضع الأول : من سورة آل عمران ، يرد فيه لفظ " الْخَيْل " من بين الشهوات التي يميل لها الإنسان ، حيث تصدرت الآية ، ببيان هذه الشهوات ، من فتنة النساء و كذلك فتنة الأولاد ، ثم حب المال و فتنته ، يلي ذلك ذكــر " الْخَيْــلَ " المســومة والأنعام .

التحليل الفني :

و" **الْخَيْل** " ... اسم جنس ، لا مفرد له من لفظه ، و هو يستعمل للأفراس والفرسان . [(١)]، والمعنى المراد في هذا الموضع ، الأفراس بالطبع ، والتــرجيح أن التعريف فيها " أل" عهدية ؛ لأن الخيل معهودة معروفة للعرب في ذاك الوقت ، بل و إلى وقتنا هذا .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٣ / صــــ٦٩٧ / ط. دار إحياء التراث العربي.بيروت.

ولعل إفراد ، و إظهار ذكر " الْخَيْل " دون إدراجه ضمنا في ذكر الدواب مثلا أو الأنعام ؛ له دلالة على مكانة الخيل في حياة العربي ، وكذلك لما كان من حب الخيل عند الفرسان ، و أهل البذخ و الترف .

أما الموضع الثاني : فهو قوله تعالى في سورة الأنفال:
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ **الْخَيْلِ** تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾
[الأنفال : ٦٠]

حيث وظّف اللفظ في سياق كيفية الاستعداد للأعداء ، و نلحظ أن قوله تعالى : ﴿ ... وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ... ﴾ ، من قبيل عطف الخاص على العام ، حيث عطف رباط الخيل ، وهي جزء من القوة على قوة .. وهذا أمر ملفت للنظر ، من إفراد و إظهار ذكر الخيل دون غيرها من أنواع هذه القوة ... وأرى أن ذلك من عظيم اهتمام العرب بهذا الحيوان ، وإبرازا لدوره في الحروب و القتال .

ولم يرد لفظ " الْخَيْل " في هذا السياق مجردا ، بل مسبوقا بلفظ " رباط " ؛ وذلك لأنها أدق في مقام الاستعداد للعدو ، فالرباط ، صيغة مفاعلة من رابط مُرابطة ورباط : صيغة دالة على المبالغة والكثرة ، أي ضرورة الاهتمام الشديد باحتباسها و ربطها ، و العناية بها ، انتظارًا للغزو ، ووردت الخيل معرفة بأل العهدية على أغلب التوجه ، لأنها معروفة معهودة للعرب .

أما الموضع الثالث : من سورة النحل :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

[النحل : ٨]

وردت الإشارة إلي هذا الموضع ، عند دراسة لفظي (البغال و الحمير) ، وبيّنا أن المقام للامتنان و إبراز نعم الله على عباده ، وكما هو واضح فقد تصـدّر بلفـظ "الْخَيْلَ" ، لبيان أهميتها ونفعها في حياة العربي ، ثم تلا ذلك ذكر البغال و الحمير ، على سبيل التدرج النفعي من هذه الدواب ، من الأعلى إلى الأدنى .

أما الموضع الرابع : فهو قوله تعالى :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُـورًا * وَاسْـتَفْزِزْ مَـنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْـوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [الإسراء ٦٣ : ٦٤]

وظّف لفظ " الْخَيْلَ " في سياق مختلف تماما عما سبق ، حيث ورد اللفظ ، في بيان تهديد ، ووعيد من الله عزوجل لإبليس ، من خلال حوار بديع معجز ، حيـث تبجح إبليس على الذات الإلهية ، متوعدا ، و مهددا بإغواء ذرية آدم .

لذلك يأتي قوله تعالى متضمنا تلك الأوامر لإبليس : (اذْهَبْ – اسْتَفْزِزْ – أَجْلِبْ – شَارِكْهُمْ) وهى أوامر على سبيل التهديد ، و الوعيد و الاحتقار .

(**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**) ... على سبيل التمثيل ، من أن إبليس يجمـع عدته ، كما يجمع القائد جنوده وعدته . والمقصود بالخيل هنا من يركب الخيـل أي الفارس ، و ليس الفرس ، بقرينة و رَجِلك ، أي المشاة في الجيش ، أي أن إبلـيس يستعد بكل الوسائل ، على اختلافها لإضلال بني آدم ، كاختلاف أصناف الجيش من فرسان و رجّالة. (١)

(١) انظر التحرير و التنوير / مجلد ٧ / جـ١٥ / صـ١٥٤/ ط. دار سحنون .تونس .

ونلحظ أن لفظ " الْخَيْلَ " ورد في هذا الموضع معرّفا بإضافته لكاف المخاطب، مخالفا بذلك المواضع السابقة ، من التعريف (بأل) ؛ وذلك لاختلاف السياق ، حيث إن " الْخَيْلَ " وردت في هذا الموضع ، في سياق خطاب إبليس ، فعرّفت بالإضافة لكاف المخاطب .

أما الموضع الخامس : فهو قوله تعالى في سورة (ص) :

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ **الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ** * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص ٣١ : ٣٢]

والحديث في هذا الموضع ، عن نبى الله " سليمان " عليه السلام ، حيث كان محبا للخيل ، شديد التعلق به ، ولكن لفظ " الْخَيْلَ " لم يذكر في هذه الآية صريحا ، بل كُنّى عنه بـ " الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ " .

و (**الصَّافِنَاتُ**) جمع الصافنة ، و الصَّفْنُ : الجمْعُ بَيْنَ الشيئين ضامًّا بَعْضَهُما إلى بعض. [١] ، و صَفَن الفرس يَصْفِن صُفُونا : قام على ثلاث قوائم ، و طرف حافر الرابعة . [٢] و الصَّفَن صفة للجياد العظيمة الأصيلة ، ولا يكون الصافن إلا من الخيل ، لذلك فلفظ (الصَّافِنَاتُ) فيه إشارة إلى محذوف وهو " الخيل " .

وقد وردت (الصَّافِنَاتُ) ، جمعا للدلالة على الكثرة ، فقد كان " لسليمان " عليه السلام خيولا تعد بالآلاف كما ورد في التفاسير. [٣]

(١) المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ٢٨٦ / ط . المكتبة التوفيقية .
(٢) بصائر ذوي التمييز / جـ ٣ / صـ٤٢٦ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(٣) انظر التحرير و التنوير / مجلد ١١/ جـ٢٣ /صـ٢٥٥ / ط . دار سحنون . تونس .

و(**الْجِيَادُ**) جمع جواد ، وفرَسٌ جَوَادٌ ، أي يجودُ بمدَّخَر عَدْوِه. [١]
وهذه صفة أخرى نبيلة ، تضاف لوصف تلك الخيال " بالصَّافِنَاتُ " ، مما يؤكد على أن هذا التركيب الأسلوبي (الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ) ، يؤدى دلالة عظيمة في السياق من بيان مدى تعلّق سليمان عليه السلام بها ، وشدة شغفه بهذه الخيول ، مما أنساه صلاته و غربت الشمس دون قضائها ...

وهذا تفسير قوله تعالى على لسان سليمان :
﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾
[ص : ٣٢]
وورد أن الخير مقصود بها الخيل ، و أن العرب تعاقبت بين اللام و الراء. [٢]
أو لعل المقصود بالخير في قوله تعالى :﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ...﴾ أنه الخير الذي يتسبب فيه الخيل ، فالخيل رمز للخير عند العرب ، وهذا ما يعبر عنه الحديث الشريف في قوله " صلى الله عليه و سلم ": (الخيل معقود بنواصيها الخير).

أما **الموضع الأخير** فهو من سورة الحشر في قوله تعالى :
﴿ وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ **خَيْلٍ** وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر : ٦]
ومعنى الآية : أن ما أفاء الله على رسوله ، إنما هو بتسليط الله و رسوله على يهود بني النضير ، وليس بهجوم و كر ، وفر ، أو إيجاف خيل .. ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ، له الحق كل الحق في توزيع الفيء كما يشاء .

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ١١٠ / ط . المكتبة التوفيقية.
(٢) التحرير و التنوير / مجلد /١١ / جـ٢٣/ صـ٢٥٥ . ط . دار سحنون . تونس .

وقد وظّف لفظ " الخيل " في هذه الآية لبيان أن الفيء و ما حققه المسلمون مــن منافع بعد إجلاء يهود بني النضير ، لم يكن بالحرب و القتال ، تلك الحرب التي كُنّى عنها في الآية بقوله تعالى :

﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ أي نفى وجود قتال أو استعداد حرب ، بل الله مكنهم من ذلك بفضله و بتسليط رسوله صلى الله عليه وسلم .

ونلحظ أن كلمة " **خيل** " وردت نكرة ، وكذلك مسبوقة بمن الزائدة .. وهى بهذا التركيب ، في مقام مفعول أوجفتم ، و التقدير : ما سقتم خيلا ولا ركابا ، و **التوجُّه** أن الأسلوب العظيم ، عدل عن التعبير المباشر بلفظ " الخيل " دون حــرف الجــر الزائد ، لزيادة التوكيد على المعنى المقصود ، وهو تحقق الفيء ، بدون قتال ومن دون أي خيل كان قليلا أو كثيرًا – والله أعلم .

وهكذا نرى أن لفظ " **الخيل** " قد وظّف باعتباره أحد مفردات الطبيعة ، لعرض و بيان العديد من المعانى و المفاهيم :

- فهو ما تشتهيه النفس ، و تسعى إليه كما في سورة آل عمران.
- وهو رمز للاستعداد الحربي و القتالي كما في سورة " الأنفال ".
- كما أنه نعمة عظيمة امتن الله بها على عباده كما في سورة " النحل" .
- وهو كذلك رمز للخير العظيم ، وتعلق النفس به كما في سورة " ص " .
- وأخيرا هو رمز لبيان خصوصية النبي ، وإبراز فضله ، و دوره فــي إجلاء بني النضير، عن المدينة .

٦- الذال ، في " الذئب :

ورد لفظ " الذئب " في القرآن الكريم ، ثلاث مرات كلها في سورة " يوسف " في قصة يوسف عليه السلام وهى المواضع الآتية :

*﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

[يوسف : ١٣]

*﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾

[يوسف : ١٤]

*﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

[يوسف : ١٧]

والمواضع الثلاثة جميعها ، وظّفت اللفظ لبيان مسألة ، تخص نبى الله يعقوب عليه السلام وأبنائه ، وخاصة يوسف عليه السلام . وهى تحايل أبناء يعقوب عليه ، لتخلصهم من يوسف عليه السلام بسبب تفضيل نبي الله يعقوب له عليهم ...

التحليل الفني :

ففي **الموضع الأول** : ورد لفظ " الذئب " على لسان نبي الله يعقوب ، وهو يبين أسباب رفضه لصحبة يوسف لإخوته ، ومن بين هذه الأسباب أن يأكله الذئب ، وكأنه بذلك ، قدّم لهم وسيلة و حيلة للتخلص من " يوسف " دون أن يدرى .

وفى **الموضعين الآخرين** ، جاء لفظ " **الذئب** " على لسان أخوة يوسف ، مرة يستنكرون قول أبيهم وخوفه ، ويستبعدون أن يأكل الذئب يوسف ، وهم عصبة وجماعة شديدة من الرجال ، و مرة وهم يكذبون على أبيهم ، وقد آتوا إليه يبكون ، ويفترون القول بأن " يوسف " عليه السلام قد أكله الذئب .

ونلحظ أن الأسلوب القرآني ، قد آثر الإفراد و التعريف ، في المواضع الثلاثة، وذلك أدق وأليق بالسياق . فمن غير المستساغ أن يرد بالجمع ، مثلا "فأخاف أن تأكله الذئاب " .. وخصوصا أن السليقة العربية ، تعبر عن خطر الذئاب بالمفرد غالبا كما في قوله صلى الله عليه وسلم : (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) وخاصة أن " أل" في الذئب ، تشير إلى استغراق الجنس كله .

وأما التعريف ، فهو الأدق كذلك للسياق من النكرة ؛ وذلك لما يقال من أن أرض الشام كانت مذئبة . (١) فإطلاق المعرفة أولى ، وليس الغرض منها بالطبع تحديد ذئب معين ، ولكن استغراق الجنس ، فيعقوب عليه السلام ، يخاف عليه من هذا الجنس كله ، جنس الذئاب وإن أشار إلى ذلك بصيغة المفرد ، وهذا بالنسبة للآية الأولى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف :١٣].

بينما في <u>الموضعين الآخرين</u> :

- ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [يوسف : ١٤]
- ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧]

فأرى والله أعلم – أن التعريف للعهد ، حيث سبق الإشارة إلى هذا الذئب ، على لسان أبيهم يعقوب عليه السلام .

---

(١) انظر روح المعاني / مجلد ٤ / جـ٦/ صـ٣٨٧ / ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

٧- الضاد ، في : **الضفادع :**

ورد هذا اللفظ ، مرة واحدة في القرآن الكريم كله ، وهى قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَ**الضَّفَادِعَ** وَالدَّمَ... ﴾

[الأعراف : ١٣٣]

وقد ورد هذا اللفظ ، في مقام بيان انتقام الله عزوجل ، من فرعون و قومـــه ، وعقابهم على تجرئهم على الله ، واستحلالهم الكفر ، و تطاولهم على نبي الله موسي والاستهزاء منه بقولهم :

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأعراف : ١٣٢]

وقد سلط الله عليهم ، أنواعا من العذاب ، من بينها إرسال الضـــفادع علـــيهم ، بصورة تنكيلية بشعة و منفرة ، إلى الحد الذي جعلهم لا يستطيعون الجلـــوس ، ولا الطعام ، ولا ممارسة شئون حياتهم اليومية ، فهي تملأ بيوتهم و آنيتهم،وأمتعتهم. (١)

التحليل الفني :

و الضفادع : جمع مفرده ضفدع ، وهو الحيوان البرمائي المعروف ، وقد ورد اللفظ بصيغتي ، الجمع و التعريف ، أما **الجمع** فأغلب التوجه أنه للكثرة ؛ لأنه أعظم وأعم في تسليط العقوبة وبيان أثرها ... وأدق بهذا الشكل في سياق المعنى العـــام ، ويتناسب مع استعمال الجمع في قوله تعالى : ﴿ الْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ ﴾.

وأما **التعريف** ، فعلى ما يبدو للعهد ، فالضفادع حيوان برمائي ، معروف بشكله و هيئته لهم ولمن جاء بعدهم .

---

(١) انظر روح المعاني مجلد ٤ جـــ٥ صـــ٣٤ / ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

٨ – الغين ، في : الغنم :

وقد ورد اللفظ في الأسلوب القرآني ، ثلاث مرات وذلك في قوله تعالى :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴾

[الأنعام : ١٤٦]

و " **غَنَمِي** " وذلك في قوله تعالى :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى **غَنَمِي** وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾

[طه : ١٨]

و " **غَنَمُ** " في قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ **غَنَمُ** الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨]

كما ورد بلفظ " الْمَعْزِ " في قوله تعالى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ **الْمَعْزِ** اثْنَيْنِ ...﴾ [الأنعام : ١٤٣]

وبلفظ " نَعْجَةٌ " في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ **نَعْجَةً** وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ... ﴾ [ص : ٢٣،٢٤]

التحليل الفني :

و الغنم هو الشاه لا واحد له من لفظه . (١) وقد تم الإشارة إلى لفظ " غنم " ، في الموضع الأول في بيان توظيف لفظي (الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ) ، وتحريم شحومهما على بني إسرائيل ، عقابا لهم ، وذلك في المبحث نفسه الجزء الخاص بلفظ " البقر " .

---

(١) لسان العرب مجلد ٨ صـ١٣٣ . ط . دار إحياء التراث . بيروت .

أما الموضع الثاني :

من سورة طه ، فقد وظّف لفظ " غنمي " ، في بيان سعادة موسي عليه السلام، بحواره مع الله عزوجل ، ورغبته في إطالة هذا الحوار ، وذلك في الإجابة على السؤال الذي وجهه سبحانه و تعالى إليه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ [طه ١٧ : ١٨]

فورد اللفظ في بيان موسي – عليه السلام – عن عصاه ، حيث يهش بها على غنمه ، ويدفع عنها الذئاب ، وقد ورد اللفظ معرّفا بإضافته لياء المتكلم ، للتخصيص ، وبيان أهمية العصا بالنسبة لموسي عليه السلام ، فهو يحقق بها مصلحة شخصية .

أما الموضع الثالث :

قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨]

فهو من سورة الأنبياء ، حيث وظّف اللفظ في موضوع التحكيم ، الخاص بالحرث الذي أفسدته غنم القوم ، في قصص داود و سليمان عليهما السلام ، وإبراز أهمية العودة إلى الصواب ، و التراجع في الحكم ، إذا بدا ما هو أعدل منه وأوفق .

و نلحظ أن اللفظ ، مُعرّف بالإضافة إلى القوم في قوله تعالى : **(غنم القوم)** وهم أحد طرفي النزاع . فالتعريف ضرورة لفظية لوضوح المعنى و الدلالة ، والله أعلم .

وقد أشير إلى معنى الغنم بلفظين آخرين ، الأول : " **المعـز** " في سورة الأنعام الآية (١٤٣) ، ووظّف اللفظ في بيان افتراء بني إسرائيل على الله .

وقولهم بتحريم الضأن و المعز ، و الإبل وغيرها . وقد سبق الإشارة إلى ذلك في نفس المبحث أيضا.

و المَعْزُ : جمع الماعزُ ، وهو اسم جنس ، يطلق على ذي الشعر من الغنم.[1] .

والثاني : لفظ " **نعجة** " .. والنعجة هي : الأنثى من الضـأن و الظبـاء و البقـر الوحشي و الشاء الجبلي ، و الجمع نعاج و نعجات. [2] .

وقد ورد هذا اللفظ مفردا ، و جمعا ، في موضع واحد ، هو الآيتان (٢٣ ، ٢٤) من سورة (ص) في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ **نَعْجَةً** وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِـي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى **نِعَاجِهِ** ... ﴾ .. وقد وظّف اللفظ على سبيل التمثيل ، في مقام تعليم ، و تفهيم نبي الله داود عليه السلام ... حيث تسرّع في قضية الإفتاء بين الخصمين اللذين تسورا عليه المحراب ، وقد كانا ملكين جاءا إليه للتقاضي ، والقضية : " إن هذا أخي له تسعة و تسعون نعجة ، ولي نعجة واحـدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب " . [ص: ٢٣].

وتسرّع داود عليه السلام في الحكم ، لصاحب الحجة ، ولعله ألحن في حجته ... وهنا اختفي الملكان وأدرك داود أنها فتنة :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٤]

وقد ورد اللفظ مفردا ونكرة في الآية (٢٣) في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ **نَعْجَةً** وَلِيَ **نَعْجَـةٌ** وَاحِدَةٌ ﴾ ، مراعاة لقواعد العـدد وتمييزه .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٩ / صـ٥٢٤ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) انظر لسان العرب / مجلد ١٠ / صـ١٩٨ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

أما في الآية (٢٤) ، فقد ورد اللفظ ، مرة مفردا معرفا بالإضافة لكاف المخاطب ، ومرة جمعا معرفا بالإضافة إلى هاء الغائب وذلك في قوله تعالى :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ **نَعْجَتِكَ** إِلَى **نِعَاجِهِ** ... ﴾

والإفراد ، والجمع وردا بطبيعة الحال التي يخبر عنها السياق ، فطرف له نعجة والآخر له نعاج .

أما إضافة اللفظ إلى كاف المخاطب ، ففيه تخصيص وبيان ملكية المخاطب لهذه النعجة وأحقيته فيها ، من وجهة نظر داود عليه السلام .

<u>٩ – الفاء ، في : **الفيل** :</u>

ورد لفظ " الفيل " ، مرة واحدة في القرآن الكريم ، في سورة الفيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ **الْفِيلِ** ﴾ [الفيل : ١]

<u>التحليل الفني :</u>

وقد ورد اللفظ مفردا ، ومعرّفا ... أما **الإفراد** ، فقد يكون على الواقع ، حيث قيل أن جيش أبرهة كان به فيل واحد ، وعلى هذا معظم المفسرين ...

وإن كان الأمر غير ذلك ، فالأليق استعمال المفرد ؛ إشارة إلى الحدث ، حتى لا تتهاوي موسيقا السياق لو قلنا مثلا " بأصحاب الأفيال " !

وأما التعريف ، فالتوجه أن " أل " في لفظ " الفيل " ، للعهد إشارة إلى فيل "أبرهة " قائد الجيش .

١٠ – القاف ، في : القردة :

ورد لفظ " قردة " ، ثلاث مرات في القرآن الكريم كله، في المواضع الآتية :

* ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

[البقرة : ٦٥]

* ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ **الْقِرَدَةَ** وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾

[المائدة : ٦٠]

* ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

[الأعراف : ١٦٦]

وتشير المواضع الثلاثة السابقة ، إلى مسخ بني إسرائيل ، قردة وخنازير بسبب تجرئهم على حدود الله ، و التحايل على شريعته وأوامره .

وكذلك آية المائدة ، تشير إلى مسخ الله لهم ، وتذكيرهم بالسابقين منهم ، حتى يتعظوا ويتوقفوا عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وافترائهم على الإسلام .

والملفت للنظر تشابه الموضعين من سورة البقرة و الأعراف ، حيث يتشابه الأداء الأسلوبي .. فالسياق مشترك وهو واقعة السبت ، وتحريم الانشغال فيه بأي عمل سوى العبادة ، وقد كان ذلك في شريعة اليهود .

حيث حرم الله عليهم الصيد يوم السبت ، فتحايلوا على ذلك بحيل مختلفة، مثل حفر حياض و جداول يوم الجمعة ، ثم اصطياد ما فيها يوم الأحد . وهكذا .. وفي ذلك تحايل وتجرؤ واستخفاف بشرع الله وأوامره ...

ولذلك عاقبهم الله عزوجل بالمسخ إلى (القردة و الخنازير) واختلف المفسرون [١] في طبيعة هذا المسخ وهل هو عقلي قلبي ، أم شكلي جسدي ؟!

ويبدو للبحث – والله أعلم – أن المسخ المقصود ، مسخ عقلي ، يتعلق بالفهم و تدبر الأمور ، ومراعاة الحكمة في التصرفات .

و التوجّه في ذلك ، من أجل أن العقل ، هو مناط تكريم الإنسان ورفعته على سائر المخلوقات .. وإذا لم يكن للحكمة ، و العقل مكان في طاعة الله وتدبر أوامره ، فلا قيمة له إذن ، ومن أجل ذلك ، مسخهم الله عندما عصوا أمره سبحانه، مرارا وتكرارا ، فسلبهم هذه النعمة ، وجعلهم مثل العجماوات ، من الحيوانات ، التي لا تعي ولا تفهم ، و أي تنكيل أشد من سلب نعمة العقل و التدبر ؟ !!

التحليل الفني :

(كُونُواْ) ... أمر مُسند لواو الجماعة يوحي بطلاقة القدرة في أمر التكوين والتحويل ، و يعمّق ويرسّخ ذلك التفاوت الرهيب ، بين حقارتهم في تحايلهم على أوامر الله واجترائهم على حدوده ، وبين عظمة قدرته سبحانه ، وهيمنته عليهم .

(قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .. قردة : جمع قرد ، والقرد هو الحيوان المعروف ، وفي ذلك تحقير لبني إسرائيل ، وبيان واضح لهوانهم على الله عزوجل .. بما قدمت أيديهم ، وبتحولهم عن فهم مقاصد الشريعة .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ٢ / صـ ١٥٤ وما بعدها /ط . دار الغد العربي . مصر.

وإيثار صيغة النكرة (قِرَدَةً) ، في الموضعين السابقين من سورة البقــرة والأعراف ، لترسيخ معنى الاحتقار ، و الازدراء لهم – والله أعلم – ومما يؤكـد هذا التوجّه لفظ (خَاسِئِينَ) ، و الخاسيء هو : المُبْعَدُ ، ويكون " الخاسيء بمعنـى الصاغرِ القميء ، و الخاسيء من الكلاب و الخنازير و الشياطين : البَعِيدُ ، الذي لا يُتْرِكُ أن يَدْنُوَ من الإنسان . و الخاسيء : المطرود". [١] .

ومعنى ذلك ، أن المادة المعجمية للخسأ ، تدل على الطرد و الإبعاد .. و بالتالي توحي بالاحتقار و الهوان .. ولعل هذه المادة ، تستخدم أكثـر مـع الحيوانــات ، كالكلاب و الخنازير .. واستعمالها في هذا الموضع ، يؤكد التوجه السابق مــن أن لفظ " القردة " ، وإيثار تنكيره فيه دلالة الاحتقار ، و الإبعاد من رحمة الله ، ثم يليه لفظ " خاسئين " ليؤصل لهذا المعنى ويُرسِّخه .

وعلى خلاف من هذا ، يرد لفظ " قردة " في آية المائدة معرّفا " بأل " في قولــه تعالى :﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ و أرى – والله أعلم – أن ذاك التنكيــر ، وهذا التعريف ، له صلة بالفعل قبله ، فالفعل " كونوا " بدلالته على طلاقة القدرة و السرعة يلائمه النكرة مباشرة ، دون واسطة " أل " التعريف ، كما ورد ﴿ كونوا قردة ﴾ [البقرة : ٦٥] .

بينما الفعل " جعل " بدلالته على التحول و التصيير، يناسبه المعرفة ، فالحس اللغوي و التناسق اللفظي ، يحكم بأن كلاً من التنكير فى آية البقرة ، و التعريف فى آية المائدة ، ملائم في مكانه يتسق في مواضعه مع سياق الآيات ، ويؤكد كذلك على معنى التحقير و الازدراء ، الذي وظّف لفظ " القردة " لإبرازه و بيانه .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٣ / صـــ٥١٩ / ط . إحياء التراث العربي . بيروت .

١١ – النون ، في : الناقة :

ورد لفظ " الناقة " ، سبع مرات في القرآن الكريم ، في المواضع الآتية :

– ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ **نَاقَةُ** اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

– ﴿ فَعَقَرُواْ **النَّاقَةَ** وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

– ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ **نَاقَةُ** اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] .

– ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ **النَّاقَةَ** مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩]

– ﴿ قَالَ هَذِهِ **نَاقَةٌ** لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥] .

– ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو **النَّاقَةِ** فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ [القمر : ٢٧] .

– ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ **نَاقَةَ** اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس : ١٣] .

وكما هو واضح في المواضع السابقة ، أن لفظ " **الناقة** " لم يذكر إلا في قصص نبي الله صالح عليه السلام – لذلك فهي تشتهر في القصص الإسلامي ، باسم ناقة صالح ، كثعبان موسي ، و هدهد سليمان ، وذئب يوسف .. إلخ .

والناقة : الأنثى من الإبل.(١) وناقة صالح ، هي معجزته لقومه ، عندما طلبوا منه آية ، فأخرج لهم الله عزوجل ، تلك المعجزة الخارقة للعادة ، بأن شق صخور الجبل عن الناقة ، ثم أمرهم صالح عليه السلام ، بألا يمسوها بسوء ، وألا يقتربوا من شِربها في نوبتها ، و يومها المعلوم .

التحليل الفني :

ورد لفظ " **الناقة** " مفردًا في كل المواضع السابقة ،وذلك طبقا للواقع ، فمعجزة الله قائمة واضحة بالناقة الواحدة . فالعبرة في هذا المقام ليست بالكثرة العددية ، لكن في كيفية الخلق ، والإيجاد على غير العادة و المألوف ، وعلى مرأى من قوم صالح ثمود ... لذلك فالمفرد ، يفي بالغرض .

كما وردت الكلمة في كل المواضع السابقة ، معرّفة ، عدا موضعا واحدا ، وهو آية الشعراء ، ففي الآية (٧٣) من الأعراف ، تم تعريف كلمة " ناقة " بالإضافة ، وإضافتها للفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ هذه ناقةُ الله ... ﴾ وذلك لبيان قدسية هذه الناقة ، بتلك الإضافة مما يجعل ثمود قوم " صالح " عليه السلام ، يبتعدون عنها ولا يمسوها بسوء ، ويتركونها تأكل في أرض الله ، ويؤمنون بدعوة صالح عليه السلام .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ١٠ / صـ٣٣٣ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

وفى هذه الإضافة (**ناقة الله**) ، إشارة تحذير كذلك ، بأن أمر هذه الناقة ليس هينا أو يسيرا ، بل هو أمر يتعلق بالذات الإلهية .. ومما يعضد هذا التوجّه ، الإضافة التالية لها في قوله تعالى : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ ...﴾ فهو تأكيد على أن الأمر كله لله ، فهي معجزة الله ، وناقة الله ، وتأكل من أرض الله ..

ولذلك يرد التحذير صريحا قاسيا في قوله تعالى :
﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، فهو نهي عن المس ، مجرد المس ، والمس : اللمس وهو أقل الأشياء ، وإذا كان التحذير من الشيء البسيط ، فالعظيم أولي وأشد في التحذير و الزجر .

أما في الآية (٧٧) من السورة نفسها ، وكذلك آية الإسراء (٥٩) و القمر (٢٧)، فنجد الأسلوب ، قد تحول عن التعريف بالإضافة إلى استعمال " أل " في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ **النَّاقَةَ** ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ **النَّاقَةَ** ﴾ و ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو **النَّاقَةِ** ﴾ .. وذلك لاختلاف السياق ، حيث أصبحت الناقة معروفة معهودة لدى ثمود، فالتعريف بأل العهدية ، أدق للسياق في هذا الموضع .

ثم يعود السياق في سورة " هود " ، إلى تعريف الناقة ، بالإضافة إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ **نَاقَةُ اللّهِ** لَكُمْ آيَةً ﴾ .. على غرار الآية (٧٣) في الأعراف ، وكما سبق فإن هذا التعريف ، بتلك الكيفية من شأنه ، خلع صفة الإجلال و التعظيم على هذه الناقة الخارقة للعادة ...

وكذلك وردت نفس صيغة التعريف في سورة الشمس في قوله تعالى :
﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ **نَاقَةَ اللَّهِ** وَسُقْيَاهَا ﴾ ، وهي كذلك لتحقيق الغرض نفسه من تعظيمٍ لحرمة هذه الناقة المقدسة ، مما يرسّخ و يعمّق صيغة التحذير .
و التقدير في التحذيرعلى محذوف ، وهو " **احذروا** ناقة الله " ...

ومما لاشك فيه ، أن التحذير يصير ، أشد وقعا وردعـا ، بهـذه الإضـافة ، فالمحذَّر منه أمر جلل عظيم ، ولذلك وردت في الآية إضافة أخري ؛ لتعميق ظلال القدسية وهى قوله تعالى : ﴿ فقال لهم رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فالتحذير على لسان رسـول الله ، وهذا أمر ليس بالهين ، والتحذير كذلك يمس معجزة الله ؛ لذلك كان الأدلّ على المقصود ، التعبير بقوله تعالى : ﴿ **نَاقَةَ اللَّهِ** ﴾ ، وإيثار التعريف بالإضافة ، إلـى لفظ الجلالة دون غيرها من وسائل التعريف .

ويتبقى موضع سورة الشعراء الآية (١٥٥) ، حيث ورد لفظ (**ناقة**) نكرة ، وهو الموضع الوحيد ، من المواضع السبعة ، الذي ورد على هذه الصورة .. ولكن عند تأمل هذا الموضع ، نلمح فيه ما يشبه التعريف ، من خلال اسم الإشارة السابق عليها في قوله تعالى : ﴿ قَالَ **هَذِهِ نَاقَةٌ** ...﴾ فالنكرة مخصصة وواضحة من خلال الإشارة إليها ... مما يوحي أن المواضع جميعها منسجمة متسقة ، تتناغم فيما بينها على اختلاف مواضعها في السور .

<u>ملمح عند خواتيم الآيات :</u>

عندما نتوقف عند خواتيم الآيات السابقة في آية الأعراف (٧٣) ، وهود (٦٤) ، والشعراء (١٥٦) وهى على التوالي ، قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف : ٧٣]

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** ﴾ [هود : ٦٤]

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ١٥٦]

أقول إنه عند متابعة هذه الخواتيم ، نلحظ تكرار لفظ " عذاب " في المواضـع الثلاثة على التوالي ، مع اختلاف الصفة الملْحَقَة به .

فمرة " **عذاب أليم** " ، وأخرى " **عذاب قريب** " ، وثالثة " **عذاب عظيم** " فما علة اختلاف الوصف في المواضع الثلاثة ؟

في الواقع أن السياق هو الذي اقتضى هذا التنوع ، وأقصد بذلك أن الخـواتيم الثلاث ، تلتقي حول مضمون واحد ، وهو عذاب ثمود لتكذيبهم لنبي الله صالح عليه السلام ، ولكن دقة الأسلوب القرآني ، اقتضت التمييز بـين المواضـع الثلاثـة ، فالموضع الأول ، التحذير فيه عام يوضح صفة العذاب ، وينذر بأنه مؤلم ، في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ ، ثم بعد ذلك في الموضع الثاني، حُدِّد زمن هذا العذاب بأنه قريب .

" والقريب لا ينافي الأليم ، بل هو أشد ألما إذا لم يكن بعد مهل " .(١)

ووصف العذاب بأنه " **قريب** " في هذا الموضع ؛ أدق للسياق لما يليه من قولـه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ **ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ** ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾
[هود : ٦٥]

فالعذاب أصبح قريبا منهم بما يفعلون ، وبما تقدم أيديهم ، والفترة الزمنية التي أمهلها لهم الله عزوجل قليلة ، ثلاثة أيام ولذلك فالعذاب قريب .

بينما في الموضع الثالث من سورة الشعراء ، نجد العذاب يوصف بأنه " **عظيم** " في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١٥٦]

فاختص يوم تعذيبهم ، بأنه عظيم .. لأنه بالفعل يوم عظيم عليهم ، حيث أثبـت الله فيه صدق " صالح " عليه السلام ، بإرسال الصيحة عليهم ، عندما اعتدوا علـى ناقة الله ، وهى معجزة نبيه عليه السلام .

" وكل ذلك له هدف واحد ، وهو أنهم إن عقروها عوقبوا ، فالألفاظ المختلفـة تدور حول هذا المعنى ، واختلافها لاختـلاف مواضعها المقتضية تغييـر الألفـاظ فيها " (٢) ... وهكذا نجد القرآن دائما ، دقيقا في استعمال ألفاظـه ، معجـزا فـي معانيه، مبهرا في سياقه فسبحان الله العظيم .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل / الخطيب الإسكافي/ صـ١١٧ / / ط . المكتبة التوفيقية .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل / الخطيب الإسكافي / صـ١١٨ / ط . المكتبة التوفيقية .

ب – توظيف " الطير " في بيان بعض معاني القرآن :

ورد لفظ " الطير " ، ست عشرة مرة في القرآن الكريم ، و ورد لفظ " طيرا " ثلاث مرات ، و " طيرٍ " مرة واحدة .

* توظيف الطير في بعض قصص الأنبياء :

١ – " الطير" ونبي الله إبراهيم :

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ **الطَّيْرِ** فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠]

حيث وظّف لفظ " **الطير** " ، في بيان ذلك الحوار بين نبي الله إبراهيم وربه، عندما طلب منه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وليس هذا عن قلة إيمان – حاشا لله – بل سؤال الكشف و المؤانسة مع الله ، فكما قال الأستاذ سيد قطب : " لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ... ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله ولكنه سؤال الكشف والبيان ، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه ..." (١) .

التحليل الفني :

ولفظ " الطير " .. اسم جمع (٢) ، وورد في لسان العرب أن " الطير" يقع للواحد من باب التسمية بالمصدر. (٣) .

---

(١) في ظلال القرآن/ مجلد ١ / صـ٣٠٢ / ط . دار الشروق . القاهرة / بيروت .

(٢) انظر المحرر الوجيز / صـ٣٠٤ / دار الأندلس الخضراء / دار ابن حزم . جدة

(٣) انظر لسان العرب مجلد ٧ / صـ١٣٠ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

والتوجه أن " أل " في لفظ " الطير " للجنس ، لأنها أدق في بـــاب الاســتدلال على القدرة ، أي أربعة من جنس الطيور ، بغض النظر عن نوعهـــا وتحديـــدها ، فالتحديد لا قيمة له في هذا المقام ، وقد آثر بعض المفسرين [١] تحديد تلك الطيور، وتسميتها وأرى أن هذا لا داعي له ، فما وجه فائدته ؟!

ولعل وجود الخافض (من) ، قبل لفظ " الطير " ، يوضح أن " ال " في الطيـــر للجنس ، حيث أفاد حرف الجر التبعيض ، والمقصود أي بعضا من هذا الجــنس .. جنس الطيور بعامة ... والله أعلم .

---

٢ – الطير ونبي الله " عيسى " :

ورد لفظ " الطير " في قصص " عيسى " عليه السلام ، مرتين ، كما ورد لفظ " طيرًا " مرتين كذلك ، على النحو التالى :

– ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّــنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ **الطَّيْرِ** فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ **طَيْرًا** بِإِذْنِ اللّـــهِ وَأُبْــرِىءُ الأكْمَـــهَ والأَبْــرَصَ وَأُحْيِـــي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِـــي ذَلِـــكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

– ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِـــدَتِكَ إِذْ أَيَّـــدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَـــابَ وَالْحِكْمَـــةَ وَالتَّـــوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ **الطَّيْرِ** بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُـــونُ **طَيْـــرًا** بِـــإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِـــي إِسْـــرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـــذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[المائدة : ١١٠]

---

(١) انظر المحرر الوجيز صــ٢٣٩ / ط . دار الأندلس الخضراء / دار ابن حزم . جدة .

والموضعان في بيان معجزة نبي الله " عيسى " عليه السلام ، حيث وظّف اللفظ ؛ لإبراز تلك المعجزة الخارقة للعادة ، في تمكين " عيسى " عليه السلام من خلق هيئة هذا الطير من الطين ، ثم النفخ فيه ، فيكون طيرا بإذن الله .

التحليل الفني :

والتعريف في " الطير " للعهد ، فهو الطير المعروف لديهم . ويتشابه الموضعان في آية آل عمران ، و المائدة ، فكلاهما يتناول الموضوع نفسه . ومما يلفت الانتباه ذلك التباين بين الموضعين في استعمال الضمير ، ففي آية آل عمران نجد الضمير " فيه " بصيغة المذكر . وذلك في قوله تعالى على لسان " عيسى " عليه السلام :

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ ....﴾ [آل عمران : ٤٩].

بينما في آية المائدة ، نجد الضمير تغيّر إلى المؤنث ، " فيها " في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠].

فما علة هذا التحول وذاك التباين إذن ؟

أشار الخطيب الإسكافي إلى ذلك في كتابه [1] ، مُرجعًا التذكير في آية آل عمران ، إلى أن الآية ، تشير أول ما تشير إلى معجزة تصوير الطين على هيئة الطير ، وهذا مقصدها الرئيس الذي تقوم به الحجة ، لذلك فالتذكير أولى ؛ لأنه يتوجه إلى المقصد الرئيس ، وهو مفرد ... بينما في آية المائدة ، فالإشارة فيها إلى كل ما أنعم الله به على عيسى عليه السلام، من دلائل وحجج ، مثل تأييده له سبحانه،=

---

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي / صـ٤٩ ،٥٠ / ط . المكتبة التوفيقية . مصر.

= وكلامه في المهد ، وتعليمه الكتاب والحكمة ، و خلق الطين كهيئة الطير ، وكل هذه نعم مجموعة ، لذلك كان ضمير المؤنث " فيها " للجمع أولى .

وفى الواقع أجد أن هذا الرأي لا يفي ، ولا يقنع بتعليل وتفسير هذا التبـــاين ، وأرى أن لفظ " **طير** " ذاته هو المحك الرئيس لهذا التباين ، بمعنى أن هذا اللفظ ورد فيه ، أنه يُذكر ويؤنث. (١) وإذا كان ذلك ، فاستعمال الضمير " **فيه** " للمذكر في آية آل عمران ، جائز على تذكير لفظ " الطير" ، واستعمال الضمير " **فيها** " للمؤنث في آية المائدة ، يجوز على تأنيث اللفظ ، وهذا من قبيل التوسع وبلاغة وطلاقة اللغـــة العربية لغة القرآن .

وأما إذا أخذنا، برأي من قالوا : أن لفظ " الطير " مؤنث . (٢) فالتوجّه إلى أن استعمال ضمير المذكر، هاء الغائب في " **فيه** " ، عائد إلى لفظ " الطين " ، أي أنفخ في الطين ، فيكون طيرا بإذن الله ، وهذا ما تميل الدراســـة إليـــه ، لأن الأســـلوب القرآني ذاته يُغلّب التأنيث على التذكير ، في هذا اللفظ ، وانظر هذه المواضع:

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى **الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ** فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِـــي ذَلِـــكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .
- ﴿ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً** كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٩] .
- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى **الطَّيْرِ** فَوْقَهُمْ **صَافَّاتٍ** وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّـــهُ بِكُـــلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى / مجلد ٢ / صـــ١٤٤٢ / ط . دار الغد العربي . مصر .

(٢) انظر لسان العرب/ مجلد ٧/ صـــ١٢٩/ ط . دار إحياء التراث العربي .بيروت .

٣- الطير ونبي الله " يوسف " :

ورد لفظ " الطير " في قصة " يوسف " عليه السلام ، مرتين فقط في الآيتــين التاليتين :

- ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ **الطَّيْرُ** مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف :٣٦]

- ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُــلُ **الطَّيْرُ** مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف :٤١] .

وكان قد دخل مع يوسف عليه السلام السجن ، فتَيان ، وقد وظّف اللفظ في بيــان رؤيا أحدهما ، وقد ورد اللفظ معرّفًا .

٤- الطير ونبي الله داوود وسليمان :

أ - " داوود " عليه السلام :

وقد ورد لفظ " الطير " في قصص نبي الله داوود ، في ثلاثة مواضع كما يلي :

- ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ**الطَّيْرَ** وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ**الطَّيْرَ** وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ :١٠]
- ﴿ وَ**الطَّيْرَ** مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٩]

والمواضع الثلاثة ، تتناول تسبيح " الطير " ، مع نبي الله داوود ، وتسخيرها له ولطاعته وفى ذلك تشريف وتعظيم لنبي الله داوود .

التحليل الفني :

فى المواضع الثلاثة السابقة وظّف اللفظ لبيان أمرين :

الأول : تشريف نبي الله داوود ، بتسخير الجبال والطير له ، بالتسبيح والترديد والترجيع .

الثاني : الإشارة إلى أن كل ما في السماوات ، والأرض مسبّحُ له ، الصامت منها كالجبال ، أو الحي كالطير . مما يدلل على طلاقة القدرة الإلهية ، وهيمنتها على الكون بما ومن فيه . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١] .

ب – " سليمان " عليه السلام : (الطير – الهدهد) :

ورد لفظ " الطير" في قصص سليمان عليه السلام ، ثلاث مرات ، وذكر " الهدهد " مرة واحدة على النحو التالي :

– ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ **الطَّيْرِ** وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ **وَالطَّيْرِ** فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٦، ١٧]

– ﴿ وَتَفَقَّدَ **الطَّيْرَ** فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى **الْهُدْهُدَ** أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠] .

التحليل الفني :

وظّف اللفظ لبيان المعانى التالية :

١ – في إبراز امتنان " سليمان " عليه السلام بنعمة الله عليه في تعليمه لغة الطير وإدراكها كما في قوله تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٦] .

٢ – تسخير " الطير " " لسليمان " عليه السلام ؛ ليكون من بين جنوده ومساعديه . مثل الهدهد كما في قوله تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ ...﴾ [النمل : ١٧] .

٣ – بيان دور الحاكم من ضرورة تفقد شأن جنده ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ .... ﴾ [النمل : ٢٠] .

وكما ورد لفظ " **الطير** " معرّفا ، في قصص نبي الله " داوود " ، ورد كذلك في قصص " سليمان " عليهما السلام ، وأغلب التوجّه أن إيثار الأسلوب لصيغة التعريف في جميع هذه المواضع ، يُقصد به الإشارة إلى أنه ذاك الطير المعروف المعهود للناس في كل زمان ومكان ، بغض النظر عن تحديده أو ذكر نوعه .

وذلك أدق في مقام إبراز طلاقة القدرة ، لئلا يُظن أن هذا الطير ، نوع خاص بخلقة خاصة .

وقد قيل أن لفظ " الطير [١] ، يقع على الجمع غالبا، وقد يقع على الواحد . واستعماله للجمع في هذه المواضع أولي ، لأنه أدق في باب إظهار عظيم نعمة التسخير و الامتنان ، وأليق ببيان المشيئة المطلقة – والله أعلم .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٧ / صـ١٣٠ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .
وكذلك التحرير والتنوير / مجلد ٣ / جـ٣ / صـ٢٥٠ . ط . دار سحنون . تونس .

٥- " **الطير " والتسخير والتسبيح وبديع صنع الله :**

وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع – بخلاف المواضع السابقة ، في ذكر " داوود و سليمان " عليهما السلام – والمواضع هى :

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى **الطَّيْرِ** مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ**الطَّيْرُ** صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١] .

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى **الطَّيْرِ** فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

التحليل الفني :

ورد لفظ الطير في المواضع الثلاثة السابقة مقترنًا بـــ "أل " ، والتوجه في " أل " إنها لاستغراق الجنس ، لأن تسخير الله لها ، وإبداع خلقها ، يشـــمل جـــنس الطير كله .

وقد آثر الأسلوب في الآيات الثلاث ، تغليب المؤنث ، في لفظ " الطير " وهـــو مما يؤنث ويذكر – كما سبق – حيث جاءت الحال منه ، بصيغة جمع المؤنث السالم " مسخرات " وذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ **مُسَخَّرَاتٍ** فِي جَوِّ السَّمَاء...﴾ [النحل : ٧٩]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ **صَافَّاتٍ** ... ﴾ [النور : ٤١]

وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ....﴾ [الملك : ١٩]

والآيات السابقة ، تشير إلى بديع صنع الله وطلاقة قدرته ، كما إنها دعوة إلى التأمل في عجيب مخلوقات الله .

وقد ورد لفظ الطير ، في المواضع السابقة ، ملحقا بحال تصفه ، على النحو التالي :

﴿ **الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ** ﴾ [النحل : ٧٩] ، ﴿ **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ** ﴾ [النور : ٤١] .

﴿ **الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ** ﴾ [الملك : ١٩] .

والتسخير : سِياقة إلى الغَرضِ المختصِ به قَهرا. [١] وهذا يعني أن الله ، قد سخّر هذا الطير إلى أغراض ، قد نعلمها ، وقد لا نعلمها .

والطير كذلك **صافات** .. **والصّفُّ** : أن تجعل الشيءَ على خطٍ مستوٍ ، كالناس والأشجار ، ونحو ذلك . [٢] وفي ذلك الوصف ، إعجاز في بيان كيفية اصطفاف ، هذه الطيور في السماء ، ما يمسكهن إلا الله .

ثم يزداد الأمر وضوحا ، من خلال زيادة الوصف ، في قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى **الطَّيْرِ** فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

---

(١) **بصائر ذوي التمييز /ج٣ / صـ ٢٠٣/ ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .**

(٢) **المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ ٢٨٥/ ط . المكتبة التوفيقية.**

فبعد الإشارة إلى عظيم خلق هذا الطير وتسخيره ، واصطفافه في السماء فى سورة النور ، تأتي هذه الآية من سورة الملك بأوصاف أخرى هي : الظرف " فوقهم " فالطير فوقهم ، وكذلك" صافات " بصيغة اسم الفاعل ، والفعل " يقبضن " بتصويره الدقيق لحركات الطيران .

والملفت في الآية السابقة ، عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل ، في قوله تعالى : ﴿ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ، فما علة ذلك ؟

أورد الشيخ ابن عاشور تحليلا وافيا ، في ذلك حيث يقول : " وجيء في وصف الطير بـ " صافات "بصيغة الاسم ، لأن الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران ، فناسبه الاسم الدال على الثبات ، وجيء في وصفهن بالقبض ، بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد ، أى ويجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك ، عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران " . (١)

والقبض : مضاد البسط ، فالانقباض : خلاف الانبساط . والقبض : الانقباض، وأصله في جناح الطائر . (٢) ، وفي ضوء ذلك المعنى ، يوضح الأسلوب، الميكانيكية المعجزة لطبيعة الطيران ، عند الطير ، مما يبين ، أن هذه الكونيات الحية ، وظّفت بإعجاز ، لإثبات و إظهار طلاقة القدرة الإلهية .

---

(١) التحرير والتنوير ، مجلد ١٤ / ج ٢٩ / صـ ٣٩ / ط . دار سحنون . تونس .

(٢) لسان العرب / مجلد ٨ / صـ ٣٨٣ / ط . دار التراث العربي . بيروت .

٦- توظيف " الطير " في بيان حالة المشرك :

وذلك في موضع واحد وهو قوله تعالى :

﴿ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ **الطَّيْرُ** أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١]

حيث وُظِّف اللفظ ، في بيان سوء وبشاعة حال المشرك ، عندما يسقط في الشرك ، وكأنه سقط من السماء ، فعبثت به الطير ومزّعته في حواصلها ، وتنازعته الأهواء . كما تعصف به الريح من كل جانب . فهو تصوير من باب التشبيه لتقريب هذه الحالة ، التي عليها المشرك من الأذهان ، على عادة الأسلوب القرآني في التمثيل والتصوير .

٧- الطير وهلاك أبرهة :

سبق الإشارة إلى أن لفظ " **طيرا** " ، ورد على هذه الصورة بصيغة النكرة ثلاث مرات ، اثنيْنِ منهم في آل عمران (٤٩) و المائدة (١١٠) ، وهذه هي المرة الثالثة في سورة الفيل في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ **طَيْرًا** أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل ١ : ٤]

حيث وُظّف اللفظ لبيان عقاب وهلاك أبرهة ، ملك الحبشة وجيشه عندما اعتدوا على حرمة البيت الحرام .

التحليل الفني :

آثر الأسلوب القرآني لفظ " طيرا " بصيغة التنكير ، على خلاف وروده معرّفا في الأغلب الأعم . وأرى أن ذلك لإفادة التهويل والتعظيم ، فهي " طير " مجندة من عند الله ، ليست الطير المعهودة لنا. [1] ، بل طير لها طبيعة خاصة ، لذلك كان التنكير أولي بالسياق .

" أَبَابِيلَ " .. والأبابيل جماعة في تفرقة ، واحدها إبّيل ، كما إنها جمع لا واحد له منزلة عَبابِيد ، وشماطيط . [2]

والمعنى أن الطير كانت في جماعة متفرقة ، تلقي عليهم هذه الحجارة .

وهذا الوصف يؤكد ما ذكره البحث ، من أن هذا الطير له طبيعة خاصة ، غير معروفة ، ومن هنا كان إيثار تنكير " طيرا " أولي وأدق للسياق .

٨- الطير وطعام أهل الجنة :

وقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢١]

وردت هذه الآية ، بين مجموعة آيات تتناول بيان منازل أهل الجنة ونعيمهم عند الله ، وبدأت هذه الآيات بقوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

[الواقعة ١٠ : ١٢]

---

(١) انظر التحرير والتنوير / مجلد ١٥ / جـ٣٠ / صـ٥٤٩ / ط . دار سحنون . تونس .

(٢) لسان العرب / مجلد ١ / صـ٤٩ / ط . دار إحياء التراث . بيروت.

وقد جاء لفظ " **طير** " ، في هذا الموضع نكرة ، بخلاف معظم وروده معرفة. ويبدو للبحث إن إيثار القرآن لصيغة التنكير هنا ، ألزم للسياق والمعنى ، لأنه تنكير العظمة والشمول ، عظمة هذا اللحم ، وشموله لأنواع عديدة ، غير معروفة أو محددة .. ومما يعمّق هذه الدلالة تنكير لفظ " لحم " كذلك ، وهو مضاف " طير " وتلك الإضافة من باب التخصيص ، تخصيص اللحم بأنه ليس أي لحم ، بل لحم طير ، والمعروف أن لحم الطيور ، أفضل اللحوم وأشهاها ... لذلك كان طعام أهل الجنة ذلك اللحم الشهي ، لحم الطير .

وفيما يبدو للبحث أن لفظ " طير " في هذا الموضع يُحْمَل على الجمع ، وهو الأغلب في استعماله ؛ لأنه أوضح في مقام بيان تمام النعمة و الامتنان .

<u>٩- الغراب وابني آدم :</u>

ورد لفظ " الغراب " مرتين ، مرة بالتنكير ، وأخرى بالتعريف ، في قوله تعالى:

﴿ فَبَعَثَ اللّهُ **غُرَابًا** يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ ....﴾

[المائدة : ٣١]

<u>التحليل الفني :</u>

وقد وظّف اللفظ في بيان كيفية موارة الموتى ، حيث أراد أحد ابني آدم " قابيل " إخفاء جثة أخيه " هابيل " ، بعد قتله ولكنه لم يعرف ، فأرسل الله له هذا الغراب ليعلم بني الإنسان ، كيف يُقْبرون موتاهم .

وفى المرة الأولي ، ورد اللفظ نكرة " **غرابا** " في قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا ﴾ لأن التعريف لا فائدة له ، والمحك الرئيس هو هدف الإرسال ، لذلك كان إيثار الأسلوب لصيغة النكرة أولى .

وفى المرة الثانية ، جاء اللفظ معرّفا بأل ، في قوله تعالى :

﴿ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ ﴾ ، والتعريف في هذا الموضع أولي لأن الغراب أصبح معروفا لابن آدم " قابيل " ، ولذلك آثر الأسلوب التعريف بأل العهدية ، أي أن الحديث عن هذا الغراب الذي أرسله الله عزوجل .

ج – توظيف " الحشرات " لبيان بعض معانى* القرآن :

١ – الجراد :

ورد هذا اللفظ في القرآن مرتين فقط فيما يلي :

– ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣]

– ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر :٧]

وقد وظّف اللفظ في آية الأعراف ، في بيان عقاب آل فرعون ، على سوء أدبهم مع نبي الله موسي عليه السلام ؛ فأرسل الله تعالى عليهم ، الطوفان و الجراد والقمل و الضفادع و الدم ...

---

* وغالبًا ما يكون بيان المعنى المستخدم فيه بعض أسماء الحشرات بيانًا تشخيصيًا تصويريًا .

التحليل الفني : لآية الأعراف [١٣٣] :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣]

و**الجراد** : اسم جنس جمع ، يفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، فالجمع جراد ومفرده " جرادة " ، ولفظ " جرادة " يقع على الذكر و الأنثى . (١) ، وقد سمي بذلك لجرده الأرض من النبات ، يقال أرض مجرودة أي أُكِل ما عليها حتى تجرّدت . (٢)

ولعل ذلك هو السبب ، في أنها كانت عقابًا لفرعون وآله ، أي أنها سُلّطت على أرضهم حتى جرّدتها من النباتات والزرع والخيرات ، فكان ذلك سبيلا إلى التنكيل بهم .

وقد ورد اللفظ في السياق معرّفا مجموعًا ، والتوجّه أن " **أل**" في لفظ " الجراد " للجنس ، و**الجمع** لدلالة الكثرة ، مما هو أتم في بيان مدى العذاب ، والتنكيل الذي أصاب فرعون وقومه ...

أما **الموضع الثاني** من سورة القمر ، وهو قوله تعالى :

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ **جَرَادٌ** مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧]

فقد وظّف اللفظ لبيان معنى مختلف تماما عما سبق ، حيث وردت كلمة =

---

(١) انظر لسان العرب مجلد ٢ صـ٢٣٦ /ط . دار إحياء التراث . بيروت .

(٢) المفردات في غريب القرآن / صـ ٩٧/ ط . المكتبة التوفيقية.

= " جراد " في بيان حال من يخرجون من القبور ، عند سماع الداعي يـوم الحسـاب والبعث ، وقد توعدهم الله عزوجل بالعذاب ، لكفرهم وتوليهم على الرغم مما جاءهم من الأنباء والبينات ، وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّـذُرُ * فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَـأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر ٤ : ٧]

وقد شبه الأسلوب حال الكافرين ، عند خروجهم من قبورهم يـوم الحسـاب بالجراد المنتشر ، والعامل المشترك بينهما ، الدلالة على الكثرة و الاكتظاظ ، وكذلك ما يستدعيه التشبيه ، من استحضار لصورة الجراد ، عندما ينتشـر ويطيـر فـي جماعات كثيرة يستتر بعضها ببعض ، فهم يخرجون من قبورهم على هـذه الهيئـة المتكاثرة المزدحمة . ولعل تعبير الأسلوب القرآني ، عن ذلـك بصـيغة النكـرة والجمع ﴿ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أدق في بابه وسياقه ؛ لما له من دلالـة علـى التهويـل والكثرة ... وبيان سوء الحال في يوم الحشر .

---

٢ – <u>الذباب :</u>

ورد هذا اللفظ مرتين في القرآن الكريم ، في سورة الحـج – الآيـة (٧٣) ، وسوف يتم دراستها في مبحث " الطبيعة فى الأمثال القرآنية " من الباب الثـاني ، بمشيئة الله .

٣ – القُمَّل :

ورد هذا اللفظ مرة واحدة ، في سورة الأعراف في قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَ**الْقُمَّلَ** وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣]

حيث جاء في بيان عقاب آل فرعون ، كما سبق الحديث عن الجراد .

التحليل الفني :

وقد تعددت معاني تلك الكلمة . واختلف اللغويون فمنهم من قال : القُمَّلُ : صغار الذباب . (١)

وورد في لسان العرب : أن القُمّل : صغار الذَّرّ والدبَى* (٢) .

وورد فيه كذلك ، أن " القُمّل " : الجنادب ، وهى الصغار من الجراد . (٣) وهذا نفسه ما ورد في بصائر ذوي التمييز . (٤) وأورد صاحب الكشاف في تفسيره أن القُمّل : هو الحمنان ، أي كبار القردان ، وقيل البراغيث . (٥)

وجاء في تفسير ابن عاشور : " القُمَّل : اسم نوع من القراد عظيم ، يسمى الحُمنَان .. وهو يمتص دم الإنسان ، وهو غير القَمْلِ " (٦) .

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن / صـ٤١٣ / ط . المكتبة التوفيقية .

* الدبى : أصغر الجراد .

(٣،٢) انظر لسان العرب / مجلد ٨ / صـ٦٧٧ ، ٦٧٨/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٤) بصائر ذوي التمييز / جـ٤ / صـ٢٩٧ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٥) انظر الكشاف / مجلد ٢/ صـ١٠٧ / ط . دار الفكر .

(٦) التحرير والتنوير / مجلد ٥ / جـ٩ / صـ٦٩ / ط . دار سحنون للنشر . تونس .

وعلى الرغم من تعدد هذه المعاني كما سبق الإشارة ، إلا أنها تجتمع حول معنى مهم ، وهو مقصد السياق في الآية موضع الدراسة ، وهذا المقصد هو تسليط أنواع العذاب المختلفة ، على فرعون وآله جميعا ، بداية من الطوفان ومرورا بالجراد والقُمّل ، والضفادع وانتهاء بالدم .

فالهدف الرئيس للأسلوب ، هو بيان لنهاية كل معاند كافر مكابر ، وما تلك العقوبات ، إلا آيات لغضب الله عليهم .

والقُمَّل : اسم جنس جمع ، مفرده قُمّلَة ...

وإيثار الأسلوب **للتعريف** ، لاستغراق الجنس ؛ أى جنس هذه الحشرات المؤذية.

والجمع : لدلالته على الكثرة ، مما يكون أكمل وأتم في بيان بشاعة العقاب ، وإبراز الغضب .. وكذلك محافظةً على التلاؤم في السياق ، بين الجراد والضفادع ، فالسابق على القُمّل ، ورد معرفة وجمعا فى قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ ﴾ ، واللاحق عليها كذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ والضفادع ﴾ .

---

٤ – النحل :

ورد هذا اللفظ في القرآن ، مرة واحدة فقط ، في سورة النحل في قوله تعالى :
﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى **النَّحْلِ** أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾
[النحل : ٦٨]

والنحلة هي تلك الحشرة المعروفة ... وقد وظّف اللفظ للإشارة إلى إبداع الله وحكمته ، في عجيب خلقه ، وبيان تلك العبرة العظيمة ، وذلك الإنعام الجليل بما أودع في خلقة هذه الحشرة الضعيفة ، هذه المنفعة العظيمة ، من خلال إفرازها لذلك الشراب الشهي النافع " العسل " .

ولأهمية تلك النعمة ، فقد سميت السورة بأكملها بسورة " النحل " ، وكأن في ذلك إشارة ، إلى الالتفات إلى هذه الحشرة الضعيفة البسيطة الشكل ، المركبة الفوائد . وإشارة إلى عظيم تدبير الله فيها ، بأن ألهمها كيف تعيش وتسكن وتأكل ، وماذا تصنع ،" فالإلهام هنا رمز لذلك التكوين الخفي ، الذي أودعه الله في طبيعة النحل ". (١)

كما تسمى هذه السورة كذلك بسورة " النعم " ، لما فيها من النعم العديدة التي أكرم الله بعباده .. ومن بين هذه النعم ، وأعظمها " النحل " لمنافعها الجليلة .. ولأنها صورة جليّة ، واضحة للاعتبار والتأمل في عجيب صنع الله وطلاقة قدرته .

التحليل الفني :

والنحل .. اسم جنس جمعي ، مفرده " نحلة " ، حيث يفرّق بينه وبين المفرد بالتاء ، وقد آثر الأسلوب ، صيغتي التعريف والجمع ، لأنها أتم في التعبير على طلاقة القدرة ، باستغراق الجنس كله من خلال التعريف " بأل " الاستغراق ، ويؤصل هذا المعنى ، الجمع، لأن في الجمع دلالة العموم والشمول لهذا الجنس فوحي الله عزوجل وإلهامه ، يشمل ذلك الجنس كله في كل زمان ومكان .

كما تبين الآية ذلك الإعجاز ، الكوني العظيم ، في استجابة كونيات هذا العالم إلى وحي الله وإلهامه . وكأن تلك المخلوقات الضعيفة ، تعي وتفهم ، وتنفذ ما تؤمر به ، فالآية تبرز صورة ذلك النحل ، شاخصا ، عاقلا ، مطيعا لأوامر الله.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ جـ١٤ صـ٢٠٥ / ط . دار سحنون . تونس .

٥ – النمل :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ، ثلاث مرات ، مرتين بصيغة الجمع ، ومرة بصيغة المفرد ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي **النَّمْلِ** قَالَتْ **نَمْلَةٌ** يَا أَيُّهَا **النَّمْلُ** ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]

التحليل الفني :

وقد وظّف اللفظ للإشارة إلى عدة أمور، وهي :

١ – إبداع صنع الله ، وطلاقة قدرته في الخلق ، مهما صغر ودق ، مثل خلق "النمل" ، وتأهيله للفهم والإدراك ..

وذلك يفهم من قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ..﴾

٢ – امتنان الله على " سليمان " عليه السلام ، بتلك النعمة الجليلة ، وهي معرفة منطق الطير ، وفهمه لها ، وهذا واضح في قوله تعالى ، على لسان نبي الله " سليمان " : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٦]

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ...﴾ [النمل : ١٩]

٣ – أهمية العدل والرحمة في استقامة جميع أمور الأمة ، وذلك واضح من قوله تعالى :

﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]

التحليل الفني :

﴿ ... قَالَتْ **نَمْلَةٌ** يَا أَيُّهَا **النَّمْلُ** ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]

" قالت : وهم لا يشعرون فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة ، وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة ، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل لكل مخلوق لا فساد منه أجراه الله على نملة ليعلم شرف العدل ". (١)

والنمل ... اسم جنس جمع ، مفرده نملة ... وقد ورد اللفظ في المرة الأولى **معرّفا مجموعا** فى قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي **النَّمْلِ** ... ﴾ ، وأغلب الظن أن " أل " ، في " النمل " للعهد ، أي أن هذا الوادي كان معروفا لسليمان عليه السلام ... ثم عدل الأسلوب عن الجمع والتعريف إلى **الإفراد والتنكير** في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ .. وذلك أنه لا ضرورة من تحديدها ، فالتنكير أولى ، إذا أن المقصد الرئيس، بيان هذا الحادث واستيعاب دلائله وإشاراته.

كذلك فإن لفظ " نملة " ، لا يعنى أنها مؤنثة ؛ لأن إضافة التاء ليست لدلالة التأنيث ، بل إنها – كما سبق – للدلالة على الواحد أي المفرد ، واقتران الفعل " قالت " بتاء التأنيث ، مراعاة للفظ " النملة " ، وليست للتأنيث . (٢)

ثم آثر الأسلوب صيغة **الجمع و التعريف** ، في المرة الثالثة في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ** ...﴾ ؛ وذلك لأن الأدق بالمقام الجمع ، حيث إن النملة تخاطب أبناء جنسها وتحذرهم ، وهم جمع بلا شك . ... وكذلك فالتعريف أولى ؛ لأنها تخاطب بني جنسها ، وتعرفهم ، فإيثار التعريف بدلالة " أل " العهد ، تمنح السياق الدلالة ، و المعنى المقصود – والله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٩ / جـ١٩ / صـ٢٤٣ / ط . دار سحنون . تونس .

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٩/ جـ ١٩ / صـ٢٤١ / ط . دار سحنون . تونس .

الفصل الثانى

خلق السماء وعوالمها

ويقع في المباحث التالية :

* تمهيد

المبحث الأول : خلق السماء وما فيها من عوالم أبرزها:

الشمس والقمر والنجوم والكواكب والشهب .

المبحث الثاني : الظواهر الكونية فى :

الغمام – البرق والرعد والصواعق – الرياح والمطروالغيث.

المبحث الثالث : معجزة الليل والنهار .

تمهيد :

مما لاشك فيه أن العالم العلوي مبهر أشد ما يكون الإبهار ... وقد نالت السماء بكل ما فيها من كونيات معجزة اهتماما عظيما في البيان القرآني . فهي السماء المعجزة المحكمة الصنع ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧] .
وفى إتقان هذا الصنع دعوة للتأمل والتدبر﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] .
وهى مصدر الماء والرزق ، انظر إلى قوله تعالى :
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ...﴾ [الزمر : ٢١]
وهكذا كانت السماء عالما حافلا بكل ما يتصوره العقل أو لا يتصوره .

ولعل كثرة إيراد هذا اللفظ في الأسلوب القرآني تشي بأهمية هذا العالم العلوي بما يحويه من عوالم كونية مبهرة . وعند إحصاء مواضع " السماء " في القرآن الكريم وجد أن هذا اللفظ ورد في صيغة المفرد " السماء " ١٢٠ مرة ، وفى صيغة الجمع " السماوات " ١٩٠ مرة .

وهذه الكثرة المبهرة تؤكد على أهمية ذلك العالم المدهش ؛ عالم السماء ، وتبرز دوره في بيان الكثير من الموضوعات والعديد من المحاور للنظر والتأمل .
وفيما يلي بيان لأهم الموضوعات والمحاور التي وظّف فيها لفظ السماء .

١- السماءُ .. خلقُها وتزيينُها :

وهى الآيات التي تتناول خلق السماء وإبداعها . وكذلك الآيات التي تبين وجه الجمال والدعوة إلى تأمله في آيات السماء وتزيينها بالكواكب والنجوم ...

وعلى سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩]

وكذلك قولُه تعالى :

﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ...﴾ [الرعد : ٢].

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥] .

أما زينةُ السماءِ فمثلُ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : ١٦] .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات : ٦]

٢- السماءُ .. مصدرُ الخير وإنزال الماء :

وهي الآيات التي وظّف فيها لفظ " السماء " لبيان نعمة إنزال الماء منها ؛ لتحيا به الأرض ومن عليها . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ .. وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ .. ﴾ [البقرة : ٢٢]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .... وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾ [البقرة : ١٦٤]

وقوله تعالى :

﴿ ...... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ .... ﴾ [الأنفال : ١١]

٣- السماءُ .. وتسخيرها للإنسان :

حيث وظّف اللفظ لبيان قضية تسخير السماء ، وما فيها لصالح الإنسان ، وتيسيرحياته . ومنه قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ... ﴾ [لقمان : ٢٠]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .... ﴾ [الجاثية : ١٣]

٤- السماء .. وسجود وتسبيح كل ما فيها لله :

وهي الآيات التي تتناول تسبيح الله ، ومنها قوله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١]

وقوله تعالى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : ٢٥] .

٥- السماء .. وتبدل حالها يوم القيامة :

وهي الآيات التي تتناول المشاهد الغيبية للسماء يوم البعث ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾
[إبراهيم : ٤٨]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]

وقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧]

٦- السماء .. وملك ووراثة الله لها :

ومنها قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٠٧]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٩]

وقوله تعالى : ﴿ لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
[المائدة :١٢٠]

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٣]

وقوله تعالى :

﴿ ... وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [الحديد : ١٠]

تلك أهم المحاور التي تم توظيف وتوصيف لفظ " السماء " أو " السماوات " فيها .. وهناك مواضع أخرى لعوالم السماء من شمس وقمر ونجوم وكواكب وغير ذلك ، يتم تناولها في هذه الدراسة فى الموضع المناسب لها[1] بمشيئة الله .. وفى سياق العرض هنا تجدر الإشارة إلى عدة نقاط ؛ لبيان منهج الدراسة والبحث فيها..

ونوجز هذه النقاط فيما يلي :

أولا : المواضع التي يشترك فيها لَفْظَا " الأرض والسماء " تدرس في فصل خاص بها في الباب الثالث .

ثانيا : أنه لسعة المادة العلمية ؛ آثر البحث لسلامة العرض اختيار بعض الآيات دون غيرها ، لتكون نموذجا للدراسة . ومسوّغ اختيارها دون غيرها ؛ أنها أدلّ وأوضح في باب الاستدلال بها والتحليل الفني لها ؛ بما يثري هذه الدراسة ، ويخدم هدفها المرجو .

ثالثا : الإشارة إلى أن آيات السماء وعوالمَها ، ليس بالضرورة أن ترد متتالية في التحليل طبقًا لترتيبها فى المصحف ، ولكنها ترد حسب المحور العام الذي تُدرَس فيه .. بمعنى أن آيات الرياح مثلا ، ترد في مبحث " الرياح " ، وآيات إيلاج الليل والنهار ، ترد في مبحث " إيلاج الليل والنهار " .. وهكذا .

---

(١) فى المبحث الأول من هذا الفصل صـ٢٤٠

المبحث الأول

خلق السماء ومافيها من عوالم أبرزها :

" الشمس والقمر والنجوم والكواكب والشهب " :

ونطاق بحثه المواضع الآتية :

١ – ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

٢– ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥].

٣– ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر ١٦ ، ١٧] .

٤– ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان : ٦١] .

٥– ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات ٦ : ١٠].

٦– ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[فصلت : ١٢].

٧- ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .
٨- ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] .
٩- ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك :٥] .
١٠ – ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .
١١- ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن ٨: ٩] .

(أ) بديع خلق السماء والإعجاز الكوني فيها :
ونطاق بحثه المواضع الآتية :

١- ﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

٢- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾
[الحج : ٦٥].

٣- ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

٤- ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] .

٥- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .

تجتمع تلك المواضع السابقة حول فكرة رئيسة واحدة ، وهى الإعجاز فى خلق هذا العنصرالكوني المبهر : " السماء" وبيان طلاقة القدرة الإلهية في خلقها ، وبالتالى فهى دلائل على وحدانية الله وتفرده بالألوهية والربوبية . ولسوف نتناولها بالتحليل موضعا بعد موضع .

*** الموضع الأول :**

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

*** العرض الموضوعى :**

حول آراء المفسرين :

تعددت آراء المفسرين حول تفسير هذه الآية ، فصاحب الكشاف يرى أن :

" ﴿ **بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ .. كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك [١] ، وقيل هى صفة لعمد ".[٢]

---

(١) أي على هذا النحو الذي يشاهدونه ، من أنها بلا أعمدة .

(٢) الكشاف للزمخشرى/مجلد ٢ /صـ ٣٤٨ صـ ٣٤٩ /ط. دار الفكر .

أما الفخر الرازى فأعطى الأولوية لهذا الرأى : "وهو أن العماد مايعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمادها هو قدرة الله تعالى " (١).

أما ابن كثير فقد ورد عنه :

" يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد ... " =

= " **بغير عمد ترونها** " أى لها عمد ولكن لاتُرى ، وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعنى بلا عمد وهذا هو اللائق بالسياق ". (٢)

وعلى هذا فإن الآية تبين عظمة قدرة الله عز وجل ، وتقدم الدلائل على القدرة المبهرة ، ومن ذلك خلق السماوات بدون أعمدة ، وتسخير الشمس والقمر كل منهما يسير فى فلكه وفى مداره حسبما تقتضى مشيئة الله ، وهذا تدبير سامٍ ومبهر من الله عز وجل ، يشهد له بالتفرد وبالألوهية ، فهو وحده يدبر جميع الأمور الظاهر منها والباطن ، وهو يفصّل لنا في البيان القرآني ، وفيما أرسل به الرسل جميع آياته الدالة ، برجاء أن نهتدي إلى وجوب الإيمان بلقائه وحسابه فهو الواحد الخلاق العظيم جلّ جلاله .

التحليل الفنى :

تبدأ سورة الرعد ببيان معجز للقدرة الإلهية المبهرة ، وأن الوحى حق ، وأن القرآن حق ، ولكن معظم الناس لايؤمنون ، يلى ذلك بيان رفيع يحمل دلالات خالدة على قدرة الله عز وجل، من خلال استعراض عدد غير قليل من آيات الله الكونية التى من شأنها أن توقظ النفوس الغافلة ، وتنبه العقول الشاردة وتحيى الضمائر الميتة .

---

(١) مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازى/مجلد ٩/صــ ١٧٩ / ط. دار الغد العربي .

(٢) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير مجلد ٢صــ ٤٩٩ ، ط مكتبة التراث الإسلامي / سوريا – حلب .

ووسيلة الأسلوب القرآنى الأولى لبيان مقصده وأهدافه ، هى اللغة التى تخاطب عقل ووجدان المتلقى ومن هنا نجد البناء الأسلوبى للآية الكريمة شديد الإحكام عظيم الدقة ، نلتمس منه بعض اللمحات على النحو التالى :

تبدأ الآية بلفظ تقشعر له القلوب الحية ، وتخضع له النفوس وهو" الله " .. بما لهذا اللفظ من جلال ودلالة على القدرة والتفرد والوحدانية ، وظلال توحى بتمام وتفرد الكمال .

فهى كلمة لاتدانيها لفظة أخرى فى هذا السياق ، لأنها بمثابة المفتاح لهذه الآية العظيمة ومابعدها من آيات دالة على الإعجاز والقدرة ، ولو تأملنا الأسلوب القرآنى بكلمة أخرى بديلة مثل" ربكم " مثلاً ؛ لاختل سياق الآية في الدلالة على الجلال ، وتهاوى كمال المعنى المطلوب ؛ لاختلاف دلالة وظلال الكلمتين في هذا السياق .

وفي ضوء ذلك نلحظ دقة التمهـيد ، وبلاغـة الربط بـين طرفي الآية "**الله الذي** "

" **الذى**" ... قيل إنها خبر ، والمبتدأ " الله " وهذا وجه . كما قيل إنها نعت " لله" وهذا وجه آخر ، وقوله تعالى : (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبر بعد خبر [(١)] .

ولاخلاف على الرأى السابق ، من جواز الأمرين ، أي إعراب " الذي " نعتا أو خبرا كما تقدم .. ولكن يبدو للبحث أن اعتبار " الذى" خبرا أولى ؛ لأنها فى هذه الحالة تتفق إعرابياً مع المضمون الدلالي والجمالى للسياق . وأقصد بذلك .. أن هذا التركيب الإسنادي " الله الذي " له دلالة القصر والحصر ، من خلال تعريف طرفي الجملة ؛ كما ذكر السيوطي(٢) . وفي ضوء ذلك تبدو دقة النظم القرآني على مستوى اختيار الكلمة.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب مجلد ٩/صـ ١٧٧/ط / دار الغد العربى

(٢) راجع الإتقان في علوم القرآن / جـ٢ / صـ ٥١ / ط . المكتبة الثقافية . بيروت .

(رفع السماوات بغير عمد ترونها ...).. وهو رفع ليس عن خفض ، بل هو أصل الخلق والإيجاد . "**رفع** " ... الرفع نقيض الخفض فى كل شيء . (١)

ولعل هذا هو سبب إيثار الأسلوب القرآنى مادة : "**رفع** "على غيرها " كخلق " مثلاً لما فى هذه المادة من دلالة على الرفعة والسمو، والاستعلاء بما يتوافق مع عظمة وسمو الفعل ، ومقدرة الفاعل .

وهو" الله " عز وجلّ ، وبما يتسق ويتناغم أيضًا من لفظ السماوات بدلالتها على الارتفاع والعلو .

" **السماوات** .." نلحظ استعمال الأسلوب القرآنى لصيغة الجمع ، الدالة على أن السماء ليست سماء واحدة ، وليست السماء الدنيا المدركة لنا فقط ؛ بل هى سبع سماوات بعضها فوق بعض مصداقاً لقوله تعالى : (الذى خلق سبع سماوات طباقاً ...) [المُلْك : ٣]

ولايخفى أن استعمال التعبير القرآنى لصيغة الجمع ، يعمق ويؤصل الإحساس بالإعجاز الكونى المبهر . فإذا ماتوقف العقل حائرًا أمام هذه القدرة الإلهية التى ترفع السماء الدنيا بلا عمد ، فما بالنا بقدرته جلّ وعلا على خلق ورفع سبع سماوات دون تفاوت أو خلل ؟! إنها لفتة إعجاز، يقف الإنسان مذهولاً أمامها ؛ عندما يحاول بعقله البشرى القاصر تفهمها ....

والملاحظ أن الأسلوب الحكيم ، قد آثر فى كل استعمالاته لجمع " السماء " لفظ "السماوات " ، وليس " السماءات " على الرغم من صحة الجمعين ؛ " بالواو" على أصلها أو بالهمزة المنقلبة عن الأصل. فهل هناك لفتة أسلوبية فى ذلك ؟

بالطبع ليس هناك شيء فى الأسلوب القرآنى وليد المصادفة . تعالى الله .. بل كل كلمة وكل حرف وجد بقدر ولحكمة جليلة، قد تتضح وقد تخفى علينا.

---

(١) لسان العرب الجزء الرابع مادة : رفع/صــ ٤٦٠ ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

وعلى مايبدو للبحث أن اللفتة الجمالية فى إيثار جمع " السماوات" على " السماءات " مايلى :

١ - جمال وانسيابية لفظ " السماوات " وتناغم حروفه ، فالواو حرف شفوى مخرجه من الشفاه ، وينطق فى سهولة ويسر ، أما الهمزة فهى حرف حلقى ، أثقل نطقاً من الواو . كما أن لفظ السماوات يتناسق صوتيا مع ماقبله ومابعده . وهذه درجة من درجات التناسق الفنى فى الأسلوب القرآنى تعتمد على تخيُّر الألفاظ ثم نظمها ، بما يقتضيه السياق .

كما أن لفظ " السماوات" هو الأكثر شيوعا على ألسنة الناس ، و الأقرب إلى أفهامهم. وكأن الله عز وجل يبين أن هذه السماوات ، هى المعروفة المدركة لدى البشر ولكنهم يمرون عليها دون تدبر وتفكر ووعي بجلال كمالها وأبعاد جمالها .

٢ - أن جمع " السماوات " ورد على أصل المادة المعجمية ؛ وهو : "السمو " بما تحمله هذه المادة من دلالة على الرفعة والاستعلاء ، وهذا يعمق مدلول لفظ "السماوات " ويدعمه ويمنح المعنى العام ، ظلالاً من العظمة والقدرة والاستعلاء الإلهى .

" **بغير عمد ترونها** " ... اختلف المفسرون وتعددت آرؤاهم حول تفسير هذا المعنى وتضمّن تفسيرهم وجهين هما :

الوجه الأول : أن السماوات مرفوعة بغير عمد إلا قدرة الله عزوجل، كما ترونها أمامكم. (١)

الوجه الثانى : أن السماوات مرفوعة بعمد غير مرئية ، والعَمَدُ جمع " عماد" وهو الإسطوانة [أى : أن العمد موجودة ولكنكم لاترونها] . (٢)

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازى/مجلد ٩/ص ١٧٩/ط / دار الغد العربي / مصر.

(٢) انظر تفسير الجلالين /للشيخ محمد كنعان صـ ٣٢٠ ط/ دار إحياء التراث الإسلامى / قطر.

وعلى الوجه الثاني ، يكون الضمير فى " ترونها " عائدا على " العمد " وهو أقرب مذكور.

وبعيدًا عن اختلاف المفسرين وتأويل السالفين ، فإننا نجد أنه من الأفضل، أن نفهم معنى هذه الكلمات من خلال سياق الآية نفسه ، وفي ضوء الآية السابقة عليها والتالية لها ، حيث تبدأ سورة الرعد بقوله تعالى: ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد:١]

فالآية السابقة تشير لآيات و معجزات الله عز وجل ، و أن ماأنزله الله حق وصدق.

ومن هذه الآيات المعجزة – بل من أعظم هذه الآيات فى بيان قدرة الله عز وجل وحكمته ودقة تدبيره – أنه رفع السماوات بلا عمد ، وهذا مخالف لقوانين المادة فى عرف البشر ، لأن كل بناء مرتفع ، وكل سقف مرفوع ، يحتاج إلى أعمدة تدعمه ولكن الأمر مختلف فى حق الذات الإلهية ، حيث القدرة مطلقة بلا حدود .

أما بالنسبة للآية التالية لها ؛ فهى أيضا تؤكد هذا المعنى وتعمِّق نفس المفهوم .. أقصد بيان إعجاز الله ، وعجيب صنعه فى خلقه للسماوات والأرض ونلمح هذا فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:٣] وفي ضوء هذا الفهم للآيات ، أجد أن اللفتة الأسلوبية والدلالية ، فى قوله تعالى :

(**بغير عمد ترونها**) تشير إلى عدم وجود أعمدة للسماء فعلا . وهذا أعمق وأدق في بيان طلاقة القدرة ، واستغنائها عن الأسباب الشائعة وغير الشائعة بين البشر في عالم الأسباب .

إن الأسلوب القرآني هنا ، يعرض هذا المشهد الكونى المدرك للجميع والذى تبصره العيون ليل نهار، يعرضه بصورة مختلفة ، صورة هدفها إيقاظ الحس المتبلد ، بل نقول على الأدق : بأنه دعوة إلى التأمل ، بقلوب واعية متدبرة ،لا بعيون تنظر نظرات خاطفة، اعتادت عليها دون أن تقف لحظة لتتأمل مطلق القدرة ، وعظيم الصنع في آيات الله المبهرة الإعجاز.

ونأنس فى ذلك يقول الأستاذ سيد قطب : " والسماوات – أيا كان مدلولها وأيا كان مايدركه الناس من لفظها فى شتى العصور– معروضة على الأنظار هائلة ولاشك ، حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة وهى هكذا لاتستند إلى شيء مرفوعة " بغير عمد " مكشوفة ترونها ". [١]

﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** .. ﴾ .. " ثم" حرف عطف يفيد التراخى ، مما يفيد حدوث الاستواء على فترة من الزمن يعلمها الله بعد رفع السماوات .

" **استوى على العرش** ".. تعددت أقوال المفسرين حول معنى الاستواء ومفهومه والمقصود به ، وقد تطرق بعضهم إلى تأويلات وتفسيرات جدلية لاداعي لذكرها. [٢]

والذى يعنينا فى هذا المقام ، البناء الفنى للأسلوب ، والمدرك الدلالي لهذا التعبير.

والاستواء في اللغة : هو الاعتدال . استوى الشيء : اعتدل . استوى الرجل : بلغ أشده . وقوله عز وجل : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) .. قيل استوى إلى السماء أى قصد ، واستوى أى استولى وظهر، وقال أحمد بن يحيى فى قوله عز وجل : (الرحمن على العرش استوى) قال الاستواء : الإقبال على الشيء ، وقال الأخفش : استوى أى علا. [٣]

---

(١) فى ظلال القرآن / مجلد /٤ ص ٢٠٤٤ / ط / دار الشروق .

(٢) انظر الكشاف/ مجلد ١/ ص ٢٧٠ / ، وكذلك انظر مفاتيح الغيب /مجلد ٧ /ص ٩٩/ ومابعدها .

(٣) راجع لسان العرب /ابن منظور/ مجلد ٥ /مادة (سوا) /صـ ٤٤٧ .

وقيل معناه : " استوى له ما في السماوات و ما في الأرض ، أى استقام الكل على مراده بتسوية الله تعالى إياه " . (١)

والمقام – كما سبق الذكر– مقام قدرة وإعجاز، في عجيب خلق ورفع السماوات ؛ لذلك كان ذكر الاستواء بعد رفع السماء أليق وأجمل ، للأداء التعبيري لما فيه من دلالة على الاستعلاء والسمو، والارتفاع فوق العرش ، بما في ذلك من إيحاء بعظمة الخالق ، وتفرد الواجد . وما في ذلك من إشارة إلى ترسيخ الاحتياج الدائم إليه .

وقد تكون هذه القدرة الإلهية – المستنبطة من الآية – هى التى دعت العلامة الرازى أن يبين أن المراد بالاستواء هو: " استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ ، يعنى أن من فوق العرش إلى ماتحت الثرى فى حفظه وفى تدبيره وفى الاحتياج إليه " (٢) .

أضف إلى ذلك ، أن الأسلوب القرآنى ، يضع المتلقي أمام صورة بديعة من التقابل ، فها هى ذي صورة السماء المرفوعة بلا عمد ، صورة حسية مدركة للعيون ، ثم بعد ذلك ينقلنا التعبير القرآنى إلى صورة غيبية ، يكل العقل ويعجز عن تخيلها ، فضلاً عن إدراكها، وهي صورة الاستواء على العرش ، وكيفية هذا الاستواء وهيئته وكينونته .. وهذا هو ما أقصده بالتقابل ؛ حيث نقلنا الأسلوب القرآنى " من هذا المنظور الهائل الذى يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار " (٣) .

وعندما نتحدث عن التسخير ، نجد الأمر يحتاج إلى عميق تأمل ، وعظيم تدبر ، لهذا الملمح الكوني المبهر ، من تسيير للشمس والقمر ، وتذليلهما ، من أجل مصلحة الإنسان.

---

(١) المفردات في غريب القرآن / الراغب الأصفهاني /صــ ٢٥٢ ط / المكتبة التوفيقية / القاهرة.

(٢) مفاتيح الغيب/مجلد ٩/صــ ١٨٠/ط / دار الغد العربي .

(٣) فى ظلال القرآن/مجلد ٤/صــ ٢٠٤٤/ط / دار الشروق .

وأسلوب القرآن بلا شك ، يوقظ الحس ويدفع النفس إلى التأمل ، وإلى تدبر طلاقة القدره الإلهية ، والاستدلال بذلك على قدرته تعالى على إفناء الخلق – مهما تعاظم – وبعثه من جديد كما سيرد فى سياق الآيات التالية :

﴿ .. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴾ .. وردت الإشارة القرآنية إلى تسخير كل من الشمس والقمر وإلى جريهما (إلى أجل مسمى) أو (لأجل مسمى) . فى أربعة مواضع في القرآن الكريم وهي :

١- فى سورة الرعد الآية (٢) والتى نحن بصدد تحليلها.

٢- فى سورة فاطر الآية (١٣) فى قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ .

٣- فى سورة الزمر (٥) فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ .

٤- فى سورة لقمان الآية (٢٩) فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

والتسخير فى اللغة هو :التذليل ، " سخّرته :أى قهرته وذللته . قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى ذللهما، والشمس والقمر مسخران : يجريان مجاريهما". (١)

وقد ورد الفعل " **سخّر** " فى القرآن الكريم ، ست عشرة مرة ؛ كلها تفيد تذليل كونيات هذه الدنيا، من أجل الإنسان وراحته ،ومن أجل إتمام رسالته فى تعمير هذا الكون ودفع حركته .

---

(١) لسان العرب /مجلد ٥/مادة (سخر) /ص ٢٠٣ / ط . دار إحياء التراث العربى / بيروت لبنان .

ونلاحظ من العرض السابق للآيات ، أن صيغة الماضى المضعّف "سخّر" ، هى المؤثّرة فى التعبير القرآنى ؛ فلم ترد فى المواضع الستة عشر إلا بهذه الصورة المطّرِدة ، بما تحمل من دلالة أسلوبية على المبالغة في الفعل ، وثبات حدوثه .

فهذه الصيغة الماضية ، المشددة العين، تؤدي المعنى المقصود ، بحيث لاتؤديها غيرها من الصيغ في هذا الموضع ، كالمضارع مثلا . فالأمر فيه مختلف لأنه إن جاز استعماله ، فالماضى أبلغ ، وأكثر إعجازًا ؛ لأن به دلالة على تحقق الحدث وثبوته . وكذلك ديمومته ، فالله عز وجل منذ أوجد الكون سخّر الشمس والقمر، ومازال التسخير مستمرًا إلى الآن وإلى ماشاء الله .

ومن اللفتات الواضحة فى آيات التسخيرالسابقة – أيضا– ، أن **الشمس** دائما تُذكر قبل **القمر**، ودلالة هذا واضحة ، فالمعروف أن القمر يستمد ضوءه من الشمس باعتباره جرما مضيئا بغيره ، والشمس نجم عظيم يضيء بذاته لذلك كان الأولى والأليق أن تذكر الشمس دائمًا قبل القمر ، مراعاة للأصل، وهى الأعظم والأظهر على قدرة الله تعالى ، وهذا من تمام وإحكام الأسلوب القرآنى حيث ينتقل بهذا التدرج البديع من إعجاز إلى آخر .

أما لماذا يُذكر دائما الشمس والقمر فى التسخير دون غيرهما من الأجرام السماوية فله توضيح ؛ حيث ورد عن ابن كثير: " أنه تعالى ذكرالشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم الثوابت ، فإذا كان قد سخرهذه فلأن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى ".(١)

نضيف إلى ماورد فى تفسير ابن كثير السابق ، أن اختيار الشمس والقمر فى آيات التسخير له دلالة أخرى ... وهى لفت الانتباه وإيقاظ الحس تجاه هذه الكونيات المعروفة المدركة لدى كل البشر ، تلك الكونيات التى نمر عليها دون تدبر أو وعى بها وبإحكام تدبيرها ، فهي إشارة إلى طلاقة قدرته سبحانه .

---

(١) تفسير القرآن العظيم /ابن كثير /مجلد ٢/صـ ٤٩٩/ط . مكتبة التراث الإسلامي . سوريا . حلب .

ولعل ذلك أحد أسباب إيثار الأسلوب القرآنى لتلك المفردات الكونية ، دون غيرها من الأجرام والكواكب.

وتطل علاقة المطابقة بين أجزاء الآية ، من خلال ذلك التقابل المعنوى فى صدر الآية بين رفع السماوات والاستواء ، وبين التسخير والتذليل للشمس والقمر فى عجز الآية.

وهذا ماعبر عنه الأستاذ سيد قطب بقوله : " ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير ، تسخير الشمس والقمر ، تسخير العلو المنظور للناس على مافيه من عظمة آخاذة ،أخذت بألبابهم فى اللمسة الأولى ثم إذا هى مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال ... وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان فى الجنس : نجم وكوكب ويتقابلان فى الأوان بالليل والنهار ". (١)

﴿ **كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى...** ﴾ من أقوال المفسرين فيه :

ورد عن الرازى فى تفسير هذا الجزء قولان :

* الأول : أن الله تعالى قدّر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء .. " .
* الثانى : أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة ، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات " . (٢)

وورد فى القرطبى : " **كل يجرى لأجل مسمى** " أى : إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التى عندها تكور الشمس ، ويُخسف القمر ، وتتكدر النجوم ، وتنتشر الكواكب ". (٣)

---

(١) فى ظلال القرآن/ مجلد ٤ / صـ ٢٠٤٥ /ط . دار الشروق.

(٢) مفاتيح الغيب/ مجلد ٩ / صـ١٨١/ ط .دار الغد العربي .

(٣)الجامع لأحكام القرآن / للقرطبى / مجلد ٥ / صـ ٣٦١٤ / ط .دار الغد العربي .

وجاء عن ابن كثير : " قيل إنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة كقوله تعالى : (**والشمس تجرى لمستقر لها**) ". [١]

وقد جمع الأستاذ سيد قطب خلاصة ماأورده المفسرون لتفسير تلك الجزئية فى العبارة التالية : " **كل يجرى لأجل مسمى** .. إلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية أوجريانهما في مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه فى جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور" . [٢]

ويتضح من التفسيرات السابقة ، أن العلماء قد فسروا " لأجل مسمى " بكل التفسيرات الممكنة لهذا السياق ، فالأجل المسمى قد يكون قيام الساعة ، أو قد يكون جريان الشمس والقمر في فلكيهما ؛ لانتظام حركة الكون . وهكذا ... ويتضح جمال التعبير فى استعمال الأسلوب القرآنى للفظ " كل " بدلاً من " كلاهما" مثلاً ، حيث إن المقصود كل من الشمس والقمر . فلفظ " كل " أجمل إيقاعًا وأليق فى موضعه.

ومما زاد هذا المعنى تشويقًا وإبهامًا ، استعمال صيغ النكرة فى " أجل" و" مسمى " فالأجل المسمى غير معروف ، وغير محدد لذلك كان الأدق للسياق استعمال صيغة النكرة دون غيرها ، وهذا على اعتبار أن الأجل المسمى قيام الساعة .

﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ .. ذكرنا فى بداية تحليل هذه الآية أن المقام فيها ؛ مقام إثبات وبيان لقدرة الله الواحد الخالق، وبيان لحسن تدبيره ، ودقة إحكامه وهذا البيان والتوضيح ضرورى لمن ينكرون البعث والحساب ، فالخالق الذى أوجد هذه الكونيات من عدم وسخرها للإنسان ؛ لابد له القدرة على البعث والإحياء مرة أخرى .

---

(١) تفسير القرآن العظيم /ابن كثير / مجلد ٢ / صـ ٤٩٩/ ط . مكتبة التراث الإسلامي . سوريا . حلب .

(٢) فى ظلال القرآن / مجلد ٤ / صـ ٢٠٤٥ / ط . دار الشروق .

ولذلك نجد عجز الآية تعقيبًا حكيمًا لصدرها ، حيث بدأت ببيان لبعض وجوه الإعجاز والقدرة فى قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ..** ﴾ وانتهت بقوله تعالى: ﴿ **لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ وهذا من تمام المعنى وكمال الجمال ، فإيجاد هذه العوالم الكونية لابد له من يد مدبرة حكيمة ، لابد لها من خالق موجد دائم لايغفل ولاينام ، ديمومة واستمرارية لاتتحقق إلا للذات الإلهية ، ولذلك نجد أن التعبير القرآنى ، قد آثر استعمال المضارع فى الفعلين (يدبّر – يفصّل) لأن المدد الإلهى والقدرة الربانية لاتنقطع بل دائمة متصلة إلى ماشاء الله .

﴿ .. **لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ..** ﴾ .. لفظ " **لعل** " فيه دلالة على أنه بالرغم من وجود هذه الدلائل، فهناك من يظل على كفره وعناده ، وهذه طبيعة بعض البشر فإن الإنسان ظلوم كفار.

ثم نلحظ أن الأسلوب القرآنى ، قد آثر لفظ " ربكم " فى عجز الآية على الرغم من استعمال لفظ " الله " فى صدر الآية ، وهى لفتة أسلوبية بليغة لها مضمون حكيم . ففى بداية الآية – كما سبق القول – بيان لقدرة الله تعالى وإعجازه ؛ لذلك كان الأدق والأجمل للأسلوب استعمال لفظ " الله " ، بكل المخزون العقلى والوجدانى لهذا اللفظ عند المتلقى .

بينما فى عجز الآية – وبعد ومضات القدرة والتسخير والاستعلاء – نجد لفظ "ربكم " ، بما له من ظلال الرحمة والاحتواء والربوبية ، بل والملجأ والمرجعية وحسن التدبير الذى يقتضى عودة البشر إلى الخالق بعد الحياة الدنيا؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم .

لفتات أسلوبية حول الآية :

١- **الأفعال :** عند تحليل الآية نلحظ مايلى :

(أ) أن الأفعال التى وردت فى صدر الآية – ماعدا ترونها – وجميعها فى سياق القدرة والاستعلاء كلها بصيغة الماضى، وهى على التوالى : **(رفع – استوى – سخر) .**

ويبدو للبحث أن إيثار صيغة الماضى دون غيرها لها دلالة ؛ حيث إن هذه الصيغة تمنح الأسلوب الثبات والتحقق والاستمرارية ، فالماضى هنا مستمر فرفع السماء تم منذ الأزل ومستمر إلى ماشاء الله ، وكذلك الاستواء على العرش ، وأيضا تسخير الشمس والقمر كلها أشياء تمت فى الماضى، ومستمرة حتى الآن، وإلى ماشاء الله . لذلك كان الأدق للأسلوب استعمال صيغة الماضى لتأصيل وتعميق مفهوم طلاقة القدرة لدى المتلقى ، فالفعل الماضى دائمًا يمنح الإنسان الإحساس باليقين لحدوثه بالفعل .

(ب) الأفعال التى وردت فى عجز الآية كلها مضارعة وهى على التوالى :

(يجرى – يدبر – يفصّل – توقنون) ولايخفى الحكمة هنا من استعمال صيغة المضارع ، وإيثارها على غيرها ، لما في ذلك من استحضار للصورة ، وتعميق استمراريتها. فالفعل " **يجرى** " أفضل من غيره في توضيح حركة الشمس والقمر المتكررة المتجددة .

تلك الحركة التى يترتب عليها تعمير الكون وتحقق مصالح العباد ، وكذلك الفعلين :

" **يدبّر** " ، " **يفصّل** " ؛ فهى أفعال فى حق الذات الإلهية . والتدبير صفة مستمرة لاتنقطع ولاتمتنع ؛ فالكون كله قائم على هذا التدبير الإلهى الحكيم ، ولعل إيثار صيغ الأفعال المضعّفة العين ، بدلالتها على المبالغة ؛ قد ساهم مساهمة عظيمة في إبراز هذا المعنى .

وللفعل " **يفصّل** " دلالة خاصة ، فالله عز وجل بيّن بصورة متوالية متتابعة ، آيات قدرته وحكمته ، وذلك التفصيل جاء مُنجّما ، فى كتابه العزيز كله بحيث ترد كل آية فى حينها ولغاية وعلة ، لعل الناس يؤمنون ، ونستأنس فى ذلك بكلمة الأستاذ سيد قطب : " إنه يفصل الآيات وينظمها وينسقها ويعرض كلا منها فى حينه ولعلته وغايته ". (١)

أما " **توقنون** " فدلالة المضارع فيها للاستقبال أى أنه عندما تطلعون على آيات الله وتفهمونها ؛ فسوف توقنون بالبعث والحساب ؛ لذلك لايصلح التعبير عن ذلك إلا بصيغة المضارع .

ومن تمام الجمال والتناغم بين أجزاء الآية ، مراعاة الأسلوب القرآنى للتوازن بين صدر الآية وعجزها ، فليس مصادفة أن نجد أربعة أفعال فى صدر الآية ، ونجد نفس العدد فى عجزها ، فسبحان الله العظيم .

٢- استعمال حروف العطف :

نوع الأسلوب القرآنى فى هذه الآية بين أداتين من أدوات العطف هما (ثم – الواو) حيث عطف الاستواء على رفع السماء بـ " ثم " وهى تفيد الترتيب والتراخى ، ولايشترك مابعدها بما قبلها، إلا أنها تبين الآخر من الأول (٢) ، ثم عطف التسخير على الاستواء بـ (الواو) بدلالتها على التتابع حيث أن الاستواء على العرش، كان سابقاً لتسخير الشمس والقمر فالعطف هنا عطف على سابق .

ثم نلحظ تتابُع الفعلين " **يدبّر** ، **يفصّل** " مباشرة دون استعمال أداة عطف بينهما ، وذلك ملمح جمالى راق ، يحدث اتزانـا بين أجزاء الآية ويرقى بالأسلوب . ولنتأمل المعنى والسياق لو وضعنا أداة عطف بين الجملتين " يدبر الأمر ويفصل الآيات " نلاحظ اختلال التوازن الموسيقى فى الآية . وركاكة واضحة فى الأسلوب .

---

(١) فى ظلال القرآن/ مجلد ٤ / صـ ٢٠٤٥/ ط / دار الشروق

(٢) لسان العرب /مجلد ٢ / صـ ١٣٢ / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

٣- الإفراد والجمع :

آثر الأسلوب القرآني استعمال " الأمر " مفردًا ، " والآيات " جمعًا في قوله تعالى : ﴿ .. يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ... ﴾ ، قال الإمام الرازى فى قوله تعالى: " **يدبر الأمر** " وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم ، والأولى حمله على الكل ... " (١) .

والذى يعنينا من قول الرازى : " والأولى حمله على الكل " أى أن التدبير ليس مقصورًا على أمر واحد ، أو نوع معين من أحوال العالم ، بل المعنى الأصيل أن التدبير يشمل كل أمور هذا الكون ، وقد يكون التعبير القرآنى آثر الإفراد على الجمع ؛ لأنه بدهى أن الله هو وحده الذى يدبر أمور هذا الكون من كل جوانبه ، لذلك جاء الأسلوب على سبيل المجاز فأطلق الجزء وأراد الكل .

ولفظ التدبير نفسه يدل على الإحكام والتكثيف ؛ فيناسبه الإفراد وعدم التشتيت والتنويع – والله أعلم – كما أن تدبير الكون أمر خاص بالذات الإلهية الواحدة المنفردة ؛ لذلك كان الإفراد أليق. ولكن الأمرَ مغايرٌ لهذا فى قوله تعالى : " يفصل الآيات " فالآيات الكونية كثيرة لاتحصى ، لذلك فهى تحتاج إلى تفصيل وتنسيق وتنويع ، وخصوصا أن الله عز وجل يبين هذه الآيات للناس لعلهم يؤمنون ويوقنون ، إذن فالمقام مقام بيان وتوجيه وإقناع لذلك كان الأدق استعمال الجمع الذى يؤصل لدى المتلقى كثرة نعم الله عليه وفضله ، كما يعمّق وجوه الإعجاز الكونىالمبهرة التى يمر عليها الإنسان؛ وهو غافل جاحد لفضل الله .

---

(١) مفاتيح الغيب/ مجلد ٩ / صـ ١٨١ / ط / دار الغد العربي .

تعقـــيب :

لم أستطع أن أفرغ من هذه الآية الكريمة ، وانتقل إلى موضع آخر دون التعرض لمقال الدكتور" زغلول النجار" حول التفسير الكونى العلمى لتسخير الشمس والقمر ومظاهر هذا التسخير ، لذلك حاولت أن أختار الجزء المناسب للدراسة من هذا المقال، الذى نشر فى جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢ .

الدلالة العلمية للنص الكريم :

من معانى تسخير كل من الشمس والقمر، ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون واستقامة الحياة على الأرض . ومن معانى أن كلا منهما يجرى "إلى أجل مسمى " أن الكون ليس بأزلى ولاأبدى ، بل كانت له فى الأصل بداية تحاول العلوم المكتسبة تحديدها ، وكل ماله بداية لابد وأن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية لها من الشواهد الحسية فى كل من الشمس والقمر ما يؤكد على حتميتها .

أولاً : من جوانب تسخير الشمس :

١- الاتزان الدقيق بين تجاذب مكونات الشمس وتمددها :

الشمس عبارة عن قرن نووى كونى عملاق عمره أكثر من عشرة بلايين من السنين يرتفع الضغط فى داخله إلى مايساوى أربعمائة مليار ضغط جوى وبذلك تبدأ عملية الاندماج النووى بين نوى ذرات الأيدروجين منتجة نوى ذرات الهيليوم وتنطلق الطاقة التى ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى أكثر من ١٥ مليون درجة مطلقة تتناقص بالتدريج إلى حوالى ستة آلاف درجة مطلقة عند سطحها وإن تجاوزت المليون درجة فى ألسنة اللهب المندفعة من داخلها .

والشمس عبارة عن خليط ملتهب من غازى الإيدروجين والهيليوم بنسبة حجمية تقدر بحوالى ١:٤ وهى نفس النسبة المطلوبة لاتحاد أربع من نوى ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض ، لتكوين نواة ذرة هيليوم واحدة وتنطلق الطاقة .

والشمس تحول فى كل ثانية من عمرها الحالى حوالى ٦٥٥ مليون طن من الإيدروجين إلى حوالى ٦٥٠ طن من الهيليوم ، ويتحول الفرق بين الكتلتين إلى طاقة تمثل الطاقة المنبعثة من الشمس فى كل ثانية من وجودها .

ونظرا للجاذبية الرهيبة التى تحدثها كتلة الشمس الهائلة على مكوناتها فإنها تتجاذب كلها فى اتجاه المركز تجاذبا تنتج عنه ضغوط هائلة ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى المستوى الذى يسمح ببدء واستمرار عملية الاندماج النووى فيه .

ونظرا للتوازن الدقيق بين جاذبية الشمس لمكوناتها فى اتجاه مركزها ، ودفع تلك المكونات بعيدا عن المركز بواسطة القوى الناتجة عن عدد الغازات المكونة لها بفعل الحرارة الفائقة فى مركزها ، فقد بقيت الشمس مستمرة فى الوجود تحت هذا التوازن العجيب على مدى عشرة بلايين من السنين ، وإلى أن يرث الله الكون ومن فيه ، ولولا هذا التوازن لانفجرت الشمس كقنبلة نووية عملاقة ، أو لانهارت على ذاتها تحت ضغط جاذبيتها .

٢- <u>تسخير طاقة الشمس من أجل ضبط حركة الحياة على الأرض</u> :

تطلق الشمس من مختلف صور الطاقة مايقدر بحوالى خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان فى كل ثانية من ثوانى عمرها ويصل إلى الأرض من هذا الكم الهائل من الطاقة حوالى الواحد فى الألف ، وبدون هذه الطاقة الشمسية تستحيل الحياة على كوكبنا؛ لأن كلاً من النبات والحيوان والإنسان يعتمد فى وجوده - بعد إرادة الله - على قدر الطاقة الذى يصله من آشعة الشمس : فتصريف الرياح وإرسال السحاب وإنزال المطر ، وبقية دورة الماء حول الأرض ومايصاحب ذلك من تسوية وتمهيد لسطح الأرض وغير ذلك من عمليات وظواهر؛ تحركها طاقة الشمس بإرادة الله تعالى.

٣- تحديد الزمن :

يتحدد كل من الليل والنهار، ويوم الأرض وشهورها ، وفصولها وسنينها، بدورة الأرض حول محورها ، أو بسبحها فى مدارها حول الشمس وبذلك يستطيع الإنسان إدراك الزمن وتحديد الأوقات .

ثانيًا : من جوانب تسخير القمر :

١- تحديد الشهر القمرى بدورة القمر حول الأرض :

يدور القمر حول الأرض فى مدار شبه دائرى يقدر طوله بحوالى ٢,٤ مليون كيلو متر، بسرعة متوسطة تقدر بحوالى كيلو متر واحد فى الثانية ليتم دورته الاقترانية حول الأرض فى حوالى ٢٩,٥ يوم من أيام الأرض ، هى الشهر الاقترانى القمرى للأرض .

٢- إضاءة سطح الأرض بمجرد غياب الشمس :

سطح القمر معتم تمامًا ، وعلى الرغم من ذلك فإن الله تعالى قد أعطاه القدرة على عكس ماقيمته ٧,٣ من أشعة الشمس الساقطة عليه ، وبذلك ينير سماء الأرض بمجرد غياب الشمس .

(هذا الجزء – بتصرف من مقال الدكتور زغلول النجار السابق ذكره ومن أراد المزيد فليرجع إلى المقال الأصلى بجريدة الأهرام المصرية) .[١]

---

(١) الأهرام المصرية / بتاريخ / ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢

الموضع الثاني :

يلى الموضع السابق من سورة الرعد ، عدة مواضع تتناول الإعجاز والإبداع الكونى لخلق السماء ؛ فهى تعرض بعضا من ملامح الإعجاز والإبهار الكونى ، ومنها الآية [٦٥] من سورة الحج يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

تناولت سورة الحج العديد من الآيات الكونية ، التى تبرهن وتدلل على صدق القرآن ، وصدق محمد "صلى الله عليه وسلم " ومن تلك الآيات :

١- خلق الإنسان من تراب ، وبيان تفصيلى لمراحل خلق الجنين. نجد هذا فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء.. ﴾ [الحج : ٥]

٢- إنبات الأرض بعد سقوط المطر، ونزول الماء عليها ، نجد ذلك فى الآية السابقة نفسها ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

٣- سجود من فى السماوات والأرض والقمر والنجوم والجبال الآية [١٨] من السورة نفسها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ﴾

٤- إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل الآية (٦١) في قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

٥- تسخير الفلك والبحار الآية (٦٥) في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

٦- إمساك السماء أن تسقط على الأرض كما فى الآية (٦٥) فى قوله تعالى :
﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

العرض الموضوعى :

تبين هذه الآية قدرة الله عز وجل ، وتسخيره لهذا الكون أرضًا وسماء وتسخيره للبحر، وإمساكه للسماء .

من أقوال المفسرين :

ورد عن ابن كثير: " ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ... أى لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ". [١]
كما ورد فى الجلالين: " من أن أو لئلا تقع على الأرض إلا بإذنه فتهلكوا ". [٢]

التحليــل الفنــى :

عند تحليل هذه الآية من سورة الحج ، نلحظ أن صدرها بدأ باستفهام " ألم .." ، وهو استفهام تقريرى ، من شأنه لفت ذهن المتلقى إلى مايليه ؛ وهو قدرة الله عز وجل على تسخير وتذليل هذه الأرض ، بــكل مافيها من كونيات ومنها تسخير للفلك ويتضمن ذلك تسخير المياه التى تحملها ، والرياح التى تحركها .

وإذا كان صدر الآية الكريمة يتناول ويتعرض للإعجاز الإلهى فى الأرض ومفرداتها فإن التوازن فى الأسلوب القرآنى ؛ يظهر من خلال بيان الإعجاز الكونى المبهر فى السماء وعوالمها فى عجز الآية مما يؤكد ويدلل على أن القرآن معجز لغة وفنا وأسلوبا. فليس من قبيل المصادفة أن نجد صدر الآية، مبرزًا لقدرة الله وإعجازه فى الأرض وتسخير كونياتها ، ثم نجد عجز الآية يتناول الإعجاز الكونى فى السماء ومابها من عوالم نعلمها أو لانعلمها .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير / مجلد ٣/ ص٢٣٣ / ط / مكتبة التراث الإسلامي / سوريا .
(٢) تفسير الجلالين/ صـــ ٤٤٣ / ط / المكتب الإسلامي / بيروت.

وعند الانتقال إلى البناء الأسلوبى لعجز الآية فى قوله تعالى : ﴿ .... وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ نجد أنها تصدّرت بحرف العطف الواو حيث يعطف هذه الجملة على ماقبلها ؛ لدلالته الفنية الخاصة بالسياق ، فهو بيان لتعدد نعم الله عز وجل على عباده . فإمساك السماء أن تقع على الأرض ، نوع آخر من التسخير، بما فيه من إنعام على البشر ، يتناسب مع السياق العام لآيات التّعدد النّعمي في سورة الحج .

وقد أوضح البيان القرآنى هذا التعدد النعمى ، من خلال استخدامه لصيغة المضارع فى الفعل " يمسك " تلك الصيغة التى تفيد تجدد هذه النعمة، واستمرارها إلى أن تقوم الساعة بإذنه .

وقد يُظن أن صيغة الماضى " أمسك " أليق للسياق ؛ لدلالتها على التمكن والقدرة وهذا أكمل فى حق الذات الإلهية . والحقيقة أن دقة وجمال التعبير القرآنىعدلت عن استعمال صيغة الماضى ، وآثرت المضارع عليها. والنظرة المدققة المتأنية تدرك أن إيثار صيغة " يمسك " هي الأدق للسياق لدلالتها على القدرة المطلقة ، والتمكن المتجدد ، ورعاية شئون العباد فى كل لحظة . ولعل ذلك ما دعا الإمام الألوسى إلى القول بأن : " التعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار التجددى أى يمسكها آنا فآنا من الوقوع ". (١)

ولكن ما وجه الإعجاز فى إمساك السماء ؟ يتضح أحد وجوه هذا الإعجاز ، من خلال افتراض تخيلي ، وهو : سقوط السماء على الأرض . والتوقف حينا لإدراك حجم الكارثة التى سوف تحيق بالبشر ، وبالحياة كلها . ومن هنا يدرك العقل قيمة هذا الإعجاز . لذلك نجد قوله تعالى فى هذا الجزء من الآية غاية فى الإعجاز، فلم يتوقف البيان المعجز عند قوله تعالى : " **ويمسك السماء** " بل كان تتمة الآية وجها من وجوه الإعجاز الأسلوبى والمعنوى. وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) روح المعانى– الألوسى / مجلد ٧/ جـ ٩/ صـ ١٨٤ / ط /دار الكتب العلمية / بيروت .

ونلحظ الإيجاز فى قوله تعالى : " **أن تقع** " ذلك المصدر المؤول الذى حذفت منه أداة النفى وهى مفهومة من السياق ، وقد قدّرها المفسرون بـــ " لا " أى أن لاتقع على الأرض . وهذا ماورد فى" صفوة التفاسير : " ..أى ويمسك بقدرته السماء كى لاتقع على الأرض" (١) .

وأخيرا ذلك التأكيد المبهر- على إعجاز الله فى خلق السماء ، وإمساكها لئلا تقع على الأرض - بوسيلة القصربالنفى المحذوف والاستثناء المذكور فى قوله :" **إلا بإذنه** ". ولايفوتنا أن نتوقف أمام قوله تعالى : " بإذنه " ذلك اللفظ الذى يلقى ظلال الهيمنة والقدسية والرحمة على الآية الكريمة . ففيه دلالة بالغة على عظمة الله سبحانه وليست العظمة أو الهيمنة فقط ؛ بل الرحمة بالعباد أيضا ، رحمته فى إمساك السماء ؛ لحماية العباد وتيسير مصالحهم . ونلمح آثار هذه الرحمة فى ذلك التذييل المؤكد ﴿ .. **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ففيه توكيد عظيم على رحمة الله ، ورأفته بعباده . ولأهمية تلك اللفتة ؛ آثر الأسلوب القرآني استعمال مؤكدين هما : " إن واللام " لتعميق هذا التوكيد فى نفوس العباد ، وبيان أن الله عز وجل شديد الرأفة والرحمة بعباده ، كما أنه عظيم القدرة والسطوة .

وقد سبقت الإشارة فى بداية تحليل هذه الآية الكريمة أنها تقوم على التوازن الأسلوبى والفنى والمعنوى ، والتناسق بين صدرها وعجزها ، وأجد أن لذكر رحمة الله عز وجل فى ذيل الآية ، وبيان جبروته وسطوته وعظمته في ثناياها ؛ ظلالاً لهذا التوازن . فكما أن الله قادر مسيطر، فهو جلّ شأنه (لرؤوف رحيم) .

---

(١) صفوة التفاسير ، الصابونى/ الجزء ٩ / صـــ ٢٩٨ / ط / دار الرشيد – سوريا – حلب.

* الدلالة العلمية للنص القرآنى :

قدم الدكتور زغلول النجار تفسيرا علميا كونيا لتلك الآية ألتى بصدد البحث وهى : ﴿ .... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴾ [٦٥ : الحج] ونورد هنا جزءا من هذا التفسير العلمى بإيجاز .

بعد مقدمة فلكية للدكتور زغلول بيَّن مايلى :

– أن العلوم المكتسبة قد تمكنت من التعرف على عدد من القوى التى تمسك بأجرام السماء على النحو التالى :

١– قوة الجاذبية : وهى أضعف القوى المعروفة على المدى القصير ، ولكن نظرًا لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السماوات والأرض بإرادة الخالق سبحانه وتعالى .....

٢– القوة النووية الشديدة : وهى القوة التى تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة فى داخل نواة الذرة والتى تعمل على التحام نوى الذرات الخفيفة مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأثقل فى عمليات الاندماج النووى .

٣– القوة الذرية الضعيفة : وتُحْمَل على جسيمات تسمى باسم " اليوزونات " وهى إما سالبة أو عديمة الشحنة ، وتربط الإلكترونات الدائرة فى فلك النواة ...

٤– القوة الكهرومغناطيسية : وتُحْمَل على هيئـــة " فوتونات " الطاقة أو مايعرف باسم " الكم الضوئى" وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التى تحمل شحنات كهربائية .

وكما تم توحيد قوتى الكهرباء والمغناطيسية فى قوة واحدة ، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة فيما يعرف باسم " القوة الكهربائية الضعيفة " وفى نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة فى قوة كبرى واحدة ، بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم " الجاذبية العظمى " التى تربط كل صور المادة فى الكون اليوم =

= والتى يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة فى درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروف لنا اليوم والتى تعتبر وجوها أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التى تشهد لله تعالى بالوحدانية المطلقة. (١)

الموضع الثالث :

* وننتقل إلى وجه آخر من وجوه إعجاز خلق السماء وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧]

* من أقوال المفسرين :

جاء فى تفسير الزمخشرى أن : " الأَيْدُ والآدُ : القوةُ ، وقد آدَ يَئِيدُ وهو أَيِّدٌ " وإنا لموسعون" لقادرون من الوسع وهى الطاقة ، وقيل: لموسعون الرزق بالمطر " . (٢)

كما ورد فى المحرر الوجيز :

" والسماء : نصب بإضمار فعل تقديره : وبنينا السماء بنيناها ، والأَيْدُ : القوة ... وقوله تعالى: "لموسعون" يحتمل أن يريد : إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة ... أو جعلناها واسعة ". (٣)

---

(١)عن مقال " من أسرار القرآن " د/ زغلول النجار . جريدة الأهرام المصرية / صـ١٢ / بتاريخ : ١٤ /٢٠٠٢/١٠

(٢) الكشاف /مجلد ٤ / صـ ٢٠ / ط / دار الفكر .

(٣) المحرر الوجيز / صـ ١٧٦٧/ ط دار الأندلس الخضراء / جدة ، دار ابن حزم للطباعة والنشر / بيروت .

العرض الموضوعي :

﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

وردت هذه الآية عقب مجـــموعة آيـــات سابقة عليها فى سورة الذاريات، وهذه الآيات (٢٤: ٤٧) تتناول الحديث عن الأمم السابقة ، وإرسال أنبياء الله إليهم وكيف أهلك الله عز وجل هذه الأمم بكفرها وجهلها، مثل ذلك الحديث عن نبى الله إبراهيم وضيفه ، وكذلك نبى الله "موسى " وجهاده مع فرعون ، ثم انتقلت الآيات إلى "عاد" قوم هود وكيف أهلكهم الله بالريح العقيم ، ثم " ثمود " قوم صالح وإهلاكهم بالصاعقة ، وكذلك قوم نوح عليه السلام .

وفى كل هذا بيان لقدرة الله عز وجل ووحدانيته ، وتأكيد على قدرته على البعث والحساب الذى ورد الحديث عنه فى بداية السورة ويتشكك فيه المكذبون ﴿ و يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الذاريات : ١٢] وهل هناك دليل على قدرة الله أعظم من خلق السماء وتمهيد الأرض ؟! ولذلك كان التعقيب بعد هذه الآيات بآية بناء السماء ، ولفت الانتباه إلى الإعجاز فى ذلك .

التحليل الفنى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

* **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا** .. ذكر لفظ " السماء " فى سورة الذاريات أربع مرات وردت جميعها بصيغة المفرد " السماء" ، وليس " السماوات " وهى كما يلى :

* ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (٧)
* ﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٢)
* ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٢٣)
* ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (٤٧)

تلك هى المواضع الأربعة . وكما سبق نلحظ أنها لزمت صيغة الإفراد فيها جميعا ، وليس هذا من باب المصادفة – حاشا لله– ولكن بلاغة النظم القرآنى اقتضت ذلك ، فالمقام فى هذه الآيات مقام توجيه إلى عظمة بناء السماء ، و بيان لقدرة الله عز وجل وإعجازه المبهر فى هذا البناء. لذلك كان التكثيف في لفت الانتباه ، إلى " السماء " ذاتها، دون جمعها. فالإفراد فيه تحديد للجهة وتركيز عليه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ.. ﴾
فالمقام فى هذه الآيات ليس مقام بيان للسعة والكثرة ، ولذلك عدل عن صيغة الجمع إلى المفرد لتحقيق الغرض المطلوب .

وقد نصبت " السماء " بفعل محذوف تقديره : "بنينا" كما ورد عن ابن عطية فى المحرر الوجيز وقد تكون من باب المفعول المقدم لبيان أهميته وقيمته الدلالية.

ونلحظ أن الأسلوب القرآنى يستعمل البناء مع السماء بصورة شبه مطردة ، حيث يرد لفظ البناء مع السماء . والفرش والمَهد والبَسط مع الأرض من ذلك .. قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : ٥]، وكذلك ﴿ ... أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧] وأيضا ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. ﴾ [غافر:٦٤] والآية التي نحن بصددها فى سورة الذاريات ، فما علة إيثار الفعل " بنى " مع لفظ السماء ؟

وفيما يبدو للبحث أن البناء بالسماء أليق ؛ لما فيه من الرفعة والسمو والعلو؛ ودلالة الإحكام . إن الله عز وجل أقسم فى بداية سورة الذاريات بالسماء ذات الحبك ، والحبك أى المتقنة الصنع والنسج ، ومن هنا نلحظ توافقًا بين هذا المعنى ، وبناء السماء ؛ لأن البناء العظيم يقوم على الإحكام والإتقان .

" بنيناها " : عندما يهدف الأسلوب القرآنى إلى إثبات الصفة ، وتمام حدوثها يؤثر صيغة الماضى على غيرها، ونلحظ ذلك من الآيات السابقة حيث يرد الفعل "بنى" بصيغة الماضى دائما، وكأنه يساهم فى بناء الصورة المحكمة المتقنة لهذا البناء فالفعل الماضى أبلغ وآكد وأعظم موقعا ، وأفخم بيانا فى هذا السياق .

ومما يزيد هذا البناء الضخم " السماء" إحكاما وإعظاما ؛ إسناد الفعل بنى لـــ " نا " العظمة التى منحت الفعل كثيرا من الفخامة وخلعت عليه ظلال الوحدانية والتفرد .

وقد جاء في لسان العرب : " أيْدٌ .. الأيْدُ والآدُ جميعا : القوة "(١) . كما ورد في مادة " يدي " ، أن " الأيد "جمع "يد" وهي: الكف .(٢)

وقد ذكر الإمام الرازى أن المقصود بها " القوة "(٣) استنادا إلى قوله تعالى: ﴿.. ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] .

ولايوجد خلاف بين المعنى المعجمى ، بأن تكون " الأيد " جمع يد ، وبين ماأورده الرازى ؛ فاليد دائما رمز للعطاء والقوة وعلى مايبدو للبحث – والله أعلم – أن سياق الآية التى نحن بصددها يتطلب المعنيين معا " العطاء والقوة " ، وإن جاز القول فلنسميه عطاء القادر ، فبناء السماء هبة وعطية من الله عز وجل لعباده وبناء السماء كذلك فيه قوة وإعجاز، وبيان لطلاقة قدرة الله تعالى ، ودلالة على تفرده بالألوهية والوحدانية المطلقة ، ومما يعمق هذا المعنى إيثار النظم البليغ لصيغة النكرة في لفظ " أيْد " ، مما يوحى بعظمة هذه القوة وإجلال شأنها .

و لعلني لا أرى سببا آخر لتنكير لفظ " أيد " فى الآية الكريمة إلا ماسبق فهى تعمّق الإحساس بهول وعجيب هذه القوة ، وعظمتها وقدرتها المطلقة على الخلق والبناء وخصوصا بعد ماورد فى صدر هذه السورة من إنكار للبعث ، وشك فى الجزاء لذلك جاء جواب القسم فى بداية السورة : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات:٥،٦] فالمقام إذن مقام إثبات وبيان لتلك القدرة المعجزة فى عطائها، وفى إيجادها، وخلقها لكل مافى هذا الكون.

---

(١) راجع لسان العرب / مادة " أيد" / جـــ١/ صـــ ٢٨٦ / ط/ دار إحياء التراث العربي .

(٢) انظر لسان العرب/ مادة " يدي " / ج١٠/ صـــ ٨٠٩ / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

(٣) التفسير الكبير/ الرازي/ جـــ ١٤/ صـــ ٥٣٥/ ط . دار الغد العربي .

وللإمام الرازى رأى حول استعمال لفظ " أيد" فى صيغة النكرة يقول فيه :
" لم يقل بنيناها بأيدينا وقال (مما عملت أيدينا) نقول : لفائدة جليلة وهى أن السماء لايخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير الله ، والأنعام ليست كذلك فقال هناك (مما عملت أيدينا)[يس: ١٧] تصريحا بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك (خلقت بيدى) [ص:٧٥] وفى السماء (بأيد) من غير إضافة للاستغناء عنها ". (١)

ومع كامل التقدير لرأى الشيخ الجليل ؛ إلا أنى لا أجد مبررا لتفسيره السابق وأرى فيه تزيدا على المقصود من الآية . فجميع خلقه من السماء والأنعام وغيرها له سبحانه ، ولايتوهم أحد أنها غير ذلك . ومع ذلك ورد لفظ " أيد " بالتعريف والتنكير .

" **وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** "... أسلوب مؤكد ؛ شديد التأكيد على قدرة الله عز وجل . مما يعضد ما ورد سابقا من تفسير الأيد بالقدرة . وقد آثر الأسلوب القرآنى استعمال أكثر من مؤكد لتعميق الإحساس بهذه القدرة المبهرة حيث استعمل " إنّ واللام" في قوله تعالى : (**وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**).. مما يرسخ فى النفوس أن قدرة الله ليس لها حدود ، فالله قادر على الخلق والإيجاد وليس ذلك فحسب بل إن هذا الخلق فى سعة وامتداد وازدياد .

والأمر اللافت للنظر ذلك التناسق العجيب بين صدر الآية وعجزها ، وكذلك صدر الآية التالية لها وعجزها وتوضيح ذلك فيما يلى :
" والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون، والأرض فرشناها فنعم الماهدون " .. حيث آثر الأسلوب السعة والبناء مع السماء وهذا أليق وأنسب ، لأن البناء يتطلب السعة بينما الأرض تحتاج الفرش والتمهيد لتكون صالحة للحياة .

---

(١) التفسير الكبير / مجلد ١٤ صـــ٥٣٥/ ط . دار الغد العربي .

ولا يفوتنا الإشارة إلى ذلك التناغم الصوتي العجيب بما له من أثر عظيم في موسيقا الآيتين السابقتين ، ومصدره ما يلي :

أولاً : صوت السين في " السماء" ، ثم تكراره في " لموسعون " .

ثانيا : صوت " الضاد " في " الأرض ، " وحرف " الدال " في الماهدون .

ولانستطيع في النهاية أن نغفل تلك الصياغة الرفيعة لكلمة " موسعون " حيث آثر الأسلوب استعمال صيغة اسم الفاعل ، بما لها من دلالة على الثبوت والاستمرار؛ أي الاستمرار في اتساع الكون منذ نشأته وإلى أن يشاء الله تعالى . وكل هذا يخدم ويؤصّل المعنى الذى تمت الإشارة إليه من قبل ؛ وهو بيان لإعجاز الله في هذا الكون ، ولفت العقول وشحن القلوب ، لتتملى هذه القدرة المبهرة وتكون هاديا لها إلى الوحدانية والإيمان .

* حول التفسير العلمي الكوني للآية :

يؤكد الدكتور زغلول النجار أن هذه الآية ﴿ **وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، تصف حقيقة كونية علمية بدقة بالغة ، تؤكد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، وهي حقيقة اتساع الكون واستمرارية هذا الاتساع طبقا لنظرية تسمى " نظرية الانفجار العظيم " أو The big bang theory (١)

" هذه أكثر النظريات قبولاً الآن عن نشأة الكون ، ومما يدعمها اتساع الكون الآن ومما يدعمها كذلك درجة الحرارة الثابتة على أطراف الجزء المدرك من الكون والتوزيع الحالي للعناصر المختلفة في صفحة الجزء المدرك من الكون وتصوير الدخان الكوني على أطراف هذا الجزء المدرَك . والقرآن يصف هذه الحقيقة =

(١) انظر كتاب " من آيات الإعجاز العلمي في القرآن " / د. زغلول النجار/ جـ ١ صـ ٤٢/ ط . مكتبة الشروق .

=بقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

والرتق فى اللغة عكس الفتق ، فالرتق هو الجمع والضم والتكديس ، وهو وصف دقيق للحالة التى كان عليها الكون فى الجرم الابتدائى الذى سبق عملية الانفجار العظيم أو هو عملية الرجوع بالاتساع إلى الوراء مع الزمن ، مرحلة الرتق .

والفتق هو الانفجار والانتشار والانفصال ، مرحلة الفتق ومايتبعها من توسع للكون .

هذه النظرية : نظرية الانفجار الكونى العظيم ، التى لايستطيع العلم التجريبى أن يصعد بها إلى مقام الحقيقة ، تبقى عند حد النظرية ، ولكن ورود إشارة لها فى كتاب الله قبل ألف وأربعمائة سنة يعطى هذا السبق للقرآن الكريم ويعطى هذه النظرية من الدعم مايرتقى بها إلى مقام الحقيقة ....." (١)

<u>الموضع الرابع :</u>

ثم ننتقل إلى موضع آخر من آى القرآن الكريم التى تتناول إعجاز خلق السماء ، وهو قوله تعالى في سورة الملك :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [٣:٤]

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٢

* من أقوال المفسرين :

جاء فى البحر المحيط فى تفسير هذه الآية : " والتفاوت : تجاوز الحد الذى يجب له زيادة أو نقصان ، والخطاب فى " ترى " لكل مخاطب أو للرسول عليه السلام . ولما أخبر تعالىأنه لاتفاوت فى خلقه أمر بترديد البصر فى الخلق فقال " فارجع البصر" ففى الفاء معنى التسبب والمعنى أن العيان يطابق الخبر . الفطور : الشقوق ، يقال فطر ناب البعير أى شق اللحم وظهر ....." . (١)

العرض الموضوعي :

عند تدبر هذه الآيات السابقة ؛ يتبين لنا أنها تتدرج فى منظومة القدرة الإلهية ، وتخضع لهذه السيطرة الكونية المبهرة . فسورة الملك تبدأ ببيان قدرة الله عز وجل وإعجازه الباهر فى هذا الكون، نجد هذا فى فاتحة السورة ،ببراعة استهلال معجزة ، حيث يقول تعالى :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] فالملك كله والكون بمافيه ، ومن فيه بيد الله العظيم القادر ثم تتوالى آيات قدرة الله وعظمته على هذا النحو :
﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... ﴾ [الملك : ٢] ، آية أخرى من آيات قدرة الله المبهرة فهو الذى خلق الموت والحياة ؛ لأن الحياة ليست عبثا بل هي ابتلاء واختبار ، ولايخفى على إنسان حجم هذه المعجزة التى حيّرت العقول وأذابت القلوب ، فالحياة والموت ليس بالشىء اليسير إذا ماأحسنا تدبرهما .

ثم يلى تلك الآية الدالة على إعجاز الله وقدرته ، آية معجزة أخرى هى شاهد ودليل صدق على الإعجاز إلى قيام الساعة ؛ وهى خلق السماوات بهذه الصورة المبهرة فهى سبع سماوات تقوم بلا عمد متطابقة فوق بعضها لاخلل فيها ولاعيب.

---

(١) راجع البحر المحيط / مجلد ١٠/ صـ٢٢١ ، ٢٢٢/ ط / دار الفكر .
وقريب من هذا ماورد فى الكشاف /مجلد ٤/ صـ ١٣٤ ، ١٣٥/ ط / دار الفكر . وكذلك مفاتيح الغيب مجلد ١٥ صـ ٦١٠ ، ٦١١/ ط/ دار الغد العربي .

وإذا حاول الإنسان تدبرها وتبين مواضع الخلل فيها فلن يجد بل يرتد بصره كليلا ، فى حالة من الإعياء من طول النظر والتأمل ومعاودته دون جدوى . ودون أن ينال مايريد فهل هناك إعجاز بعد هذا ؟

*** <u>التحليل الفنى</u> :**

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ، ﴾ [الملك :٣]

تمثل هذه الآية إعجازا كونيا مبهرا ، حيث تتعرض لخلق السماوات أهم كونيات الطبيعة ، وتبين الآية أن هذه السماوات خلقت طبقات بإحكام وإتقان إلهى معجز ، ولإبراز هذا الإعجاز جاء الأسلوب البيانى معجزا أيضًا ، مؤثرا لبعض مفردات اللغة التى تبرز هذا الإعجاز وتجسده على النحو التالى :

سبق القول بأن سياق الآيات منذ بداية السورة هو بيان لعظمة الله وقدرته وامتدادا لذلك جاءت هذه الآية الكريمة مصدّرة بالاسم الموصول " الذى " كما فى الآيات السابقة عليها :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. ﴾ ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ... ﴾ ذلك الاسم الذى يحمل كثيرا من دلالات العظمة فى ضوء المحتوى المضمونى للآية . والاسم الموصول بمفرده لايمنحنا معنى العظمة ؛ ولكنه اكتسب هذه الدلالة من السياق الذى وضع فيه ، وورد من خلاله.

فليس من باب المصادفة أن يرد لفظ " الذى" ثلاث مرات متتالية متعاقبة في الآيات (١،٢،٣) من سورة الملك ، دون أن يحمل دلالة أسلوبية خاصة .

"**خلق**" .. والخَلْقُ هو " ابتداع الشيءِ على نحو لم يسبق إليه وكل شيء خلقه الله فهو مُبْتَدعه على غير مثال سُبِق إليه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين) " [١] كما فسر" الخلق " فى كلام العرب على أنه " التقدير " كما فى قوله تعالى : (فتبارك الله أحسن الخالقين) معناه أحسن المقدرين، وكذلك قوله تعالى : (وتخلقون إفكا) ؛ أى تقدرون كذبا [٢] .

وفي ضوء ما سبق يتضح أن لمادة " خلق" المعجمية دلالتين ، الأولى : الابتداع على غير نموذج سابق . والثانية : التقدير .

وهذا هو الواقع فى صنعه عز وجل للسماء ؛ فقد خلقها على غير مثال سابق ، ولا لاحق بل متفردة فى الإعجاز والإبهار ، وهذا الخلق والابتداع ليس عبثا ؛ بل هو مقدر بحكمة ، ومحكوم بقدر ، فهن " سبع سماوات طباقا " ، وهذا هو الإبهار الأسلوبى الذى يتوافق مع الإعجاز الكونى ، فالأسلوب القرآنى لم يستبدل " خلق " بجعل مثلاً لما فى الأولى من دلالات ومعانٍ تتوافق مع البناء الأسلوبى للآية ، فمما لاشك فيه أن كلمة الخلق تناسب الإبداع والتقدير في إيجاد تلك السماوات السبع . نضيف إلى ذلك إيثار الأسلوب القرآنى لمادة "خلق" فى تصريف الفعل الماضى بدلالته على التمكن والقدرة والثبوت . وليس من باب المصادفة أن ترد نفس الصيغة " خلق " فى سورة نوح فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥]

" سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا": آثر التعبير القرآنى استعمال صيغة النكرة والجمع في لفظ " السماوات" ، لسببين : **الأول** : توافقا مع قواعد اللغة الخاصة بالعدد ، **والثاني** : لتعظيم هذه السماوات وبيان كمالها وتمامها. وإذا كان المخلوق عظيم فالخالق أعظم .

---

(١)راجع لسان العرب/ مجلد ٣/ صـ ٦٢٣ / مادة " خلق " / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

(٢)راجع لسان العرب/مجلد ٣ /صـ ٦٢٣ / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

وهى ليست سماء معجزة واحدة بل "سبع سماوات " مما يؤكد على فكرة الإعجاز، فالأمر ليس هينا ، ولم يحدث مصادفة بل هى سماوات متطابقة عظيمة فى خلقها ، كل منها مختصة بحركة مقدرة معينة إلى جهة معينة دون تعارض أو خلل .

" طباقا " : ورد فى لسان العرب أن : " السماوات الطباق سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضا ؛ أى بعضها فوق بعض وقيل : لأن بعضها مطبق على بعض ، وقبل الطباق مصدر طوبقت طباقًا ... " (١)

يتضح من الدلالة المعجمية لهذا اللفظ أنه يستخدم فى حالة التعبير عن إتقان الصنع وإحكامه ، وهذا هو عينه مناط الحديث فى الآية الكريمة ، فهى تتناول كما سبق بيان إعجاز خلق السماء وتمام وكمال صنعه . وقد نصبت "طباقًا " على المصدرية أى ؛ طوبقت طباقاً . أو لأنها نعت لـــ" سبع" المنصوبة على المفعولية .

(مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ) : .. صفة أخرى لعظيم خلق السماوات .

و ما نافية ، أى لاترى فى خلق الرحمن أى خلل . والأسلوب القرآنى قد آثر الإضافة في قوله تعالى : " خلق الرحمن" عدولا عن الضمير الظاهر في " خلقه " مثلا ؛ تعظيما لخلقهن، وبيانا وتأكيدا على سلامتهن من أى عيب أو نقيصة ؛ فهى منتسبة إلى الرحمن عز وجل .

ويستلفتنا فى هذا السياق إضافة "خلق" إلى هذا الاسم من أسماء الله الحسنى " الرحمن" دون غيره من الأسماء والصفات ؛ وذلك لما فيه من ظلال الرحمة ، واحتواء الربوبية ، فكأن الله عز وجل يريد أن يخبر عباده إنه خلقها رحمة بهم ، وتسييرا لشئونهم ومنافعهم ، فهى قدرة إلهية رحيمة ، محكمة .

---

(١) انظر لسان العرب مادة طبق/ص ١٢ /مجلد ٧ / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

(**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**) ؟ .. وعلى مايبدو أن الفاء للتعقيب ، تعقيب على قوله تعالى : " الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت " : أى ارجع البصر وعاود النظر مرة أخرى حتى تتيقن أنه ليس هناك أدنى خلل حتى ولو كان شقا بسيطا أو صدعا خفيفا .

وقد آثر الأسلوب القرآنى استعمال صيغة الإنشاء عن طريق الفعل الأمر "ارجع " مما جعل التعبير أقوى وأشد لفتا للانتباه ، وعلى نفس النهج جاء أسلوب إنشائى لاحق في قوله تعالى : " هل ترى من فطور" وهو استفهام للنفى ؛ لتعميق الإثارة الذهنية .

وكذلك هي دعوة إلى التدبر بدقة ، والخروج بالنفس والعقل من إلف العادة إلى نظرة التأمل والعبادة ، فمن يتأمل ويتدبر فى خلق السماء خاصة ، وخلق الكون عامة ؛ يجد أن الله عز وجل قد أحكم صنعه وأبدع خلقه ، ويرتد بصره حسيرا بعد هذا التحدى القرآنى العظيم .

" والفطور : جمع فطر ، وهو الشق ومنه قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) ". [١] ومعنى ذلك أن الناظر المتأمل فى خلق السماء لا يجد فيها أي شق أو صدع ؛ لأنها محكمة الصنع مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات:٧]

وبذلك نجد أن الدلالة المعجمية لكلمة " فطور" تتناسب وتتناغم مع السياق العام فى الآية من إبراز عظمة وطلاقة القدرة الإلهية . ويستمر الأسلوب القرآنى فى تحديه لعقول البشر القاصرة بكمال وتمام عظيم صنع الله فتكون الآية التالية :

﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ : ثم .. حرف عطف وهو فى هذا المقام يفيد التراخى ؛ حيث وجدت نظرة سابقة متأملة ، والتأمل يقتضى التمهل والتدبر قبل النظرة اللاحقة المرادة فى هذه الآية .

---

(١) لسان العرب / مادة " فطر" / مجلد ٨ /صـ ٢٨٥ / ط / دار إحياء التراث العربي / بيروت .

وعلى نفس النهج في الآية السابقة نلحظ أن الأسلوب القرآنى آثر التركيب الإنشائى للأمر فى قوله تعالى : " ثم ارجع البصر ..." كما آثر استعمال لفظ "البصر" على " النظر" ؛ تعميقا لإثارة العقل والنفس ، والارتفاع بهما عن نطاق المألوف ، لأن الجميع مشتركون فى رؤية السماء والنظر إليها ، ولكن الذين يبصرون ويتدبرون قليلون ؛ لذلك حرص الأسلوب القرآنى على إثارة هذا التدبر فى داخل النفس من خلال التراكيب الإنشائية بأنواعها وكذلك بإيثاره لفظا دون آخر .

" كَرَّتَيْنِ " .. أى مرتين ، وآثر التعبير القرآنى استعمال " كرّة " بدلا من "مرة " للدلالة على تكرير البصر ، ومعاودته .. حتى يتم التأمل والتدبر المطلوب ويصل الإنسان بنفسه إلى الحكم الصائب من خلال هذه المعاودة البصرية .

وعند تكرار البصر هل يصل الإنسان إلى الخلل أو العيب ؟

يأتى جواب الطلب شافيا وافيا : **(ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير)** .. أى يرتد بصرك إليك حسيرا كليلا ؛ لأنه من طول المعاودة والنظر ؛ أصابه الحسور والإعياء .

ونلحظ أن الأسلوب فى الآية قد اعتمد على أكثر من "حال" لبيان حالة البصر عند ارتداده بعد النظر . الحال الأولى : حال مفردة هى " خاسئًا " ، والحال الثانية : حال جملة اسمية وهى "وهو حسير " . ومن شأن هذه التراكيب النحوية فى هذا السياق ؛ التأكيد ، فهي تؤكد على حالة الإنسان عندما يمعن الرؤية والتدبر وكذلك فهى على الوجه الآخر تبرهن وتؤكد على إعجاز الله فى خلق السماء وخلوها من أى عيب أو نقيصة ، وإلا فلمَ ارتد البصر خاسئا ؟

ومن تمام بلاغة الأسلوب القرآنى ذلك التنوع الرائع بين صيغ المشتقات التى بينت حالة البصر عند ارتداده إلى صاحبه ، فمرة جاء الوصف باسم الفاعل "خاسئا " بدلالته على الثبوت والاستمرار في آن واحد ، مما يؤكد على ثبوت =

= البصر على حالة الفشل والخسران ، لكل من يحاول تعقب وتتبع خلق الله لهذه السماوات .

وأخرى باستخدام صيغة المبالغة " حسير" بما تحمل من دلالة عظيمة على شدة الإعياء والإجهاد والتعب ، والعودة بلا نتيجة . وكل هذا يرسّخ إشارة الآية إلى الإعجاز .

الموضع الخامس :

وتنتقل إلى موضع آخر يناقش الموضوع نفسه ؛ أى الإعجاز الكونى فى خلق السماء وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .

من أقوال المفسرين : ورد فى تفسير القرطبى مايلى :

" أى ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا فهو الذى يجب أن يعبد ، ومعنى طباقا : بعضها فوق بعض ... وجعل القمر فيهن نورا ، أى فى سماء الدنيا ... وجعل الشمس سراجا؛ يعنى مصباحا لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم " [(١)].

وجاء في البحر المحيط مايلي :

" لما نبههم نوح عليه السلام على الفكر فى أنفسهم ، وكيف انتقلوا من حال إلى حال وكانت الأنفس أقرب مايفكرون فيه منهم ، أرشدهم إلى الفكر فى العالم علوه وسفله ، وماأودع الله تعالى فيه ؛ أى فى العالم العلوى من هذين النيرين اللذين بهما قوام الوجود ".[(٢)]

---

(١) تفسير القرطبى/ المجلد ١٠/ ص٧٠٣٠ / ط : دار الغد العربي .

(٢) البحر المحيط / مجلد ١٠/ صـ ٢٨٣/ ط . دار الفكر . طبعة جديدة برعاية الشيخ عرفان حسونة .

العرض الموضوعي :

فى هاتين الآيتين السابقتين تتضح مظاهر قدرة الله تعالى ، ووجوب التوجه له بالعبادة ، فلقد كفر قوم نوح عليه السلام وأصروا على الكفر واستكبروا استكبارا ، وحاول نوح عليه السلام معهم كثيرا ولكن دون جدوى ، لذلك حاول أن يرشدهم ويدعوهم إلى بيان قدرة الله تعالى ومعجزته فى خلقهم أنفسهم وكيف انتقلوا من حال إلى حال وذلك فى قوله تعالى :﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح :١٣،١٤] .

ثم بعد ذلك انتقل نوح عليه السلام من الحوار عن النفس وتأمل خلقها إلى الآفاق .. إلى عالم كونى مُشَاهَد ، وهو السماء وعظيم خلقها ، ومابها من إعجاز كونى آخر فى خلق الشمس والقمر ، اللذين تسير بهما مصالح العباد .

التحليل الفنى :

على عادة الأسلوب القرآنى فهو دائما يتدرج عند مخاطبة العقول والنفوس ، لذلك جاء على لسان نبى الله نوح عليه السلام ، أنه عندما أراد أن ينبه قومه إلى عظمة قدرة الله تعالى وجههم إلى النظر فى أنفسهم ، وأنكر عليهم ذلك الجحود ، وقد خلقهم الله عز وجل فى أحسن تقويم ، ثم هم بعد ذلك يكفرون ولايشعرون بالوقار تجاه الخالق العظيم . وتدرج معهم نبى الله نوح ، فدعاهم بعد ذلك إلى تأمل كتاب الكون المفتوح : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦]

" ألم ".. بدأت الآية بهذا الاستفهام المنفى بدلالته على الإخبار وإنكار موقفهم المشين وهو كما يقول الإمام القرطبى : " استفهام على جهة الإخبار لا المعاينة " [(١)] كما لايخفى أن هذا الأسلوب الإنشائى يساهم فى لفت الانتباه وإثارة مشاعر التدبر والتطلع.

---

(١) تفسير القرطبي / مجلد ١٠/ صـ ٧٠٣٠/ ط. دار الغد العربي .

" تروا " .. آثر التعبير القرآنى استعمال صيغة المضارع ، ولعل ذلك لما فيه من دلالة التجدد الاستمرارية ، فهؤلاء الكفار يرون آيات الله فى كل وقت ، تراها عيونهم وتجحدها قلوبهم ، وإيثارصيغة المضارع ؛ يساعد على استحضار تلك المعجزة الكونية ، فى أى وقت إلى قيام الساعة .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .. يتشابه البناء الأسلوبى لهذه الآية مع آية سورة الملك التى سبق تحليلها فى وجوه ، ويختلف فى وجوه أخرى، مما يدحض شبهة التكرار فى آى القرآن الكريم إلا لعلة . ونعرض آية سورة الملك لتسهل المقارنة ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ..﴾ [الملك :٣].

وجوه التشابه :

* كلتا الآيتين تتناول بيان إعجاز الله فى خلق تلك الحقيقة الكونية " السماء " .

* التماثل اللفظى فى قوله تعالى : " خلق – سبع سماوات طباقا " .

وجوه الاختلاف :

* استخدام الأسلوب الخبرى فى آية سورة الملك فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا .... ﴾ [المُلك : ٣] ، وتصدير آية سورة نوح بالاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ ... ﴾ ، وذلك لمناسبة كل آية لسياقها ، فالآية الأولى وردت فى سياق بيان طلاقة قدرة الله عز وجل . أما الثانية فإنها بالإضافة إلى ذلك ، استدعى السياق التركيب الإنشائي الاستفهامي ، لأن المقام مقام تنبيه ، وتأنيب لقوم نوح عليه السلام .

* آية سورة "الملك" اقتصرت على بيان عظمة خلق السماء ، وعدم وجود أى خلل أو تفاوت فيها . بينما آية سورة " نوح " لم تقتصر على معجزة خلق السماء فقط ؛ بل أضافت كذلك معجزتين أخريين هما : " الشمس والقمر" ، وعظيم خلقهما وبيان قيمة كل منهما فى تسيير حركة الكون وتحقيق المنفعة للبشر .

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ بعد أن بين التعبير القرآنى إعجازخلق الله فى إحدى مظاهر الكون وهى السماء ، انتقل إلى ملمح كونى آخر وهو "القمر " وكذلك " الشمس" حيث بهما قوام الوجود وتمام وكمال الواجد .

" **جعل القمر فيهن نورا** " : عند تأمل هذا الأسلوب يستلفت الانتباه استعمال الفعل "خلق" مع السماوات ، والفعل " جعل " مع القمر والشمس . وكان لابد من البحث عن سبب عدول الأسلوب عن الفعل "خلق " عند الإسناد إلى القمر والشمس وإيثار "جعل " عليه .

سبق القول أن الدلالة المعجمية للفعل "خلق " هى ابتداع الشىء على نحو لم يسبق إليه ، وقد وجدنا من خلال البحث أن من بين الدلالات ، بل أول الدلالات المعجمية للفعل " جَعَلَ " هى: " جَعَلَ الشيءَ يَجْعَلُه جَعْلا ومَجْعَلا واجْتَعلَه : وَضَعَه." [1] ومن هنا يتبين دقة بناء الأسلوب القرآنى لتراكيبه ، كما يتضح مدى التناسق ، وروعة توظيفه للدلالات المعجمية .

فالفعل " جعل " هو الأدق فى دلالته والأنسب " للقمر " من "خلق " ؛ لأنه يتضمن معنى " الخلق والجعل " في آن واحد ، فكما بيّنا أن " جعل " بمعنى " وضع" والقمر والشمس بالفعل موضوعان فى السماء ، بالإضافة لكونهما مخلوقين . . أى أن المقصود ؛ أن الله خلق السماء ثم أتم وأكمل نفعها بوضع هذين النيرين فيها وهما : " القمر والشمس " ... فالأمر هنا ليس مجرد خلق وابتداع ، ولكن الخلق مع وضع الشىء فى موضعه المناسب ، ولذلك آثر التعبير القرآنى " جعل " وعدل عن " خلق" والله أعلم .

ومما يعضد ماتوصل إليه البحث الجار والمجرور فى قوله تعالى : " فيهن " بدلالة حرف الجر " فى" على الظرفية كما فى قوله تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : ٢،٣]

---

(١) لسان العرب/ مجلد ٢/صـ٣٠٠/مادة " جعل " / ط . / دار إحياء التراث العربي / بيروت.

وقد فرّق الإمام الزمخشري بين الخلق والجعل بقوله : " والفرق بين الخلق والجعل ؛ أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء .. " (١).

والأسلوب القرآني – غالبا – يفرّق بين الخلق والجعل ، فيلازم السماوات الفعل " خلق " والشمس والقمر ، والنور والظلمات ، الفعل "جعل " . ومن ذلك مثلا قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

ثم يستوقفنا بعد ذلك هذا التقسيم اللغوى ، في قوله تعالى : { القمر.. نورا } { والشمس ..سراجا } فلماذا كان النور مع القمر ؟ والسراج مع الشمس ؟ و لقد أحصيت ماورد فى القرآن الكريم من آيات بهذا الشأن فوقفت على مايلي :

١– ورد لفظ " نورا " مع القمر مرتين إحداهما فى سورة يونس فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا .... ﴾ [يونس : ٥] والثانى فى الآية التى نبحثها وهى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٦]

وهناك موضع ثالث بنفس المعنى ولكن مع اختلاف اللفظ حيث ورد بصيغة اسم الفاعل " منيرا " وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان : ٦١]

٢– أن لفظ " الضياء " لم يرد فى وصف الشمس إلا مرة واحدة فى الآية السابقة من سورة يونس.

---

(١) الكشاف / مجلد ٢ / صـ ٣ / ط . دار الفكر .

٣- أن لفظ " السراج " ورد ثلاث مرات في وصف الشمس ، مرة في سورة نوح الآية ١٦ وهى نطاق البحث ، والثانية لم يذكر فيها لفظ " الشمس " صريحا وهى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان :٦١] ، والثالثة الآية ١٣ من سورة النبأ .

وفي ضوء هذا الإحصاء نلحظ دقة النظم القرآنى وبلاغته فى استعمال الألفاظ ، فالضياء أشد من النور ؛ لأن الضياء هو الذى ينبثق مباشرة من جسم مشتعل مضىء بذاته ، مثل الشمس ، والضياء والسراج كذلك يشتمل كل منهما على حرارة ، أما النور فلا . ومن هنا كان الأدق والأبلغ أن يكون التعبير بالضياء أو السراج في جانب الشمس ، والتعبير بالنور في جانب القمر .

ومما يعضد ما وصل إليه البحث ما ورد عن الإمام فخر الدين الرازى ، أن : " .. الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولاتستفيد من غيره .. " ثم قال : " لاجرم كان نور المفيد أشد إشراقا من نور المستفيد ".[1]

(١) انظر مفاتيح الغيب مجلد ١١/ صـ ٥٧٥ ، صـ ٥٧٦ /ط . دار الغد العربي .

(ب) تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب والشمس والقمر :

ونطاق بحثه الآيات الآتية :

١- ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ،وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر: ١٦ ،١٧] .

٢- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان:٦١].

٣- ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ، لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصافات ، ٦: ٨] .

٤- ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

٥- ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] .

٦- ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن : ٨] .

العرض الموضوعي :

تدور الآيات السابقة جميعها حول فكرة " الجَعْلُ " [(١)] وسببه ، أقصد بذلك جَعْل البروج والكواكب فى السماء، والعلة من هذا الإيجاد ، وكانت علة هذا الإيجاد أمرين :

الأول : **الزينة** : أى تزيين وتجميل السماء للناظرين ، هذا بالإضافة إلى الإضاءة بما يحقق وييسر مصالح العباد .

أما الأمر الثاني : فهو تحقيق الحماية والحفظ ؛ بكون هذه المصابيح رجوما للشياطين .

---

(١) انظر الموضع السابق الفرق بين " جعل " و "خلق" ودلالة كل منهما .صـ٢٨٦.

وقد تم الإشارة لهذين الأمرين فى التعبير القرآنى بأكثر من أسلوب ، بحيث تتوافق هذه الأساليب فى إبراز الفكرة العامة للآيات ، ثم توجد لطائف دقيقة بينهما على مايبدو من التحليل الفنى للآيات فيما يلى .

التحليل الفنى :

من خلال استقراء الآيات السابقة نلاحظ عدة سمات أسلوبية تنوعت بين الآيات من ذلك : إيثار الأسلوب القرآنى لصيغة التوكيد والفعل الماضى وقد ورد التوكيد بأكثر من وسيلة ففى سورة " الحجر " نجد التوكيد عن طريق الفعل الماضى مسبوقا " بقد " وملحوقا بـ" نا" الدالة على العظمة فى قوله تعالى : "ولقد جعلنا " . كذلك صيغة الفعل الماضى المسند لـ" نا" العظمة الدالة على التحقق فى قوله تعالى : " زيناها ... وحفظناها " .

وبالوسيلة نفسها كان التوكيد فى سورة الملك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء.... ﴾ [الملك: ٥] أى أكدت الآية بأكثر من مؤكد وهو" السلام ، وقد يتبعهما الفعل الماضى " زينا " مسندا إلى " نا " العظمة ، ثم يلحق هذا الفعل فعلان آخران فى صيغة الماضى مسندان كذلك إلى" نا " العظمة بدلالة ذلك على التوكيد والثبوت، وهما: "جَعَلْنَاهَا ، أَعْتَدْنَا " .

أما فى آية سورة الصافات كان التوكيد بوسيلة أخرى وهى "إن" المشددة متبوعة بالفعل الماضى مسندا أيضا لـ " نا " العظمة وهذا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات : ٦]

وقريب من هذه الوسائل التوكيدية ، ماورد فى سورة " فصلت " حيث استعمل التعبير القرآنى صيغ الماضى بما لها من دلالة ، وذلك على النحو التالى :

" فَقَضَاهُنَّ – أَوْحَى – زَيَّنَّا " المسندة لـ " نا " الدالة على العظمة .

واختلف الأمر قليلاً فى آية سورة " الجن " ، فجاءت على غـرار سـورة الصافات فى استعمال " أنّا " المؤكدة ملحقة بالفعل الماضى المسـند لـــ " نـا " العظمة وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا .. ﴾ [الجن : ٨] وهكذا نجد كل الآيـات التـى يجمعها موضوع : " تزيين السماء بالكواكب وحمايتها " وردت فى صيغ توكيديـة على اختلاف شكل التوكيد ونوعه . وهذا بخلاف آية سورة الفرقان :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَـا سِـرَاجًا وَقَمَـرًا مُّنِيـرًا ﴾ [الفرقان:٦١] ، فلم ترد فى سياق "التزيين" الصريح ، وكذلك فهى تختلـف عـن سابقتها فى عدم استعمال أسلوب التوكيد فيها ولنا معها وقفة إن شاء الله .

والتساؤل الآن مادلالة استعمال الأسلوب المؤكد لهذه الآيات ؟ ولمـاذا آثـر التعبير القرآنى صيغ الأفعال الماضية دون غيرها ؟ .

ولقد حاولت استقراء هذه الآيات ، وماقبلها للإجابة على هذا التساؤل ، وكانت نتيجة هذا الاستقراء مايلى :

- أن الآيات التى تسبق نطاق البحث تدور حول موضوع واحد تقريبا على النحو التالى :

– ذكر دلائل التوحيد بعد الرد على من أنكروا النبوة وذلك فى سورة الحجـر فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَـا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ * وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِـي السَّـمَاء بُرُوجًـا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.. ﴾ الحجر : الآيات [١٠،١١،١٤،١٥،١٦] .

– وكذلك فى سورة الفرقان فقد جاءت آيات البحث فى نطاق مناقشة قضية التوحيد فى قوله تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ، تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ الآيات [٥٨ : ٦١] .

– وكذلك وفى سورة " الصافات " كان نفس الموضوع تقريبا، وهو: بيان لدلائل الألوهية والتوحيد ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ، إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ الآيات [٦:١]

و نجد الملاحظة نفسها فى سورة " فصلت " حيث كانت آية " تزيين السماء وحفظها " من بين عدة دلائل وردت فى الأسلوب القرآنى لإثبات الوحدانية ، وتفرده جلَّ وعلا بالعبادة ، وحتمية التوجه إليه بالإخلاص والتوحيد ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [٩ : ١٢]

– وكذلك وردت آيات سورة "الملك " في بيان دلائل التوحيد وإقرار قدرة الله عز وجل في قوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ، الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًاوَهُوَ حَسِيرٌ ،وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الآيات ١: ٥].

وسورة الجن هى أيضا تثبت الوحدانية لله عز وجل ، وكذلك تؤكد أن الغيب والعلم به لله جلّ وعلا ، وأن الله واحد لاشريك له فلا صاحبة له ولاولد يقول تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ ، [الجن : ٣]

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ، وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن ،٦:٨]

وبعد هذا الاستقراء يبدو للبحث أن إجابة التساؤل المطروح : وهو مادلالة استعمال الأسلوب التوكيدى فى معظم هذه الآيات ؟ وكذلك إيثار التعبير القرآنى لصيغة الفعل الماضى ؟ قد أصبحت واضحة .. فلقد تبين أن المقام فى كل الآيات التى تضمنت أساليب توكيد قد كان مقام إثبات وحدانية ، أو ألوهية أو قدرة أمام شك وجدل الكافرين المعاندين ولذلك كان الأدق والأكثر مصداقية استعمال أساليب التوكيد فى خضم هذا التشكيك والشرك والعناد . ومع صيغة التوكيد تتألق صيغ الفعل الماضى بدلالتها على التحقق والثبوت وإيحاء اليقين الذى ينتج عنها . ولذلك نجد أن الأسلوب القرآنى عندما يتحدث عن الجنة وإعدادها للصالحين يؤثر صيغة الماضى لما لها من الدلالات السابقة مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٨٩]

﴿ ... وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣]

وكذلك عند الحديث عن الثواب والإحسان ، و حتى عند التهديد والوعيد للكافرين؛ يؤثر أسلوب القرآن صيغة الماضى ، ومن ذلك :

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩] .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

﴿ ...وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦]

وبهذا تصبح دلالة صيغة الفعل الماضى قريبة من التوكيد على نحو مارأينا ، ومن هنا كان إيثارها فى آيات " الزينة والحفظ " نطاق البحث فى غاية الدقة .

وبعد هذا التحليل بين التوكيد والفعل الماضى ، نستكمل عرض السمات الأسلوبية لهذه الآيات نطاق البحث فنجد مايلى :

- استعمال لفظ " السماء " فى جميع هذه الآيات فى صيغة التعريف وأحيانا يلحقها نعت " الدنيا" ، وفى أحيان أخرى منفردة خالية من الوصف ؛ ولقد حاولت البحث فى علة ذلك وتبين لى أن :

- وجود "أل" التعريف ضرورى وإلا تهاوى السياق فى حالة حذف "أل " وكما أن التعريف ضرورى لتوازن إيقاع الآية ، فهو ضرورى أيضا لإتمام المعنى .

وكأن الأسلوب القرآنى الرائع يريد لفت الأنظار إلى هذه الآية الكونية الكبرى التى يمر الإنسان عليها دومًا دون اعتبار أو تدبر؛ فهذه هى السماء نفسها التى تظلكم وهى معهودة لكم فلماذا لاتعتبرون وتشهدون بوحدانية الخالق وتفرده ؟!

• أما بالنسبة لوجود لفظ " السماء " مرة منفردا ، ومرة منعوتًا فإنه عند تتبع الآيات اتضح أن " السماء " ترد منفردة دون وصف مع الفعل " جعل " وترد منعوتة " بالدنيا " مع الفعل " زينا " ؛ وهذا إن دل على شيء يدل على دقة هذا الأسلوب القرآني المعجز ؛ وتوضيح ذلك ، أن التعبير عندما تحدث عن " الجعْل " وهو خلق البروج في السماء لم يأتِ بكلمة " الدنيا " لأن الخلق والجعل والوضع يشمل السماء جميعها ، ولأسباب وحكم شتى ولكن عند الحديث عن " التزيين" كان الأدق والأليق التعبير : " بالسماء الدنيا " لأن هذه السماء الدنيا هي الصورة المُشاهَدة لبني الإنسان ، و هي السماء القريبة منهم التي تتطلع إليها عيونهم ؛ فارتبطت بها كلمة الزينة ، بما توحيه من جمال وفن راقٍ .

وقد استأنست في هذا التوضيح بما ورد عن الشيخ الألوسي في كتابه حيث قال : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا ﴾ أي أقرب السماوات إلى أهل الأرض فالدنيا هنا مؤنث أدنى بمعنى أقرب أفعل تفضيل " [١] .

* ومن السمات اللغوية اللافتة للنظر في هذه الآيات نطاق البحث ، تعدد ألفاظ التزيين وأقصد بذلك استخدام ألفاظ مختلفة ذات دلالة واحدة تقريبا ومن ذلك :

- استعمال لفظ " بروجًا " مرتين ، مرة في سورة الحجر وأخرى في سورة الفرقان ، فكانت هذه البروج هي أداة الزينة ،"والبروج " هي الكواكب العظام [٢] .

- وكذلك السراج والمقصود به الشمس،وأيضا القمر كانا من كونيات الزينة والمنافع.

ثم استعمال لفظ آخر في سورة الصافات وهو : " الكواكب " وكانت هذه الكواكب هي أداة الزينة ، في قوله تعالى : ﴿ .... بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾.

---

(١) روح المعاني للألوسي مجلد ٨/جـ١٢ /صـ٦٦ / ط . دار الكتب العلمية. بيروت .

(٢) لسان العرب / مجلد ١ / مادة " برج " صـ٣٦٠/ط . دار إحياء التراث العربي / بيروت.

- كما استعمل التعبير القرآنى لفظا آخر يدل على الزينة في سورتي " فصلت " و "الملك " وهو : " المصابيح " .

" والمصباح هو السراج وقيل مصابيح النجوم : أعلام الكواكب " [١] .

وعندما اقتصر الأمر فى آية سورة " الجن " على الحماية فقط دون الزينة ، أتى النظم القرآنى البليغ بلفظ " شهبا " .

" والشهب هى النجوم السبعة الدرارى ، وهو فى الأصل الشعلة من النار ".[٢]

ونخلص من هذا العرض أن الأسلوب القرآنى الرفيع قد استخدم ألفاظا متعددة متجددة بدلالة معجمية تكاد تكون واحدة ، ولكن من المؤكد أن هذه الدلالات للآيات الكونية السابقة بينها فروق ولطائف تتحقق بها الزينة فى السماء ، وتسيير مصالح العباد فى الأرض . وإلا ماكان اختص الله عز وجل هذه الزينة بألفاظ الكونيات مثل " البروج ، والسراج والكواكب ، والمصابيح " .

- كذلك نلاحظ عند استقراء الآيات نطاق البحث أن الكلمات التى استخدمها الأسلوب القرآنى فى مجال التزيين قد وردت كلها نكرة ، ماعدا كلمة " الكواكب " في سورة الصافات جاءت معرفة " بأل" ، ولكن عند تأمل هذه الآية نجد أن الأسلوب القرآنى سار على نفس النحو فى استعمال النكرة ، فسبقت الكواكب كلمة نكرة على النحو التالى :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ وبذلك تصبح الكواكب مضافا إليه مجرورا على قراءة " بزينةِ " أى بدون تنوين ، أو بدل كل من زينة مجرور [٣] .

---

(١) راجع لسان العرب/مجلد ٦/مادة " صبح "/صـ ٢٧٤ / ط. دار إحياء التراث العربي / بيروت.

(٢) راجع لسان العرب/مجلد ٦/مادة " شهب"/صـ ٢٢٢ / ط. دار إحياء التراث العربي / بيروت.

(٣) انظر مفاتيح الغيب/مجلد ١٣/صـ ١٩٧ / ط . دار الغد العربى .

واستعمال النكرة بهذه الدقة ، ليس من قبيل المصادفة ، ولكنها دقـة الـنظم القرآنى البليغ الذى آثر صيغة النكرة فى كل الأحوال ، حتى فى الآية الوحيدة التى عرف فيها الكواكب .

فلماذا آثر الأسلوب القرآنى صيغة النكرة عند ذكر هذه الكونيات ؟

مما لاشك فيه أن هذه الكونيات من " بروج وسراج وقمـر وكواكـب ومصـابيح وشهب " لها منزلة عظيمة وقدر جليل لا يعلمه حق العلم إلا خالقها الواحد القهار؛ لذلك كان إيثار صيغة النكرة هو الأقدر على إبراز عظمة وجلال هذه الكونيـات الدالة على عظمة وقدرة خالقها ، فالنكرة تؤدى غرض التبجيل والتهويل والإعظام مما لايؤدَى عن طريق المعارف .

وبعد هذه الدراسة ، وهذا التحليل يتبين بما لايدعو مجالا للشـك أن الأسـلوب القرآنى مترابط بشكل عجيب ؛ فلقد كان الجامع الأول لآيات نطاق البحث المتعددة السور هو الموضوع ، حيث جمعها موضوع واحد وهو تزيين وحمايـة السـماء بهذه الكونيات ، ولكن من خلال البحث تبين أنه على الـرغم مـن أن المواضـع مختلفة إلا أن :

السمات الأسلوبية للآيات نطاق البحث – مشتركة وتتعاون فى إبراز طلاقة قـدرة الله ، تلك التي تشهد بوحدانيته عزوجل ، ورحمته في تسيير مصـالح العبـاد ، وليس هذا فحسب ، ولكن لتؤكد أن الجمال والزينة والإبداع ملامح أساسية لخلـق لهذا الكون .

المبحث الثانى

الظواهر الكونية فى:

الغمام– البرق والرعد والصواعق – الرياح والمطر والغيث

أ- الغمام.

ب- البرق والرعد والصواعق .

ج- الرياح و المطر والغيث.

(أ) الغمام :

ورد لفظ الغمام فى القرآن الكريم أربع مرات فقط فى المواضع الآتية :

١- ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧]

٢- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ ﴾ [البقرة :٢١٠] .

٣- ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٠] .

٤- ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥] .

عند تأمل تلك المواضع السابقة نجد أن كل موضعين يتناولان موضوعًا واحدًا ، ولذلك سوف أتناول كل آيتين على حدة على النحو التالى :

١- ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧].

٢- ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٠] .

العرض الموضوعي :

بداية نتعرض للمعنى المعجمى لكلمة : " الغمام" .

" الغَمَامُ " : هو الغَيْمُ الأبيض ، وإنما سمّى غَمَامًا لأنه يَغُمُّ السماء أى يسترُها.... ". [(١)] ، والغَمامةُ بالفتح : السَّحَابة ، والجمع غَمام [(٢)] .

وبعد بيان المعنى المعجمى لكلمة الغمام ننتقل إلى كتب التفسير [(٣)] فنجد أن السياق الذى وردت فيه الآيتان ، سياق بيان لنعم الله المتكررة على بنى إسرائيل، فالله عز وجل قد أنعم على بنى إسرائيل نعما متوالية متعددة ، لذلك نجد الآية (٤٠) من سورة البقرة فيها تذكير لهم بنعم الله وآلائه التى أفاضها عليهم يقول تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة :٤٠] .

وقصة بنى إسرائيل تحتل مكانة واسعة بين قصص القرآن الكريم ، وقد أولاها الذكر الحكيم عناية واضحة . ومحور هذه القصص – غالبا– بيان لكفرهم وعنادهم وجحودهم لفضل الله على الرغم من تعدد نعم الله عليهم .

---

(١) لسان العرب / مجلد ٨/ مادة " غم " صـ١٢٩/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) المصدر السابق / صـ ١٢٩ .

(٣) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ٢/صـ١٢٣ /ط . دار الغد العربي . وكذلك تفسير ابن كثير / مجلد ١ / صـ٩٤ وما بعدها / ط . مكتبة التراث الإسلامي . سوريا – حلب .
وكذلك تفسير : في ظلال القرآن / مجلد ١ / صـ٧٢ / ط. دار الشروق . بيروت .

وكذلك وردت آية سورة الأعراف فى بيان سلسلة نعم الله على بنى إسرائيل حيث طلبوا من " موسى" عليه السلام السقية ، وهم تائهون فى الأرض ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر ، فانبجس منه الماء اثنتا عشرة عينا حسب عددهم .

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ...... ﴾ [الأعراف:١٦٠].

ونعمة الماء دون شك من أجلّ وأعظم النعم ؛ ولكن الآية الكريمة تذكر إنعاما ثانيا ؛ وهو تظليل الغمام عليهم ، حيث دفع عنهم مضار الشمس وحرقتها ، ثم تذكر الآية إنعاما ثالثا؛ وهو أن الله أنزل عليهم المن والسلوى ، وبذلك سهّل عليهم الطعام والشراب . وسبق كل هذا توفير الماء لهم فى التيه ، وكان حقا عليهم بذلك الشكر والعرفان والطاعة، ولكنهم جحدوا نعم الله عليهم فظلموا أنفسهم ظلما مبينا.

التحليل الفنى :

١- ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧].

٢- ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٠] .

أول مايطالعنا فى هاتين الآيتين، ذلك التناسق البديع فى اختيار الأفعال ، وصيغها وتوظيف الضمائر والتحول بينها، وإيحاءات الألفاظ ودلالتها ، كما يلفت النظر ذلك التناغم بين مفردات الكون فى الآيات .

ونبدأ **بالأفعال** ، نلحظ أن آية سورة البقرة بدأت بالفعل " **ظللنا** " وورد نفس الفعل بنفس الصيغة في سورة الأعراف وإن لم يتصدر الآية ، فما دلالة هذا الفعل بهذه الصيغة ؟

لايخفى على المتلقى مافى مادة هذا الفعل من الرحمة والرعاية والشمولية ، ففيه دلالة على نعم الله تعالى على بنى إسرائيل ، وكيف احتواهم ، وسخّر لهم السحاب يظللهم فى رحلتهم إلى المدينة المقدسة ، فاختيار هذه المادة المعجمية لم يأت مصادفة – حاشا لله – بل هو اختيار موظّف لتعميق وترسيخ هذا الإنعام وبيان فضل الله عليهم ، ثم تعميق الإحساس بجحودهم ، و كيف قوبل هذا الإنعام ؟ وماذا كان ردهم عليه ؟!

هذا فى ضوء المادة المعجمية ؛ والتى جاءت فى معظمها فى سياقات الرحمة والخير ولنتأمل هذه الآيات _ وهذا على سبيل المثال وليس الحصر _ :

* ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : ٥٧].
* ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ ﴾ [يس : ٥٦] .
* ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات :٤١] .
* ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان:١٤] .

أما بالنسبة لاستعمال صيغة الفعل الماضى دون غيره فذلك دليل آخر على التوصيف الموجه ، فالفعل الماضى يشترك مع إيحاء الكلمة فى تعميق الإحساس بهذا الإنعام ، وذلك لما فى هذه الصيغة من دلالة على الثبوت والتيقن ، والتأكيد على الحدوث ، فلقد تم التظليل فعلاً لبنى إسرائيل وقد تنعموا بهذا التظليل فكيف كان شكر النعمة منهم ؟

ومما يزيد صيغة الماضى " ظللنا " ثباتا وإجلالاً إسنادها إلى " نـا " الدالـة على العظمة بإيحاءاتها على القوة والرفعة والمهابة .

وبنفس هذه الصيغة أى الماضى المسند لـ " نا " العظمة ، يرد إنعام آخـر وهو إنزال الطعام وذلك فى قوله تعالى : " وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى " .. ولقد سبق القول بأن هذه الآية ونظيرتها فى سورة الأعـراف تـدلان علـى الرعايـة والرحمة ، ومن تمام الرحمة وكما لها أن الله عز وجل بعد أن وفر لبنى إسرائيل مايحتاجونه من ماء لشرابهم ، وكذلك بعد أن حقق عز وجل لهـم الحمايـة عـن طريق التظليل ؛ رزقهم الله هذا الإنعام وهو الطعام الحلو من المن والسلوى ، وقد ورد فى المعاجم أن :" المنُّ هو : شِبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل" (١) .

" والسلوى : طائر ، وقيل طائر أبيض مثل السمانى ، واحدته سلْواة ، كما فـى قول الشاعر : كما انتفضَ السلْواةُ من بَلَلِ القَطْرِ. " (٢)

وفي ضوء هذا التعدد النعمي وإيثار صيغة الماضي ؛ تتضح ربوبية الله عز وجل، ويتعمق في النفس مدى رعايته – سبحانه– التامة الكاملة لبنى إسرائيل فقد وهبهم الماء ، وهو سر الحياة ، ولاحياة بدونه فتفجرت المعجزة الكبرى بخروج الماء من الحجر، ثم بعد ذلك كان توفير الحماية والأمن لهم فى التيه الذى كـانوا فيه ؛ فظلل الله عليهم الغمام ، وبعد الحماية والأمن يفكر الإنسـان فـى طعامـه وحلواه فينزِّل الله المن والسلوى وهو طعام متنوع ، فالمن حلو كالعسل والسـلوى لحم شهى ، وهكذا تعددت النعم على اليهود .. فماذا كانت النتيجة ؟

وتأتى الإجابة شافية كافية فى قوله تعالى : ﴿ ... ومَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَـانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة :٥٧] ، وظلمهم لأنفسهم بما جحدوا نعم الله علـيهم ، وتنكروا لها .

---

(١) لسان العرب/ مجلد ٩/ مادة "منن" صـــ ٥٨٢/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) المصدر السابق/مجلد ٥/مادة " سلا "/صــ ٣٥٢ .

ثم ننتقل إلى ملحظ بلاغى آخر فى هاتين الآيتين وهو : **الضمائر** ، ففى سورة البقرة أوثر ضمير **المخاطب** " عليكم – كلوا " ، ثم تحول إلى ضمير **الغائب** فى قوله تعالى : (كانوا أنفسهم يظلمون) على سبيل الالتفات.

ويتكرر هذا الالتفات بشكل آخر فى آية الأعراف ، فنجد الانتقال من ضمير **الغائب** فى قوله تعالى :﴿.. وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ..﴾، إلى ضمير المخاطب فى قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، والالتفات ظاهرة بلاغية جمالية لايمكن إغفالها بما لها من تأثير فى جذب انتباه المتلقى ، ودفع الملل عنه وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى الذى يعتمد على تشويق المتلقى ، ودعوته إلى التدبر فى آيات الله .

ولكن لماذا عدل القرآن الكريم عن ضمير المخاطب كما ورد فى آية البقرة (٥٧) إلى ضمير الغائب كما ورد فى آية الأعراف (١٦٠) ؟

وكانت الإجابة على هذا السؤال حقا محيرة ، وقد بحثت فى كثير من كتب التفسير فلم أجد إجابة شافية ، فقد اكتفت بعض الكتب بالإشارة إلى اختلاف الضمير فقط ، دون تعليل ذلك أو تفسيره [1] وهناك كتب لم تشر إلى اختلاف الضمير من الأساس ومنها " الكشاف " .

ولذلك فقد اعتمدت على الله عز وجل وحاولت استقصاء الآيات وتتبع السابق واللاحق لعلى أصل إلى نتيجة . معتمدة فى ذلك على لغة التواصل والتناسق بين آيات القرآن الكريم باعتبارها سمة أسلوبية أصيلة فيه . وكانت نتيجة الاستقصاء مايلى :

---

(١) انظر مثلاً : مفاتيح الغيب/ مجلد ٢ / صـ ١٢٣ الهامش / ط .دار الغد العربى .

أن الضمير فى سورة البقرة من الآية (٤٧) وهى بداية آيات الإنعام على بنـــى إسرائيل كان للمخاطب . قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً... ﴾ [البقرة : ٤٨] .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٠] ، وهكذا منهج الآيات ، من أول الآيـــة (٤٧: ٥٧) كلهـا ورد الضمير فيها بصيغة المخاطب .

وكذلك الآية اللاحقة للآية موضع الدراسة ؛ كانت خطابا لبنى إســرائيل علــى النحو التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُـجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٥٨]

وفي ضوء هذا العرض ، يتضح أن الآية موضع الدراســة آثــرت صــيغة ضمير المخاطب تناسقا مع السابق واللاحق عليها من الآيات .

أما الاستقصاء الآخر لسورة الأعراف فقد كانت نتيجته مايلى :

- أن الحديث فيها عن بنى إسرائيل - من الآية ١٥٢ - وليس لبنى إسرائيل .
- أن الضمير فى سورة الأعراف بداية من الآية ١٥٢ ، استخدم فيه للغائب على النحو التالى :

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف :١٥٢] .

* ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٤] .

* ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ... ﴾ [الأعراف :١٥٥] .

* ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]

وتستمر الآيات بنفس المنهج من إيثار ضمير الغائب إلى الآية موضع الدراسة .

وكذلك الآية اللاحقة لها كان الحديث عن بنى إسرائيل ، وليس موجها إليهم، في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦١]

وبعد ذلك أتمنى أن يكون هذا الاستقراء قد أجاب عن السؤال المطروح وهو : ماسبب تحول الاسلوب القرآنى عن صيغة الخطاب فى الآية (٥٧) من سورة البقرة إلى صيغة الغيبة فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف على الرغم من التماثل الواضح بين ألفاظ الآيتين ؟

إنه ذلك التناغم البديع ، والتوافق المبهر فى الأسلوب القرآنى الرفيع ، فعندما كان الحديث لبنى إسرائيل، والمقام فيه بيان لتعدد النعم كان استعمال ضمير المخاطب مباشرة فى آيات سورة البقرة ، وعندما تطلب السياق استعمال ضمير الغائب ؛ إمعانا في إهمال هؤلاء الجاحدين جاء الأسلوب مؤثرا صيغة الغائب ، و متوافقا متناغما مع الآيات السابقة و اللاحقة على نحو معجز مبهر يؤكد أن هذا القرآن هو حتما كلام الله .

وننتقل إلى سمة جمالية أخرى فى هذه الآيات ، وهي ذلك الإبـداع فـى توظيف مفردات الكون وهذه لفتة أصيلة فى الأسلوب القرآنى ، تشعر المتلقى بأن هذا الأسلوب هو نمط حياة ومنهج متألق مع طبيعته البشرية .... فنلحظ استعمال كلمة " الغمام " بما لها من دلالة الرحمة وبما لها من إيحاء ومخزون فـى العقـل البشرى وكذلك " المن " و" السلوى " ، وهي مفردات كونية موظفة في الأسـلوب بدقة وإعجاز .

وبنفس المنهج الراقى فى توظيف مفردات الطبيعة جاءت هاتان الآيتان :

* ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْـرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

* ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان ٢٥] .

• العرض الموضوعي :

عند تدبر معنى الآيتين السابقتين نجد أن موضوعهما واحـد وهـو : بيـان ووصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة [١] حيث يحاسب الله عباده على ماقـدموا . ولعل هذا مادعا بعض المفسرين إلى القول بأن : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَـأْتِيَهُمُ اللّهُ .. ﴾ هى كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ .. ﴾ .[٢]

وكذلك فإن عند مراجعة الآيات السابقة عليهما في كل موضعٍ على حدة، نجد أنها تتشابه ضمنا فى معناها العام ، حيث تتحدث هذه الآيات عن المفسـدين فـى الأرض ، والمكابرين الذين تأخذهم العزة بالإثم ، ويملأ قلوبهم النفاق ، ويتلكـأون فى الدخول فى السلم ؛ لذلك عليهم العودة إلى الله قبل أن تقوم الساعة ويأتى أمـر الله.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ مجلد ١/ صـ٢٤٨/ط. مكتبة التراث الإسلامي .

(٢) انظر السابق / مجلد ١ / صـ ٢٤٩ . نفس الطبعة .

وهذه هى آيات سورة البقرة التى تتضمن هذه المعانى : قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ، ٢٠٤: ٢٠٩] .

ثم يأتى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

وعند استقصاء الآيات السابقة على آية " الغمام " فى سورة الفرقان نجد أنها تتضمن – تقريبا – المعانى السابقة ؛ أى الحديث عن المجرمين المستكبرين ، الذين عتو فى الأرض ، فكانت أعمالهم هباء منثورا . يقول تعالى فى سورة الفرقان :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ، يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا، وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [البقرة ، ٢١: ٢٤] .

ثم يأتى قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥]

- **التحليل الفنى :**

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

عند المقارنة بين الآيتين ، نلاحظ أن العنصر الكونى البارز فيهما هو " الغمام " .. فهو البطل الأول فى هذه اللوحة القرآنية الجميلة .

ولنبدأ بالآية الأولى " آية البقرة " حيث نجدها تُستَهَل بهذا الاستفهام الاستنكارى : " هل ينظرون ...؟ " بما يحمل من معانى التهديد ، والوعيد والترهيب ، فماذا يرتقبون ؟ وماذا ينتظرون ؟ ولايخفى إيثار الأسلوب الرفيع لصيغة الفعل المضارع دون غيرها فى قوله :

" ينظرون – يأتِيَهُم – تُرْجَعُ " ؛ لما فى ذلك من استحضار ومعايشة لهذا الموقف الرهيب والمشهد المهيب .

- " إلا أن يأتيهم الله " ... دار خلاف بين المفسرين [(١)] حول المقصود بمجىء الله عز وجل. ونخلص من هذا الخلاف إلى رأى جيد ، وهو أن هناك محذوفا تقديره " أمر" وهو مضاف وأقيم المضاف إليه مكانه .

وهذا كثير فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (واسأل القرية) [يوسف :٨٢] والتقدير واسأل أهل القرية .

وفيما يبدو للبحث أن إقامة المضاف إليه مكان المضاف هنا له قيمة أسلوبية رفيعة وبليغة تدل على تناغم وتناسق دلالات هذا البيان المعجز .. أقصد بذلك أن كلمة " الله " لفظ الجلالة ؛ قد حققت ظلالا رائعة من المهابة والإجلال والترهيب ، وذلك هو الإيحاء الذى يتطلبه سياق الآية ومعناها . ولنتأمل لو كان السياق غير ذلك بتقدير المحذوف هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله ؟

---

(١) انظر مفاتيح الغيب/ مجلد ٣/ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١/ ط . دار الغد العربي .

بالطبع فإن الأسلوب القرآنى الأصيل ؛ أجمل وأوقع فى النفس ... ومما يعضد ذلك التوجه أن الأسلوب القرآنى قد استخدم لفظ " الله " ولم يقل " ربهم " مـثلاً ! لما بينهما من فارق فى الدلالة والإيحاء فلفظ الجلالة " الله " يوحى - كما سبق - بالهيمنة والقوة والرهبة ، وهذا هو مناط السياق . بينما لفـظ " ربهـم " يـوحى بالرحمة والربوبية والمسئولية ولهذا تجنبه السياق هنا فليس الموضع موضعه.

وأخلُص من ذلك إلى أن إحلال المضاف إليه ، محل المضاف كان ضـرورة بلاغية ومعنوية تبرزعظمة الموقف ، وتوحى بتهويل المحذوف .

" **فى ظلل من الغمام** ".... قيل قد يكون " فى" بمعنى الباء ، وحـروف الجـر يصح أن تتبادل أحيانا والتقدير : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام ، والمراد العذاب الذى يأتيهم فى الغمام مع الملائكة . (١)

ومن جمال هذه اللغة ، وكذلك من أسباب إعجاز الأسلوب القرآنى أن نجد أن المادة المعجمية واحدة فى الآيات ولكنها تستخدم حينا لإضفاء الرحمة ، وحينا آخر للتهديد والعذاب فعندما حللنا قوله تعالى : (وظللنا عليكم الغمام ..) [البقـرة : ٥٧] لمسنا مدى الرحمة والنعمة التى منحها الله لبنى إسرائيل من خلال هذه الآية بينما هنا تستخدم نفس المادة لإلقاء الرعب والمهابة ، واستحضار ذلك الموقـف المهيب ... حيث تكتسب معناها من السياق العام الذى وردت فيه.

و " **ظُلَل** " .. " جمع ظُلّة . وقيل الظلة : الغاشية ، وقيل هى الشىء يستتر به فى الحر والبرد " (٢) .

والظلل من الغمام عبارة عن قطع متفرقة متراكمة من السحاب يـأتى مـن خلالها العذاب واللافت للنظرهنا ، أن يأتى العذاب من الغمام وهو بالرحمة أولى وأنسب ! وقد ذكر الإمام " " فخر الدين الرازى" عدة وجوه لذلك .

---

(١) راجع مفاتيح الغيب/ مجلد ٣ /صـ٢٥٢ / ط . دار الغد العربي .

(٢) انظر لسان العرب/ مجلد ٧ / مادة " ظلل " / صـ ١٥٣/ ط . دار إحياء التراث العربي .بيروت .

وقد اخترت منها هذا الوجه لدقته ومناسبته للسياق يقول الإمام فخر الـــدين :

" أن الغمامَ مظنةُ الرحمةِ ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمرُ أفظعَ ، لأن الشـــر إذا جاء من حيث لايحتسب كان أهول وأفظع ، كما أن الخير إذا جـــاء مـــن حيــث لايحتسب كان أكثر تأثيرا فى السرور ، فكيف إذا جاء الشر من حيـث يحتســب الخير ". (١)

" **والملائكة** " عطف على لفظ الجلالة ، بإيثارصيغة الجمع " الملائكة " لبيـــان عظم وهول هذا الموقف ، فقد أَتَوْا ، لتنفيذ أمر الله عز وجل فى عباده فـــى هـــذا اليوم العظيم .

" **وقُضِىَ الأمر** " ...آثر التعبير القرآنى استعمال صيغة الماضى على الرغم من أن الحديث عن المستقبل ، وتحديدا عن يوم القيامة والحساب ، فما علة ذلـــك ؟ ولماذا آثر الأسلوب هذه الصيغة ؟

فى الواقع توجد آيات عدة فى القرآن الكريم يرد فيها الماضـــى ليعبـــرعن المستقبل وخاصة عند الحديث عن الغيبيات فى ذلك اليوم المشهود . ومنها ما يلي على سبيل المثال لا الحصر . يقول تعالى :

* ﴿ أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل :١].
* ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ [النازعات : ٣٦] .
* ﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق ، ١ : ٥] .
* ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ،وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢]

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ٣ / صـــ ٢٥٤ / ط . دار الغد العربي .

واستقراء هذه المواضع السابقة ، يوضح علة إيثار صيغة الماضى عند الحديث عن المستقبل. حيث يرد للتأكيد على وقوع هذه الأمور الغيبية ، كما أنه يلفت النظر على أن أمر الساعة قريب .. قريب جدا ، وهذا واضح فى قوله تعالى : (أتى أمر الله .....) وعلى هذا التأويل يأتى قوله تعالى : " وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور " للتأكيد على أن قضاء الله واقع حتما لا محالة وأن الأمور كلها بيد الله ، راجعة إليه وحده . مما يبرز طلاقة القدرة والوحدانية المطلقة .

أما الآية الثانيةفهى قوله تعالى :

* ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

- التحليل الفنى :

فى هذه الآية – كذلك – نجد أن العنصر الكونى الأساسى فيها هو" الغمام" وهو موظّف لوصف مشهد غيبى من مشاهد يوم القيامة ، تماما مثل الآية السابقة مع اختلاف ظلال الصورة الكونية فهناك فى آية البقرة ، يخرج الله على الكافرين بالغمام وذلك فى قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ..) [البقرة ٢١٠] .

أما فى هذا الموضع فخطوط اللوحة السماء التى تتشقق عن الغمام وينزل منها الملائكة لوحة كونية بديعة ؛ تحتاج إلى تصوّر وتخيّل ومعايشة ، مشهد مبهر معجز حيث تتفتح السماء بسحاب أبيض بديع ، ولاينتهى المشهد عن ذلك ؛ بل يظهر فى هذه اللوحة الكونية هؤلاء الملائكة المكرمون ؛ كرد طبيعى وحتمى لذلك التطاول والشرك من المكابرين الذين قالوا : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢١]

إذن رؤية الملائكة هـي طلـب هؤلاء المتبجحين ؛ بل هى أقل الطلبَيْن تطاولا وكبرا ... لذلك استجاب لهم ربهم ، ولكن رؤية هذه الملائكة لن تكون شيئًا هيِّنا أو سهلاً ! لأنهم سوف يرونها فى يوم مهيب عصيب ، ينتظرهم فيه عـذاب شديد لاطاقة لهم به . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

ولذلك آثر الأسلوب القرآنى استعمال صيغة النكرة فى لفظ " يوم " لتعميـق الإحساس بهول وفزع هذا اليوم ؛ فهو يوم مهول قال فيه الله عز وجل : ﴿ يَـوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢] .

أما صياغة الفعل " **تَشَقَّقُ** " بهذه الصورة فهى تساهم فى تلك الظـلال التـى تحيط بهذا المشهد المهيب عندما نتصور عملية " التشقق " الرهيبة فـى السـماء وتفتُّحها وتصدُّعها بالغمام. وقد ساهمت المادة المعجمية فى بناء هـذه الصـورة بشكل دقيق .

" فالشق : هو الصدع البائن وقيل : غير البائن وقيل هو الصدع عامة " [١].

وكذلك صياغة الفعل " تشقق " بحذف التاء الأولى ، ساهم فى سلاسـة العـرض وسرعته . واستحضار صورة التشقق بيسر وخفة .

" **بِالْغَمَامِ** ".... والغمام – كما سبق – هو بطل الصورة الكونيـة التـى نحـن بصددها ، فالعقل البشرى عندما يتأمل هذا المشهد ويحاول تصوُّره واستحضـاره، يستشعر عظمة الله وقدرته التى تتجلى فى هذا اليوم .

ونتوقف عند حرف الجر " الباء" حيث قال بعض المفسرين أنها بمعنى "عن " حيث إن الباء وعن يتعاقبان[٢] .

أى أن المعنى المَقصود : يوم تشقق السماء عن الغمام ودليلهم علـى ذلـك أن السماء لاتشقق بالغمام بل عن الغمام . [٣]

---

(١) انظر : لسان العرب مادة " شقق " / مجلد ٦/ صـ١٦٤ / ط . دار إحياء التراث . بيروت .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى /مجلد ٧/ صـ ٤٨٩٩ ط / دار الغد العربى.

(٣) انظر مفاتيح الغيب للرازى /مجلد ١٢/ صـ ٣٥/ ط . دار الغد العربي .

ولكننى أتساءل ، ولماذا هذا التحول عن المعنى وتبادل حروف الجر ؟ إن الحديث هنا عن يوم القيامة ، ومايحدث فيها من خوارق ومعجزات ، حيث تنشق السماء وتتنزل الملائكة ، لذلك فالأدق استعمال حرف الجر على معناه " الباء " ، لأنه الأدل والأنسب للسياق ....

فتشقق السماء بالغمام يدل على أن الله عز وجل قد ملأ هذه السماء غمامًا كثيرًا متدفقًا مندفعًا مما أدى إلى تشققها وانفراجها ...

وهذا ملمح من ملامح الإعجاز الكونى ، وتبدُّل الأرض والسماوات فى ذلك اليوم العصيب وقد كانت السماء قبل ذلك محكمة النسج ، محبوكة الصنع لا فتحات فيها ولافروج وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦].

وكذلك قوله تعالى فى سورة الذاريات:﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧].

وأقصد بذلك أن ما يحدث من تشقق للسماء هو خلاف النواميس الكونية الطبيعية التى خلق الله السماء عليها من إحكام الصنعة ودقتها ، لذلك فهى تشقق بالغمام أى بسبب هذا الغمام المتكاثف المندفع وليس عن الغمام ، وهذا المعنى أدل فى بابه على الإعجاز الكونى وتبدُّل قوانين الكون فى هذا اليوم .

والآيات كما يقال يفسر بعضها بعضًا ويعضده ، والمقصود أن هذا التفسير الذي قدمناه يتوافق مع قوله تعالى الذي حللناه سابقًا فى سورة البقرة ، يقول تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ .. ﴾ [البقرة : ٢١٠].

فالظلل من الغمام وهذا يدل على كثرة الغمام ومجيئه على شكل خاص يوم تقوم الساعة وتتغير نواميس الكون .

ولا عجب فإن دقة الأسلوب القرآنى واستعماله لكلمة دون كلمة ، أو حرف دون حرف هى من مظاهر إعجاز هذا القرآن العظيم .

(ب) البرق والرعد والصواعق

ونطاق بحثه المواضع التالية :

وردت هذه الألفاظ فى القرآن الكريم على النحو التالى :

١- ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴾ [البقرة :١٩].

٢ – ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

يتم تحليل هذين الموضعين فى فصل " الطبيعة فى الأمثال القرآنية (١) " بمشيئة الله تعالى .

وهناك موضعان آخران هما :

- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٢،١٣].

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم :٢٤].

العرض الموضوعي :

أولا : الآيتان ١٢، ١٣ من سورة الرعد :

وردت هاتان الآيتان ضمن مجموعة من الآيات الكونية التى بدأت بها سورة الرعد ، فلقد بدأت هذه السورة بمعجزات ودلائل كونية عظيمة ، منها رفع السماء بغير عمد ، والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر ، وتدبير الأمور .

---

(١) انظر صـ ٥٩٩ : ٦٠٦.

قال تعالى: ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـــكِنَّ أَكْثَــرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ * اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَــرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ١،٢].

ثم ينتقل الأسلوب القرآنى الرفيع بعد ذلك إلى الآيات الكونية الأرضية بعد رحلتــه فى كونيات السمــاء العلوية ، فيبين الله تعالى دلائل إعجازه فى مــد الأرض وتثبيتهــا بالجبال الرواسي ، وإحيائها بالأنهار وإنبات الثمرات بأنواع مختلفة من كل زوجين اثنين يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَــرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... ﴾ [الرعد :٣] .

ثم يزاوج التعبير القرآنى البديع بين آيات الكون فى السماء والأرض ، يقول تعالى : ﴿ .... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَــوْمٍ يَتَفَكَّــرُونَ * وَفِــي الأَرْضِ قِطَــعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَــاء وَاحِــدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد :٣، ٤].

ثم بعد ذلك تستمر الآيات التالية للسابقة ، فى بيان قدرة الله ولجاجــة الكــافرين المكذبين، إلى أن ترد آية البرق متناسقة متناغمة ، مع موضوع السورة مبرزة قدرة الله عز وجل فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد :١٢] .

وفى تفسير الخوف والطمع يقول صاحب الكشاف :

" ومعنى الخوف والطمع أن وقوع الصواعق يُخاف عند لمع البرق ويُطْمِع فى الغيث .. وقيل يَخاف المطرمن له فيه ضرر، كالمسافرومن فى جرابه التمر والزبيب... والسحاب اسم للجنس ، والواحدة " سحابة "، والثقال جمع " ثقيلة ".. وهى الثقال بالماء ". [١]

---

(١) الكشاف ، مجلد ٢ / صــ٣٥٢ ، ٣٥٣/ ط . دار الفكر .

أما تسبيح الرعد فى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد :١٣] فقد ورد فيه أقوال كثيرة ومتعددة نذكر منها ما يلي :

– " أن الرعد اسم ملك من الملائكة ، وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل ".(١)

– " أن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى ، فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعالٍ عن النقص وإلا ما كان ذلك فى الحقيقة تسبيحًا ". (٢)

– " أن المراد من كون الرعد مسبِّحًا أن من يسمع الرعد فإنه يسبح الله تعالى ، فلهذا المعنى أُضيف هذا التسبيح إليه " . (٣)

ومع كل الإجلال لوجوه التفسير للعلامة " فخر الدين الرازى " إلا أنه يبدو للبحث أن الوجه الثانى ، هو أقربها إلى الصواب وأدلها على المعنى ، من حيث إن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص الذي يعقب البرق ويليه ، وأن هذا الصوت العظيم المهيب ، هو نوع من أنواع التسبيح والتنزيه لله العلى العظيم .

---

(١) مفاتيح الغيب مجلد ٩ / صـ٢١٣/ ط . دار الغد العربي .

(٢) مفاتيح الغيب مجلد ٩ / صـ ٢١٤/ ط . دار الغد العربي .

(٣) مفاتيح الغيب مجلد ٩ صـ ٢١٥. / ط . دار الغد العربي .

ثانيًا : الآية (٢٤) من سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

تدور هذه الآية – أيضًا – حول معجزة الله الكونية فى " البرق " وما ينتج عنه ، وهى ترد أيضًا فى سياق الإعجاز الكونى ، وبيان لدلائل عظيم قدرة الله من إنزال السماء للماء ، وإحياء الأرض وإنباتها للثمرات بعد الموت والعدم .

التحليل الفنى :

١- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٢ ، ١٣] .

٢- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم :٢٤].

لقد سبق القول بأن هذه الآيات وردت في سياق خاص ، يوجه العقول والنفوس إلى قدرة الله تعالى وعظمة خلقه ، ويدمغ حجج الكافرين بإنكار البعث ، ويغلق عليهم باب لجاجتهم ، لذلك نرى أن هذه الآيات تتناول ظواهر كونية عظيمة من " برق ورعد وصواعق " .

أولاً : سورة الرعد :

اشتملت آيتا الرعد على أربعة أمور وهى : " يريكم البرق " ، " ينشيء السحاب " ، " يسبح الرعد " ، " يرسل الصواعق " ، وهذه الأمور تحمل معها النعمة والنقمة ، ولذلك جاء قوله تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا ..) .

فالبرق وهو ظاهرة كونية معروفة لها هذان الأثران : الخوف والطمع !!

الخوف من الصواعق التى تنتج عن هذه الظاهرة ، فتدمر وتصيب من يشاء ، **والطمع** فى رزق الله وواسع عطائه ، من خلال نزول المطر ، وإجلالاً لهذه القدرة وبياناً لعظمة هذا التدبير؛ بدأت الآية الكريمة بالضمير " **هو** " بما يحمل من جلال وقدسية خلعها على جو النص القرآنى ، دعّمه بعد ذلك الاسم الموصول ، بدلالته في موضعه على الهيبة الإلهية الخاصة التى اكتسبها من السياق .

وفيما يلى تحليل لبعض اللفتات الأسلوبية :

١- **صيغة الفعل :** مما يلفت النظر فى هذا السياق حرص التعبير القرآنى على استعمال صيغة المضارع دون غيرها من الصيغ على النحو التالى : " **يريكم ... ينشيء ... يسبح ... يرسل ... يصيب** " .

وليس انتقاء هذه الصيغة من باب المصادفة ، ولكنه فن رفيع يؤكد على أن ظاهرة التوافق اللفظى والمعنوى فى التعبير القرآنى ظاهرة مطّردة ، وليست من قبيل المصادفة أو العشوائية حاشا رب العزة .

والتساؤل هنا : لماذا آثر الأسلوب القرآنى هذه الصيغة ؟

عند تأمل النص القرآنى الذي نحن بصدده ؛ نجده يتناول ظواهر كونية مستمرة الحدوث والتجدد فهى بدأت مع قيام الحياة ، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ متى تكون نهايتها ، لأنها مستمرة باستمرار الحياة ، فلا يستطيع إنسان أن يحدد نهاية لحدوث البرق والرعد أو نزول المطر وكذلك لا يمكنه أن يتنبأ بتوقفها ، فهذه الظواهر الطبيعية مستمرة .

كانت تحدث بالأمس ولا تزال تحدث حتى اليوم ، وسوف تستمر إلى ما شاء الله ، ولذلك كان الأدق والأنسب للتعبير القرآنى استعمال صيغة المضارع دون غيرها بدلالة هذه الصيغة على الحدوث والتجدد والاستمرار . كما أنها تشير إلى قدرة الله المطلقة المجردة عن حدود الزمان والمكان ، وببيان وتأكيد هذه القدرة يتناغم النص القرآنى مع الآيات السابقة عليه ويتسق معها فى الهدف .

٢- تركيب الفعل مع الفاعل ودقة الاختيار :

عند إمعان النظر فى النص القرآنى موضع البحث ، يلفت الانتباه دقة تركيب الجملة واستخدام أفعال معينة مع فواعلها على النحو التالى :

- " **يريكم البرق** " .. استعمال الفعل " يرى " مع البرق ؛ لأن البرق يضـيء عند حدوثه إضاءة خاطفة سريعة لا يمكن تعقبها بأى حاسة سوى حاسة النظر ، فالبرق كما هو معروف ظاهرة كونية ، تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتـين بالكهرباء ، وهذا اللمع الخاطف والشرر السريع لا تلتقطه سوى العين .
- " **ينشيء السحاب الثقال** " .. السحاب بكّل خواصه ، وطريقة تجمعه حتى يصبح سحابًا ثقالاً ؛ يحتاج إلى التكوين والإنشاء فهو لا يحدث سريعًا كالبرق ، بـل يسـتلزم وقتًا ، والله عز وجل قادر على كل شيء ، ولكنه تعالى يعلمنا أن لكل شـيء وقـتًا ومقدارًا ، فالسحاب الثقال لا يتكون فجأة ولا يحدث لحظيًا ، ولكنه ظاهرة كونيـة لهـا وقتها وقدرها ؛ ولذلك كان الأدق استعمال الفعل "ينشيء " بدلالته على التكوين والتجمع شيئًا فشيئًا .
- " **يسبح الرعد** " ... إن المخزون الفكري والمعرفى عند المتلقـى عـن الرعـد هوالصوت العظيم ، وكذلك فإن دلالة " التسبيح " عند المتلقى هو التنزيه والتقـديس ، وقد اقترنت كلمة التسبيح بالصوت ، همسًا وتهليلاً – وإن لم يكن كل التسبيح كـذلك – وكأن صوت الرعد هذا هو التسبيح والتقديس الكوني بحمده ، مصداقًا لقوله تعـالى : "وإن من شيء إلا يسبح بحمده " [الإسراء : ٤٤].

واستأنس فى هذا التحليل بهذا القول الذي أورده الرازي فى كتابه : " الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه ، لأن التسـبيح والتقـديس ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله تعالى " (١).

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ٩ / صـ٢١٤/ ط . دار الغد العربي .

• " **يرسل الصواعق** " .. الصواعق مفردها " الصاعقة " ، والصاعقة : نار تسقط من السماء فى رعد شديد [(١)] .

إذن فالصواعق تنتج عن الرعد ، وهى كذلك دليل مادى ملموس على قدرة الله وآيات معجزاته فى هذا الكون ، وهذه الصواعق يرسلها الله عز وجل ، فيصيب بها من يشاء ، ومعنى هذا أن سقوط هذه الصواعق من السماء ، مُوَجَّه ومُهَدَّف ، ولذلك كان الأدق والأجمل استعمال الفعل " يرسل " بهذه الصيغه ؛ لدلالته على المعنى المقصود من أن هذه " الصواعق " رسالة ذات مضمون ، وليست إسقاطًا من السماء يأتى مصادفة أو نتيجة حتمية لحركة كونية طبيعية .

٣-**الإفراد والجمع** :

إن ظاهرة الإفراد والجمع فى الأسلوب القرآنى ظاهرة لافتة للنظر ، حيث نجد التعبير يعدل عن الواحد إلى الجمع ، أو يُخرج الجمع فى صورة الواحد ، وهذا بالفعل ما ورد فى النص الذي بصدد التحليل ، حيث نلاحظ توازنًا عظيمًا فى الآيتين ، فنجد أن كلمة " البرق " وردت مفردة ، ثم بعد ذلك كلمة " السحاب " جمعًا ، ثم يرد " الرعد " مفردًا ، و " الصواعق " جمعًا ، وهذا الترتيب وذلك التناسق لم يأتِ مصادفة ، بل هذا هو الإعجاز اللغوى فى الأسلوب القرآنى يتضح فى صورة جلية .. ولكن ما علة إيثار الإفراد في كلمتي " البرق " و " الرعد " ؟ والجمع في " السحاب " و " الصواعق " ؟

أولاً : " البرق والرعد " من المصادر والأصل فى المصدر ألا يجمع [(٢)] ، على الرغم من استعمال العرب لبعض المصادر مجموعة ، ولكن الأسلوب القرآنى لم يستعمل صيغة الجمع أبدًا مع هذين المصدرين ، حيث ورد كل منهما مفردًا فى مواضعه =

---

(١) لسان العرب / مجلد٦ / مادة " صعق " / صـ ٣٤٨/ ط . دار إحياء التراث الإسلامي .

(٢) راجع البحر المحيط / جـ١ / صـ ١٤٠ / ط. دار الفكر . لبنان .

=وانظر الآيات (١٩، ٢٠) من سورة البقرة ، وكذلك النص الذي نحن بصدده ، وكذلك الآية (٢٤) من سورة الروم .

وهذا يعنى أن إيثار المفرد لكلمتى " البرق والرعد " ليس من قبيل المصادفة ، بل إن الأسلوب القرآنى عمد إليه عمدًا مراعاة للأصل ، لأن هذا الأصل فى هذا الموضع له قيمة فنية على المستويين الدلالى والصوتى .

*** المستوى الدلالى :**

البرق – كما سبق القول – لمع سريع خاطف ، يحدث بسرعة ويحتاج إلى دقة الملاحظة والرؤية والتركيز ، وصيغة المفرد هنا تساهم فى هذا المعنى وتؤصله وتمنع تشتت الرؤية ، بخلاف صيغة الجمع " بروق " التى لا تؤدى السرعة المطلوبة فى التقاط هذه الظاهرة الكونية ، كما أن صيغة المفرد أقرب إلى ذهن وفهم المتلقى ، لأن الإنسان عندما يرى هذه الظاهرة فى السماء يراها دفعة واحدة ولمحة واحدة ، وكذلك " الرعد " فالأجمل والأدق أن ترد مفردة ، حيث تخدم وتكمل تلك اللوحة الكونية المعجزة ، وتساهم فى توحد الأثر عند المتلقى ، فصيغة المفرد هذه تعمق الأثر ، وتؤصل الإحساس بهول وعظم هذه الظاهرة .

*** المستوى الصوتى :**

يتبقى بعد ذلك أمر مهم لا يغفله التعبير القرآنى ، ألا وهو مراعاة النغم والأداء الصوتى للألفاظ ، ومن أجل ذلك أيضًا آثر الأسلوب القرآنى صيغة المفرد فى هذين اللفظين ولنعرف الفرق فى الأداء الصوتى نحاول أن نقرأ النص القرآنى بالجمع فنقول :

(هو الذي يريكم البروق خوفًا وطمعًا ..) ، (وتسبح الرعود ...) .

بالطبع نلاحظ الانهيار التام فى موسيقا الكلمات عندما نقرأها بصيغة الجمع .

ولقد سبق القول بأن البرق لمحة سـريعة خاطفة ، لذلك فإن الأداء الصوتى والإيقاع لكلمة " البرق " أدق وأسرع من " البروق " بصيغة الجمع وزيادة حرف الواو .

ثم نجد الأسلوب يعدل عن صيغة المفرد ، كما ورد فى " البرق " إلى صيغة الجمع عند الحديث عن " السحاب " فما علة ذلك ؟

" **وينشيء السحاب الثقال** " ... الواقع أن هذا النص القرآنى الكـونى ، مـرتبط أشـد الارتباط بالمخزون المعرفى والبصري المعهود عند الإنسان عن هذه الظواهر الكونية ، فكل منا عندما يلاحظ السحاب ، وخاصة في الشتاء ؛ يراه متفرقًا كالقطع هنا وهنـاك لذلك لا يصح مطلقًا استعمال صيغة المفرد ؛ لأنها تخالف الواقع والمتعارف عليه بـين الناس ، ومن هنا عدل الأسلوب البليغ عن صيغة المفرد وآثر الأدق وهى صيغة الجمع . ولعل ما يعضد قولى هذا ، أن الأسلوب القرآنى لم ترد فيه أبدًا لفظة " السحاب " مفردة ؛ بل ترد دائمًا بصيغة الجمع ، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم تسع مرات ، خمـس مرات بلفظ " السحاب " سواء معرفة أونكرة ، ومواضعها كما يلى :

١- ﴿ ..وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة :١٦٤] .

٢- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] .

٣- ﴿ .. يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ .. ﴾ [النور:٤٠].

٤- ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ... ﴾ [النمل : ٨٨] .

٥- ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور :٤٤] .

وأربع مرات بلفظ " سحابًا " ومواضعها كما يلى :

١- ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ .. ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

٢- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا .. ﴾ [النور : ٤٣] .

٣- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .. ﴾ [الروم : ٤٨] .

٤- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .. ﴾ [فاطر: ٩] .

وفى ذلك إشارة إلى الإعجاز الكونى لخلق وتكوين هذا السحاب ؛ فعملية الإنشاء تدل على التكوين والتجميع ، كما ورد فى قوله تعالى :
(وينشيء السحاب الثقال) ، وهذا التكوين والتجميع يبدأ بالواحد ليصير وحدانًا ، لذلك كان الأدق استعمال صيغة الجمع مع السحاب .

وكذلك نجد لفظ " الصواعق" ورد مجموعًا بعد " الرعد " وهو مفرد .

عند إحصاء البحث لهذا اللفظ فى القرآن الكريم ، وُجد أنه ورد مرتين بصيغة الجمع " الصواعق " فى الموضعين التاليين :

١- ﴿ .. يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ .. ﴾ [البقرة :١٩] .

٢- ﴿ .. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء .. ﴾ [الرعد: ١٣] .

وكذلك وردت الكلمة بصيغة المفرد فى ستة مواضع وهى :

١- ﴿ .... حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ .. ﴾ [البقرة : ٥٥]

٢- ﴿ .. فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ... ﴾ [النساء :١٥٣] .

٣، ٤ - ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣]

٥- ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ .... فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ.. ﴾ [فصلت : ١٧].

٦- ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات :٤٤] .

والملاحظ أنها عندما ترد للهلاك ملازمة البرق والرعد ، ترد جمعًا ، على النحو التالى في قوله تعالى :

١- ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ﴾ [البقرة :١٩] .

٢-﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء .. ﴾
[الرعد : ١٢، ١٣].

أما عندما ترد للهلاك في سياق بعيدًا عن ظاهرتي البرق والرعد ، فإنها ترد مفردة ، وهذا ما ورد فى المواضع الستة السابقة فما دلالة ذلك ؟

عندما نتتبع لفظ " الصاعقة " فى الأسلوب القرآنى ؛ نجده يقترن بكلمة " الأخذ " أى " أَخَذَتْهُم " ، " أَخَذَتْكُم " ، ماعدا الآية (١٣) فى سورة فصلت سُبق لفظ " الصاعقة بقوله: " أنْذَرتُكُم "، ثم فى الآية (١٧) ، مسبوقا بلفظ " فأَخَذَتْهم " أيضًا .

ولقد حاولت أن أجد تفسيرًا محددًا لكلمة " الأخذ " وكذلك " الصاعقة " ، فوجدت أن " الصاعقة " وردت بمعنى : صيحة العذاب أو الموت. (١)

والأخذ كما هو مفهوم من الآيات ، بمعنى العقاب ، أى أصابتهم الصاعقة وعوقبوا بها من الله تعالى ، وقد ورد فى لسان العرب معنى " الأخذ : آخذه بذنبه مؤاخذة عاقبه وفى التنزيل العزيز : " فكلاً أخذنا بذنبه " يقال أُخذ فلان بذنبه أى حُبس وجوزىَ عليه وعوقب به " (٢) .

وبعد تقصى أحوال لفظ " الصاعقة " و " الصواعق " نصل إلى ما يلى :

١- أن لفظ " الصاعقة " يقترن بالمادة المعجمية " أخذ " ، وكذلك يأتى أحيانا فى قوم معينين مثل بني إسرائيل فى سورتى البقرة والنساء ، وقوم " ثمود " فى سورتى فصلت والذاريات ، وهو يرد فى مقام الإهلاك والعذاب ؛ جزاء بما كسبت أيديهم ، وهذا يعنى أن الإصابة والعقاب محيط بهؤلاء القوم ، مسلط عليهم ، فهم مستهدفون بعينهم بهذه الصاعقة وهذا العذاب ، ولهم مكان محدد ، لذلك كان الإفراد أولى .

---

(١) انظر القرطبي / مجلد ١ / صـ٢٦٥ /ط . دار الغد ، وكذلك الكشاف / مجلد ١ صـ ٢٨٢/ط . دار الفكر.

(٢) لسان العرب / مجلد ١ / مادة (أخذ) صـ٨٤/ دار إحياء التراث العربي . بيروت .

٢- أن لفظ " الصواعق " ، يرد جمعًا عندما تتناول الآية هذه الظاهرة الكونية ، من برق ورعد وصواعق ، وأن لفظ " الصواعق " ، اقترن بـ " يرسل " فى سورة الرعد، ولهذا آثر الأسلوب صيغة الجمع لأن الإرسال – ويليه قوله تعالى : " فيصيب بها من يشاء ... " – يدل على تعدد المصابين والمعاندين وتفرق أماكنهم ، ولهذا التعدد كان الجمع أولى وأدق للسياق ، وأكثر هيبة ورهبة .

ولا يفوتنا أيضًا أن الفعل " أخذ " فى قوله تعالى : " فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم " (النساء : ١٥٣) ، يدل على التركيز والتوحد ، والإحاطة لذلك كان الأدق استعمال المفرد بإيحائه فى السياق على التوجه المباشر ، بينما قوله تعالى : "ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ... " (الرعد :١٣)، يدل على التفرق والإرسال في كل مكان ، وعلى من يشاء ، وهذا التشتت والاتساع يلائمه الجمع ، وفى كلا الحالتين هو دليل على قدرة الله تعالى وحكمته فى عقابه وانتقامه .

تعقيب:

وحول ظاهرة الإفراد والجمع فى القرآن الكريم ، هناك مأخذ للدكتور " محمد أمين الخضري " على صاحب الكشاف فى علة إفراد " البرق والرعد " وهو – والكلام للدكتور الخضري – " وما ذهب إليه الزمخشري وتابعه فيه غيره من أن البرق والرعد مصدران فى الأصل والمصدر لا يجمع ، مما لا يكشف عن بلاغة النظم الحكيم ، فما أكثر المصادر التى وردت مجموعة فى كلام العرب وفى الذكر الحكيم " [١].

وأُعقب على هذا الرأى – مع كل الاحترام له – بأن هناك مصادر لو جمعت فى بعض السياقات ؛ لأحدثت نشازًا ونفورًا فى النظم ، على صحتها لغويًا ومن هذه المصادر" البرق والرعد " ، واستدلُ على ذلك بعدم ورودهما بصيغة الجمع أبدًا فى أى موضع فى القرآن الكريم ، وهو الصورة المثلى للبيان الرفيع .

---

(١) الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ . د/ أمين الخضري ، صـ ٣٩ / ط.الحسين الإسلامية – القاهرة .

ثم قدم الدكتور الخضري تفسيرًا لعدم الجمع ، عند تصديه لقولــه تعــالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّــوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩] نصه ما يلى : " لو جمعت الرعود والبروق لكان من ضوئهما ما يقلل تكاثف الظلمات " [١].

وعفوًا فإن هذا التوجيه والتحليل ، ينقصه الدقة،وذلك لأنه لو صح فى حق " البرق " فكيف يصح فى جانب " الرعد " ؟ لقد علل الدكتور الإفراد بإنه يساهم فى شدة الإظلام مقويًا بذلك الظلمات ، وهذا يصح فى" البرق " فقط ؛ لأنه وحده هو الذي يلمع وينير ، أما " الرعد" فلا علاقة له بالضوء والإنارة ، فكما هــو معــروف أن البــرق والرعــد ظاهرتان تحدثان سويًا ، أحدهما يضيء وهو البرق ويظهر أولاً ، والثانى يُحدث صوتًا عظيمًا وهو الرعد ويليه ظهورًا ، لاختلاف سرعة الضوء عن الصوت ، فالأولى أسرع ولذلك يظهر البرق أولاً ، إذن فالدكتور الخضري قدم تفسيرًا لإفراد " البرق " فقــط ، فما قاله لا يفسر إفراد " الرعد " ، والله أعلم .

وإذا فرضنا صحة تفسيره لإفراد " البرق والرعد " فى آية سورة البقرة ، فبم يفســر إفرادهما فى باقى المواضع فى الأسلوب القرآنى ؟!

---

(١) السابق صـــ ٣٨.

ثم ننتقل إلى الموضع الثاني في سورة الروم وهو قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٤] . عند مقارنة هذه الآية بالنص القرآنى السابق من سورة الرعد ، يتبدى من النظرة الأولى التشابه الشديد بينهما ، ولكن عند التمحيص والتدقيق يتضح أنه على الرغم من هذا التشابه ؛ إلا أن هذه الآية تختص بسمات عن آية سورة الرعد ، وفيما يلى توضيح لأوجه التشابه والاختلاف بينهما :

أولاً : التشابه :

- كلاهما يرد فى سياق بيان عظمة الله – عزوجل – وقدرته على تصريف هذا الكون بما فيه من خلال بيان قدرته تعالى فى ظاهرة البرق وما يليها من ظواهر أخرى .
- بدأت الآية هناك بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴾ [الرعد : ١٢]

ثم تبدأ فى سورة الروم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ... ﴾ [الروم : ٢٤] ، أى تكرار ألفاظ بعينها وهى : " يريكم البرق خوفًا وطمعًا " .

ثانيًا : الاختلاف :

عند المقارنة بين الآيات موضع الدراسة ، نلحظ عظمة هذا الأسلوب الكريم ، فالقراءة السريعة قد توهم القارئ بأن هناك تماثلاً أو تكرارًا لهذه الآيات ، ولكن النظرة المتأنية تُظهر خلاف ذلك ، على الرغم من تشابه بعض كلمات الآيات كما سبق ، والتحليل الآتى يوضح ما أقصده :

عندما نقرأ النص القرآنى موضع الدراسة من سورة الرعد ؛ نلحظ أنه يتناول ظاهرة البرق كاملة مفصلة ، فى مقام طلاقة القدرة ، والتخويف والزجر لمن ينكرون قدرة الله وينكرون عليه البعث والإحياء .

وعناصر الظاهرة الكونية كاملة مفصلة على الوجه التالى :

١- حدوث البرق . ٢- إنشاء السحاب الثقال المحمل بالماء .

٣- الرعد . ٤- الصواعق .

وبتحقق هذه العناصر الأربعة يتحقق قوله تعالى : " خوفًا وطمعًا ... " ، فالخوف من هذه السحاب الثقال لئلا تُحدث السيول والدمار ، والطمع في خيرها ، ومطرها الذي تستقيم به الحياة . وكذلك الخوف من هذه الصواعق المدمرة .

بينما فى سورة الروم ، نلحظ أن ظاهرة البرق لم ترد مفصلة كاملة ، وإن كانت وردت كذلك في بيان قدرة الله وبيان آياته لمن ينكرون لقاء الآخرة ، ولكنها اختصت ببعض مراحل هذه الظاهرة الكونية لهدف خاص بالسياق الذي وردت فيه ، فلم يرد تكوين السحاب الثقال ولم يرد الرعد ، ولم تُذكر الصواعق ، لذلك فالبناء اللغوى هنا مختلف وكذلك الأداء المعنوى ، على النحو التالى :

إيجاز مرحلة تكون السحاب واختزان الماء ، ويرد مباشرة قوله تعالى : " وينزل من السماء ماء ... " ، وماذا ينتج عن ذلك ؟ إنه الإحياء بعد الموت لمن ينكرونه على الله ، ولنتأمل قوله تعالى : " فيحي به الأرض بعد موتها " ، ولا تخفى دلالة الفاء على الترتيب والتعقيب ، وبيان قدرة الله فى إنزال هذا الماء ثم الإحياء السريع .

وأخلص من هذا أن البناء اللغوى للنص القرآنى في سورة الرعد ، يمنحنا مشهدًا لظاهرة البرق يختلف تمامًا عن ذلك المشهد فى سورة الروم ، فالأول يهز النفس خوفًا ورهبة من صوت الرعد المخيف ، ورجفة من تلك الصواعق المتناثرة المرسلة هنا وهناك ، وكأننا من خوفنا نتمثل قوله تعالى : ﴿ ... يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ... ﴾ [البقرة : ١٩]، فكأن الإنسان بالفعل يحذر الموت بعد سماع هذه الآية المهيبة .

بينما في سورة الروم فالأمر مختلف ، والمشهد أكثر راحة وأمنًا ، تدب فيه الحياة ، لا تنقطع عنه الرحمة ، يحمل بهجة الإحياء بعد الإماتة ، يأتى بخير البرق وتوابعه متجاهلاً شره وصواعقه .

ولنتأمل قوله تعالى في سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴾ مشهد حى ، وظلاله فى النفس عميقة ، متناقضة الأثر بحجم التناقض والتباعد بين الحياة والموت ، وقد عمّق هذا الإحساس ، استخدام الأسلوب القرآنى للتضاد بين السماء والأرض و الإحياء والإماتة ، ذلك التضاد الذي يتسق ويتناغم مع مضمون الآية ، بما يلقيه فى النفس من إيحاء بمنظر أخضر نضر مبهج ، يدعو إلى التسبيح بحمد الله والإقرار بعظيم قدرته التى حولت الموت – بما يوحيه هذا اللفظ من جفاف وسكون وكآبة – إلى حياة بكل ما يحمل هذا اللفظ من نبض .

ولعل تذييل كل من الموضعين يعضد هذا التحليل السابق ، ففي سورة الرعد تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ .. . وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].
فخاتمة الآية تؤكد على شدة بأس الله ومكره ، ولم تتضمن رحمته ، بل لعلها إنذار لهؤلاء المجادلين المعاندين أكثر من أى شيء آخر .

بينما آية الروم تُذَيِّل بقول بديع ، يدعو إلى التعقل والتدبر فى خلق الله ، ويوحى برحمة وشفقة الله تعالى على عباده ، ولنتأمل معًا قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم :٢٤].

وتتبقى كلمة أخيرة فيها كشف وإقرار بعظمة هذا الكتاب الكريم ، وتناسقه بشكل متفرد غير مسبوق ولا ملحوق إلى قيام الساعة ... وأقصد بذلك هذا التناسق البديع ليس بين كلمات الآية أو الآيتين أو الثلاث، ولكن بين أجزاء السورة كلها ، فهى كل متكامل متناسق ، يعضد بعضه بعضًا ، غير منفصل ولا مبتور الصلة . وتوضيح ذلك فيما يلي :

عند المقارنة بين الآيات موضع الدراسة ، نلحظ الاختلاف الواضح فـــى صـــدر آيـــة الرعد عن صدر آية الروم على النحو التالى :

أولاً : آية الرعد : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴾ [الرعد: ١٢].

ثانيًا : آية الروم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ... ﴾ [الروم : ٢٤].

فلماذا عدل الأسلوب القرآنى فى سورة الروم ، عما جاء فى صدر آية الرعد مـــن قوله : " هو الذي يريكم " إلى قوله تعالى : " ومن آياته يريكم " ؟ على الرغم من توافق الموضعين فى المعنى العام تقريبًا ؟

عند متابعة آيات سورة الرعد التي تقدّمت على الآيتين [١٢ ، ١٣] موضع الدراســـة نجد بعضها يتصدر بلفظ الجلالة أو بضمير عائد عليه ، يليه أحيانًا اسم موصول فـــى صدر الآيات ، ولقد تتبعتُ هذا على النحو التالى :

١- ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... ﴾ [الرعد: ٢].

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ .. ﴾ [الرعد : ٣].

٣- ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ... ﴾ [الرعد: ٨].

٤- ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴾ [الرعد: ١٢].

وهذا هو المقصود بما سبق ذكره ، من أن هناك تناغمًا تامًا في بنـــاء الســـورة ، فليست آية الرعد منفصلة عن أجزاء السورة ، ولا مبتورة عن السياق ، فالمعنى العـــام واحد ؛ وهو إثبات قدرة الله وعلمه ، ومن ثَم فهى دعوة إلى التوحيد وعدم الشرك بـــالله تعالى ، لذلك جاء الأسلوب حاملاً ظلال الهيبة والإجلال ، يدعم ذلك ويؤصله استعمال لفظ الجلالة " الله " أو الضمير، بما له من إيحاء وإيقاع متكرر فى آيات القدرة المطلقة .

بينما عندما نتتبع آيات سورة الروم ، نجد أن قوله تعالى : " ومن آياته ... " يتكـــرر في صدر آيات القدرة ، بدءًا من الآية (٢٠) على النحو التالى :

١- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

٢- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ [الروم :٢١] .

٣- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .... ﴾ [الروم: ٢٢] .

٤- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..... ﴾ [الروم: ٢٣].

٥- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .... ﴾ [الروم: ٢٤].

أليس هذا تناسقًا وتوافقًا عجيب الشأن لا تلمحه الرؤية الخاطفة . إن الخيط الذي يربط بين هذه الآيات ؛ هو الدعوة إلى التدبر والتفكر لأنهما بداية الطريق ، لذلك تكرر قولــه تعالى في صدر الآيات : " ومن آياته " .

ثم تُختم الآية (٢١) بقوله تعالى : ﴿ .... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

والآية (٢٢) بقوله تعالى : ﴿ .... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

والآية (٢٣) بقوله تعالى : ﴿ .... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

والآية (٢٤) بقوله تعالى : ﴿ .... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وأحسب أن هذا العرض يؤكد ويدعم ما ذهب إليه البحث من أن آية " البرق " فى سورة الروم وردت فى مقام النصح والإرشاد والرحمة والخير ، وكانت دعــوة طيبــة للتدبر والتفكر فى قدرة الله ، بينما آية " البرق " فى سورة الرعد وردت في مقام التحذير والزجر ، وبيان قدرة الله وبأسه فى عقاب الجاحدين المنصرفين ، ولعل تسمية الســورة ذاتها بسورة " الرعد " فيه دلالة على ذلك .

مع التأكيد على أن دلالة الآية لا نستطيع – كما سبق القول – فصلها عما قبلها أو بعدها من الآيات ، بل تكتسب دلالتها من السياق العام الذي وردت فيه .

(جـ) الرياح والمطـــر والغيــث :

لم يترك الأسلوب القرآنى عنصرًا أو ملمحًا من الآيات الكونية إلا تعرّض له ، ومازال البحث يخص هذه الآيات الكونية بالبحث والتحليل ، وفى هذا الجزء الأخير من المبحث الثاني ، نتوقف عند بعض عناصر الطبيعة الحية التى لا يغفلها إنســان ، وهى : " الرياح والمطر والغيث " ، وعند إحصاء كلٍ من هذه العناصر فى الأســلوب القرآنى تبين ما يلى :

*** وردت كلمة " الرياح " عشر مرات على النحو التالى :**

١- ﴿ ... وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَــاتٍ لِّقَــوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُــقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْــرِجُ الْمــوْتَى لَعَلَّكُــمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧].

٣- ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢].

٤- ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْــأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

٥- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٦- ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

٧- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم:٤٦].

٨- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨].

٩- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

١٠- ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥].

<u>* وردت كلمة " مطر" خمس مرات على النحو التالي :</u>

١- ﴿... وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) [النساء: ١٠٢].

٢- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٤].

٣- ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

٤- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣]

٥- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٨].

* **أما كلمة " الغيث " فقد وردت ثلاث مرات كما يلي :**

١- ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨].

٣- ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

تلك هى المواضع التى وردت فيها العناصر الكونية التى أشار البحث إليها ، ولكن نطاق البحث سوف يتناول بعضها دون الآخر فى الجزء الخاص بالرياح ، حيث إن بعض آيات " الرياح " تتداخل فى مباحث أخرى فى الباب الثالث ، لذلك سوف نكتفى بتحليل بعض النماذج فى هذا المبحث على النحو التالى :

أولاً : (الرياح) : وقد وردت فى الأسلوب القرآنى بأكثر من صيغة ، وإن كانت تجتمع حول معنى عام مشترك ، وفيما يلى تفصيل ذلك :

١- تصريف الرياح : وذلك فى آيتى البقرة (١٦٤) والجاثية (٥)، ويتم تحليلها فى الباب الثالث .

٢- الرياح ، واقترانها بالبشر : وذلك فى الآية (٥٧) من سورة الأعراف ، والآية (٤٨) من سورة الفرقان ، والآية (٦٣) من سورة النمل ، والآية (٤٦) من سورة الروم .

٣- الرياح اللواقح : الآية (٢٢) من سورة الحجر .

٤- الرياح المثيرة للسحاب : الآية (٤٨) من سورة الروم ، والآية (٩) من سورة فاطر.

العرض الموضوعي :

تجتمع الآيات السابقة في مضمونها حول فكرة تكاد تكون واحدة ، وهى بيان عظيم قدرة الله في هذا الكون، وإثبات الوحدانية له تعالى ، وأنه – جلَّ وعلا – قادر على الإحياء بعد الموت ، بل هو أهون عليه .

كما تبين هذه الآيات أن " الرياح " بهذه الصيغة – وأعنى صيغة الجمع – تأتى بالخير وبالبشر ، وهى رمز للنماء والحياة .

التحليل الفني :

(الرياح) واقترانها بلفظ (البشر والرحمة) : وقد ورد ذلك في أربعة مواضع هى :

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧].

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٣- ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

٤- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم:٤٦].

عند البحث فى الآيات السابقة ، نلحظ أن المعنى العام واحد ، وهـوأن الريـاح مبشرة وما يترتب على ذلك من مصالح العباد ، وكذلك فإن هدفها مشترك وهو إثبـات قدرة الله تعالى ، وعظيم تصريفه فى أمور الكون وشئون وأحوال العباد .

ولكن الذي يستلفت الانتباه ، أن كل آية تستقل بميزة خاصة تنفى شبهة التكرار بين الآى الكريمة ، ففى سورة الأعراف نجد لوحة حية نابضة متكاملة العناصر ، حيث تبدأ الآية بإرسال الرياح المبشرة برحمة الله تعالى وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا ﴾ ، ثم حمل هذه الرياح للسحاب الثقال ، ثم سوقه إلى بلد ميـت ، وإنزال الماء وإحياء الأرض ، ثم إخراج الثمرات ، والأمر لا ينتهى عند هذا ، ولكـن يستثير الأسلوب القرآنى عقل وفكر المتلقى بالبرهان المرئي والدليل القاطع فى تشـبيه هذه الرحلة بالبعث والنشور ، فى قوله تعالى :

﴿ .... كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أما فى آية الفرقان ، فنجد اختزالاً لهذه المراحل السابقة ، فالبداية إرسـال الريـاح ، وتنتهى الآية عند إنزال الماء الطهور من السماء ، ويُطوى ما بين البداية ونزول المطر

ثم تظهر لفتة الإحياء فى الآية التالية لها على النحو التالى : ﴿ وَهُوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِـهِ بَلْـدَةً مَّيْتًـا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٨ ، ٤٩].

بينما فى آية النمل يتوقف السياق عند إرسال الرياح ، حيث ترد الآية فـى سـياق مجموعة من الآيات الاستفهامية ، التى تناقش بالأدلة وحدانية الله وقدرته عز وجـل ، فيرد عجُز الآيات مكررًا قوله تعالى : " أءِله مع الله .. " فهى دعوة للتدبر والتفكر عن طريق هذا الإنشاء .

أما في سورة الروم ، فنجــد آيــة " الرياح " تحمل ملمحًا مغايرًا لما ســبق ، ومبينًا وجهًا جديدًا من وجوه الرحمة لم يُذكر فى الآيات السابقة ، وهو حركة الفلك فى الماء بأمر الله ، من خلال الرياح ، ليبتغى الإنسان من فضله .

وهكذا نلحظ أن الهدف من الآية ، ومكانها بين السابق عليها ، واللاحق لها يحــدد السياق ، فقد يؤثر الأسلوب التفصيل عند الحاجة إليه ، كما ورد فى سورة الأعراف ، وهى أول موضع يعرض صورة حية متكاملة للرياح .

لذلك وردت الصورة بكل تفاصيلها ، بينما فى آية الفرقان ، تــم اختــزال بعــض المراحل فقد أصبحت معروفة مفهومة ولا داعى لتكرارها ، وفى هذه المراحل يُمــنح المتلقى مساحة من التفكر والتخيل ، وإسقاط المحذوف من الصورة مكانه ، وخاصة أن هذه الصورة جاءت مفصلة واضحة فى سورة الأعراف .

وفى آية النمل كان ذكر " الرياح " بمثابة الإشارة ، فهي لمحة خاطفة سريعة بــين وجوه كثيرة من وجوه الإعجاز التى تخاطب العقل البشري عله يهتدى .

وفى سورة الروم تتعرض الآية للمحة جديدة من وجوه رحمــة الله - عزوجــل - وهى تسيير الفلك بأمره بفعل الرياح ليبتغى الإنسان من فضل الله ، ويدرك عظمة الله - عزوجل - ودلائل قدرته ، وماذا يحدث لو أسكن الله هذه الرياح ؟ ولعل هــذا مــا أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢ ، ٣٣]

وبذلك نخلص إلى أن الآيات السابقة تجتمع حول فكرة عامة مشتركة ، إلا أن كــل موضع له محور خاص ، ويضيء جانبًا جديدًا ، ويقدم لمحة أو لفتــة تختلــف عــن سابقتها .

ثم نتوقف بعد ذلك أمـــام توظيــف " الرياح " كملمح كونى أصيل فى الأسلوب القرآنى ، فالرياح هى المحور والبطل فى اللوحات الأسلوبية السابقة ، ولعل أول مـــا يلفت الذهن ويسترعى الانتباه ، استخدام التعبير القرآنى – فى كل المواضع السابقة – للفظ " الرياح " بصيغة الجمع ولم ترد بصيغة المفرد " الريح "، فهل هناك فرق بـــين الصيغتين ؟ وهل يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى ويستقيم السياق ويتحقق الغرض منه ؟ ونترك الإحصاء والدراسة تجيب عن هذا التساؤل .

عند تتبع الآيات السابقة التى ذُكرت فيها صيغة الجمع " الرياح " ؛ وجـــد أن هـــذا اللفظ لا يرد إلا حاملاً معه البشرى والخير والرحمة ، و لفظ " الريح " يرد مفردًا فى سياق العقاب والهلاك والزجر – غالبًا – ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

- ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـــذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَـــوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـــكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧].
- ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٩].
- ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَـــا بَـــلْ هُـــوَ مَـــا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤].
- ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات:٤١ ، ٤٢].

وقد ورد لفظ " الريح " مفردًا دالا على الخير فى أربعة مواضع ، وهى :

- ﴿ .... وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ...﴾ [يونس :٢٢].
- ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١].

- ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سبأ : ١٢].
- ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦].

ولعل ما ورد فى " الكامل " فى هذا الشأن يعضد ذلك ، حيث كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول عند هبوب الرياح : " اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا " . فإن العرب تقول : لا تَلْقَح السحاب إلا من رياح . وتصديق ذلك قول الله – عزوجل-: " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا " [١].

وذكر فى الحكمة من ذلك : " أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والهيئات والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلتها ما يكسر سورتها ، فينشأ ريح من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت فى الرحمة رياحًا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع " . [٢]

وفي ضوء ذلك يبدو للبحث ، أن كثيرًا من علماء اللغة والمفسرين قد اختص "الرياح" بصيغة الجمع للبشرى والخير ، أما " الريح " بصيغة المفرد فهى – كما سبق عند إحصاء الآيات – للزجر والعقاب والوعيد ...

---

(١) انظر " الكامل " للمبرد / جـ٢ / صـ٦٦ / ط . مؤسسة المعارف . بيروت .

(٢) انظر " الإتقان فى علوم القرآن " للسيوطى/ جـ ١/ صـ ١٩٢ / ط. المكتبة الثقافية . بيروت . لبنان .

ولكن للبحث رؤيةٌ في هذا الأمر وهى أنه ليس هناك خلاف فى المعنى المعجمى بين الريح والرياح ، ولكن السياق هو الذي يحدد ذلك ، ولعل المفسرين اتجهوا لهذا بأن تكون " الرياح " مجموعة فى الخير كأمر تغليبى وليس كلى ، لأن " الريح "مفردة قد استعملت فى الخير أيضًا كما فى قوله تعالى فى سورة يونس : ﴿ وجرين بهم بريح طيبة .. ﴾ [يونس : ٢٢] *.

وإذا حاولنا أن نقترب أكثر من كلمتى " الرياح " و " الريح " ونحللهما على المستوى الصوتى ، لمسنا روعة الأداء ، ودقة الأسلوب القرآنى فى اختيار اللفظ ؛حيث وردت كلمة " الرياح " فى مقام البشرى و الرحمة ، وبسط الرزق وإثارة السحاب ، لذلك كان الأليق والأدق استعمال اللفظ مجموعًا ممدود الياءوالإيحاء ، كما أنه ممدود العطاء ، وقد تحقق ذلك من خلال الياء الممدودة بالألف ، ذلك المد الذي يوحى بالبسط والارتياح ، ولنتأمل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .. ﴾ [الروم: ٤٨].

كما نلحظ عند التأمل فى الآية ، ذلك التوازن المعنوى والموسيقي المتناغم ، بين تناسق الجمع في كلمتي " الرياح والسحاب " .

✍ **<u>لفتات أسلوبية بين الآيات :</u>**

ولكى نستطيع المقارنة بين أسلوب الآيات نعيد كتابتها ليسهل تتبعها :

١- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ **[الأعراف:٥٧].**

---

* راجع الألوسي / مجلد ٥ / جـ٧ / صـ ٢٧٦/ ط. دار الكتب العلمية . بيروت.

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٣ -﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

*** ظاهرة (هو الذي) :**

نلحظ عند استقراء الموضعين (١ ، ٢) أن الآيتين تتصدران بالضمير " هو " ملحوقًا بالاسم الموصول " الذي " ، بدلالته في هذا الموضع على الخصوصية ، وكثيرًا ما حاولت من خلال هذه الدراسة أن أتوصل إلى سر " هو الذي " و " الله الذي " حيث يتكرر هذا التركيب بصورة لافتة للنظر ، وعند تتبع هذه الظاهرة ؛ وجدت أن هذا التركيب اللغوى يرد فى مقام التوكيد على تفرده سبحانه وإثبات كمال القدرة له جلّ وعلا ، ومن ذلك على سبيل المثال :

- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا .... ﴾ [البقرة : ٢٩] .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .... ﴾ [الأنعام : ٧٣] .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... ﴾ [الأنعام: ٩٩].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ .. ﴾ [الأنعام : ١٤١].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.... ﴾ [هود: ٧].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ....﴾ [الأنبياء: ٣٣].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]
- ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ... ﴾ [الأحزاب: ٤٣]
- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .... ﴾ [الحديد: ٩].

من العرض السابق يتبين أن قوله تعالى : " هو الذي " له إيحاء خاص جدًا في السياق ، حيث آثر التعبير القرآني هذه الصورة المميزة من القصر ، بتعريف طرفي الجملة ، وهو أعلى درجات التوكيد ، حيث يقصر هذه القدرات المعجزة في الخلق والإبداع على الله – عزوجل – ، نضيف إلى ذلك ظلال هذا التركيب التي ترهب النفس عند تأملها ، فعندما يقع في الأذن هذا القول ؛ ترتعد النفس ويملؤها إحساس الهيبة والإجلال من عظم وهول تأثيره ، وليس هذا هو كل الأمر ، بل يزداد الأسلوب إجلالاً مما يلي ذلك من تلك المعجزات الكونية ، الدالة على عظيم قدرة الله وهذا ما نلحظه في آيات " الرياح " ، حيث تصدرت آيتا الأعراف والفرقان بقوله تعالى : " هو الذي ... " .

أما الموضعان الآخران من سورتي النمل والروم فلم تردا على هذا النحو ، بل اختلف الأسلوب وتحول إلى طريقة أخرى ، ففي **سورة النمل** كان إثبات القدرة وكمال التصرف ؛ من خلال مجموعة جمل استفهامية تتناول إبراز الكونيات .

وقد وردت الآية (٦٣) من سورة النمل نطاق البحث متناسقة متناغمة مع مجموعة الآيات السابقة عليها ، والتي تعتمد على الإنشاء الاستفهامي ، على النحو التالي :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل ٦٠: ٦٣].

وكذلك وردت الآية (٤٦) من سورة الروم ، متناسقة متناغمة مع الآيات الكونية السابقة عليها فى السورة والتى وردت متصدرة بقوله تعالى : " ومن آياته ... " وهى على النحو التالى : قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

[الروم ، ٢٠ : ٢٥] . ثم يأتي على غرار ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : ٤٦] .

تلك هى المواضع التى وردت فى سورة الروم متصدرة بقوله تعالى :

" ومن آياته .. " ، وهى سبعة مواضع مدعمة بالبراهين ، والأدلة الدامغة على قدرة الله – عزوجل – فى خلقه وكونه ، وبعد أن تبين أن الآيات الكونية فى هذه السورة وردت فى معظمها متصدرة بقوله تعالى السابق ، وفي ضوء ذلك الإحصاء ، وظّف لفظ " الرياح " في نفس السياق العام للآيات الكونية فى السورة وهو إثبات الوحدانية والقدرة المطلقة.

وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على ذلك التناغم المطرد بين الأسلوب القرآنى كله وليس على المستوى الحرفى أو اللفظى فقط ، بل على مستوى الأسلوب البيانى كله داخل السورة بل بين السور وبعضها البعض .

ومن اللفتات الأسلوبية كذلك ، أن نجد في المواضع الثلاثة الأولى أى آية الأعراف ، وآية الفرقان وآية النمل أن معنى التبشير يرد باستعمال المصدر" بشـرًا " يليه قوله تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ .

بينما فى آية الروم يعدل الأسلوب عن المصدر إلى اسم الفاعل مجموعًا " مبشرات "يليها ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ .. ﴾ .

كذلك نجد أن هناك خلافًا فى استعمال صيغة الفعل فى آية الفرقان حيث عدل الأسلوب عن الفعل المضارع " يرسل " كما فى آية الأعراف والنمل والروم إلى " أرسل " فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ... ﴾ [الفرقان : ٤٨].

ولعل سبب هذا التحول من صيغة المضارع إلى الماضي مرتبط بسياق الآيات التى تسبقها ، حيث أوثر فيها الفعل الماضي وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان ٤٥ : ٤٧].

وقد أوثر المضارع فى المواضع الأخرى من الأعراف والنمل والروم ليلائم أيضًا ما قبله ، ففى الأعراف مثلًا يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، " وهما يكونان فى المستقبل لا غير " [(١)] ، أى الخوف والطمع لذلك كانت صيغة المضارع أدق فى هذه المواضع .

وهكذا نجد أن الرياح فى المواضع السابقة وردت لتحمل الخير والبشرى بالإحياء بعد الموات ، فهى (بشرًا بين يدي رحمته) ومبشرات بفضله.

---

(١) بصائر ذوى التمييز / جـ١ / صـ ٢٠٩ / ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢- **الرياح اللواقح :**

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

لقد سبق القول بأن الأسلوب القرآنى عندما تحدث عن " الرياح " ، لم ترد هذه الكلمة إلا من خلال صفة تبين هيئة الإعجاز فيها ، وإن كان المعنى العام واحدًا ومشتركًا ، إلا أن الإعجاز الكونى واللغوى قد تعدد ، فبعد أن تعرض البحث للآيات السابقة ، والتى يقترن فيها لفظ " الرياح " بالبشرى ، نتوقف هنا أمام " الرياح اللواقح " وهى آية سورة الحجر ، فالصفة الملازمة للرياح فى هذا الموضع هى " اللواقح " ، بما تحمله هذه الكلمة من خير ونماء وبِشر أيضًا ، ولقد وردت هذه الصيغة فى القرآن الكريم كله مرة واحدة ، وهى هذا الموضع الذي بصدد الدراسة .

العرض الموضوعى :

اقترن لفظ " الرياح " فى هذا الموضع بكلمة " اللواقح " وهى صفة للرياح الطيبة التى تأتى بخير ، حيث يُنزل الله بها الماء من السماء ، فيجعله سُقيًا للناس، وتحقيقًا لمنافعهم فى هذه الأرض ، وهذا الماء المحقِق للخير والنفع ليست خزائنه عند البشر ، بل الله – عزوجل – هو الخازن لهذا الماء ينزله بقدر وحكمة ويمسكه إن شاء .

التحليل الفنى :

جاء فى لسان العرب " أن " اللواقح " من الرياح هى : التى تحمل الندى ثم تمجه فى السحاب ، فإذا اجتمع فى السحاب صار مطرًا ، وقيل : إنما هى " ملاقِح " فأما قولهم لواقح فعلى حذف الزائد . قال الله تعالى : " وأرسلنا الرياح لواقح " قال ابن جنى : قياسه ملاقِح لأن الريح تُلْقح السحاب".(١)

(١) لسان العرب / مجلد ٩ / مادة (لقح) – صـ٣١٠ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

و حول تفسير كلمة " اللواقح " ، ما جاء عن القرطبى أن " معنى لواقح : حوامل ، لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع .. وقيل لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلقح إلا وهى فى نفسها لاقح ، كأن الرياح لقحت بخير ، وقيل ذوات لقح وكل ذلك صحيح " . (١)

ولا تعارض بين كون الرياح لواقح أو ملاقح ؛ لأن الرياح قد تكون محملة ببخار الماء فتلقح به السحاب ، فينزل بعد ذلك الماء ، ولكن الجمال فى هذه الآية يتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم شأنًا وأرفع قدرًا ؛ ألا وهو إظهار وإثبات طلاقة القدرة الإلهية الموجزة فى قوله تعالى : " كن فيكون " فعندما يأمر الله – عز وجل – الرياح بالخير والتلقيح ، ونزول الماء لا رادَّ لأمره ، وهو سبحانه ينزل كل شيء بقدر ، ولقد جاء الأسلوب القرآنى مجسدًا لتلك القدرة المطلقة ، بداية من اختيار الصيغة ، ومرورًا باللفظ والحرف ، وخلوصًا إلى المعنى وراء ذلك .

وتوضيح ذلك فيما يلي :

١- استعمال صيغة الفعل الماضي المسند إلى " نا " العظمة فى " أرسلنا – أنزلنا – أسقينا " ولا يخفى ما فى هذه الصيغة من إيحاءات ودلالات على الثبوت والتأكيد بأن أمر الله واقع ، بل وقع فعلاً وأن قدرته لا تحدها حدود ، بل هى قدرة مطلقة وعظمة قاهرة تقسر الإنسان قسرًا على التأمل والتدبر، ومن ثَم التوجه إليه وحده بالعبادة .

٢- اختيار المادة المعجمية – كذلك – إعجاز مبهر ، فاللفظ فى الأسلوب القرآنى ليس أداة للتعبير فقط بل للتصوير أيضًا ، وهذا ما نستشعره عند تأمل بنية الفعل " أرسل" بدلالتها على الإطلاق ، فإرسال الشيء إطلاقه. (٢) وهل هناك معنى لطلاقة القدرة أدق من الإرسال فى هذا الموضع ؟! لكأن هذه الرياح إذن مقيدة حبيسة أمره تعالى ، فإذا أرسلها سارت بأمره إلى حيث أراد ، سارت مطلقة سخية ملقِّحة ومُلَقَّحَة ، وكأنها =

---

(١) تفسير القرطبي / مجلد ٥ / صـ ٣٧٣٩/ ط . دار الغد العربي .

(٢) انظر لسان العرب / مجلد ٤ / صـ ٤٠٦، مادة "رَسَل " / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

= شاخصة تعلم غايتها ، ومرادها الذى وُجِّهَت إليه ، فاللفظ يرسم المعنى ، فكأننا نسمع الأمر الإلهى للرياح بالتحرك والتوجه وهي مُحمَّلة ، ثم نتخيل هذا المشهد الذى اختزل من السياق ، وهو مشهد اللقاء بين الرياح اللواقح والسحاب ، وقد ذُكر من قبل فى الروم وفاطر (٤٨ ، ٩) ، وها هنا يُختزل ليتأمل الإنسان هذا المشهد، وكيف من الممكن أن يكون ، وتأتى نتيجة هذا اللقاء واضحة تحمل ملامح الخير والنماء ، فالرياح لواقح وليست ريحًا عقيما ، لذلك يأتى قوله تعالى مباشرة : ﴿ ... فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء ... ﴾ هكذا وبسرعة ، وبدلالة فاء التعقيب على سرعة الحدث ، يأتى أمر الله للسماء بإنزال الماء ، رمز الحياة وسر الوجود .

وماذا بعد ؟ " فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ " أيضًا استعمال الفاء العاطفة بدلالتها على الترتيب المنطقى والسريع ، فالماء منافع ، والمقصود بالماء هنا المطر بالطبع ، ذلك المطر الذي منه يشرب الناس ، ودوابهم وتنبت به زراعتهم ، وتقوم عليه حياتهم .

ويلفت النظر هنا استخدام صيغة الفعل المتعدية بالهمزة " أسقى " ولم يقل " سقى"

وهل هناك فرق بين الصيغتين ؟ ورد فى اللسان [1] أن العرب استعملت الفعلين "سقى و أسقى " بمعنى واحد ومنه قول لبيد :

سَقى قومى بنى مجدٍ ، وأسقى نميرًا والقبائلَ من هلال

ولكن هناك لغة تفرّق بين "سقى و أسقى" فقد ورد فى اللسان [2] كذلك أن العرب تقول لكل ما كان فى بطون الأنعام ، ومن السماء أو نهر يجرى لقوم <u>أسقيت ،</u> أى صار مكانًا لشربه ومسقى له . وهو بهذه الصيغة أعم وأفضل فالماء ليس للشرب والارتواء فقط ، بل للإخصاب والحياة وإيجاد سقية دائمة ، ومن ذلك قول الليث : "الإسقاءُ من قولك أَسْقَيْتُ فلانًا نهرًا أو ماء إذا جعلت له سِقْيًا" [3] .

---

(١) لسان العرب – مجلد ٥ – صـ ٣٠٠ – مادة " سَقَى" / ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) السابق صـ ٣٠٠ – مادة " سَقَى" .

(٣) السابق صـ ٣٠٠ – مادة " سَقَى" .

وعلى هذا فقوله تعالى : " فأسقيناكموه " أى جعلناه سِقْيًا لكم ، وهو أفضل وأدق من "سقيناكموه " ، ولهذا عدل القرآن عن سقى إلى أسقى ، لما له من الدلالة على عظيم النعمة وواسع العطاء ، فالأمر تجاوز الارتواء والسقية ، إلى الخير العميم والإخصاب العظيم ، مما يعمّق مفهوم الآية وغايتها فى بيان طلاقة القدرة فى تسخير وتذليل تلك الآيات الكونية لمصلحة العباد ، واستقامة أمور حياتهم ومعايشهم . ولذلك نقول أن هذه الزيادة في المبنى ، قد أدت بالضرورة إلى زيادة في المعنى ، كما يقال .

* استعمال الضمائر فى صيغة الفعل " أسقى " :

وردت صيغة الفعل " أسقى " مسندة إلى " نا " العظمة – وقد سبق التنويه لذلك – ثم إلى الكاف ضمير المخاطب ، وميم الجمع ، و واو المد لإطلاق الصوت ، و هاء الغائب .. فما دلالة هذا التركيب (أسقى – نا – كم – و – ه) ؟

قد يبدو هذا التركيب ثقيلاً فى نطقه ، لكن مع معاودة القراءة والتأمل في السياق والربط بين السابق واللاحق ، يتضح أنه أدق وأبلغ ما يكون على المستويين الصوتى والدلالى ..

أولاً : على المستوى الصوتي :

نلحظ ذلك إذا حاولنا أن نقرأ الآية ونحذف من الفعل " أسقى " أى ضمير أسند إليه فعلى الفور نشعر بخلل فى المعنى ، وينهار التوازن النغمى للآية ، فعلى سبيل المثال نحاول قراءتها هكذا : فأنزلنا من السماء ماء فأسقينا وما أنتم له بخازنين . أو فأسقيناكم .... نلحظ دون شك الخلل النغمى الذي اعترى الآية ، فتعالى الله .

ثانيًا : على المستوى الدلالي :

فيما هديت من تفكير ، وعندما حاولت أن أحلل هذا التركيب اللغوي من الضمائر المسندة للفعل وجدت – والله أعلم – أن تركيب الفعل " أسقى " مع هذه الضمائر مجتمعة له مغزى دلالي عميق ، وهو عدم الاستغناء والاحتياج البشري الدائم للتواصل مع الله تعالى ، فلقد آثر الأسلوب الأدبي الرفيع هذه الصيغة المتصلة الملتحمة ولم يفصل بين أجزائها ، وكأنها رسالة إلى بنى البشر بأنهم فى حاجة شديدة ، بل احتياج ضرورى إلى الالتحام ، والانخراط فى عبوديته سبحانه ، وترك الشرك والعناد والجدل الذي ألمحتْ إليه الآيات السابقة على هذه الآية ، وهو احتياج دائم وأبدي مهما أمِن هؤلاء إلى ما فى أيديهم من عطاء ، وما أُرسِل إليهم من خير لأنهم ليسوا له بخازنين .

وهكذا يتبين كيف كانت مساحة الآيات الكونية فى الأسلوب القرآنى لها الصدارة فى إبراز وإيضاح وإثبات القدرة الإلهية المطلقة ، وكانت منطلقًا للتوحيد ، وإفراد الله الواحد بالعبودية والتذلل والخضوع .

ملحوظة :

قد حاول بعض العلماء تفسير اللواقح ، بأنها الملقحة للنبات حيث تنقل حبوب اللقاح وتساهم فى عملية التلقيح .... ولكن هذا المعنى ليس هو المقصود هنا ، لأن ما بعدها لا يتفق مع هذا التفسير ، فنتيجة السحاب الملقح نزول الماء وليس غير ، ولم يذكر أى شيء عن الإنبات وما إلى ذلك . [١]

---

(١) انظر تفسير الظلال / مجلد ٤ / هامش صـ ١٣٤٢ / ط . دار الشروق .
وكذلك علوم القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاته صـ ١٦٥. / ط.دار الاعتصام.

٣- الرياح المثيرة للسحاب : ونطاق بحثه :

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨].
- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

العرض الموضوعي :

فى هذا الجزء من الدراسة يقترن لفظ " الرياح " بصفة جديدة تختلف عما سبق ، وهي : " إثارة السحاب " .

ففى سورة الروم ترد آية " الرياح " فى سياق بيان قدرة الله ، وإثبات وحدانيته وإخضاع هذا الكون بما فيه وبمن فيه لمشيئته ، فالرياح مسخرة ، تحرك السحاب متصلاً تارة ، وقطعًا تارة أخرى ، ويخرج منه المطر فى التارتين ، فيصيب الله به من يشاء .

التحليل الفنى :

أ- ظاهرة " الله الذي " : تبدأ الآيتان بداية شديدة الإيقاع ، متصدرة بلفظ الجلالة " الله " بما يحمل من دلالات الإعظام والقدسية ، يلي ذلك ، الاسم الموصول " الذي " حيث تكتمل وسيلة القصر من خلال تعريف طرفى الجملة ، والهدف من ذلك قصر هذه القدرة على الله – عزوجل – فهو قصر حقيقى تحقيقي لا يجوز إلا فى حق الذات الإلهية ، وظاهرة " الله الذي " ظاهرة أسلوبية مطردة فى التعبير القرآنى .

وعند استقصائها ؛ وجدت أنها لا ترد إلا فى سياق التقديس والتأكيد والإقرار بقدرة الله ووحدانيته ، مثل ظاهرة " هو الذي " التى سبق الإشارة إليها .

وعند إحصاء مواضع " الله الذى " وجد أنها وردت فى ثلاثة عشر موضعًا [1] متصدرة دائمًا الآيات التى وردت فيها ، وهى على النحو التالى :

١- ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴾ [الرعد: ٢]

٢- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ... ﴾ [إبراهيم: ٣٢]

٣- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ... ﴾ [الروم: ٤٠]

٤- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .... ﴾ [الروم: ٤٨]

٥- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .... ﴾ [الروم : ٥٤]

٦- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴾ [السجدة: ٤]

٧- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .... ﴾ [فاطر: ٩]

٨- ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .... ﴾ [غافر: ٦١]

٩- ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء ... ﴾ [غافر: ٦٤]

١٠ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩]

١١- ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ﴾ [الشورى: ١٧]

١٢- ﴿ اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ ... ﴾ [الجاثية: ١٢]

١٣-﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ..... ﴾ [الطلاق: ١٢]

نلاحظ من خلال هذا العرض للآيات السابقة أن قوله تعالى : " الله الذي " لم يرد إلا ولحقته معجزة كونية مبهرة ، وقدسية ، وعظمة تتناغم مع الإيقاع اللفظى والمعنوى المهيب للفظ الجلالة .

---

(١) هذا بخلاف المواضع التى ورد فيها " الله الذي " متوسطة بين الآيات وليست متصدرة ، مثل :

* " واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ... " المائدة: ٨٨.
* " أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر ... " الإسراء: ٩٩.

وفى ضوء هذا الإحصاء نجد أن إرسال الرياح في آيتى الروم وفاطر – نطـاق البحث – يرد بعد لفظ الجلالة ليوحى بعظمة وجلال هذه الظاهرة الكونية ، من إرسال الرياح ثم إثارة ، وتحريك السحاب ، ثم نزول المطر بقدر وحكمة ، ثم إصابة قوم دون قوم به .

ب– صيغ الأفعال :

أما بالنسبة لصيغ الأفعال فى آية سورة الروم نلاحظ أن الأفعال كلها وردت فـى صيغة المضارع ، ما عدا الفعل " أصاب " جاء على صيغة الماضـى ، وقـد وردت الأفعال على النحو التالى :

[يرسل – تثير – يبسطه – يشاء – يجعله – – ترى – يخرج – يشاء – يستبشرون]

وقد آثر الأسلوب القرآنى استعمال هذه الصيغ للمضارعة ، لما لها مـن دلالـة التجدد والاستمرار ، فهذه الظاهرة الكونية التى تعرضها الآية ، ليست مقصورة علـى عصر دون عصر ، أو أن وقتها قد ولّى أو مضى ، ولكنها موجودة منذ بدء الخليقـة وإلى قيام الساعة إن شاء الله ، فهى ظاهرة متجددة ومستمرة ، ولذلك كـان التعبيـر بصيغة المضارع أليق وأدق للسياق والواقع .

أما استعمال الفعل " أصاب " بصيغة الماضي ، فذلك أمر له دقته ووجاهته، حيث عدل الأسلوب القرآنى إلى صيغة الماضي مخالفًا بذلك مقتضى الظاهر من اسـتعمال المضارع كما فى سائر أفعال الآية ، لما فى صيغة الماضى من دلالـة التحقـق ، أى تحقق الحدث بالفعل ، وأقصد بذلك أن الإنسان لا يهتم بهذه الظاهرة الكونية إلا لسقوط المطر وتحقق المنفعة ، لذلك وردت صيغة تحقق هذه المنفعة بالماضي فـى الفعـل " أصاب " ولكنها إصابة مقيدة وليست مطلقة ، إصابة مقيدة بمشيئة الله – عزوجل – " فإذا أصاب به من يشاء من عباده .... " .

جـ - وسائل الربط :

فى الآية الكريمة : نلاحظ استعمال أدوات العطف " الفاء "و " الواو " ، الفاء فـى الفعل " فتثير " ، " فيبسطه " .

فإرسال الرياح يعقبه إثارة السحاب ، ثم بسطه وفرشه ومده فى السماء ، وهى أفعال متلاحقة متعاقبة ، لذلك كان الأدق استعمال " الفاء " بدلالتها على التعقيب والترتيب بين الأحداث .

أما عند الحديث تراكم السحاب ، وذلك فى قوله تعالى : " ... ويجعله كسفا " فقـد عدل التعبير القرآنى إلى " الواو العاطفة " لأن الأمر هنا مختلف ، فهى حالة مغـايرة للبسط والمد ، فالسحاب متراكم متقطع .

ثم عاد التعبير القرآنى إلى " فاء العطف " مرة أخرى عندما اقتضى الأمر الترتيـب والتعقيب ، حيث يُخرِج الله - عزوجل - الودق من خلال هذه الكسف المتراكمة .

و الوَدْق : " هو المطَر كله شديده وهينه " [(١)] .

﴿ ... فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .. ﴾.

الفاء فى " إذا " حرف عطف يفيد الترتيب بين الأحداث ، حيث إنه بعد نزول الودق لا تنتهى عناصر هذا المشهد الكونى ، بل يبقى توزيع هذا الخير ، حيث يرسـله الله - عزوجل - على من يشاء من عباده ، يصيب به قومًا دون غيرهم بحكمة وقدرة إلهية .

" إذا " : ظرف للمستقبل ، وهو متضمن معنى الشرط ، ويختص بالدخول على الجملة الفعلية كما ورد فى الآية ، ويحتاج إلى جواب ، وقد يكون الفعل بعد " إذا " ظاهرًا كما فى الآية نطاق البحث ، أو مقدرًا نحو قوله تعالى : " إذا السماء انشقت ... " [(٢)].

---

(١) انظر " لسان العرب " / مجلد ١٠ / مادة (ودق) صـ٦٠٨.. دار إحياء التراث العربي / بيروت .

(٢) انظر " الإتقان " للسيوطى / الجزء الأول صـ١٤٨. ط/ المكتبة الثقافية / بيروت .

أما جملة " إذا هم يستبشرون " فهى جملة جواب الشرط ، وهى جملة اسمية مقرونة بـ " إذا "الفجائية .

والاستبشار هنا له دلالة عظيمة حيث يبين مدى أهمية المطر في تسيير المعايش ، وإقامة الحياة ، وخصوصًا فى البيئات الصحراوية البدوية التى تحتاج لقطرة المـاء ، وقد نزل القرآن على قوم يدركون قيمة المطر تمامًا ، ولذلك جاء اللفظ " يستبشرون " أدق وأوفى فى تمام المعنى المراد ، وخاصة إيثار صيغة المضارع دون غيرها ممـا يجعل المتلقى فى حالة استحضار تام لمشهد الخير والاستبشـار، والإقـرار بـنعم الله وقدرته .

وبعد فالآية نطاق البحث تعد مشهدًا كونيًا رائعًا ، خطوطه هى الرياح المرسلة التى تثير وتحرك السحاب فيمتد ويفرش فى السماء ، وجاء الفعل " يبسط " أجمل وأدق مـا يكون بظلاله الانسيابية المرنة المريحة ، التى توحى بالعطاء الممتد المتصـل الـذي يصرّفه الله – عزوجل – بالكيفية والقدر الذي يريده .

ثم تكتمل هذه الخطوط الكونية المبهرة بمشهد مغاير " للسحاب " ، فهو هذه المـرة ليس مبسوطًا متصلاً ، بل متقطعاًمتراكمًا ، ولكن مع ذلك فالمطر يتخلله ويصيب الله به من يشاء ، مشهد أخاذ لمن يتملاه ويستحضره ، عمقه وأصّله ذلـك التنـاقض البـديع المعجز فى صورة السحاب المبسوط حينًا ، والمضموم المجموع حينًا آخر .

ويستلفت الانتباه كذلك هذا التعبير اللغوى الدقيق فى قوله تعالى : " فيبسـطه فـى السماء " ثم العدول عنه فى قوله تعالى : " ويجعله كسفا " ، حيث آثر استعمال الفعل " يجعل " دون " يكسفه " لثقل الأخير وانهيار التوازن النغمى فى الآية عند استعماله ، مخالفًا بذلك مقتضى الظاهر في الآية ، من استعمال الفعل مباشرة كما فى " فيبسطه " .

- ويبدو للبحث من خلال تحليل هذه الآية ، أنها آية لليقظة والدعوة إلى الانتباه إلى عظيم قدرة الله – عزوجل – فكم إنسان يشاهد هذه المعجزة الكونية ويمر عليها وهو غافل القلب ، مغلق البصيرة .

ولعل الذي حدا بى إلى هذا الفهم ، عناصر الصورة ذاتها ، وكذلك التحول المبهر فى الآية ، حيث كان الانتقال من ضمير الغائب " هو " فى " يرسل " إلى ضمير الغائبة " هى " في " تثير " ، ثم العودة إلى ضمير الغائب مرة أخرى وهو العائد على الله سبحانه وتعالى فى " يبسطه ، يشاء ، يجعله " ، ثم الانتقال إلى ضمير المخاطب " أنت " فى " فترى " ، ثم الانتقال إلى ضمير الغائب " هو " العائد على الودق فى " يخرج " ، ثم الانتقال إلى ضمير الغائب " هو " العائد على الله – عزوجل – فى " أصاب – يشاء " ، ثم الانتقال إلى ضمير الغائب " هم " فى قوله تعالى : " إذا هم يستبشرون " .

كل هذا من شأنه أن يلفت الانتباه ، ويوقظ القلوب من غفلتها ، ويخرج النفس من إلف العادة إلى لذة التدبر والعبادة .

أما آية سورة فاطر ، فشأن الأفعال فيها مختلف عن آية الروم ، حيث وردت الأفعال جميعًا – فيما عدا الفعل " تثير " – فى صيغة الماضى ، وقد جاءت على النحو التالى : قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي **أَرْسَلَ** الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا **فَسُقْنَاهُ** إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ **فَأَحْيَيْنَا** بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩] .

نلحظ أنه على الرغم من اتفاق الآيتين تقريبًا حول المعنى العام ، إلا أن هناك اختلافًا فى عرض هذه الظاهرة الكونية ، وأقصد بذلك اختزال آية فاطر لبعض مراحل هذه الظاهرة من بسط السحاب ، أو جعله كسفًا ، يخرج المطر من خلاله ... فإيقاع الآية سريع ومراحل تكوُّن المطر موجزة ما بين البداية وهى إرسال الرياح ، ثم النهاية وهى إحياء الأرض بعد موتها .

ويبدو للبحث أن الأفعال الماضية المسندة لـ (نا) ضمير العظمة ، هى الأدق فى هذا السياق ؛ لدلالة هذه الصيغة على التحقق الفعلى اليسير السريع لهذه الظاهرة ، تمامًا كظاهرة النشور ، فما أسرع رحلة الحياة والموت ، وما أهونها على الله .

وتمثلاً لهذه السرعة وتعميقًا لهذا الإحساس ؛ آثر التعبير القرآنى صيغة الماضى المتلاحقة من خلال " فاء التعقيب " ، واختزال المراحل التى عُرِضَت فى آية الروم .

ويستلفت الانتباه مجيء الفعل " تثير " بصيغة المضارع ، مخالفًا بذلك أفعال الآية ، وكان مقتضى الظاهر أن تأتى ماضية كما فى السابق عليها واللاحق ! فما علة ذلك ؟ وفيما يبدو للبحث :

أن اختلاف فعل من أفعال الآية عن الصيغة الزمنية المختارة لها ، أول ما يحدثه عند المتلقى ، جذب الانتباه وإثارة الدهشة والبحث عن علة هذه الظاهرة المغايرة ، وهذا فى ظنى هدف من أهداف الآية ذاتها ، لفت الانتباه هنا بتغيير زمن الفعل وموسيقا الآية ، فالأمر يختلف عندقراءة الآية بصيغة الماضي ... ولنتأمل ذلك : الله الذى أرسل الرياح فأثارت سحابًا ... خلل شديد فى المعنى وخلل فى الإيقاع الصوتى ، ولذلك فقد أُوثر التعبير بصيغة المضارعة فى الموضعين اللذين ورد فيهما الفعل " تثير " فى آية الروم وآية فاطر، فالأمر هنا أعمق من استعمال المضارع لاستحضار الصورة ، كما ورد عن الزمخشري من أن علة صيغة المضارع " ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح والسحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ". (١)

---

(١) الكشاف مجلد ٣ / صـ٣٠١. ط/ دار الفكر .

إنه بناء عظيم متكامل لآية من آيات القدرة فهو التفات إلـى عظـيم قـدرة الله اللامتناهية فى الكون ، وقد عمّق هذا الإحساس تلك المغايرة بين الأفعال وكذلك الإيقاع الراقى الرصين للفعلين :

" سقناه ، أحيينا " بدلالتهما الأصيلة على الربوبية والألوهية فى آن واحد .

وهكذا وجدنا أن الرياح والسحاب والودق تشكل خطوطًا أساسـية فـى المشـهد الكونى الرائع فى الأسلوب القرآنى فهى أحيانًا مبشرة ، وفى أحيان أخرى لواقح حاملة للخير ، ثم هى أيضًا مثيرة للسحاب بما فيه من خير وحياة .

ثانيًا : المطر والغيث :

أ- المطر :

قد وردت هذه الكلمة بهذه الصيغة فى القرآن فى خمسة مواضع هى :

١-﴿ .... وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ.... ﴾ [النساء: ١٠٢].

٢- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٤].

٣-﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠] .

٤- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء :١٧٣]

٥- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٨]

✍ **العرض الموضوعى :** الآية (١٠٢)

* الموضع الأول من سورة النساء ، ورد به لفظ " مطر " فى سياق الحديث عن كيفية صلاة الخوف عند القتال والجهاد ، وأنه هناك رخصة لوضع السلاح والتخفف منه ، فى حالة سقوط المطر والتأذى لذلك ، نجد هذا فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٠٢].

المواضع السابقة من [٢ : ٥] كلها تتناول موضوعًا واحدًا ، وهو عقاب الله – عزوجل – لقوم لوط ، وإمطار الحجارة عليهم لما يأتونه من فاحشة ، وقد وردت الآيات على النحو التالى :

أولاً : سورة الأعراف : (٨٠ : ٨٤) :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

ثانيًا : سورة الفرقان : (٤٠) :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

والمراد بالقرية قرية (سدوم) من قرى قوم " لوط " عليه السلام [١].

---

(١) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ١٢ /صـ٤٩/ ط. دار الغد العربي .

ثالثًا : سورة الشعراء : (١٦٠ : ١٧٣) :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾.

رابعًا : سورة النمل : (٥٤ : ٥٨) :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

التحليل الفنى :

يتضح من العرض السابق للآيات أن لفظ " المطر " لم يستخدم إلا فى سياق العذاب خاصة ، وقد اختصت المواضع السابقة ببيان هلاك قوم لوط ، باستثناء موضع آية سورة النساء ، فقد ذُكر فى صلاة الخوف عند التأذي من المطر .

فما علة استخدام التعبير القرآنى لهذا اللفظ فى الهلاك والعذاب خروجًا على ظاهر معناه من إنه للخير والنماء ؟

ويبدو للبحث أن المادة المعجمية هى الأصل فى ذلك ، فالمطر : هو الماء المنسكب من السحاب [١] .

---

(١) لسان العرب / مجلد ٩ / مادة (مطر) / صـ٥١٥. ط / دار إحياء التراث العربي . بيروت .

فالمطر يسقط وينسكب من السماء ، وعذاب الله واقع على الظالمين من السماء أيضًا فهو ينزل عليهم نزول المطر ، ولعل ذلك هو السبب فى إيثار لفظ " المطر " فى سياق العذاب خاصة ، حيث يوحى بالشمولية ، وإحاطة العذاب بالكافرين من كل جانب ، على غرار قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود : ٨٢] .

وكذلك : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤]

وهكذا يبدو أن استعمال لفظ " المطر " ورد على غير ظاهر معناه ، فهو ليس مطر الخير، بل مطرالعذاب والهلاك .

ب- الغيث :

لقد استعاض الأسلوب القرآنى بلفظ " الغيث " عن " المطر " للدلالة على الخير والرزق ، ويشاركه فى ذلك – وينوب عن المطر – الماء ، وقد ورد الغيث فى الأسلوب القرآنى ثلاث مرات على النحو التالى :

١- ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ .. ﴾[لقمان :٣٤]

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ... ﴾ [الشورى: ٢٨]

٣- ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]

العرض الموضوعي :

الآية (٣٤) من سورة لقمان هي خاتمة السورة ، وقد تناولت خمسة أمور غيبية على النحو التالي : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد بينت الآية كما سبق أن هناك أمورًا لا يعلمها إلا الله ، ومنها يوم القيامة وموعده ، إنزال المطر ووقته وكيفيته ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وفي ذلك دليل عيني ومنطقي على قدرة الله على الإحياء والبعث بعد الموت للحساب وكذلك معرفة ما في الأرحام ، وإذا قيل أن الطب الحديث الآن بوسائله يستطيع معرفة ما في الأرحام ، نرد على ذلك بأنه علم قاصر بتحديد النوع ، وبعد وقت معين من الحمل ، بينما العلم الإلهي علم أزلي في اللوح المحفوظ من قبل تكوين هذه الأجنة ، ومن قبل أن تكون ماء في أصلاب الرجال ، كما أنه علم الإحاطة ، علم مطلق عن القيود والحدود .

وكذلك فالله وحده هو الذي يعلم ماذا تكسب النفس غدًا ، فالرزق مُعلَّق بيد الله ، وكذلك موعد الموت وأرضه، فلكل نفس أجل وأرض تموت عليها لا يعلمها إلا الله .

ولذلك فقد ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن هذه الأمور هي مفاتح الغيب قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مِفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله " لا يعلم أحد ما يكون في غده ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، وما يدري أحد متى يجيء المطر " (١).

أما الآية (٢٨) من سورة الشورى فقد جاءت تعقيبًا للآية السابقة عليها : قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

---

(١) انظر " فتح الباري " بشرح صحيح البخاري / كتاب الاستسقاء / مجلد ٣ / صـ ٥٦٦، حديث ١٠٣٩ / ط. دار الغد العربي .

فبعد أن يبين الله – عزوجل – لعباده أنه لا يبسط الرزق خوفًا من بطشهم وبغيهم فى الأرض عند الغنى ، وضح لهم جل وعلا أنه ينزل الرزق بقدر وهو خبير بحال عباده ، وكذلك فهو سبحانه الذي ينزل عليهم المطر وينشر رحمته عليهم من بعد ما قنطوا .

* أما الموضع الثالث : الآية (٢٠) من سورة الحديد :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

و المعنى العام للآية السابقة هو تحقير حال الدنيا ، وبيان عظيم حال الآخرة ، وقد عبّر الأسلوب عن ذلك بوسيلة التشبيه ، فالحياة الدنيا بكل ما فيها من مباهج مثل المطر الذي أنبت وأثمر فيعجب الزراع به ثم ينتهى ويصبح حطامًا وكأنه لا شيء ، وهذا هو شأن الحياة الدنيا ، تافهة رغم نضارتها وبريقها .

التحليل الفنى :

الغَيْثُ : المطر والكلأ ؛ وقيل الأصل المطر .[١]

إذن فكما ورد فى المادة المعجمية أن أصل الغيث ، هو المطر فلماذا عدل التعبير القرآنى عن لفظ " المطر " إلى " الغيث " ؟!

على الرغم من الترادف المعجمى لكلمتى " المطر والغيث " إلا أن الأسلوب القرآنى لم يستعملهما مطلقًا مترادفتين ، وقد اتضح ذلك فى هذا الجزء من الدراسة ففي ضوء التحليل السابق ، نجد أن مادة " مطر " لم تستعمل فى كل صيغها إلا فى سياق العذاب والهلاك والأذى ، وأن الفعل " أمطر " دائمًا مسندًا للذات العليا فى سياق التحذير والعقاب .

---

(١) لسان العرب ، مجلد ٨، مادة " غيث " صـ١٥٣. ط/ دار إحياء التراث العربي . بيروت .

ونعود مرة أخرى لهذا التساؤل لماذا عدل الأسلوب القرآنى إلى " الغيث " للتعبير عن الخير والرزق والنماء ؟

إذا تأملنا البنية الحرفية للفظ " غيث " ثم نظرنا كذلك فى بنية لفظ " غوث " وجدنا دون شك تشابهًا عظيمًا ...

والغوث : الإعانة والنُـصْرة . وأغاثهم الله برحمته : كشف شدتهم ، وأغاثهم بالمطر : أرسله عليهم.(١)

وربما استعمل التعبير القرآنى لفظ " الغيث " لما له من دلالة على الإعانة والنجدة فالإغاثة دائمًا تنجد المحتاج الملهوف ، وعطاء الله لعباده هو عطاء المنجد المغيـث للقانط الملهوف ، ألم نر ذلك بالفعل فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ... ﴾ [الشورى : ٢٨]

ولعل لفظ " الغيث " أيضًا له دلالة عظيمة ، ووقع عميق فى نفوس العرب ، هؤلاء البدو الذين يدركون جيدا قيمة الماء فى البيئة الصحراوية ، وكيف أن معايشهم وحياتهم ترتبط بهذا الماء ، ويعون جيدًا بفصاحتهم اللغوية وفطرتهم العربية المـدلول اللفظـى والمعنوى لكلمة " الغيث " .

وهذا هو البيان القرآنى المعجز فالترادف الظاهر للأعين ليس هكذا فى التعبيـر القرآنى ، بل لكل كلمة دلالة ، ولكل لفظ ظلاله و إيحاءاته ، تلك الظلال والإيحـاءات التى تساهم فى إجلاء الصورة الأدبية الرفيعة والمعجزة للأسلوب القرآنى .

---

(١) راجع المنجد فى اللغة والأعلام / صـ ٥٦١ / ط. ٣٤ دار المشرق . بيروت.

المبحث الثالث

معجزة الليل والنهار

أ- إيلاج الليل فى النهار و النهار فى الليل .

ب- إغشاء الليل النهار .

ج- تكوير الليل والنهار .

أ- إيلاج الليل والنهار :

ونطاق بحثه الآيات التالية :

١- ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٧] .

٢- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٦١] .

٣- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٢٩] .

٤- ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

٥- ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد : ٦] .

العرض الموضوعى :

تدور الآيات السابقة حول آية كونية مبهرة ، وهى إيلاج الليل فى النهار وكـذلك إيلاج النهار فى الليل ، أى تعاقبهما وأخذ هذا من ذاك فيطول الليل أحيانًا، ثم يأخذ النهار من الليل فيطول النهار فى أحيان أخرى وهكذا ...

وقد ذكر المفسرون (١) ذلك ، وعلى سبيل المثال ما قدمه الرازى فى تفسير آية الإيلاج [٢٧] من سورة آل عمران حيث يرى أن الإيلاج يفسر على وجهين :

الأول : " أنه يجعل الليل قصيرًا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلاً فى النهار، وتارة على العكس من ذلك ، وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك" (٢).

الثانى : " أن المراد هو أنه تعالى يأتى بالليل عقيب النهار فيلبس الدنيا ظلمة بعـد أن كان فيها ضوء النهار ، ثم يأتى بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه ، فكأن المراد من إيلاج أحدهما فى الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر" (٣) .

وقريب من هذا ما جاء فى تفسير ابن كثير :

" أى تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتعاونان ثم يعتدلان ، وهكذا فى فصول السنة ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء " (٤) .

---

(١) انظر الكشاف/ مجلد ١/ صـ ٤٢٢.ط. دار الفكر . وكذلك القرطبي/ مجلد ٢/ صـ١٤٠٧.ط. دار الغد العربي.

(٢) مفاتيح الغيب/ مجلد ٤ / صـ١٦٢/ ط . دار الغد العربي .

(٣) مفاتيح الغيب / مجلد ٤ / صـ١٦٢/ ط . دار الغد العربي .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير / مجلد ١/صـ ٣٥٦/ط . مكتبة التراث الإسلامى .سوريا . حلب.

التحليل الفني :

تتناول الآيات السابقة جميعها بيانًا لقدرة الله تعالى ، وأنه سبحانه مالــك الملــك ، وبيده تصريف الأمور. نرى ذلك في سورة آل عمران في قوله تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَــن تَشَــاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٦] يلي ذلــك مباشــرة الآيــة موضع الدراسة ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّــتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٢٧] ، ويتكرر هذا في بــاقي المواضع الأربعة نطاق البحث على اختلاف السياق ، مما يؤكد طلاقة القــدرة الإلهيــة المعجزة ويلفت النظر إلى عظيم هذه الآية الكونية المبهرة ، وهي تعاقب الليل والنهــار، وطول أحدهما ونقص الآخر بما تقتضيه مصالح العباد ، بما يثبت أن الله عز وجل متفرد واحد جدير بالشكر والعبادة .

والولوج لغــة : هو الدخول [١] ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَــا يَخْرُجُ مِنْهَا ... ﴾ (سبأ : ٢) . فما المقصود بالدخول هنا في قوله تعالى: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ﴾ ؟

في هذه الآيات إشارة كونية لطيفة إلى كروية الأرض ، ولكنها وردت في أســلوب معجز بسيط لا يصطدم بالعقلية العربية البدوية ، في زمن يصعب فيه الكشف عن هــذه الحقيقة العلمية ، حيث ساد الإيمان باستوائها عند أهل العلم ، بينمــا العقليــة العربيــة البسيطة لا تدرك أيًا من هذه الحقائق ، وفي هذا دلالة قاطعة على أن هذا الدين من عند إله واحد مدبر حكيم يدير الكون بقدرته .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ١٠ / مادة " وَلَجَ " / صــ ٧٤٣ / ط . إحياء التراث العربي / بيروت .

نلحظ إيثار الأسلوب صيغة الإفراد دون الجمع في كلمتي " الليل والنهار " فـى قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... ﴾ ، وهذا الملحظ في كل آيات الإيلاج والغشيان ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأسلوب القرآني يعرض قضية كونية عظيمة ، فآثر صيغة المفرد لخفتها ، مع إرادة الجمع من خلال التعريف بأل لاستغراق الجنس ، حيث راعى البيان المعجز رقة اللفظ ، وحسن جرسه (١).

كما نلحظ إيثار حرف الجر " **فـي** " مع الإيلاج ، دون غيره من حروف الجـر ، يوحي بالظرفية والتمكن ، فالليل يحل محل النهار ، ويدخل مكانه ، والعكس . وهكـذا تتكرر تلك الظاهرة المعجزة .

ويلاحظ عدم ذكر فاعل الفعل " تولج " في الآية السابقة ، لتعظيم هـذا الفاعـل ، والعلم به . وكذلك للإشارة إليه في الآية السابقة لهذا الموضع في قوله تعـالى : ﴿ قُـلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ .... ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

إيثار صيغة المضارع دون غيرها ، في قوله تعالى : " تولج " لتجدد واسـتمرار هـذه المعجزة الكونية إلى ما شاء الله .

ولعل التفسير العلمى الكونى الذي يثبته البحث لهذه الآيات ، يجليها ويبين حجـم الإعجاز اللغوى الرهيب ، فقد عبر الأسلوب القرآنى ببضع كلمات عن حقيقـة كونيـة عظيمة ومبهرة ، تقوم عليها الموسوعات العلمية ، ويُفْرَد لها العديد من الكتب والشروح.

---

(١) انظر كتاب " الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ / دراسة تحليلية للإفراد والجمع فـي القـرآن " د .محمـد الأمين الخضري . فصل / وضع المفرد موضع الجمع صـ٨١ وما بعدها / ط . مطبعة الحسين الإسلامية .

مع التفسير العلمي الكوني لآيات " الإيلاج " :

يؤكد الأسلوب القرآني بدقة بالغة وإعجاز لغوى مبهر حقيقة علمية عظيمة وهى دوران الأرض حول نفسها ، مما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأرض كروية وهذا ما عبر عنه الأسلوب الرفيع بقوله تعالــى: (تولــج الليل فى النهار وتولج النهار فــى الليل ...) [آل عمران : ٢٧] ، أى تحرك الجزء المتعرض لضوء الشمس ودخــول غيره مكانه تبعًا لحركة الأرض وبالتالى يدخل الليل فى النهار، ويدخل النهار فى الليل ، والمقصود الإدخال المكانى وليس الزمنى .

وقد استعنت فى هذا التحليل بمقالات وإشارات الدكتور زغلول النجار ، ومن ذلــك ما ورد فى جريدة الأهرام المصرية حيث يقول : " والولوج لغة هو: الدخول ، ولما كان من غير المعقول دخول زمن فى زمن آخر، اتضح لنا أن المقصود بكل من الليل والنهار هنا هو المكان الذي يتغشيانه أى الأرض ، بمعنى أن الله تعالى يُــدخل نصــف الأرض الذي يخيم عليه ظلام الليل بالتدريج فى مكان النصف الذي يعمه النهار بالتــدريج فــى مكان النصف الذي تخيم عليه ظلمة الليل ، وهو ما يشير إلى كروية الأرض ودورانهــا حول محورها أمام الشمس " (١).

وبذلك يثبت الأسلوب القرآنى أن الدين سيكون عقليًا ، وأن العقل هو آخــر أنبيــاء الأرض(٢) فوجود ذلك فيه – قبل أن يوجد ذلك فى الزمن بأربعة عشر قرنًا و يزيــد – شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة .

---

(١) من مقال بجريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٩ يوليو ٢٠٠١ / صــ ١٢.

(٢) انظر " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " / مصطفى صادق الرافعى / صــ ١١٢ / تحقيق أ. عبد الله المنشاوى / مكتبة الإيمان.

ب- إغشاء الليل النهار :

ونطاق بحثه الموضعان التاليان :

١- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]

٢- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣].

العرض الموضوعي :

يبدو من العرض السابق للآيتين أن المقام فيهما مقام بيان لنعم الله وإظهار لطلاقة قدرته ، حيث تتعدد فيهما الآيات الكونية بصورة لافتة للنظر ، ففى الموضع الأول يرد إعجاز خلق السموات والأرض ، يلى ذلك الاستواء على العرش ، ثم غشيان الليل للنهار ثم تختم الآية بهذه الكونيات المبهرة الشمس والقمر والنجوم وتسخيرها للإنسان ولصالحه .

وعندما ننتقل إلى الموضع الآخر فى سورة الرعد نجد آية الله العظيمة فى بسط الأرض وتثبيتها بالجبال الرواسي ، وإحيائها بالأنهار التى تبث فيها الحياة فتثمر من كل زوجين اثنين ، ثم الآية الكونية المبهرة من غشيان الليل للنهار، وما يترتب على ذلك من مصالح العباد وانتظام حياتهم من خلال تبادل وتعاقب الليل والنهار .

التحليل الفنى :

جاء فى القرطبي : " يغشى الليل النهار : أى يجعله كالغشاء ، أى يُذهب نور النهار ليتم قوام الحياة فى الدنيا بمجيء الليل ، فالليل للسكون والنهار للمعاش ، .. ويطلبه حثيثًا: أى يطلبه دائمًا من غير فتور " (١) .

---

(١) القرطبي مجلد ٣ / صـ ٢٧٣٨ / ط. دار الغد العربي.

وقد ورد فى تفسير الإمام النسفي أن قوله تعالى :

(يغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا) " أى يُلْحِق الليل بالنهار والنهار بالليل " (١)

ومعنى هذا إحلال كل منهما محل الآخر . والتغشية ليست بمعنى الإيلاج ، لأن الإيلاج كما سبق القول هو دخول شيء فى شيء آخر، بينما التغشية فهى التغطية ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩]

أى غطينا على أبصارهم لنفقدهم الرؤية . وهذا ما ورد فى المادة المعجمية للفعل " غشي " ومنه غَشَّيت الشيء تغْشِيَة إذا غطيته (٢) .

فما المقصود إذن بتغطية الليل للنهار ؟

إن المحور العلمى واحد فى آيات الإيلاج والتغشية ، وهو الالتفات إلى أن الأرض كروية تدور حول نفسها فينتج الليل والنهار، ولكن الأداء اللغوى هو المختلف ، ففى آيات الإيلاج بينًا أن الدخول معناه : أن الليل يدخل فى مكان النهار والنهار يدخل فى مكان الليل فيطول هذا ويقصر هذا ، بينما فى هذا الموضع الذي نحن بصدده يعتمد الأسلوب القرآنى على تصوير هذه المعجزة الكونية المبهرة بمادة معجمية مختلفة لها دلالتها وإيحاءاتها وهى مادة " غشي " بدلالتها على الستر والتغطية ، وكأن الليل بتعاقبه مع النهار وسعيه إليه يغطى ضوءه ويستره بإحلاله محله ، وهو يطلبه حثيثًا أى سريعًا .

والمقصود بالسرعة هنا ؛ أن هذا التعاقب مستمر لا ينقطع فهو يسير بصورة منتظمة وعجيبة ودقيقة ، تثبت وتظهر طلاقة قدرة الله فى هذا الكون العجيب ، فقد وردت هذه الآية الكونية فى سياق الحديث عن عظمة الله تعالى ، وقدرته المتفردة فى هذا الكون ، ولذلك فهو فقط المستحق بالعبادة ؛ لأنه خالق السماوات والأرض ، ومدبر حركة الكون ليسيِّر مصالح العباد ، وهو كذلك المسخر للشمس والقمر والنجوم .

---

(١) عن مدارك التنزيل وحقائق التأويل / للإمام النسفى / مجلد ٢ صـ ٥٤٣ / ط. وزارة المعارف العمومية.

(٢) لسان العرب / مادة " غشي " / مجلد ٨ / صـ ٧٦ / دار إحياء التراث العربي . بيروت .

وعند التوقف عند السمات الأسلوبية لآيتى الأعراف والرعد نجد ما يلي :

١- استعمال صيغة الفعل المضارع " يُغشي " - " يطلبه " على الرغم من أن الآية قد آثرت الفعل الماضي فى قوله تعالى : (خلق السموات) ، (استوى على العرش) ... وكذلك فى آية الرعد وردت الأفعال بصيغة الماضي على النحو التالى : (مد الأرض ، جعل فيها رواسي ، جعل فيها زوجين) ثم " يُغشي " بصيغة المضارع .

وما لا شك فيه أن تحول الأسلوب من الماضي إلى المضارع فى الفعل " يُغشي " له دلالته . فقد تتطلب البيان الرفيع أن ينتبه العقل لهذه الظاهرة المبهرة التى تحدث بصورة مستمرة متعاقبة نغفل عنها نحن البشر لإلفنا لها ، فآثر الأسلوب الالتفات إليها من خلال تغيير صيغة الفعل المضارع ، فقد تم خلق السموات بالفعل منذ بدء الخليقة وكذلك استواء الرحمن على العرش ، وكذلك مد الأرض وجعل الجبال الرواسي ومن هنا عبر عنهما الأسلوب بصيغة الفعل الماضي .

ونفس الإشارة تتكرر في إيثار صيغة المضارع للفعل " يطلبه " بدلالتها على الإلحاح المستمر والحركة الدائبة .

٢- إضفاء صفة الحياة علي الليل و النهار : ﴿ ... **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا** ... ﴾ بعد أن تستوقفنا الحقيقة الكونية المبهرة فى هذا الجزء ، من دوران الأرض حول محورها وتعاقب الليل والنهار نتيجة لذلك ، يلفت انتباهنا هذا الأداء التصويري الحى لأسلوب القرآن الكريم ، ذلك الأداء الذي يجعل المتلقى يستقبل الكلمات القرآنية بوقع مختلف، وكأنه يرى هذه الكلمات مشهدًا حيًا متحركًا نابضًا ، بطلاه الليل والنهار وكلاهما يجري ليلحق بالآخر دون ملل أو كلل كلاهما يجري بهدف ونية وقصد بل وإرادة أيضًا.

وكأنهما شخصان يتنافسان في سباق عظيم جليل . " إن الليل والنهار فى هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين ، وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه ، يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة وحركة الصراع والمنافسة والسباق التى تطبع الحياة " [١].

جـ - تكوير الليل على النهار و النهار على الليل :

ونطاق بحثه الآية (٥) من سورة الزمر :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥] .

ورد لفظ " التكوير" فى القرآن الكريم كله مرتين ، الأولى فى سورة الزمر ، والأخرى في سورة التكوير فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير :١].

✍ العرض الموضوعى : لآية الزمر :

تدور هذه الآية حول نفس المعجزة الكونية وهى كروية الأرض ، وإحلال الليل محل النهار والنهار محل الليل ، وتعاقبهما بصورة دقيقة ومنتظمة ، عبر عنها الأسلوب القرآنى بهذا اللفظ الدقيق " **يكوِّر** " والتكوير كما ورد فى الكشاف : " التكوير اللف واللى يقال كَارَ العمامة على رأسه وكوَّرها وفيها أوجه منها : أن الليل والنهار خِلْفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا ، وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس .

ومنها : أن كل واحد منهما يُغيِّب الآخر إذا طرأ عليه. فشبه فى تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيّبه عن مطامح الأبصار . ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورًا متتابعًا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض " [٢] .

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٣/صـ ١٢٩٧/ ط . دار الشروق .

(٢) الكشاف مجلد ٣ / صـ ٣٨٧ / ط. دار الفكر .

التحليل الفني :

عند قراءة سورة الزمر وتدبر آياتها نجد أن أهم قضية فيها ، بل القضية العظمى فيها هى قضية التوحيد ، والإقرار التام بتفرده جل وعلا بالخلق والقدرة والعبادة ، ولنتأمل قوله تعالى فى افتتاح سورة الزمر :

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ١-٤] .

تعد هذه الافتتاحية مقدمة لموضوع السورة ، وتمهيدًا لما يرد فيها ، فالآيات توضح أن الكتاب منزّل من قبل حكيم عزيز ، لذلك يجب أن يتوجه إليه البشر بالعبادة ، وليست أى عبادة ؛ بل العبادة المخلصة لاشرك فيها ولا تدليس ، ولكن الذين اتخذوا من دونه آلهة يبررون ذلك بأنهم ما فعلوا ذلك إلا تقربًا لله ، وافتروا على الله الكذب بأنه يتخذ من الملائكة أولادًا . ويأتى الرد القرآنى الحاسم القاطع : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

ولذلك يلي هذا التنزيه والتوحيد ، آيات كونية معجزة وهى خلق السموات والأرض وتكوير الليل على النهار ، وتسخير الشمس والقمر وجريانهما إلى أجل مسمى ، وكلها دلائل على وحدانيته سبحانه وتعالى ، وبصمات كونية تشهد أنه فى غنى عن الولد والزوجة والصهر ، وتبطل إدّعاء أهل الكفر ، فما حاجته سبحانه إلى الولد ؟! وكيف يستقيم الناموس الكونى لو أن هناك شريكًا ؟! لذلك يبين الله عز وجل تلك الآيات الكونية التى تؤكد وحدانيته سبحانه ، فكيف يتسنى خلق السموات والأرض وما بينهما بكل هذه الدقة والانتظام مع وجود شركاء ؟ وكيف تستقيم الحياة ويتعاقب الليل والنهار بهذا الشكل الدقيق المبهر مع وجود الولد ؟! فسبحان الله ..

ولنتوقف بعد ذلك أمام آية التكوير : ﴿ ... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلى النَّهارِ و يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلى اللَّيْلِ ... ﴾ .

والتكوير فى اللغة : هو اللف واللى . ومنه تكوير العمامة أى لفها وجمعها ، وتكوير الليل والنهار أى يُلحَق أحدهما بالآخر ، وقيل تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه ، وقيل إدخال كل واحد منهما فى صاحبه ... وأصله من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها . (١) .

عند تأمل هذا المعنى اللغوى –السابق – للفعل " يكوّر " نلحظ دقة الأسلوب القرآنى المبهر فى تعبيراته وإيحاءاته ، حيث يرسم اللفظ بمادته المعجمية تلك الحقيقة الكونية المعجزة وهى تعاقب الليل والنهار ، وبيان أن الأرض ليست مسطحة بل مكورة ، وهذا دليل جلي واضح على كروية الأرض ، وإلا فكيف يتكور الليل على النهار والنهار على الليل ؟

يستلفت الانتباه ذلك التفسير اللغوى للفعل " كوّر " بأنه من تكوير العمامة أى لفها وجمعها مما يسهّل تأمل عملية التكوير ، فما علينا إلا أن نتابع طريقة لف العمامة على الرأس حيث تغطى كل طبقة ما تحتها وتغشيها ، تمامًا كما يغشى الليل النهار ، ولكن الفارق أن الليل لا يأتى على النهار بل يحل محله وهكذا ، " والليل والنهار كلاهما ظرف زمان وليس جسمًا ماديًا يمكن أن يكوّر ، بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذى يعتريه " (٢) .

كذلك نلحظ أن الفعل " يكوّر " له دلالة على الشمولية التامة ؛ لأن التكوير يكون فى اتجاه دائري متدرج مما يدل على انتشار ظلمة الليل بالتدريج على مكان النهار ، وهذا مشاهد لكل إنسان منا ، حيث يحل الظلام على الكون بالتدريج وليس دفعة واحدة ، وكذلك الحال بالنسبة للنهار ينتشر ضوؤه على مكان الظلام بالتدريج فيظهر النهار .

---

(١) لسان العرب / مجلد ٩ / صـ ١٨٥ ، مادة " كَوَرَ " /ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) عن جريدة الأهرام المصرية / مقال د. زغلول النجار صـ ١٢. بتاريخ ١٤ يناير ٢٠٠٢ .

يقول د. زغلول النجار :

" إن من معانى ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أن الله سبحانه ينشر بالتدريج ظلمة الليل على مكان النهار من سطح الأرض المكوّر؛ فيحوله إلى ليل مكوّر ، كما ينشر نور النهار على مكان ظلمة الليل من سطح الأرض المكور؛ فيحوله نهارًا مكورًا وبذلك يتتابع كل من الليل والنهار على سطح الأرض الكروى بطريقة دورية ". (١)

ولذلك سبق القول بأن لفظ " يكور " بدلالته المعجمية الخاصة وبصيغته المضارعة قد رسم هذا المشهد الكونى الرهيب ، بأبلغ وأدق ما يكون ، وإننى قد حاولت أن أبحث عن لفظ يعادله في بيان هذا المشهد لإجلاء هذه الحقيقة الكونية فعَجَزْتُ ، فسبحانه الله العظيم .

<u>بين آيات : (الإيلاج – التغشية – التكوير)</u>

تناول هذا المبحث الذي نحن بصدده، مجموعة من الآيات محورها الرئيسى آية كونية عظيمة من آيات الله ، وهى تعاقب الليل والنهار بصورة دقيقة ومنتظمة ، مما يؤكد بما لا يدعو مجالاً للشك أن الأرض كروية ، وتلك حقيقة علمية مذهلة عبر عنها الأسلوب القرآنى بطريقة معجزة ودقيقة ولطيفة فى آن واحد ، مما يؤكد كذلك معجزة هذا البيان القرآنى وأنه – ولا شك – من لدن حكيم عليم ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه .

وعلى الرغم من أن الآيات نطاق البحث تثبت نفس المسألة العلمية وما ينتج عنها ، إلا أن الأداء الأسلوبي مختلف ، وهذا الاختلاف لإضافة وبيان ، نحاول إيجازه فيما يلي:

---

(١) المرجع السابق نفس المقال .

– بداية نلمح فروقًا لطيفة بين المصطلحات الثلاثة فالإيلاج : كما سبق يقصد به الدخول ، أى دخول الليل فى النهار والنهار فى الليل وقتيًا وزمنيًا وليس جرميًا ، فهو نكاح معنوي كما قال الإمام الألوسي *. وينتج عن ذلك معجزة التعاقب بين الليل والنهار، تلك التى تقوم عليها مصالح العباد وقيام شئونهم .

أما التغشية : فهى التغطية ؛ أى أن الليل يغطى النهار بظلامه ، وذلك بإحلاله محله ولكن لفظ " التغطية " فى الأصل لا يرادف لفظ " الدخول " لذلك نجد هنا إضافة جديدة على دخول هذا فى ذاك – كما عرفنا من آيات الإيلاج – هذه الإضافة تنتج فقط من إيحاء وظلال لفظ " يغشى " الموحية بالستر وانتشار ظلمة الليل لتحل محل النهار، ثم تكتمل تلك الصورة الحية من خلال قوله تعالى : (يطلبه حثيثًا) أى أنه فى تعاقب مستمر مع النهار يطلبه بسرعة وانتظام ، وهنا تتم المعرفة بأنه تغشية وتعاقب ، ينتج عنهما الليل والنهار .

وإذا كان الإيلاج يشبه التكوير ، فالتغشية ليست تكويرًا ، وأرى أن تلك الأوصاف تعتبر مراحل لذلك التعاقب ؛ فالإيلاج دخول ، والتكوير بيان لطريقة هذا الدخول تدريجيا والتغشية نتيجة هذا الدخول ، إذن فكل مرحلة مما سبق بيان لمعجزة تعاقب الليل والنهار دون تكرار .

وخلاصة القول أن لكل لفظ دلالة خاصة ، وإن كان هناك اشتراك فى المعنى العام ، وعلى ذلك فآيات الإيلاج تخدم معنى رئيسيًا أراده الأسلوب القرآنى ، وقد اجتمع عليه المفسرون وهو دخول كل من الليل والنهار فى الآخر فيزيد كل منهما بما نقص الآخر. (١)

فعملية الإيلاج المشار إليها هنا ، تدل على التعاقب المستمر وتغيير الزمن بإحلال الليل محل النهار . والعكس وينتج عن ذلك نقص هذا وزيادة ذاك فى عدد الساعات .

---

* انظر روح المعاني / مجلد ٢/ صـ١١٢. ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

(١) تفسير الجلالين صـ ٦٧ / ط.إحياء التراث الإسلامى/ قطر/ وكذلك الكشاف مجلد ٣ صـ٢٠/ط . دار الفكر.

بينما هدف آية الإغشاء – على ما يبدو للبحث – هو لفت الانتباه إلى أن الليل ساتر وحاجب لضوء النهار بإحلاله محله ، وفى ستر الليل للضوء عظة وعبرة لمن يتـدبر ، فهو للراحة والسكن وهذه نعمة تستحق الالتفات ، ففى هذا التعاقب قوام الحياة لذلك يأتى الليل يغطى الضوء وكأنه يسدل الستار على كل الشقاء والمعاناة والكبـد الـذي يلاقيـه الإنسان خلال النهار ، فأى نعمة تلك ؟

ومما يلفت النظر لهذه الظاهرة كذلك أن آيات الإغشاء – فقط – هى التى يُكتفـى فيها بذكر الليل فقط ، لأنه هو الذي يغطى النهار والعكس غير صحيح ، على الرغم من أن آيات الإيلاج والتكوير والتقليب يرد فيها ذكر الليل والنهار متزاوجين وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النـور : ٤٤] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٦١] .

وهكذا في باقي آيات الإيلاج والتكوير نطاق البحث ، بينما عند الحديث عن الإغشاء نجد الاكتفاء بالليل فقط ، وذلك فى الموضعين نطاق البحث على النحو التالى :

- (... يغشي اليل النهار يطلبه حثيثًا ...) [الأعراف : ٥٤] .
- (... يغشي الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ...) [الرعد : ٣].

فالإغشاء خاصة من خواص الليل لا يجوز سحبها على غيره ، ويتوقف أمامها العقـل البشري فيجدها نعمة وفضل من الله القادر الوهاب .

وفى آية التكوير يكون هدف الآية على – ما يبدو للبحث – لفت الانتبـاه بطريقـة لطيفة غير مباشرة إلى طبيعة كروية الأرض ، فنجد الأسلوب القرآنى في هذا الموضع يعدل عن الإيلاج والتغشية مؤثرًا لفظ " التكوير " بدلالته المعجمية المميزة ، والتى تلفت الذهن لفتًا شديدًا إلى المقصود بالتكوير فكيف يكون تكوير الليل على النهار والنهار على الليل إلا إذا كانت الأرض كروية غير مسطحة فالمحك هنا فى الأسلوب كروية الأرض ويترتب على ذلك حركتها.

والتكوير كما سبق يختلف عن الإيلاج ، وقد ورد بهامش الجلالين ما يؤكد ذلك :

" قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ ما ذكره المؤلف الجلال المحلى فى معنى التكوير هو معنى الإيلاج الوارد فى مثل قوله تعالى : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وهذا تفسير غير موافق لمعنى اللغة ، لأن التكوير والإيلاج ليسا بمعنى واحد ". (١)

إذن اللفتة القوية المبهرة فى آية الزمر ليست تعاقب الليل والنهار فقط ، بل الإشارة بقوة من خلال لفظ " التكوير " ودلالته على كروية الأرض . ذلك اللفظ الذي عبر عن المعنى العلمى لتتابع الليل والنهار بدقة وإيجاز .

وهناك كلمة استأنس بها فى هذا التوجه للأستاذ سيد قطب ، حيث يقول عن آية التكوير : " وهو تعبيريقسر الناظر فيه قسرًا على الالتفات إلى ما كُشف حديثًا عن كروية الأرض ومع أننى فى هذه الظلال حريص على ألا أحْمِل القرآن على النظريات التى يكتشفها الإنسان .. مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرنى قسرًا على النظر فى موضوع كروية الأرض ، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدرو حول نفسها فى مواجهة الشمس ". (٢) . وهكذا يتأكد للجميع أن القرآن الكريم هو دستور العقل والعلم فى كل زمان .

وبعد .. يتبقى ملمح أو تساؤل وهو لماذا يسبق الليلُ النهارَ دائمًا فى الأسلوب القرآنى ؟ حيث يرد لفظ الليل أولاً ثم يليه لفظ النهار ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٦١] .

---

(١) تفسير الجلالين/صـ ٦٠٦ فى الهامش / ط.إحياء التراث الإسلامى . قطر .

(٢) فى ظلال القرآن / مجلد ٥/صـ ٣٠٣٨/ ط . دار الشروق .

وهكذا فى باقي آيات الإيلاج ، وكذلك فى آية التكوير : خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥] .

وعلة ذلك أن الأصل فى الوجود الكونى ، الظلام ، ولذلك يسبق لفظ الليل النهارَ دائمًا فى الأسلوب بحكم تواجده الكونى والأصلي ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧] .

والسَلخ لغة : كَشْطُ الإهاب ، وشاه سَليخ : كُشِطَ عنها جلدها (١) .

وانسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجًا لا يبقى معه شيء من ضوئه (٢) .

والمنسَلَخ منه هو الأصل والمنسَلَخ هو الطارئ وعلى ذلك فالليل هو الأصل والنهار هو الطارئ* ولعل هذا هو السبب فى إطراد ظاهرة وجود لفظ الليل مقدمًا على النهار فى الآيات السابقة نطاق البحث .. والله أعلم .

وقريب من هذا ما أورده الإمام الألوسي في تقديم الليل على النهار ، حيث قال :

" وقدّم الليل على النهار لمناسبته لعالم الإمكان المظلم من حيث إمكانه الذاتي ، وفي بعض الآثار ، كان العالم في ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره ". (٣)

---

(١) لسان العرب / مجلد ٥ صـ ٣٢٣/ مادة " سَلَخَ " / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) السابق صـ ٣٢٤.

* انظر تفسير الآيات الكونية / د. عبد الله شحاته / صـ ٢٥٠.

(٣) روح المعاني / مجلد ٨/جـ ١١/ صـ ١٠٠/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

الباب الثاني
الطبيعة فى قصص الأنبياء والقسم والأمثال

ويقع في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الطبيعة فى قصص الأنبياء.

الفصل الثاني : الطبيعة فى القسم القرآنى .

الفصل الثالث : الطبيعة في الأمثال القرآنية.

الفصل الأول
الطبيعة فى قصص الأنبياء

ويقع فى المباحث التالية :

* **تمهيد .**

المبحث الأول : الطبيعة في قصص نوح " عليه السلام " .

المبحث الثاني : مفردات الطبيعة والظواهر الكونية فى قصص هود " عليه السلام " .

المبحث الثالث :عوالم السماء فى قصص إبراهيم "عليه السلام" .

المبحث الرابع : الطبيعة فى قصص لوط " عليه السلام " .

المبحث الخامس : العناصر الكونية فى قصص يوسف " عليه السلام " .

المبحث السادس : العناصر الكونية فى قصص داوود وسليمان " عليهما السلام " .

<u>تمهيد :</u>

منذ النشأة الأولى وعنصر الحكى والقص ، له تأثيره على عقل وقلب الإنسان ، فالإنسان بطبيعته البشرية التى جُبل عليها ، يميل إلى كل ما يمس وجدانه ويحرك مشاعره ، كما أنه يتفاعل مع ما يسمعه من قصص وحكايات ، وينتظر متشوقا لحظة النهاية والتنوير ، يبكى ، تنفرج أساريره ، يثور ، يهدأ ، تتعالى أنفاسه وتهبط ، يتخيل نفسه أحد أبطال القصة ، يطلق العنان للخيال ، يتعايش ، يتخيل ... هكذا الإنسان ، أو هكذا القصة لها تأثير السحر على النفوس ، ولم يغفل البيان الراقي ، تلك الميزة فى القصة ، وهذه الخصيصة فى الإنسان ، فكان من أساليب البيان المعجز التربية بالقصة

نعم .. فقد كانت القصة وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية ، وتأصيلها فى النفوس ، وهي وسيلة وليست غاية ؛ لأن القرآن دستور عقيدة وشرائع ، له أغراضه الدينية التى يحققها بوسائله المختلفة ، والتى تتوافق وتتآلف مع القيم الفنية الراقية .

ولقد تنوعت القصة فى القرآن الكريم تبعا لأمور منها : مضمون القصة وهدفها والعنصر البشري الذى تتناوله . ولقد بيَّن الأستاذ " سيد قطب " فى كتابه[1] أن القصة القرآنية تناولت أغراضا كثيرة ، منها " إثبات الوحى والرسالة ، إثبات وحدانية الله ، بيان مظاهر القدرة الإلهية ، الإنذار والتبشير .. إلخ " .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم/صـ١٢٠ / ط . دار المعارف .

وفى هذا الجزء من الدراسة ، استقصى نفس الظاهرة ، وأتبع منهج البحث نفسه؛ أى محاولة تتبع الظواهر الكونية ، التى وظّفها القرآن فى آياته ، وتحليلها تحليلًا فنيًا من خلال دراسة الأسلوب القرآنى الرفيع ، وملاحظة تناوله لتلك المشاهد الكونية الطبيعية ، معتمِدة فى ذلك على الأداء الأسلوبي ، و القيم الدلالية للتعبيرات المستخدمة، واللفظ القرآنى فى سياقه .

وكان من الضرورى عند دراسة الآيات الكريمة موضع الدراسة ، أن نبحث عن رابط أو محور تجتمع حوله هذه الدراسة ، فكان هذا المحور أو الرابط ، الذي يجمع بين الآيات الكريمة هو فن القصة . حيث اهتم البيان الرفيع باستحضار عناصر الطبيعة ، ومشاهد الكون فى هذا القصص القرآني ؛ لأن تلك الإشارات الكونية ، أداة حية للتأثير والتدبر .

مثال ذلك : قصص نوح عليه السلام ، وتوظيف القرآن الكريم ، للعديد من مظاهر الطبيعة مثل : " الماء والسماء والأرض والطوفان والجودي " .

وكذلك قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه ، وتوظيف الريح الصرصر فى إهلاكهم ، قس على ذلك ، كل الآيات الكريمة التى تحمل إشارات كونية ، واهتمت بتوظيف الطبيعة والعناصر الحياتية الأخرى ، فى أسلوب راق يهدف إلى توجيه الإنسان إلى التفكير والتأمل فى خلق الله .

وهذا الفصل يقع فى ستة مباحث ، تتناول هذا القصص القرآنى ، من الجانب البيانى مركِزة على الطبيعة ، بما فيها من عناصر حياتية ، من أرض وسماء ، وشمس وقمر وماء وأنهار، وجنات وعيون ، ونلم كذلك بالعناصر البشرية بقوتها، وضعفها بما تحمله بين طياتها ، من خير أو شر .

المبحث الأول

الطبيعة في قصص " نوح " عليه السلام ..

التعريف بنوح عليه السلام :

" هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ – وهو إدريس – بن يرد بن مهلاييل بن قنين بن أنوش بن شيت بن آدم أبى البشر عليه السلام " (١).

" نوح –عليه السلام – إنما بعثه الله تعالى ، لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس فى الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد " (٢).

وقد ورد ذكر نوح – عليه السلام – فى خمسة وعشرين موضعا كما يلى :

١ – سورة الأعراف : الآيات [٥٩ : ٦٤] .
٢ – سورة يونس : الآيات [٧١ : ٨٣] .
٣ – سورة هود : الآيات [٢٥ : ٤٩] .
٤ – سورة الأنبياء : الآيات [٧٦ : ٧٧] .
٥ – سورة المؤمنون : الآيات [٢٣ : ٣٠] .
٦ – سورة الشعراء : الآيات [١٠٥ : ١٢٢] .
٧ – سورة العنكبوت : الآيات [١٤ : ١٥] .
٨ – سورة الصافات : الآيات [٧٥ : ٨٢] .
٩ – سورة القمر : الآيات [٩ : ١٧] .
١٠– سورة نوح : كلها .

---

(١) عن كتاب " قصص الأنبياء " للحافظ بن كثير ، تحقيق : محمد أحمد عبد العزيز / ط دار الحديث صـ٦٤.
(٢) المصدر السابق .

١١- سورة النساء : الآيات [١٦٣ : ١٦٥] .

١٢- سورة الأنعام : الآيات [٨٣ : ٨٧] .

١٣- سورة التوبة : الآية [٧٠] .

١٤- سورة إبراهيم : الآية [٩] .

١٥- سورة الإسراء : الآية [٣] .

١٦- سورة الإسراء : الآية [١٧] .

١٧- سورة الأحزاب : الآية [٧] .

١٨- سورة ص : الآيات [١١ : ١٣] .

١٩- سورة غافر : الآيات [٥ : ٦] .

٢٠- سورة الشورى : الآية [٣] .

٢١- سورة ق : الآيات [١٢ : ١٤]

٢٢- سورة الذاريات : الآية [٤٦]

٢٣- سورة النجم : الآيات [٥٢]

٢٤- سورة الحديد : الآية [٢٦]

٢٥- سورة التحريم : الآية [١٠]

وسوف نتناول من قصص نوح " عليه السلام " ، ما يخدم الموضوع الذى نحن بصدده ، لنرى كيف كان توظيف الطبيعة ، فى الآيات الكريمة .

<u>* الآيات نطاق البحث :</u>

(١) <u>سورة " هود " : [٤١ : ٤٤] قال تعالى :</u>

﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(٢) <u>سورة " القمر " : [٩ : ١٦] قال تعالى :</u>

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

<u>(٣) سورة " نوح " : [١٠ : ١٢] قال تعالى :</u>

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .

(٤) سورة " نوح " : [١٥ : ٢٠]   قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُــورًا وَجَعَــلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًــا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

الموضع الأول :   من سورة هود ، وهى مكية وعدد آياتها (١٢٣) آية .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِــيمٌ *وَهِــيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِــنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود ، ٤١:٤٤] .

وتبدأ قصة نوح – عليه السلام – من الآية (٢٥ : ٤٩) .

ولقد تناولت هذه السورة ، أكثر من قصة من قصص الأنبياء ، فبالإضافة إلى قصـــة نوح – عليه السلام – وردت قصة " هود " ، ونبي الله " إبراهيم " ، وكذلك " شعيب " ، ثم قصة " موسي " ، عليهم جميعا السلام .

وهكذا تنقلت الآيات الكريمة ، بين دوح الأنبياء على مر العصور ، بادئة بقصة " نوح " عليه السلام ، فكان ذلك بمثابة ، تأريخ لحركة النبوة والعقيدة ، عقيدة لا إلـــه إلا الله ، على النحو التالي ، في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ ﴾

[هود ٢٥ : ٢٦]

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ [هود : ٥٠]

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ...﴾

[هود : ٦٠]

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩]

﴿ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾

[هود : ٧٧]

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾

[هود : ٨٤]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

[هود : ٩٦]

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

[هود : ١٠٠]

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : ١٠١]

هي إذن قصة التوحيد ، قضية الربوبية المطلقة لله وحده ، والدعوة إليها على مـر العصور ، بداية من " نوح " عليه السلام ، إلى " محمد " صلى الله عليه وسلم .

العرض الموضوعي :

كانت البداية بإرسال نوح – عليه السلام – إلى قومه بدعوة التوحيد ، وإثبات الربوبية لله الواحد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ . [هود ، ٢٥:٢٦] .

هكذا كانت دعوة نوح – عليه السلام – تتسم بالعدل والرحمة ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ فهو رحيم بقومه ، محب لهم ، صبورعلى إيذائهم ، يدعو لهم . ولكن ماذا كان الرد ؟ وما المتوقع من هؤلاء الكافرين ؟ ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ...﴾

[هود : ٢٧]

وتستمر دعوة نوح لقومه ، مؤكدا لهم صدق دعوته بالأدلة والبراهين ، وأنه على بينة من ربه ، وثقة بما يدعو إليه من توحيد ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾

[هود : ٢٨]

ولكن من عمِّيت عليهم رحمة الله ، وهداه واستكبروا وعلت الغشاوة قلوبهم يقولون :

﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

[هود : ٣٢]

وهنا وفى تلك اللحظات ، يأتي الحسم الإلهي ، والفصل بين الكفروالإيمان ،

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

[هود ٣٦ : ٣٧]

تلك هي نقطة التحول ، ونهاية اللجاجة والجدل ، من هؤلاء الكافرين ﴿ **اصْنَعِ الْفُلْكَ** ﴾ أمر إلهي يحسم القضية ، ثم يلي هذا الأمر، نهي صريح ، من صاحب الملكوت العظيم ، العليم بخفايا النفوس والصدور ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ، فهي إشارة إلى نوح – عليه السلام – بأنه لا استثناء في الحكم ، ولو كان ابنك يا نوح .. تمهيدا لمشهد كوني إنساني معجز ، ترسمه الآيات التالية ، ونفذ نوح الأمر : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ...﴾ [هود : ٣٨].

هكذا وكأن على القلوب أقفالها ، فهي لا تدري ما المصير ، ولا تعي حكمة الله في أمره لنوح – عليه السلام ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٩] ، ثم يطالعنا القرآن الكريم ، بأحداث جديدة ، وفصل آخر من القصة ، أكثر تطورا في نمو الحدث ، تجاه لحظة النهاية ، وهو ماذا بعد صنع السفينة ؟

﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠]

من آمن – فقط – هو الناجي بأمر الله ، من آمن – فقط – هو الذي حمل على هذه الفلك أما من سبق عليه القول ، فهو محروم من رحمة الله وعطفه ، فقد اختار الكفر واستحبه على الإيمان .

وتنمو الأحداث متلاحقة ، متنامية تجاه نقطة النهاية ، وذلك من خلال مشهد الطوفان وتوظيف عناصر الطبيعة لإبراز هذا المشهد .

التحليل الفني :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود ٤١ : ٤٤]

تبدأ الآية الكريمة ، بأمر واضح من الله عزوجل ، ﴿ **ارْكَبُواْ فِيهَا** ﴾ ، فليس هناك مجال للتراجع ، أو البحث عن القرار ، وهذا هو وعد الله لعباده الصالحين ، ووعيده لمن كذب به ، (**فيها**).. تدل على الظرفية ، والدخول في السفينة ، ثم تتحرك السفينة ، ﴿ **بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ ، فهو القادر المتحكم ، تجرى بأمره وترسو بأمره ، (بسم الله) الباء للملابسة ، أى ملابسين لذكر الله ، متباركين به سبحانه .

ثم نلحظ عَجُزَ الآية ، فنجده تأكيدا لما جاء في صدرها ، نجد التأكيد على رحمة الله ومغفرته ، حيث جاء البيان المعجز بمؤكدين ، " إن واللام " ، في قوله تعالى :
﴿ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

ثم ننتقل إلى مشهد مهيب ، يلقي الرعب في النفوس والقلوب ، ولكن المؤمنين ثابتون مطمئنون إلى رحمة الله ، فقد بشرهم بالرحمة والنجاة .

﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾ .. وليتخيل الإنسان هذا الموقف الشديد الرهبة والخوف ، " السفينة " التي تجري بين الأمواج العالية ، أمواج ناطحت قمم الجبال ولا يخفي ما في الأمواج ، من شدة الحركة ، وشناعة الاهتزاز .

ولا يخفي هنا ما في هذا التشبيه ، من توظيف العناصر الطبيعية ، ودورها في إبراز الصورة وتجسيدها ، وإثارة الخيال حولها ، وتثبيتها في النفوس والعقول ، والضمائر بأهوالها ، وفى هذا يقول صاحب الكشاف : " في ﴿ مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة منه بالجبل ، في تراكمها وارتفاعها ". (١)

وإيثار المضارع " **تجري** " لاستحضار الصورة ، وجملة ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾ ، اعتراض ، لبيان عجائب هذا اليوم العظيم . يوم الطوفان .

وهذا هو منهج القرآن الكريم ، في أكثر مواضعه ، استعمال الصور الحية . وما تكاد تنتهي من تمثّل الموقف ، حتى تشعر بهزة نفسية إنسانية عنيفة ، فالأمر لا يقف عند حركة الفلك ، بين الأمواج المتلاطمة العالية ، وإنما يضاف إليه ذلك المشهد الإنساني ، عندما نظر نبي الله " نوح " حوله ، فوجد ابنه في معزل ، يحاول أن يحتمي بأي شيء ، فيناديه بأعلى صوته ، مستخدما أداة النداء للبعيد (**يا بُنَيَّ**) ، وكأنها إشارة إلى البعد النفسي ، والعقدى بين الابن وأبيه وليس البعد المكاني فحسب ؛ لأنه سمع نداءه . (بني) تصغير (ابن) ..وأُوثِر

هذا اللفظ بإضافته لياء المتكلم ؛ لتعميق الإحساس بالشفقة على هذا الابن الضال .

ثم يلي النداء ، الأمر ﴿ **ارْكَب مَّعَنَا** ﴾ ، أمر الشفقة والرحمة ، دعوة إلى الإيمان من الأب الملهوف ، الذي يرجو النجاة لابنه المعاند المكابر ، ثم يلي ذلك مباشرة النهي ﴿ **وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** ﴾ ، وإذا حاولنا الربط بين هذه الجمل الطلبية المتوالية من : " **نداء إلى أمر إلى نهي** " ، لوجدنا أنها تحمل دلالة خاصة ، وتعبر عن مكنونات نفسية حزينة لأب ملهوف ، تتغلب عليه نزعة الأبوة ، بطبيعته البشرية ، فيطلب لولده النجاة ، ولكن هل يجاب طلبه ؟

---

(١) الكشاف " للزمخشري " / جـ٢ / صـ٢٧ / ط . دار الفكر .

لقد حُسِمت القضية ، من لدن حكيم عليم ، فيأتي الرد في قوله تعالى :
﴿ **وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ ، إذن فالمحاولة الأخيرة ، أمام هـذا النهي ليست في توسل الأب إلى الله ، بل هي ، محاولة أخيرة لإيقاظ هذا الابن الغافل . ودعوته للحق ، ونهيه عن الكفر ، حيث يرى " نوح " – عليه السلام – ببصيرته ما عمّي على ابنه فقد علت الغشاوة بصره وبصيرته ، ولكن هل استجاب هذا العاق لدعوة أبيه ؟ هل استجاب لتلك المشاعر المتلهفة ؟

﴿ **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ...**﴾ ، هكذا كـان الـرد " **سـآوي** " مستعملاً السين ، للدلالة على التسويف والتراخي ، وكأنه لا يدرى حقيقة الموقـف ، لم يستشعره بعد ، وتلك خصيصة أخرى ، من خصائص البيـان المعجـز ، الإيحـاء والدلالة النفسية للآيات ، حيث نجد التناقض بين حالتين نفسيتين :
الأولى : حالة الأب الملهوف ، البصير ببواطن الأمور من لدن الله – عزوجل .
الثانية : الابن المعاند المتكبر، الذي عميّت عليه الحقائق ، ولا يقدّر الأمـور حـق قدرها .
فالآية (٤٢) نشعر في ثناياها بتلاحق أنفاس أب مكلوم ملهوف ، ثم تأتي الآية التالية لها لنجد حدة الإيقاع ، تقل والأنفاس تهدأ ، وترد الألفاظ موحية بـذلك متناغمـة مـع الموقف النفسي على النحو التالي :
﴿ **سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ...**﴾ وهكذا تسير الأحداث ، ننتظر لحظة النهاية وكيف تكون ، نتمنى أن تكون لحظة التنوير لصالح هذا الابـن ، ولكـن الأب الرحيم والنبي الكريم ، لا ييأس ويستمر في التوجيه قائلاً : ﴿ **قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ** ﴾ ، هكذا بأسلوب قاطع صريح ، يؤكد الأب أنه لا عاصم اليـوم إلا الله – عزوجل – فلا جبل ولا حائط ولا جدار ، وتعبر الآية الكريمة عـن ذلـك ، بأكثر من أسلوب توكيد ، أولاً عن طريق استعمال " لا " النافية للجـنس ﴿ **لاَ عَاصِـمَ الْيَوْمَ ...**﴾ حيث تنفي العصمة والحماية كاملة ، إلا عمن رحم الله .

ثم يستمر التوكيد عن طريق أسلوب القصر ، بوسيلة النفـي والاسـتثناء ﴿ **لاَ عَاصِمَ ..... إلاَّ مَن رَّحِمَ** ﴾ . وقد آثر الأسلوب القرآني ، اسم الفاعل ، بمعنى اسـم المفعول في قوله تعالى : ﴿ **لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ ...**﴾ والمقصود لا " **معصوم** " اليوم على غرار قوله تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

وماذا بعد ذلك ؟ قد يظن البعض ، من خلال هذا الحوار المتلاحق أن الابن قـد استجاب ، و أن النهاية المرتقبة هي اقتناعه ونجاته ولكن لا ، فقد قضى الأمر .

وينتهي هذا الفصل من القصة ، بشخوصه الممثلة في " نوح " – عليـه السـلام – وابنه وبيئته الزمانية ، وهي لحظة الانطلاق بالسفينة ، وبيئته المكانية وهي السفينة وما حولها .

ويظل الصراع ، صراع النفس " الأب والنبي " ، وهنا يكـون التـدخل الإلهـي الرحيم لإنهاء هذا الموقف ، وتلك المشاعر التي تمزق الأب ، ﴿ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَـوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾ هو قضاء الله وقدره ، ستار النهاية ، الفصل بين الحق والباطل ، ونلاحظ من الآية الكريمة ، استعمال الفعل الماضي في " **حال – كان** " ، للدلالة علـى سرعة حدوث الفعل وانتهائه ، واستحالة استمرار الحوار ، فكأنه لم يستغرق زمنـا ، انتهي كل شيء وحسُم .

وجاء الأداء القرآني ، معبرا ، شديد الإيجاز في بيان النهاية ، في قوله تعالى : **(فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)** ، أي هو ومن معه ، من الكافرين المكذبين .

هكذا حقت كلمة الله على الكافرين ، وتنتهي تلك الأمواج الثـائرة ، حيـث أدت وظيفتها بأمر لله ، ويأتيها أمر جديد : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِـي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ويستمر الأداء القرآني الكريم ، في توظيف عناصر الطبيعة ، فضلاً عن تشخيصها ، فنجد الخطاب والأمر الإلهي ، إلى كلٍ من الأرض ﴿ **يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ** ﴾ ، والسماء ﴿ **وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي** ﴾ ، فالتشخيص واضح ، والأمر مُلزم ، فعلي الأرض أن تبتلع الماء لتهدأ الثورة السابقة ، لينتهي هذا الطوفان المشاهد ، كظاهرة كونية معجزة ، والمحسوس في شخص " نوح " – عليه السلام ، كظاهرة نفسية إنسانية ، وعلى السماء أيضا أن تمسك عن المطر ، فقد قضى الأمر وانتهي ، واستوت السفينة ورست على جبل " الجودي " ، ثم كانت النهاية الحتمية للعدل الإلهي ﴿ **وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ ، فهم مطرودون من رحمة الله ، كما طردوا غرقا من الحياة .

ولصاحب الإتقان كلمة بديعة ، في تفسير هذه الآية حيث يقول : " يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ .. إلى قوله : وَقِيلَ بُعْدًا ، فيه اعتراض بثلاث جمل وهي ، وغيض الماء وقضي الأمر ، واستوت على الجودي ... إفادة أن هذا الأمر ، واقع بين القولين لا محالة ، ولو أتي به آخرًا لكان الظاهر تأخره ، فبتوسطه ظهر كونه غير متأخر، ثم فيه اعتراض في اعتراض ، فإن و قضى الأمر معترض بين ، وغيض واستوت لأن الاستواء يحصل عقب الغيض " . (١)

وإذا ما تأملنا الدلالات اللفظية ، التي توحي بها ألفاظ الآية الكريمة ؛ نلحظ ما يلي:

١- الأفعال .. " **قيل** " فعل مبني للمجهول ، فقد آثر الخطاب القرآني هنا الإيجاز ، فالفاعل معروف ، له شأنه في العلو والعظمة ، وهو المدبر لشئون الكون ، لا يخفى وما زال أثره واضحا ، في المشهد الكوني المهيب ، مشهد الطوفان ، فالإيجاز هنا هو الأنسب والأكثر بلاغة .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي/ جـ٢ / صـ٧٥ / ط . المكتبة الثقافية. بيروت . لبنان .

وأظن أن هذا ما أراده صاحب " مفاتيح الغيب " ، عندما تعرض لهـذا الفعـل ، حيث ورد في تفسيره ما يلي :

" واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة ، كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى ، وعلو كبريائه . فأولها : قوله تعالى : (وقيل) ، وذلك لأن هذا يدل على أنـه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة ، بحيث إنه متي قيل .. قيل : لم ينصرف العقـل إلا إليه ، ولم يتوجه الفكر إلا أن ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو " .[١]

٢- الأمر في : **(ابلعي – أقلعـي)** ، والأمر هنا يوحي بـالعلو والقـدرة ، يـوحي بالألوهية المطلقة .

فالأمر للأرض بابتلاع الماء ، و الأمر للسماء بإمساك المطر ، ونلاحـظ دقـة استعمال الفعل مع الفاعل ، فالأرض أليق لها الابتلاع ، والسماء أنسب لها الإمساك ، والكف عن إنزال المطر ، وكذلك لا يخفى استعمال" كاف المخاطب " فـي ﴿ ابْلَعِـي مَاءكِ ﴾ وكأن هذه خصيصة من خصائص الأرض .

﴿ وَغِيضَ الْمَاء ﴾ نتيجة للأمر السابق تأتي سريعة خاطفة ، توحي بطاعـة السـماء والأرض طاعة مطلقة ، فقد تحقق ما أراده الله – عزوجل .

﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ ، مرة أخرى الإيجاز بحذف الفاعل ، للدلالة الواضحة عليه ، ولإبراز أهمية هذا الأمر ، ثم استوت السفينة على جبل " الجودي " ، بإيثـار الفعـل الماضي (اسْتَوَتْ) بما يوحي بدلالة حروفه على الهدوء والسكينة ، والهمس الملحوظ من حروف التاء والسين .

---

(١) مفاتيح الغيب " التفسير الكبير " / مجلد ٨/ صـ٥٣٧ / ط . دار الغد العربي .

﴿ **وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ هي النهاية إذن ، الطرد من رحمة الله ، بل من الدنيا بأسرها .

الموضع الثاني :

وهناك مشهد كوني ثانٍ ، ولوحة طبيعية ، تبرز جزءا من قصة " نوح "عليه السلام ، في سورة القمر في قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

[القمر ٩ : ١٦]

العرض الموضوعي :

والآيات التي نحن بصددها ، تعد مشهدا آخر ، من مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم ، فهذا " نوح " عليه السلام ، يضيق بقومه وتكذيبهم له ، ويصبح قومه ، عبرة لمن يكذبون الرسل ، فقد اتهموه بالجنون : ﴿ **فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾ .

وبضعف المقهور ، وقلة حيلته يتجه " نوح " عليه السلام ، إلى ربه داعيا راجيا،أمينا في حمل الرسالة ، فهو لم يعد يحتمل ، ولقد بذل كل ما يستطيع ، ولكن النتيجة كانت التكذيب والاتهام بالجنون ، فدعا ربه : ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ انتصر يا ربي ، يا صاحب الحول والطول .

فلم يعد لدي نوح – عليه السلام – القدرة ، وكانت إجابة دعوته – عليه السلام – هي الأمر الإلهي ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴾ .

التحليل الفني :

ولا تخفى عناصر الكون الطبيعية في هذه الآيات الكريمة ، متمثلة في :

(السماء – الماء المنهمر – الأرض – عيون الماء)

وتتضح أيضا السمة القصصية ، حيث تم توظيف الطبيعة وعناصرها ، لاستكمال الجو القصصي متمثلاً في شخص " نوح " عليه السلام ، وهو الشخصية المحورية ، مبلغ دعوة التوحيد ، والأشخاص الثانوية ، وهم الذين يكذبون بدعوته ، والعقدة المستحكمة ، وهى عدم استجابة قومه له ، ثم لحظة التنوير وهى استجابة الله – عزوجل – لدعائه تلك الاستجابة السريعة ، التي عبرت عنها " فاء السرعة " في قوله تعالى : ﴿ **فَفَتَحْنَا** ...﴾ ، ويأتي الفعل بصيغة الماضي ؛ للدلالة على الثبوت والتحقق ، مما يبعث الرضا والاطمئنان في قلب نبي الله " نوح " عليه السلام ، ويزداد جرس الفعل ، علوا وتأثيرا ، باتصاله بضمير الفاعلين " **نا** " ، للدلالة على الألوهية والعظمة والعلو ، والقدرة والتمكن والتمكين .

وكذلك استعمال هذه الكلمة : (**أَبْوَابَ**) ، بصيغة الجمع للكثرة ، وإيحاء بالكم الهائل ، من الماء المنهمر ، ويتضح ذلك من خلال استخدام لفظ (**منهمر**) ، بدلالتها على قوة واندفاع ، وغزارة الماء ، بما لا يوحي به لفظ غيره في هذا الموضع.

ثم تأتي الباء ، في قوله تعالي : ﴿ **بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ** ﴾ ، ففيها وجهان ، وقد أوردها " فخر الدين الرازي " :

أحدهما : كما هي في قول القائل : " فتحت الباب بالمفتاح " وتقديره ، هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب ...

ثانيهما : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ مقرونة بماء منهمر ، والانهمار والانسكاب والانصباب صباً شديداً .[١]

---

(١) مفاتيح الغيب / المجلد ١٥/ صـ٦٩ / ط. دار الغد العربي .

ومع التقدير لما سبق ، فيبدو للبحث – وأتمني الإصابة – أن هذه الباء للتعليل ، على نحو قوله تعالى :

﴿ و ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ﴾ [الكهف : ١٠٦] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

و المقصود أننا فتحنا أبواب السماء ، من أجل إنزال الماء المنهمر ، أى لهدف وحاجة – والله أعلم – .

و الجانب الآخر ، من هذا المشهد الكوني الرائع ، ﴿ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا..** ﴾ ، " **وَفَجَّرْنَا** " بصيغة الفعل الماضي ، للثبوت و تحقق حدوث التفجير ، ثم إسناد (**نـــا**) العظمة إلى الفعل ، للدلالة على الألوهية و القدرة ، ثم نلحظ الدلالة اللفظية الحرفيـــة لفعل (**وَفَجَّرْنَا**) المضعف العين ، بدلالته على المبالغة في الحـــدث ، فهـــو يـــوحي بالانبثاق الشديد و الاندفاع و القوة ، و ليس في أحد جوانب الأرض ، بل كل الأرض ، تفجـــرت عيونا للماء .

و لو تأملنا هذه الآية الكريمة، ﴿ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونـــًا** ﴾ نلحـــظ البلاغـــة القرآنية في أسمى صورها ، فلم يقل عز من قائل : " و فجرنا عيون الأرض " ، و قد يظن البعض أن المعنى في كلا القولين واحد ، و لكن الأمر مختلف ، فالبناء اللغـــوي في قوله تعالى :

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ، له قوة وأداء خاص ، نتج عن التمييز المحـــول عـــن المفعول فهو يدل فى هذا الموضع على المبالغة بأن أصبحت الأرض كلهـــا متفجـــرة بالماء ، والتقدير : " و فجرنا عيون الأرض " ، و مثيله في القرآن : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم : ٤] و إن كان هذا تمييزًا ، حوِّل عن فاعل .

ثم نلحظ التوافق و التكامل ، في قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا... ﴾ ، فالصورة هنا ، ليست التقابل بين السماء والأرض ، و لكن التناغم بينهما و التكامل : ﴿ فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ ، التقى الماءان : ماء السماء وماء الأرض ، فكان الطوفان المقدر ، من لدن حكيم عليم .

و لكن كيف الحال بنوح – عليه السلام – و من آمن معه ؟

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ ، ومن هنا نعرف أن " نوحاً " ، حُمِل على السفينة التي أمر بصنعها ، و جاءت الآية على سبيل الكناية عن موصوف ، ألا و هو السفينة : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ .

﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أى أخشاب عريضة .. ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أى مسامير ، ولعل الأسلوب القرآنى كنى عن السفينة بما سبق من قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ لتعظيم شأنها ، حيث إنها صنعت بأمر الله ، ولعل الآية التى تليها تبرز ذلك فى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ كناية عن الحفظ " أى تجري فى ذلك الماء بحفظنا " .[١]

الموضع الثالث :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠:١٢]

العرض الموضوعي :

في الآيات السابقة ، يوضح نوح – عليه السلام – تفصيل دعوته لقومه ، فقد دعاهم جهرا وسرا ، دون جدوى ، طالبا منهم أن يستغفروا ربهم ، ويؤمنوا به ، ولسوف ينالون الخير كله ، من وفرة الأمطار ، والأموال والأولاد ، والحدائق ، والأنهار .

---

(١) روح المعانى / مجلد ٩ / جـ ١٤ / صـ ٨٢ .

التحليل الفني :

(السماء – الماء المدرار – الجنات – الأنهار)

عناصر الصورة الكونية الحياتية .

في بلاغة وإيجاز ، تحمل هذه الآيات كنوزا لكل البشر ، لمن يفهمها و يعيها ، فنوح – عليه السلام – دعا قومه كثيرا – تسعمائة و خمسين عاماً – و لكنهم كذبوه وعذبوه ، فلما كان ذلك " حبس الله عنهم المطر ، و أعقم أرحام النساء أربعين سنة ، فرجعوا في ذلك إلى نوح – عليه السلام فقال نوح : استغفروا ربكم من كل شرك ، حتى يفتح عليكم أبواب نعمه و رحمته ". (١)

وهذا يعني أن الاستغفار ، هو مفتاح كل خير ، فبه تقل الذنوب و يعم الخير ، ويرفع الله به البلاء .

وإذا تأملنا أسلوب الأمر، في قوله تعالى : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ** ﴾ ، نلحظ الدقة في توظيف لفظ " **ربكم** " ، و لم يقل " إلهكم " ؛ وذلك لأن المقام هنا ، مقام الربوبية والرحمة و العفو ، عفو الرب الرحيم ، الحاني على عباده ، و لماذا الاستغفار؟ و هل المغفرة ممكنة لهؤلاء الكافرين المعاندين ؟ إنها محاولة من نبي الله " نوح " ، يطمعهم بطبيعتهم البشرية في خيري الدنيا و الآخرة ، و يؤكد ذلك باستخدام " إن " للتوكيد ، (**إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**) ، ثم استعمال الفعل " **كان** " بصيغة الماضي للتأكيد على تحقق هذه الصفة ، في الذات الإلهية ، ألا و هي " المغفرة " ، والتي عبر عنها باختيار الصيغة الملائمة لذلك ، صيغة المبالغة (**غَفَّارًا**) ، و ما علامات المغفرة و العطاء وشواهدهما ؟ أنها شواهد الطبيعة الكونية ، من مطر يعقبه الخير ، بعد الجفاف الذي كتب على قوم نوح منذ سنوات و سنوات ، ﴿ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ﴾ ، حيث يطمعهم في الخير الوفير الناتج عن المطر الغزير، الذي يتخيله العقل ، و تراه العين عندما نستشعر الوقع اللفظي لكلمة " **مِّدْرَارًا** " بصيغة المبالغة، و ما توحي به من غزارة ، و طواعية .

---

(١) مفاتيح الغيب / المجلد ١٥/ صـ٧٣٨ / ط . دار الغد العربي .

(يُرْسِلِ .. عَلَيْكُم) .. بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار ، والمترتب على الطلب " استغفروا " ... " والإرسال مستعار للإيصال والإعطاء ، وتعديته بعليكم ، لأنه إيصال من علو ". (١)

﴿ **وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ .. وكثرة ذلك المطر ، تنبت الأرض ، فتصبح " **جنات** " بصيغة الجمع لإفادة الكثرة ، و ليس الأمر هكذا فحسب ؛ بل تكتمل اللوحة الطبيعية الرائعة ، " **سماء** " ممطرة ، و " **جنات** " لها ظلالها و جمالها وخيرها في الأرض ، و" **أَنْهَارًا** " تجري بالخير و النماء ، فوجودها لازم ، مع الجنات.

ونلحظ ان الأسلوب في الآية السابقة ، قد آثر تكرار الفعل " **يجعل** " ، في قوله تعالى :

(ويجعل لكم أنهارا) .. وأغلب التوجّه إلى أنه تكرار للتوكيد والتقرير لبيان عظيم فضل الله ، على قوم نوح ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، واستكبروا استكبارا .

و كما أطمعهم القرآن الكريم بالخير و الأموال ، منّاهم أيضا بالبنين زينة الحياة الدنيا ، إنه سحر الكلمة إذًا و إعجازها ، و لكنها ليست أي كلمة ؛ إنها كلمة الاستغفار ! والقرآن الكريم كثيرا ما يشير إلى العلاقة الوطيدة ، بين الاستغفار و الرزق و الخير .

وقد أورد الإمام " الرازي " في تفسيره ، بيانا قيما في ذلك ، حيث قال :

"واعلم أن الاشتغال بالطاعة ، سبب لانفتاح أبواب الخيرات . و يدل على وجوه :

أحدهما : إن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾

فلما كان الكفر سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون الإيمان سببا لعمارة العالم .

و ثانيهما : الآيات ومنها هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ .... ﴾ "(٢)

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٤ / ج ٢٩/ صـ ١٩٨/ ط . دار سحنون . تونس .

(٢) مفاتيح الغيب / المجلد ١٥/ صـ٧٣٨ ، ٧٣٩ / ط . دار الغد العربي

إذاً هي قاعدة صريحة واضحة في القرآن الكريم ، أن الاستغفار و الاشتغال بالطاعة سبب الخيرات .

الموضع الرابع :

من قصة " نوح " – عليه السلام ، وهى آيات أخر ، من سورة نوح [١٥ : ٢٠]
قال تعالى :
﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

العرض الموضوعي :

في هذه الآيات ، يمتن الله عز وجل ، على عباده ، ويتعجب من شأنهم ، فهم ينكرون فضل الله عليهم ، وهو الذي خلقهم في أطوار متدرجة ، وخلق لهم السماوات السبع وجعل فيهن القمر والشمس ، لتقوم بهما مصالح العباد ، وبسط و مهد الأرض لعباده ، ليسلكوا فيها السبل ، بما يحقق التعمير والبناء . وكذلك في الآيات ، إشارة إلى البعث .

التحليل الفني :

من خلال هذه الآيات الكريمة ، يتضح توظيف العناصر الطبيعة الكونية ، في عرض مسألة عقدية هامة ، وهي قضية التسليم المطلق ، بأن الله هو القادر الخالق .

بداية نتوقف عند الإنشاء ، في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ.. ﴾ فهو استفهام للتقرير ويفيد الإنكار أيضًا ، وفيه توجيه إلى دلائل التوحيد على عدة مستويات ، على النحو التالي :

في أنفسهم في قوله تعالي : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، أي كان الخلق على مراحل متتالية متطورة ، فكيف لا ترون قدرة الله في أنفسكم ، وهى أغرب الدلائل إليكم، وإذا كنتم لا ترونه في أنفسكم ، أفلا ترونه في الآفاق ؟

في خلق السماوات طباقا ، أي طبقات فوق بعضها ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ والرؤية هنا بصرية ، لأن السماء مُشَاهَدة بالفعل للجميع ، و" **كيف** " فى هذا الموضع " مجردة عن الاستفهام متمحضة للدلالة على الكيفية ، أى الحالة " (١).

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ .. كما خلق القمر فيهن لينيرها، بل وينير الدنيا جميعا ، ولم يتوقف العطاء الإلهي عند ذلك الحد ، بل كانت القدرة العظيمة على خلق الشمس وجعلها سراجا منيراً .

ويبدو هنا الإعجاز في ذلك التوافق العلمى ، مع الحقائق والثوابت القرآنية ، وذلك في اختيار النور مع القمر ، والسراج مع الشمس ؛ فالعلم الحديث أثبت أن القمر يستمد ضوءه من الشمس ، فهو جسم مُضاء بغيره ، والسراج له ضوء ، والضوء ؛ أقوي من النور ، لذلك كان اختيار الأسلوب للنورمع القمر أدق ، وإيثار السراج مع الشمس كذلك .

كما يبدو التوافق الموسيقي ، مع اختيار ألفاظ ذات إيقاع متماثل في قوله تعالى : (وقارا – أطوارا) ، (طباقا – سراجا – نباتا – إخراجا – بساطا – فجاجا).

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٤ / جـ ٢٩ / صـ ٢٠٢ / ط. دار سحنون / تونس .

وفى قصة الخلق والبعث ، دليل على التوحيد كذلك ، وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

إنها قصة خلق الإنسان في إيجاز شديد ، وبصورة رائعة عناصرها ، ذلك الكون المشاهد ، فكلكم لآدم وآدم من تراب ، إنها وحدة أصول الخلق في النبات والإنسان ، ثم يعيد الله الإنسان في باطن الأرض ، عندما يقبر بعد موته ، ثم إذا كان البعث والنشور ، يخرجه من الأرض مرة أخرى .

وتوظيف عناصر الحياة والكون ، له دلالات موحية في الآيات السابقة ، حيث شبه أسلوب القرآن الكريم خلق ونشأة الإنسان ، بالإنبات في قوله تعالى : **﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾** مبينا أن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات ، فالأصول واحدة.

وإنها من باب التذكرة لقوم " نوح " ، في محاولة لإيقاظ أنفسهم وضمائرهم ، عندما يبصرون ويحاولون أن يتدبروا خلق الله ، في أنفسهم وفى الآفاق ، وفى أصولهم الأولي وموتهم وبعثهم .

وهذا كله بالإضافة إلى نعم الله السابغة عليهم ، والظاهرة في قوله تعالي :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ فالأرض ممهدة مبسوطة لهم ، ليتخذوا منها الطرق ؛ لتحقيق المنافع والأرزاق . وإيثار الفعل **(جعل)** بصيغة الماضي ، لثبوت هذا التمهيد والبسط . **(والأرض بساطا)** من باب التشبيه البليغ ، أى أنها كالبساط في تمهيدها وتذليلها . وتقديم الجار والمجرور **(لكم)** للاختصاص ، وبيان نعم الله على قوم نوح . **(لِتَسْلُكُوا ...)** .. تعليل لما قبلها ، وقد أشارت الآيات إلى نعمة خلق السماء ، وفي هذه الآية إشارة إلى تمام وكمال النعمة ، بتمهيد وبسط الأرض ، لتستقيم مصالح العباد .

وأخيرا فقد كانت قصة " نوح " – عليه السلام – مع قومه ، تنبض بالحياة في ظلال القرآن الكريم وأسلوبه وإيحاءاته ، وتوظيفه للمشاهد الكونية المتعددة ، التي منحت القصة نبض الطبيعة والجمال والحياة ، مما يعد وجها آخر من وجوه الإعجاز .

المبحث الثاني

مفردات الطبيعة ، والظواهر الكونية في قصص " هود " –عليه السلام

التعريف بـ " هود" – عليه السلام :

هو : هود بن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام .

وكان من قبيلة يقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف – وهى جبال الرمل – وكانت باليمن بين عمان ، وحضرموت ، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .(١)

وقد ورد ذكر " هود "– عليه السلام – في سبعة مواضع كما يلى :

١- سورة هود – الآية (٥٣)

٢- سورة هود – الآية (٦٠)

٣- سورة هود – الآية (٨٩)

٤- سورة الشعراء – الآية (١٢٤)

٥- سورة الاعراف – الآية (٦٥)

٦- سورة هود – الآية (٥٠)

٧- سورة هود – الآية (٥٨)

وهناك مواضع أُشير إليها فقط ، منها على سبيل المثال ما في سورة الأحقاف من قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٢١]

(١) قصص الأنبياء ، لابن كثير / صـــــ ٩٤ / تحقيق . محمد أحمد عبد العزيز / ط . دار الحديث .

الآيات موضوع الدراسة :

- ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُـوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود :٥٢]

- ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢]

- ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر ، ١٨:١٩]

- ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّـامٍ حُسُـومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة ، ٨:٦]

العرض الموضوعي لقصة " هود " – عليه السلام :

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه " هود " عليه السلام ، إلى قوم " عاد " :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ .... ﴾ [الأعراف : ٦٥]

وقد كانت قبائل عاد قوية شهيرة بالبطش والقوة ، كما كانوا يسكنون الخيام ذات الأعمدة العظيمة الضخمة ..... ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر ٦ : ٨] .

وقد دعاهم أخوهم " هود "– عليه السلام – إلى عبادة الله الواحد الأحد ، بعد أن ضلوا الطريق ، وتعددت بهم الأسباب ، بعد نبى الله " نوح " – عليه السلام – ولكنهم رفضوا دعوة التوحيد ، واتهموا هودا بأنه أصابه مس من الجنون ، بسبب غضب الآلهة عليه .

ثم كان عقاب الله لهم فأخذهم بالريح الصرصر جزاءً على كفرهم واستكبارهم.

التحليل الفني :

الموضع الأول :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود :٥٢]

تُفتتح الآية الكريمة ، بنداء هود – عليه السلام – لقومه : **(يَا قَوْمِ)** مستعملاً " يا " لنداء البعيد ، مما يوحي للمتلقي بالبعد العقدي والسلوكي ، بين هود وقومه . والافتتاح بالنداء ؛ للفت الانتباه إلى أهمية ما سيلقى إليهم .

" **قوم** " منادى مضاف ، وإضافته لياء المتكلم المحذوفة ، بما توحيه هذه الياء من دلالة على الانتماء والرحمة والترابط ، على الرغم من اتهام قومه له بالجنون والكذب .

يلى هذا النداء ، أسلوب طلبي متوالٍ ، متناسق في العرض ، والترتيب : **(استغفروا .. ثم توبوا)** ، حيث يأمر قومه وعشيرته بالاستغفار ، ثم التوبة إلى الله تعالى . فالاستغفار أولاً ، إذا لا قيمة لتوبة دون الإحساس بالذنب ، وطلب المغفرة والعفو من الله تعالى .

﴿ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ.. ﴾ ، نتوقف عند الدلالة المعنوية لهذا اللفظ " ربكم "، حيث عدل القرآن الكريم ، عن استعمال أية كلمة أخرى كـ" استغفروا الله " مثلا، وذلك لما للكلمة الواردة في السياق (رَبَّكُمْ) من إيحاءات ودلالات .

فكلمة " ربكم " توحى بالعطاء والرحمة ، وتمد السياق القرآنى بدفء خاص ، واحتماء مؤكد بخالق هذا الكون ، كما أنها تبشر أن لهذا الكون ربا مسئولاً عنه ، متصرفا في شئونه ، وخصوصا أن في إضافة " رب " إلى ضمير المخاطبين إحساس بالقرب والعطف على هؤلاء القوم ، فالمقام في سياق الآية الكريمة ، مقام ربوبية ومنح ، ولا يتأتى هذا المعنى إلا في ظلال هذه الكلمة .

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا.. ﴾ ، جملة جواب الطلب ، ونتيجة الاستغفار والتوبة ، والاستغفار هنا ، يُكنى به عن ترك عقيدة الشرك ، فالاستغفار هو مفتاح الخيرات ، وقد ورد هذا في القرآن الكريم ، في أكثر من موضع نذكر منها ما جاء في سورة نوح : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا.. ﴾ [نوح :١٠ ، ١١]

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا..﴾ إيجاز بليغ ، والمقصود : "يرسل ماء السماء عليكم " بالتأويل على المفعول المحذوف ، المفهوم من السياق ، وأدلة القرآن في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء .. ﴾ [النحل : ١٠] فهو من باب المجاز المرسل ، وعلاقته المحلية . ولاتخفى دلالة صيغة المضارع " يرسل " ، في بيان استمرارية العطاء الربوبي .

(مِّدْرَارًا) .. بوزن المبالغة " مفعال " ، وحرص الأسلوب القرآنى على بيان الصورة كاملة واضحة فالاستغفار والتوبة ، سببان لهذا الخير العميم الكثير وهو إدرار السماء ، هذا بالاضافة إلى المعنى المعجمى للكلمة ، وطبيعة الترتيب الحرفى لها ، مما يشعر السامع بالانسابية والطواعية التامة ، وهذا بدوره يساهم إلى حد كبير في الصورة الكلية وبنائها .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ... ﴾ هذا أيضا مما يترتب على الجملة الطلبيـــة ، في قوله تعالى : ﴿ يا قوم استغفروا .. ﴾ فنبي الله هود – عليه الســـلام – يمنـــيهم ويعدهم بالخصب والنماء الناتجين ، عن المطر المدرار ، وقد حرموا منه سنوات ، ثم يعدهم أيضا بالقوة والعزم والشدة ، وقد كانوا أهل قوة وبأس ، ولكن لا مانع من الزيادة والمدد ، والعون الربانى الكريم . (قوة) بالتنكير للمبالغة ، ولتعظيم هـــذه القوة فهى من عند الله ، هبة ومنحة ربانية أيضا .

ثم يكون النهي الصريح :

﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ إنه الإجرام الحق ، وقد آثـــر التعبيـــر القرآنـــى كلمـــة (المجرمين) على غيرها كالكافرين مثلا ، لأنها أكثر احتواء للمعنـــى المقصـــود ، فبالإضافة للكفر ، فهم مجرمون ، تجاوزوا دعوة الحق ، فأجرموا في حـــق ربهـــم ونبيهم ، وأخيراً في حق أنفسهم .

الموضع الثاني:

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْـــهِ إِلَّـــا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ . [الذاريات : ٤١، ٤٢]

العرض الموضوعي :

كذبت عاد هودا – عليه السلام – فقد دعاهم إلى عبادة الله تعالى ، ونهـــاهم عن العصيان ، فلم يستجيبوا له ، ونصحهم ألا يتولوا مجرمين ولكـــن دون فائـــدة ، زيادة على اتهامه بالسفه والكذب ، فكان أمر الله فيهم : ﴿ وَفِي عَـــادٍ إِذْ أَرْسَـــلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ .

التحليل الفني :

(إِذْ أَرْسَلْنَا) .. بصيغة الفعل الماضى الدال على التحقق والحدوث ، ومما منح الفعل قوة في أداء المعنى إسناده إلى " **نا** " العظمة ، الدالة على القدرة والألوهية وتمكن الفاعل – عزوجل . (عَلَيْهِمُ) .. غالبا ما يتعدى الفعل (أرسل) بالهمزة وخاصة في سياق الهلاك والتنكيل. [١] إلا في القليل من آيات القرآن الكريم ، ورد هذا التركيب في سياق الخير والعطاء. [٢]

(الرِّيحَ الْعَقِيمَ) .. وبملاحظة هذا التركيب اللغوى ، يتبين دقة التعبير القرآنى " فالريح عقيم " فهى ليست الريح التي ينتظرها قوم هود ، ليست الريح الطيبة ، بل هي ريح عقيم ، لا تأتي بالمطر والخير ، ولا تحمل بشرى التكاثر للأشجار بحمل اللقاح ..

إنها دقة التركيب ، وجمال العرض القرآنى ، فلفظ الريح لم يرد على إطلاقه ، ولكنها " الريح العقيم " في ذاتها ، الخالية من وجوه الخير والعطاء ، والعقيم في تأثيرها أيضا لأنها سوف تهلكهم جميعا ، وبالتالى هي رياح قاطعة لنسلهم ، تقضى على ذرية قوم هود – عليه السلام – وهى ريح الإبادة للكفر وأهله ، لذلك فهى ريح عقيم ، لا تبقى ولا تذر.

ويبقى ملحظ آخر ، وهو استعمال البيان المعجز ، لهذا اللفظ (**عقيم**) على هذه الصورة ، بصيغة المذكر على الرغم من وصفه لمؤنث " الريح " ، ولهذا تفسير لغوى وتفسير بيانى على النحو التالي :

---

(١) راجع السور التالية على سبيل المثال لا الحصر: الأحزاب آية (٩) ، سبأ آية (١٦) ، فصلت آية (١٦) – القمر آية (١٨) – الرحمن آية (١٧ ،٣٥) – الفيل آية (٩) .

(٢) راجع السور التالية على سبيل المثال : نوح آية (١١) – هود آية (٥٢) .

التفسير اللغوي : أن ما كان على وزن " فعيل " بمعنى مفعول ، لا تلحق به تاء التأنيث . [1] فيجوز لنا القول : " رجل جريح ، وامرأة جريح .. وهكذا " .

التفسير البياني : دقة التعبير القرآني في استعمال هذه الصيغة بهذا الوزن " عقيم " مراعاة للموسيقا اللفظية ، لفواصل الآيات الكريمة السابقة والتالية لها على هذا النحو: (... مليم .. عقيم .. رميم) .

وماذا بعد إرسال الريح العقيم ؟﴿ **مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾ نعم إنها ريح الشر ، لا تترك شيئا حتى حولته إلى فتات بالٍ لا يصلح لشيء .

فهو تدرج في بيان سوء هذه الريح ، فهي عقيم لاتنفع ، أضف إلى ذلك أنها ، شديدة الضرر ، لا تأتي على شيء إلا جعلته كالرميم .

(**مَا تَذَرُ**) ..أي ما تدع شيئًا.. " ما " نافية . و" تذر " .. فعل مضارع لاستحضار هذه الصورة السيئة .

(**مِن شَيْءٍ**).. استعمال حرف الجر الزائد للتوكيد . وإيثار النكرة في " **شيء** " للمبالغة ، وشمول التدمير، والإهلاك لهؤلاء القوم ، وهي في معنى المفعول به ، للفعل " تذر" . وقد التزمت هذه الكلمة التنكير ، في كل موضع وردت فيه في القرآن الكريم .

(**أَتَتْ عَلَيْهِ**) .. فعل ماض لتحقق حدوث الفعل ، " عليه " جار ومجرور يوحى بعموم البلاء والإهلاك ، عندما تسخّر الظاهرة الكونية ضد الإنسان ، نتيجة لبعده عن منهج الله ، كما أنها توحى بأن العقاب يأتى من عند الله بما توحيه من معنى العلو.

---

(١) عن كتاب مفاتيح الغيب / المجلد ١٤ / صـ٥٢٧/ ط . دار الغد العربى .

(**جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**) .. نلحظ دقة استعمال هذا الفعل الماضى " جعل " ، بدلالته على الصيرورة والتحول ، الذي أدى المعنى بصورة تتناسق وتتلاءم مع الجو العام للآية ؛ فلو افترضنا مثلا فعلا آخر للسياق ، مثل " إلا كان كَـالرَّمِيمِ " ، نجـد أن التعبير القرآنى ، يختل لفظا ومعنى ، ويفقد ما أراده البيان المعجز ، من القدرة على التحول من حال إلى حال ، حيث يؤدى هذا الفعل بدلالته المعنى كاملا ، في بيـان طلاقة القدرة .

(**والرميم**) .. مثل الرِّمة ، وهي العظام البالية . (١) وتعبير "جعلته كالرميم " على سبيل التشبيه ، لبيان الحالة السيئة ، والتعفن الذي أصاب قوم هود عليه السلام.

وقد تم التعبير عن المعنى السابق من تدمير وتنكيل باستعمال أكثر من مؤكد مثـل حرف الجر الزائد " **من** " فى قوله تعالى : (من شىء) ، وكذلك التوكيد الناتج عن أسلوب القصر " **ما.. إلا** " فى قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ . مع تلك الموسيقا التي تستشعرها النفس نتيجة التناغم والترابط المعنوي هذا بالإضافة إلى الموسيقا الصوتية الناتجة ، عن اتحاد فواصل الآيتين " عقيم .. رميم " .

وهكذا نجد الظواهر الكونية ، ومفردات الطبيعة ، توظف في السياق القرآنـي البليغ لخدمة الدعوة ، وغيرها ، مما يمنح الحياة والنبض لآيات القرآن الكريمة .

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٤ / صـ ٥١٥/ ط . دار إحياء التراث العربي / بيروت .

الموضع الثالث:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾
[القمر ، ١٨:٢١]

العرض الموضوعي :

إنها صورة أخرى من صور إهلاك قوم هود ، لوحة طبيعية كونية تبين أن قوانين الطبيعة ، لا تكون دائما لصالح الإنسان ، ولكنها قد تكون نقمة عليه ، إذا عاند واستكبر وكان من الكافرين المكذبين.. مثل عاد قوم هود ، حيث أرسل الله عليهم الريح الصرصر ، التي تقتلعهم من الأرض ، كأنهم أصول النخل الخاوية .

التحليل الفني :

﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ ..استفهام للتوبيخ والتهديد ، فيه تشويق للمتلقي ، ودعوة لاستبيان حال المكذبين بعد تكذيبهم وإنذارهم ، وفيه تهويل من شأن هذا العذاب كذلك .. و كأن الله عزوجل ، يقول : انظر لترى كيف كان التصرف الإلهى مع هؤلاء المكذبين ، وكيف كانت عاقبتهم ؟

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا** ﴾ .. توضيح ، وبيان للاستفهام السابق . (إنَّا).. بصيغة التوكيد ، والنون المشددة التي تدل على عظمة الفاعل وقدرته ، وبدلالة إيقاعها اللفظى على التمكن والتفرد .

(**أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ**) .. يرد الإرسال كثيرًا بمعنى " التسليط " [١] ، وأرى أنه المعنى المقصود في الآية ، أى أن الله عز وجل ، سلّط على عاد ، هذه الريح الصرصر ؛ لتهلكهم . وإيثار صيغة الماضي ، هي الأنسب للسياق ؛ لدلالتها على تحقق وقـــوع هذا الإرسال ، بما يتضمن معنى التوكيد على طلاقة القدرة ، في إهلاك عاد .

أضف إلى ذلك ، الإيقاع الصوتي للفظ ، حيث نشعر بالتناغم الصوتي ، بين (إنا) ، (نا) في أرسلنا . و(عليهم) .. جار ومجرور ، يدل على إحاطتهم بهذا العذاب ، فهو مسلّط عليهم ، لا نجاة ، و لا فرار منه .

(**رِيحًا صَرْصَرًا**) .. باستعمال صيغة النكرة (ريحا) ، بما تحمله من دلالـــة التهويل ، وبما تشعه في النص القرآني من ترويع لهؤلاء ، وخاصة أنها لم تـــذكر هكذا مجردة من الوصف والتحديد ، بل وصفها النص القرآني بأنها (صرصـــرًا) بما توحيه هذه الكلمة ، من دلالات صوتية ومعنوية ، فالإيقاع الصـــوتى لتركيـــب الكلمة الحرفى ، ثقيل على الأذن ، ذلك الإيقاع المتكرر ، من مادة الصاد والراء ، كما أن دلالته المعنوية ، ثقيلة كذلك على النفس ، تصيب من يتخيل هذا المشـــهد ، بالرعب الشديد ، فهى ريح باردة عاتية شديدة البرودة ، عظيمة الصوت ، مهلكـــة التأثير ، أضف إلى ذلك أن مسوّغ احتمالها ، غير موجود ؛ لأنها في ﴿ **يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** ﴾ يوم نحس شؤم على قوم هود ، ولعل الإنسان قد يتحمل الكوراث الكونية إذا كانت لوقت يسير ، فما بالنا إذا كانت الكوارث في : ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ ؟ .. هي رياح الشؤم إذن ، مستمرة الإهلاك والتدمير ، والتنكيل بمن يكـــذب بـــالله العظيم ..

---

(١) انظر لسان العرب / مجلد ٤ / صـــ ٤٠٦ / ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

و(**يَوْمِ نَحْسٍ**) .. علـــى ســـبيل المجاز ، لأن الرياح سُلّطت عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام كما ، ورد ذلك في قوله تعالى :

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ.. ﴾ [الحاقة :٧]

ويوم نحس .. من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه . (١) كيوم فتح مكة ، وغيره .

والنحس : له معان معجمية متعددة وجميعها يخدم المراد من الآيـــة موضـــع الدراسة ، وتؤصل المقصود منها ، وهي على النحو التالي :

النّحْسُ : الجهدُ والضُّر . والريح الباردة . والريح ذات الغُبار . (٢)

ومما زاد هذا اليوم شؤما وعذابا ؛ أنه مستمر ، أى أن النحس دائم ، بما فـــي ذلك من دلالة على الإبادة التامة ، والهلاك المحقق . والتعبير باسم الفاعل "**مستمر**"، دقيق في موضعه ؛ لما له من نسب وقربى بالفعل المضارع ، من ناحيـــة زمنـــه ، وكذلك دلالته على الجملة الاسمية ، من ناحية ثبوت الحدث ، واستمراريته .

وما زالت الصورة ترسَم بعناية مبهرة ، ولم تكتمل الصورة الكلية بعد ، فما زال لهذه الرياح المشئومة ، صفات أخرى . فهذه الريح تنزع الناس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر .. " ولم لا ؟ أليست هي ريح صرصر مستمرة عليهم في أيام عديـــدة ؟ أليست لهذه الانتفاضة الكونية عواقب ؟

﴿ **تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** ﴾ .. حتما العاقبة ليست فـــي صـــالح الناس فالرياح تقتلع قوم هود ، وقد عبر الأسلوب عن هذا الاقتلاع بالفعل(**تَنـــزِعُ**) بدلالته على العنف والشدة والنزاع والتنازع .

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٣/ جـ ٢٧ /صــ ١٩٢/ ط . دار سحنون . تونس .

(٢) لسان العرب / جـ ١٠/ صـ ٧١/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

وإيثار الفعل (تَنزِعُ) ، بصيغته الزمنية الدالة على الاستمرارية والحيوية، يتوافق تماما مع الكلمة السابقة عليها ، في قوله تعالى : (يوم نحس مستمر)، وكذلك إيقاعه اللفظى ، المرتبط بمادته المعجمية " نزع " بما لها من دلالات على العنف والشدة والاقتلاع ، وبما يحمل هذا الفعل من دلالة على القوة ، والمقاومة في آن واحد ، وعلى تشبث قوم هود بالحياة ، حيث تنتزعهم الريح انتزاعا ، و" **الناس** " المقصود قوم هود .

(**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ**) .. تنزعهم كأنهم أصول النخل وجذوره ، صورة حية قائمة على التشبيه ، فالريح تقتلع قوم هود اقتلاعا ، مثلما تقتلع النخل من جذوره وأصوله .

(**أَعْجَازُ**) .. جمع " عجز " والعجز مؤخرة الشيء ، أو ما يلي الأرض . المقصود هنا ؛ أصول وجذور النخل المغروسة في الأرض ، وهى أدق وأليق للمعنى بما توحى به من عمق المغرس وقوته ، ولنتأمل لو حذفت هذه الكلمة من السياق فأصبحت " كَأَنَّهُمْ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ " ؛ نجد أن المعنى المقصود يتهاوى ، ولا يؤدى الغرض المطلوب . فهذه الريح تقتلعهم من جذورهم ؛ لتهلكهم وتقضى عليهم وتقطع نسلهم وحرثهم ، لذلك فهى ريح عقيم ، ريح إبادة ، كما ورد في سورة الذاريات .

ولماذا خص الأسلوب النخل من بين كونيات الطبيعة الأخرى ؟ لقد ذكر عن قوم عاد أنهم كانوا عظام البنية ، مفتولى البنيان ، وقد يكون – والله أعلم – أن هذا التشابه بينهم وبين النخل في عظم الطول والهيئة . ألم يقل عزمن قائل : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ ؟ [ق : ١٠].

(**منقعر**) .. اسم فاعل من الفعل " انقعر " ، وقَعَر النخلة فانقَعَرَتْ : قَطَعَها من أصلها فسقطت . [1] و اسم الفاعل في هذا الموضع ، يدل على المطاوعة فهو مشتق من الفعل " انقعر" بوزن " انفعل " ، الدال على الأفعال العلاجية ، أى الذي يكون فيه حركة حسية. [2]

(**نخل منقعر**) .. يلفت الانتباه ، وصف النخل ، بلفظ " **منقعر** " بصيغة المذكر ، فلماذا عدل الأسلوب عن التأنيث إلى التذكير ؟

قيل إن التذكير والتأنيث ، يجوزان في مثل هذه الألفاظ ، فمن أنّث ، فعلى المعنى ، ومن وصف بالمذكر ، فعلى ظاهر اللفظ . أى يُرد إلى اللفظ تذكيرا ، وإلى المعنى تأنيثا . [3] وقد ورد الأمران في القرآن الكريم ، ومن التأنيث قوله تعالى :

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ **خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة : ٧]

﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ .. استفهام تقريرى لبيان عظمة الفعل ، يؤكد على حتمية الجزاء ، وبيان لقدرة الله وعذابه ، وإهلاكه للكافرين بعد الإنذار والوعيد ، مع ملاحظة أن هذا الاستفهام ، اكتنف القصة بدءا ونهاية ، محدثا جرسا موسيقيا صاخبا ، يناسب جو الإنذار والوعيد .

---

(١) لسان العرب / جـ ٨ / صـ ٦١٢/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٢) شذا العرف في فن الصرف / الشيخ الحملاوي / صـ ٤٢ / المكتبة الثقافية . بيروت.

(٣) انظر تفسير القرطبي / مجلد ٩ / صـ ٦٥٣٧/ ط . دار الغد العربي .

الموضع الرابع:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ *فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة ، ٦:٨] .

العرض الموضوعي :

عرض كوني آخر ومشهد بديع ، من قصص إهلاك قوم هود ، بسبب كفرهم وعنادهم .

التحليل الفني :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .." أما " للتفصيل وقد سبقها قوله تعالى ﴿ فأمَّا ثمود .. ﴾ ، (فَأُهْلِكُوا) ..هكذا مباشرة ، ترد نتيجة الحدث ، مبينة عاقبة قوم هود عليه السلام ، ويقترن الفعل بالفاء الدالة على السرعة . وكيف أهلكوا ؟

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ) نكرة لتهويل شأن هذه الريح الساحقة ، ومفردة لبيان أنها ريح العذاب ، فأغلب المفسرين على أن الريح تُجْمع في سياق الرحمة ، وتفرد في مقام العذاب والتنكيل. [1] ، ولا يخرج عن هذا إلا قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : ٢٢] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ... ﴾ [سبأ :١٢]

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٥ ، ٣٦].

---

(١) انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي / جـ ١ / صـ ١٩٢/ ط . المكتبة الثقافية . بيروت .

و نجد فى هذا الموضع إضافة صفة جديدة للـــريح ، فهـــى ليســـت ريحـــا صرصرا ، فحسب بل (عَاتِيَةٍ) بما تحمله هذه الكلمة من جبروت وقوة ؛ لتتاســـب هؤلاء العتاة الجبارين ، وبصيغة اسم الفاعل بالتحديد الدالة على الاستمرارية ، بما يتناسب وباقى المعنى فى الآية ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ . والحســـوم : الشؤم ، وقيل : الأيام الحسوم ، الدائمة في الشر خاصة . (١)

أى أن الشر مسلّط عليهم ، مستمر بلا انقطاع ، كما ورد في سورة القمر (.. يوم نحس مستمر) [١٩] . " وحسوما " بالنصب على الحالية ، من (سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ) .

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ) .. ومن تمام إعجاز الأسلوب ، اختيار صيغة الفعل (سخّر) بهذا الوزن المضعف ، بدلالته على المبالغة في هذا التسخير ، بمـــا يعمّـــق دلالـــة التذليل والتطويع ، وبصيغته الدالة على الزمن الماضى ، لبيان نفاذ أمر الله ،وحتمية قضائه.

ولكن هذه الظاهرة الكونية العظيمة ، وتسخير الله – عزوجل – للريح ليســـت لهم بل عليهم ، والفارق بين حرفي الجار ، واضح فى الحالتين ، بما يؤكـــد دلالـــة واضحة على دقة التعبير القرآنى فى كل جزء منه . وإيثـــار الجـــار والمجـــرور (عليهم) ؛ لما يتضمنه التسخير من معنى الإرسال والإحاطة من عالٍ.

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ .. والملفت كذلك ، هذا التحديد الزمني للعقاب ، فهل له داع ، يدعو إليه ؟ وفيما يبدو للبحث ، أن هذا التوقيت يزيد مشهد التنكيل وضوحا ، فهذه الرياح الشديدة القاتلة ، مؤقّتة ومقدّرة " بسبع ليال وثمانيـــة أيام حسوما " ، مستمرة لا تنقطع ، بل مسلّطة عليهم ، تستأصلهم وتستأصل كل خير وبركة ، ولذا فهى ريح عقيم ، كما ورد فى سورة الذاريات ، حيث قضت على كل مظهر من مظاهر الحياة ، فضلا عن التكاثر والتناسل .

---

(١) لسان العرب / جـــ ٣ / صـــ ١٧٧/ ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ الفاء استئنافية . و(ترى) بصيغة المضارع ؛ لاستحضار الحدث ، وكأنه ماثل أمام الأعين الآن ، وهو خطاب بغير تحديد للمخاطب ، فهو كما قال ابن عاشور : خطابا فرضيا . (١)

(الْقَوْمَ) .. معرفة بأل عهدية ، على مذكور سابق ، والتعريف هنا أدق وأوجب ؛ لأن الحديث منسحب على قوم بعينهم ، وهم قبائل عاد ، أى على معروف مذكور ، غير منكور .

(فِيهَا صَرْعَى) .. اختيار حرف الجر " في " بما له من إيحاء ملابسة الظرف للمظروف ، فالريح الصرصر مسخرة عليهم محيطة بهم ، وهم صرعى مهلكون ، وقد يكون الضمير في " فيها " عائدا على الأيام الحسوم التي يصرع القوم فيها . والأمر سواء ، فهم صرعى في الرياح ؛ أي من تأثير الرياح واستمرارها عليهم . أو في الأيام الحسوم ، فالمعنى يستقيم ولايختلف .

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ).. صورة تشبيهية منتزعة من مفردات الطبيعة المتاحة القريبة من الأذهان ، على عادة القرآن الكريم ، في تقريب الصورة عن طريق الملموس المحسوس ، فهؤلاء القوم أصبحوا مثل النخل المبتور ، ولم يتبق منه إلا جذور خاوية فارغة من محتواها ، خلت من مظاهر الحياة والعطاء ؛ لذلك فهى أيضًا ريح عقيم كما ورد في سورة الذاريات .

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٤ / جـ ٢٩/ صـ١١٨/ ط . دار سحنون . تونس .

(نخل) .. اسم جنس جمع ، يفرّق بينه وبين مفرده بالتـاء ، وقـد يوصـف بالمذكر كما في آية القمر ﴿ **تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** ﴾ [٢٠] أو بالمؤنث كما في هذا الموضع . ولفظ (**خاوية**) يوحي بالخراب الشديد ، والتدمير العظيم ، فما ذكره الشيخ ابن عاشور في دلالة لفظ " منقعر " ، يصـلح فـي هـذا الموضع في بيان دلالة لفظ " خاوية " كذلك . وهذا نص قوله : " ووجه الوصـف بمنقعر ، الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعا ، تفلّقت منه بطونهم ، وتطـايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثا فُرغا . وهذا تفظيع لحالهم ومثلة لهم ؛ لتخويف من يراهم ". (١)

﴿ **فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ** ﴾.. أسلوب استفهامي تقريري للنفي ، فقد أهلكـوا بأعمالهم وكفرهم وعنادهم ، ليس لهم باقية وعقب ، مما يؤكد على دقة قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ .

دقائق فنية بين الآيات موضوع الدراسة:

قد يظن القارىء لهذه الآيات ، من سور الذاريات والقمر والحاقة ، أنها مكررة وخاصة آيات سورتي القمر والحاقة ، والحقيقة أن هذا لا يعد تكرارا ، إلا في سياق العرض الموضوعى من بعض جوانبه ، ولكن الأداء الفني ، والميـزات الجماليـة للأسلوب القرآني ، تختلف من موضع إلى آخر ، ومن آية إلى أخرى ، ونسـأل الله أن تتضح تلك القيم الجمالية للأداء ، من خلال تلك المقارنة االتحليلية الفنيـة بـين الآيات :

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ١٣ / جـ ٢٧/ صـ ١٩٤/ ط . دار سحنون . تونس .

- ففي سورة الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ.... ﴾ [٤١]
- وفى سورة القمر: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا... ﴾ [١٩]
- وفى سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ... ﴾ [٦]

فالفكرة معروفة ، وهى إهلاك قوم عاد بريح مهلكة ، ولكن التعبير القرآني الراقي ، يعرض تلك الفكرة بطرق جمالية مختلفة ، تؤدى إلى وضوحها بأسلوب أدبى جميل نبيّنه فيما يلي :

- **في آية الذاريات :**

كان التعبير عن العذاب بـ(الرِّيحَ الْعَقِيمَ) ، حيث وصفت الريح بتأثيرها ونتائجها ، فمن نتائج تلك الريح العقيم ، القضاء على كل مظهر من مظاهر الحياة . ولقد جاءت كلمة " الريح " معرفة بينما وردت في الآيتين الأخريين نكرة ... وذلك لأن الريح العقيم أظهر وأكثر حدوثا من الريح الصرصر، حيث أن الريح العقيم لا تنشىء سحابا ولا تلقح شجرا وهى كثيرة الوقوع ، أما الريح الباردة الصرصر فهى قليلة الحدوث لذلك نكرها القرآن الكريم (١) .

- **وفي سورة القمر:**

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ.. ﴾ ، في بداية قصة التنكيل والعقاب ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ، ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ ولم يحدد عدد الأيام ، ولكن يُفهم من البيان القرآنى ، استمرار الريح دون تحديد .

---

(١) راجع مفاتيح الغيب / مجلد ١٥/ صـ ٨٣ / ط . دار الغد العربي.

- **أما في سورة الحاقة :**

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ...﴾ يعرض البيان المعجز نهاية القصة ، ونتيجة تلك الريح الصرصر العاتية وهو الهلاك ﴿ فَأُهْلِكُوا ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ إنها النهاية إذن ، وإضافة جديدة للمعنى أكثر تحديدا ، وهى أن هذه الرياح مسلّطة عليهم ولفترة حددها القرآن الكريم ، وهى سبع ليال وثمانية أيام مستمرة .

في سورة القمر: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [٢٠، ٢١]

سورة الحاقة : ﴿.. كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [٧ ، ٨]

في آية القمر : جاء وصف النخل مذكر (مُّنقَعِرٍ) ، بينما في آية الحاقة : جاء وصف النخل مؤنث (خاوية)، وفى اجتهادى أن لهذا الخلاف وظيفة معنوية ، وأخرى لفظية جمالية ..

الوظيفة المعنوية : أن آية سورة الحاقة ، تقص الأمر في مرحلة أخيرة ، يكشف الله فيها عن الصورة كاملة ، ويوضح عاقبة الأمور ، وما أصاب عاد ، لذلك كان الوصف لأعجاز النخل أنها خاوية أي فارغة من محتواها وما بداخلها ، مما يتحتم بالضرورة مرور زمن ما ، حتى تصبح معرضة بعد انقطاع سبل الحياة عنها، لهذه الصورة وهى الخواء والجفاف .

بينما فى سورة القمر، مازالت القصة تنبض بالحياة تحكى من البداية ، بدايةً من إرسال الريح ، ثم بيان النتائج السريعة ، لذلك وهى الانتزاع والخلع ، لذلك كان التشبيه " كانهم أعجاز نخل منقعر " ، أي منقلع عن غرسه وقعره .. وخلاصة القول : أنه لا تكرار في الصورتين فكل منهما تؤدى دورها في التعبير عن زمن مختلف عن الأخرى .... والله أعلم .

أما من ناحية الإيقاع الصوتي في الآيات :

أولا سورة القمر :

﴿ .. كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ اختار التعبير القرآني " منقعر " بصيغة المذكر ، حتى تتناسب مع باقى الفواصل اللفظية في الآيات السابقة عليها ، والتالية لها مما يمنح النص القرآني جمالا صوتيا ، و تناسقا لفظيا ولنتأمل:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (١)

بينما في سورة الحاقة : ﴿ .. كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ.. ﴾ اختار التعبير القرآني صيغة المؤنث لأنها الأنسب والأدق ، مراعاة للفواصل القبلية والبعدية ، مما يمنح النص القرآني موسيقا جميلة ، ولنتأمل :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [٨:٥] .

يبقى بعد ذلك أن نلمح بوضوح المشهد القرآني الدقيق ، المستمد عناصره من الطبيعة وهو مشهد إهلاك عاد قوم هود ، عن طريق الريح الصرصر العاتية العقيم كنتيجة مباشرة لتكذيبهم لنبيهم ....

---

(١) انظر مفاتيح الغيب / مجلد ١٥ / صـ ٨٦/ ط . دار الغد العربي .

فحين ننظر نظرة تحليلية إلى آيات الذاريات والقمر والحاقة ، نجـد هـذه اللوحة القرآنية الكونية التى وَظَّف القرآن الكريم فيها عناصر الطبيعة ، لينقل إلينـا منظر هؤلاء القوم ، بداية من إرسال الريح العقيم وحتى نهـايتهم الأليمـة ، وهـم صرعى على الأرض ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، نجد أن القرآن الكريم ، رسم هذه اللوحة البديعة مستخدما في ذلك عناصر الطبيعة بكل دقة ، فالمتلقي يلمس العنـف والبطش ، والشدة والهلاك في ألفاظ موحية دقيقة مثل :

(ريح صرصر عاتية – الريح العقيم – يوم نحس مستمر ...) .

ثم نستشعر قوة الله تعالى ، وجبروته وتمكنه من هؤلاء القوم ، من الألفاظ :

(سخرها عليهم – ما تذر من شئ – أهلكوا – أرسلنا عليهم – فهل ترى لهم مـن باقية – فكيف كان عذابي ؟) .

ثم نرى في هذه اللوحة الرائعة – أيضا – ملامح الهلاك والـدمار، والفنـاء الذي حاق بهولاء القوم ، بالرغم من تمكنهم في أرضهم ، وقـوتهم وعظـم بنيـان أجسادهم ، في الألفاظ :

(صرعى – كالرميم – أعجاز نخل خاوية – أعجاز نخل منقعر – يزدكم قوة إلـى قوتكم) .

ثم نلمس – كذلك – عامل الزمن الطويل الذي استغرقه العذاب ، أثناء تسلُّط الريح عليهم ، فتلحظه من الألفاظ (سبع ليال وثمانية أيام حسـوما – يـوم نحـس مستمر).

إنها الطبيعة عندما تغضب بأمر ربها . وتُسخّر ضد الكافرين بأمر الله تعـــالى ، وتموج وتهيج ؛ فتندفع لإهلاك العاصين ، مهما كانت قوتهم ، ومهما كان تمكّنهم ؛ لأن الأمر صادر لها من الخالق القوى ، القادر المنتقم الجبار ...

إنها بلا شك ، لوحة فنية طبيعية دقيقة ، استخدم فيها القرآن الكـــريم بعـــض عناصر الطبيعة ووظفها توظيفا ملائما ، فانقلبت من رياح لواقح تـــأتى بـــالخير ، وتثير السحاب ليسقط المطر وتأتى بالخير، إلى ريح صرصر عاتية – ريح عقيم – ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها.. وهكذا جاءت هذه اللوحة الفنيـــة القرآنية الرائعة في غاية الدقة لتبين هذا المشهد التدميرى الرهيب.

المبحث الثالث

عوالم السماء في قصص " إبراهيم " عليه السلام

التعريف بإبراهيم – عليه السلام :

هو " إبراهيم " بن تارخ (آرز) ابن ناحور بن سارونح بن راغو بن فالى بن عاير بن شالح بن أرقخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . (١)

وقد أرسل في قوم يعبدون الأصنام والكواكب ، كما ورد في النص التالي : (وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا ، سوى إبراهيم الخليل وامرأته ، وابن أخيه " لوط "– عليهم السلام – وكان الخليل – عليه السلام – هو الذي أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله – عزوجل – آتاه رشده في صغره ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا في كبره) . (٢)

وقد ورد ذكر إبراهيم – عليه السلام – باسمه في القرآن الكريم تسعًا وستين مرة ، في المواضع التالية :

١- البقرة .. الآيات [١٢٤، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠]

٢- آل عمران .. الآيات [٣٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٧]

٣- النساء .. الآيات [٥٤ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٢٥ ، ١٦٢]

٤- الأنعام .. الآيات [٧٤ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ١٦١]

٥- التوبة .. الآيات [٧٠ ، ١١٤ ، ١١٤]

٦- هود .. الآيات [٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦]

٧- يوسف .. الآيات [٦ ، ٣٨]

---

(١) عن كتاب " قصص الأنبياء " للحافظ بن كثير / صـ١٢٢/ ط . دار الحديث .

(٢) نفس المصدر السابق ، صـ١٢٣ .

٨- إبراهيم.. الآية [٣٥]

٩ - الحجر.. الآية [٥١]

١٠- النحل .. الآيات [١٢٠ ، ١٢٣]

١١- مريم .. الآيات [٤١ ، ٤٦ ، ٥٨]

١٢- الأنبياء .. الآيات [٥١ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٩]

١٣- الحج .. الآيات [٤٣ ، ٧٨]

١٤- الشعراء .. الآية [٦٩]

١٥- العنكبوت .. الآيات [١٦ ، ٣١]

١٦- الأحزاب .. الآيات [٧]

١٧- الصافات .. الآيات [١٠٤ ، ١٠٩]

١٨- ص .. الآية [٤٥]

١٩- الشورى .. الآيات [١٣]

٢٠- الزخرف .. الآية [٢٤]

٢١- الذاريات .. الآية [٢٤]

٢٢- النجم .. الآية [٣٧]

٢٣- الحديد .. الآية [٢٦]

٢٤- الممتحنة .. الآية [٤]

٢٥- الأعلى .. الآية [١٩]

ونعرض في هذا المبحث موضعا يخضع لمنهج هذه الدراسة ، وهو : الآيات (٧٥ : ٧٩) من سورة الأنعام .

قال تعالى :

﴿ وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِـينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَـتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[الأنعام ، ٧٥:٧٩]

العرض الموضوعي:

أرسل نبى الله إبراهيم إلى قومه ، من أهل حران، وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وكانت أول دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ، ولكنه رفض وأبـى أن يترك ما عليه من عبادة الوثنية، ثم دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فأبوا ، وتمسكوا بعبادة أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، فأقسم إبراهيم عليه السلام ليكيدن هذه الأصنام . ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾

[الأنبياء : ٥٧].

وكان قوم إبراهيم لهم عيد يذهبون إليه إلى ظاهر البلد ، فلما خرجوا إلـى عيدهم ، ذهب إلى أصنامهم وكسرها إلا كبيرهم . وأراد إبراهيم بهذا ، أن يؤكـد لهم أن هذه الأصنام التي يعبدونها لا تنفع ولا تضر . وقد تعرض بعد ذلك لغضب قومه وإلقائهم له في النار، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَـتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

[الأنبياء : ٦٨ ، ٦٩].

وقد كان أسلوب دعوة نبى الله إبراهيم ، الإقناع العقلى ، وهذا يتضح في واقعة الأصنام ، وفى المناظرة العقلية التي وردت في الآيات ، موضع الدراسة من سورة الأنعام . فقد أثبت لهم أن الأجرام السماوية من نجوم وكواكب لا تصلح للعبادة . وأن المستحق بالعبادة هو الله الواحد .

التحليل الفني:

يقول تعالى:

﴿ وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّآ رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[الأنعام ، ٧٥:٧٩]

(**وَكَذَلِكَ**) .. عطف على ما قبلها ، " والتقدير وكما رأى أباه وقومه في ضلال مبين أريناه ذلك " . (١)

(**نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) .. والحديث لله عزوجل ملكوت السماوات والأرض ، " والملكوت .. مصدر كالرغبوت والرحموت .. وتاؤه زائدة للمبالغة ، ولهذا فسر بالملك العظيم والسلطان القاهر". (٢)

---

(١) التبيان في إعراب القرآن / لعبد الله بن الحسين العكبرى / الجزء الأول صـ ٢٤٩ / مكتبة الدعوة .

(٢) روح المعاني / مجلد ٣ / جـ٤ / صـ ١٨٦/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

وقيل أن : " ملكوت السماوات ، الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض ، الجبال والأشجار والبحار ". (١)

وورد في مفردات الراغب أن الملكوت " مختص بملك الله تعالى ، وهو مصدر ملك ، أدخلت فيه التاء نحو ، رحموت ، ورهبوت " . (٢)

والمقصود من ذلك ، المبالغة في بيان عظيم ملك الله ، وبيان طلاقة قدرته، من خلال هذه الصيغة المزيدة بالتاء .

وكل هذه المعانى تتوافق مع النص القرآني السابق . فالله سبحانه وتعالى قد أطلع نبيه إبراهيم – عليه السلام – على عالم الغيب والنفوس والأرواح ، كما بيّن له قدرته وسلطانه عزوجل ، من خلال تلك الآيات الكونية في السماوات والأرض، معبرا عن (**السماوات**) بصيغة الجمع ، التي توحى بكثرة عوالم السماء ، وغموضها على الإنسان بطبيعته المادية القاصرة . ولماذا يطلع الله – عزوجل – إبراهيم – عليه السلام على عوالم السماء والأرض ؟

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) .. إنه التعليل للإراءة ، وقوله تعالى : (ليكون من الموقنين) أبلغ من قول : " وليكون موقنا " ؛ لما في الأولى من دلالة التوكيد، وبيان أن إبراهيم عليه السلام ، واحد من هؤلاء الموقنين . فقولنا فلان من العلماء أكثر تأكيدا ومبالغة في علمه ، من قولنا فلان عالم .

ولماذا الإراءة ؟ ليصبح أكثر يقينا ، وهذا لا يعنى سبق الشك ، والتعبير بالفعل المضارع " نُرِى " لاستحضار الصورة ، من باب الحكي عن الزمن الماضي .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٣ / جـ٤ / صـ ١٨٧/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) المفردات في غريب القرآن / صـ ٤٧٥/ ط . المكتبة التوفيقية .

ونتوقف عند الواو في قوله تعالى : (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) :

هناك رأى ورد للشيخ العكبرى في هذه الواو ، حيث قدرها للعطف على الفعل المحذوف ، وتقديره :" (ليستدل) أي : ليستدل وليكون من الموقنين" . [1]

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ... (فَلَمَّا) .. أداة شرط تفيد الزمان ، (جنَّ عليه) .. فعل الشرط .

(جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) .. بمعنى ستره بظلمته ، وأحاط به ، هنا يبدأ نبى الله " إبراهيم " ، رحلة الوصول إلى الحقيقة التي تسكن ضميره ، ولكنه يحاول إثباتها لقومه من خلال الاستدلال المنطقى الكائن في عناصر الطبيعة المحيطة .

(رَأَى كَوْكَبًا) .. جواب الشرط ، بتفضيل السياق القرآني لصيغة التنكيرفي " كوكبا " ، حيث لا داعى ولا ضرورة للتعريف . فهو أحد عوالم السماء التي قد تغرى الإنسان الضال بعبادتها وحسب .

(قَالَ هَـذَا رَبِّي).. استئناف ، لبيان النتيجة التي ينتظرها المتلقى ، بعد قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ ، وكأن هناك من يقول ماذا حدث بعد ذلك ؟

" هَـذَا رَبِّي " ..قصر بتعريف الجزأين وإشارة إلى الكوكب ، بأنه هو المستحق بالعبادة ، احتراما لمن ينصف خصمه ، حتى يصل معه بالاستدلال المنطقى والحجة إلى اليقين لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب ويصورون لها أصنامًا .

(فلمَّا أَفَلَ).. أسلوب شرط آخر في الآية الكريمة ذاتها. (أَفَلَ) .. بهذه الصيغة اللفظية التي توحى بالغياب التدريجى ، وتبدل هذا الكوكب من حال إلى حال ، من القوة إلى الضعف ، ومن الظهور إلى الاختفاء .

---

(١) التبيان في إعراب القرآن / للعكبرى / صـ ٢٤٩ / تحقيق :على محمد البجاوي / ط .مكتبة الدعوة.

ويلاحظ دقة التعبير القرآني في استعماله هذا الفعل " **أفل** " بما له من ظلال ، لا تمنح من مرادفاته ، مثل اختفى أو غير ذلك .

مظهر آخر من مظاهر الطبيعة ، عالم من عوالم السماء (**القمر**) ، يوظفه فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّآ رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي** ﴾ محاولة أخرى للتحقق من الإله المستحق للعبادة الجدير بها ، إنه القمر هذه المرة ، فهو منير بازغ شديد الإنارة يشق الظلام بنوره ، إذن فهو الإله المستحق للعبادة !

ولكنه لم يحقق أمل إبراهيم – عليه السلام – وغاب هو الآخر واختفى ، انتهى إلى زوال فكيف يكون ربا أو إلها ؟

وفى الحقيقة فقد كان نبى الله إبراهيم عليه السلام من الموقنين حقا ، حيث أنكر على أبيه وقومه شركهم بالله من قبل ، فكيف يكون الآن من المتشككين الذين يحتاجون إلى الأدلة .فهو موقن كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤]

إذن نبى الله إبراهيم على يقين بربه .

والتساؤل .. ما الداعى إذن لهذه الرحلة الاستدلالية الطويلة ، لإثبات وحدانية الله وأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة ؟

يرى العلامة شهاب الدين الألوسى أن ذلك الاستدلال " كان من باب الموافقة ظاهرا للقوم ، حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم له أتم ، وانتفاعهم باستماعه أكمل ". (١)

---

(١) روح المعاني / مجلد ٣ / جـ٤ / صـ ١٨٨/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

﴿ **فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** ﴾ .. تلك هي المرحلة الثانية من مراحل الاستدلال ، فالقمر رغم كونه عالما كونيا خفيا بالتأمل والتدبر ، إلا أنه لا يرقى لمنزلة الإله ، حيث يعتريه القصور والنقص . فهو بعد البزوغ ، وكمال الإنارة ، يأفل ويغيب .

(**لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**) .. جواب الشرط لقوله تعالى : (**لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي**) وهو مؤكد بالنون ، لبيان رغبته الشديدة في الاهتداء . (من القوم الضالين) .. بمثابة التمهيد والتوطئة ، لقومه أنهم على ضلال ، ما لم يهتدوا .

والأداء القرآني هنا – على لسان نبى الله إبراهيم – مختلف ، فجواب الشرط في الآية السابقة (قال لا أُحِبُّ الآفِلِينَ) ، بينما في هذه الآية ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي **لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** ﴾ ، مما يؤكد على دقة الأسلوب القرآني ، في اختيار الألفاظ والتعبيرات التي تؤدى المعنى ، بما يحمل من دلالات معنوية وإيحاءات نفسية ، فبعد أن أعلن نبى الله إبراهيم ، أنه لا يحب الأفلين ، ينبه في هذه الآية بأسلوب راق رفيع ، أنه لن يتبع هذا الإلهة ، ومن يتبعها فهو على ضلال ، وقد أكد هذا المعنى بأكثر من مؤكد " لأَكُونَنَّ " اللام والنون .

وتمر تلك الليلة وتشرق شمس يوم جديد ، فإذا به – عليه السلام – يرى الشمس ساطعة مشرقة ، وبالتعبير القرآني السابق ؛ مستعملا أسلوب الشرط ؛ نلحظ تكرار المحاولة للوصول إلى اليقين ، بعد أن استوثق من سماع قومه له ، ومتابعتهم لتلك الرحلة اليقينية .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

و(الشَّمْسَ).. ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة الكونية ، فيها استعلاء وقوة وطالما حظيت الشمس بالعبادة والتقديس ، فهل هي رب إبراهيم – عليه السلام – الذي يبحث عنه ؟ إنها أكبر ، وأعظم مما رآه من قبل ! وهي (بازغة) مضيئة .

(هَـذَا رَبِّي) .. قصر بتعريف طرفي الجملة . والإشارة إلى الشمس باسم الإشارة المذكر ، باعتبار أنها الرب ، الذي يبحث عنه.

ويعضد ذلك قول الشيخ ابن عاشور : " فروعي في الإشارة معنى الخبر ، فكأنه قال هذا الجرم الذي تدعونه الشمس ، تبين أنه هو ربي " . (١)

كما أن استعمال " هذا " للمذكر ، له دلالة على تناغم الجانب المعنوى مع الجانب اللفظى ، فالنفس تأبى أن يؤنث الرب ، وقد التفت إبراهيم عليه السلام إلى ذلك في حديثه إلى قومه ، وقد كان التعبير القرآني معجزا في استعمال هذا اللفظ ، لما فيه من صيانة الرب عن شبهة التأنيث . (٢)

(هَـذَآ أَكْبَرُ).. تعليل لما قبله . مع استعمال صيغة التفضيل ، بدلالتها على الأفضلية والتميز ، تميز الشمس عما سواها من الأجرام الأخرى ، كالكوكب والقمر ولم يُذكر المفضل عليه ، للعلم به من السياق .

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ٤/ جـ ٧/ صـ ٣٢٢/ ط . دار سحنون . تونس .

(٢) الكشاف للزمخشرى / مجلد ٢/ صـ ٣٢ / ط . دار الفكر .

(**فَلَمَّا أَفَلَتْ**) فعل الشرط ، يدل على التحول والغياب ، كما في الآيات السابقة . إنها المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل الاستدلال ، مرحلة الإعلان الصريح .. إعلان البراءة من الشرك وأهله . فقد غابت الشمس وتحولت إلى الضعف بعد القوة ، وإلى الأفول بعد البزوغ ، ونلحظ دقة التعبير القرآني في الاستدلال على التغير والحدوث ، بالأفول ؛ لما في هذا اللفظ " الأفول " من دلالة على التغيُّر والتحول والضعف .

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾....

إني بريء .. إخبار مؤكد ، يعلن براءة إبراهيم عليه السلام ، من الشرك والوثنية، مع توظيف الصفة المشبهة باسم الفاعل " بريء" لتعمّق المعنى السابق ، حيث ينفى العلاقة تمامًا بينه وبين المجرور " بمن " ، أى بينه وبين ما يشركون.

فحرف الجار المدغم من في (مما) ، يعلن هذه المفارقة بين إبراهيم عليه السلام ، وأهل الشرك . ويجوز أن تكون ما في (مما) موصولة ، بمعنى : من الذي تشركون ، أو مصدرية ، بمعنى : من إشراككم .

﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ بهذه النهاية تنتهى رحلة الاستدلال ، ويتضح الترابط بين الآيات الكريمة ، فهذه هي النهاية المنطقية الحتمية للفرضيات السابقة .

(**إِنِّي**) صيغة التوكيد للمتكلم ، تأكيد على بيان النور والهداية والتوّجه إلى الله.

(**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ**).. بصيغة الماضي ، وبما تثبته هذه الصيغة من تحقق التوجه إلى الله وحده بالعبادة .. و(وَجْهِيَ)على سبيل المجاز، فليس الوجه هو المقصود في المعنى القرآني ، ولكن توجه الكيان البشرى كلية إلى الله ، والتسليم المطلق له وحده.

(**لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) .. يرد الاسم الموصول ، وكأنه تعليل وبيان لتوّجه نبي الله إبراهيم بعد تلك الرحلة ، إلى الله ، فالله خالق وموجد السماوات بما فيها وكذلك الأرض وما عليها .

(**فَطَر**) .. أى خلق ، وأصل الفطر : الشّق. [1] ووردت بصيغة الماضي، الدالة على الثبوت والتحقق ، ولم يرد في السياق القرآني لفظ " خلق" لما للفظ " فطر " من دلالة معجمية موحية في هذا الموضع ، تقوم بالمعنى بشكل معجز حقا، ففيها دلالة على بداية الخلق وفطرته ، دلالة الابتداء من عدم ، والقدرة المطلقة .

(**السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) .. غالبا وفى أكثر مواضع القرآن الكريم ، يأتي التلازم بين السماوات والأرض ، ونلحظ أن لفظ الأرض يلزم الإفراد دائما، بغض النظر عن كون السماء وردت في السياق مفردة أو جمعا ، وعلة ذلك هي : ثقل لفظ الأرض مجموعا، ويسر لفظ السماوات . ومراعاة القرآن الكريم لذلك تحقق التناغم الصوتي والجمالي بين مفرداته وآياته .

(**حَنِيفًا**) بوزن فعيل للمبالغة دلالة على الاعتدال التام في العقيدة والمنهج ، والتسليم المطلق لله .

(**وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**).. التأكيد عن طريق النفي ، وإقرار صريح وسيلته ضمير المتكلم ، للدلالة على البراءة والتطهر من هذا الشرك العقدي .

وهكذا نرى القرآن الكريم يتخذ عوالم السماء ، وعناصر الطبيعة مادة حية توظّف فنيا لإثبات عقيدة التوحيد ، فلو تأملنا الآيات السابقة من سورة الأنعام ، لوجدنا لوحة كونية فنية رائعة ، تنبض بالحياة والحركة ، بداية من :

---

(١) لسان العرب / جـ ٨/ صـ ٢٨٥/ ط . دار التراث العربي . بيروت .

الليل عندما يغطى الكون بظلامه ، وتوظيف تلك الظاهرة الكونية الطبيعية ــ التي قد يمر عليها الإنسان دون التفات لها ــ في الاستدلال على وجود خالق هذا الكون ، ومرورا بالكواكب بما تشعه من ضوء في هذا الليل المظلم ، ثم أفول الكواكب وغيابها ، وما في ذلك من حركة وحياة . ثم نلمح عنصرا طبيعيا آخر يضيء هذه اللوحة بعد أفول النجم ، وهو " القمر" يأتى بازغا مضيئا ، أحد عوالم السماء التي تمنح النور وتظل برهانا على خالق هذا الكون، الذي ينظمه بدقة وإعجاز، فالقمر يبزغ ويؤدى مهمته ، ثم ينتهى إلى الأفول أيضا.

ثم يبدو في تلك اللوحة مظهر كوني آخر ، أكبر وأعظم ، هو الشمس بما توحى به من عظمة وقوة ، ولكن مصيرها إلى الأفول والغياب أيضا .

هذه الآيات إذن لوحة فنية مستمدة من عناصر الطبيعة ، نشعر فيها بالحركة من خلال هذه الالفاظ : " جن عليه الليل ــ فلما أفل ــ رأى القمر ــ فلما أفلت ــ رأى الشمس ــ فطر السماوات والأرض " .

كما نرى اللون في بزوغ القمر والشمس ، وما تمنحهما تلك العناصر من إضاءة ونور ، ونرى الظلمة في دجى الليل ، عندما جن على إبراهيم عليه السلام.

المبحث الرابع

الطبيعة في قصص لوط " عليه السلام "

التعريف بـــ " لوط عليه السلام " :

هو لوط بن هارون بن تارخ ، " ... ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل ، وكان لوط قد تزوج من محلة عمه الخليل عليهما السلام ، بأمره وبإذنه ، فنزل بمدينة ســـدوم من أرض غور زغر ، وكان أم تلك المحلة ولها أرض... وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية وأردئهم سريرة وسيرة .. " (١) .

وقد ورد ذكر نبي الله لوط في القرآن سبعًا وعشرين مرة مرتبة كما يلي :

- هود : ٧٠ ، ٧٤، ٧٧ ، ٨١، ٨٩. [خمس مرات].
- الحجر : ٥٩ ، ٦١. [مرتين].
- الأنبياء : ٧١،٧٤. [مرتين].
- النمل : ٥٤ ، ٥٦ . [مرتين].
- الشعراء : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧. [ثلاث مرات].
- العنكبوت : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢، ٣٣. [أربع مرات].
- القمر : ٣٣ ، ٣٤ . [مرتين].
- الحج : ٤٣ [مرة] .
- التحريم: ١٠ . [مرة] .
- الصافات : ١٣٣ . [مرة] .
- الأنعام: ٣٦ . [مرة] .
- ص : ١٣ . [مرة] .
- الأعراف: ٨٠. [مرة] .
- ق : ١٣. [مرة] .

١) قصص الأنبياء ، للحافظ بن كثير / تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، صـــ ١٧٧، ط. دار الحديث.

مواضع الدراسة :

١- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ .[الأعراف:٨٤]

٢ - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ . [الشعراء : ١٧٣] .

٣- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ . [النمل : ٥٨] .

٤- ﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ . [هود : ٨١،٨٢] .

٥- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ* فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ . [الحجر : ٧٣،٧٤] .

العرض الموضوعي لقصة " لوط " عليه السلام :

خرج " لوط " بإذن عمه إبراهيم عليهما السلام ، إلى مدينة " السدوم " يقال : " الأردن " حاليا ، وتزوج من أهل هذه المدينة ، ولكن أهل هذه المدينة ، كانوا يأتون الفاحشة وانحرفوا عن الفطرة الطبيعية المسايرة لسنة الخلق وتعمير الأرض ، فكانوا يأتون الرجال من دون النساء ، ونصحهم " لوط " - عليه السلام - مرارا ورجاهم أن يعودوا إلى سنة الله في خلقه ، وأن يلتمسوا ما هو أطهر لهم ولكن دون جدوى ، بل والأدهى من ذلك أن حكموا على " لوط " ومن معه ، بالخروج من القرية لأنهم يتطهرون ... ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ، ٨١] .

فماذا كان جواب قوم لوط ؟ ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾. [الأعراف: ٨٣] .

ثم كانت الزيارة المباركة ، لهؤلاء الملائكة الكرام لسيدنا لوط عليه السلام ، وقد أتوا إليه في صورة شباب وضيئي الوجوه ، وهنا خاف " لوط " عليهم من قومه يطلبون ضيفه ، فتوسل إليهم أن يلتمسوا الفطرة السليمة ، بالزواج من بناته فرفضوا.

ويستمر خوفه على ضيفه ، وخزيه مما يصنعون من الفواحش ، فتكون آيات البشارات من سورة هود .. قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ . [هود : ٨١].

وكانت نهاية هؤلاء القوم هلاكًا ودمارًا ، ومن بينهم امرأة لوط التي كانت عينا عليه لقومها.

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

<u>التحليل الفني :</u>

- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ . [الأعراف : ٨٤]

- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣]

- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٨].

عند تأمل البنية اللفظية وتركيب الجملة للآيات الثلاث االسابقة ، تجدها تتشابه في الصيغة التالية :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٤]

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣]

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل: ٥٨].

مع بيان ووضوح التماثل في الآيتين الثانية والثالثة .

إن توظيف وتوصيف هذه الظاهرة الكونية أي ظاهرة الإمطــار ، لـــه دوره البلاغي والفني في الآيات السابقة ، بداية من استعمال الفعــل (**أمطرنــا**) بهــذه الصيغة صيغة الفعل الرباعي ، الماضي بدلالته على التحقق والحدوث ، مع إسناده إلى (**نا**) العظمة العائدة على الذات الإلهية العليا ، والدالة على الجبروت والقدرة والحول .

نتوقف عند الدلالة المعنوية والمعجمية للفــعل (**أمطرنا**) ، فنجد مــن خلال البحث في آى القرآن ، أن تلك الصيغة اللفظية لم ترد في البيان المعجز، إلا في إصابة العذاب* ، والإنذار والوعيد ، ولم ترد في خير أو تبشير أو نحو ذلــك ، مما يؤكد على أنه مطر سوء وشؤم .

وعند التوقف أمام الدلالة المعجمية ، نصل إلى نفس النتيجة . يقال :

وأمطرهم الله مطرًا أو عذابًا ، أمطرهم الله في العذاب خاصة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ . (١)

---

* انظر تحليل لفظى " الغيث والمطر " فى الفصل الثانى من الباب الأول صـ٣٥٢ : صـ٣٥٩ .

(١) لسان العرب / مادة " مطر " جـ ٩ / صـ ٥١٥ / ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت .

كما ذكـر الإمام الزمخشـري ، ما يلي : " وقد كثـر الإمطار في معنـى العذاب " . [١]

وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢]

ومعروف أن المطر ، هو الماء الذي ينزل من السماء ، وماء السماء غالبا ما يأتي بالخير والنماء والرزق . فلماذا آثر الأسلوب القرآني تلك المادة المعجمية ؟ أغلب التوّجه في ذلك ، أنه من باب الاستهزاء و التنكيل بهؤلاء ، فبدلا من ينـزل عليهم الله عزوجل ، الماء والخير من السماء ، ينزل عليهم الحمم والبراكين . على غرار قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّـن سِـجِّيلٍ ﴾ [الحجر:٧٤] .

أضف إلى ذلك ، أن اختيار مادة " مطر " ، بما لها من مخزون فكري عنـد المتلقي ، تساهم في تبيان وتوضيح الحدث ، فالمطر معروف بأنه يشـمل ويعـم ، ويحيط بالجهة التي ينزل عليها ، وفي ضوء ذلك المخزون ، ترسم الكلمـات جـو العذاب الذي تعرّض له قوم لوط عليه السلام ، فهو عذاب عظيم ، يحيط بهم من كل مكان ، فلا يدرون كيف يتقونه ، تماما كنزول المطر من السماء .

فقد أصابهم العذاب و التنكيل ، من حيث يظنون الخير والعطاء . وهذا أكثـر ترويعا وإيلاما ، أن يجد الإنسان الشر ، من مظنة الخير .

" وكان الذي أصاب قوم لوط ، حجرا وكبريتا من أعلى القرى ". [٢]

" وسمي ما أصابهم مطرا ؛ لأنه نزل عليهم من الجو " . [٣]

---

(١) الكشاف / جـ ٢ / صـ ١٥٥/ ط . دار الفكر .

(٢) التحرير والتنوير / مجلد ٥/ جـ ٨ / صـ ٢٣٧/ ط . دار سحنون . تونس .

(٣) التحرير والتنوير / مجلد ٩ / جـ ١٩ / صـ ١٨١/ ط . دار سحنون . تونس .

ومما يلفت الانتباه ، هذا التكرار بين مفردات الآيات الثلاث ، مع اختلاف عجز آية الأعراف ، عن آيتى الشعراء والنمل ، وهذا الاختلاف في مضمون العبرة، التي تذيّلت بها الآيات ، لتمام الإفادة ، فلا يكون التكرار خاليا من المحتوى.

وتوضيح ما سبق على النحو التالي :

ورد في آية الأعراف هذا التذييل : ﴿ ... فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

وجاء في آيتي الشعراء والنمل هذا الذييل : ﴿ فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾

وكلاهما كما سبق ، دعوة إلى الاعتبار والتدبر ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ دعوة لمخاطب غير معين ، أى لكل من يعتبر ويتأمل ، كما يصح أن تكون تسرية عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ ، دعوة إلى التفكر والاعتبار ، من سوء عاقبة المكذبين الجاحدين لفضل الله .

وهناك تفسير للإمام الكرماني ، في إيثار السياق ، في سورة الأعراف لهذا التذييل، وهو : موافقته لما جاء بعده في الآية ٨٦ من قوله تعالى :

﴿ ... وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . (١)

أما في الموضعين الآخرين ، من سورتي هود والحجر ، فإن الصيغة تختلف لتضيف دلالة جديدة أخرى ..

---

(١) أسرار التكرار في القرآن الكريم للكرماني / صـ ١٢٤/ ط . دار الفضيلة . القاهرة .

<u>المواضع :</u>

- **﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾** [هود: ٨٢] .
- **﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾** [الحجر: ٧٤].

في هاتين الآيتين جاء البيان القرآني أكثر توصيفًا ، عندما بين نوع هذا المطر ، حيث اكتفت الدلالات السابقة ، بأنه مطر سوء فحسب ، بينما هنا تزداد الرؤية ، ويزداد اللفظ وصفًا ، وتعبيرا عن طبيعة هذا العذاب والعقاب ، الذي ينتظر كل كافر فاجر.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) .

الإمطار ليس ماء ، بل حجارة ، وما طبيعة هذه الحجارة ، وما مواصفاتها ؟ إنها من سجيل ، أي من طين صلب شديد مهلك ، كما أن له صفة أخرى تزيد من قسوة هذا العذاب ، وحصاره لهذه المدينة فهو (**سجيل منضود**) أي متتابع متراصٍ.

ونتابع الضمير المتصل بحرف الجر ، فنجده في الآية الأولى من سورة هود " **ها** " الغائبة في قوله تعالى: (**أمطرنا عليها**) ، بينما في الآية الثانية من سورة الحجر ، الضمير " **هم** " للغائبين ، في قوله تعالى : (**أمطرنا عليهم**) يعود على هؤلاء الضالين ، فما علة هذا ؟

عند تدبر المعنى ، نجد أن الضمير في الحالة الأولى ، يتوافـق مـع السـياق المعنوي واللغوي ، وأقصد بذلك أن السجيل في الموضع الأول مسلّط على القريـة نفسها ، وبشكل منظم متتابع ، نفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ** ﴾ أى منظوم ، متتابع ، وكأن إمطار السجيل ، يتتابع على القرية ذاتها ليطهرها تماما، ويقضي فيها على الوثنية والكفر ، وما تبقى من أدران الجاهلية ، فالسجيل المنضود أليق وأدق للقرية ذاتها ، وهي المرة الوحيدة التي استعمل فيها الضمير بهذه الصورة " **عليها** " في تلك الحادثة . ولعل هناك لمحة ، في أن التتابع يقتضي ثبوت المتتابع عليه ، والبشر زائلون والمدينة ثابتة ، ولو لوقت ما . بينما في سـورة الحجـر اكتفى البيان المعجز بأن الإمطار " **حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** " وانتهت الآية عنـد ذلـك . فالعقاب في هذا الموضع ، يتجه إلى البشر ، بدليل الجار والمجرور " **علـيهم** " . والله أعلم .

المبحث الخامس

العناصر الكونية في قصص يوسف عليه السلام

التعريف بيوسف عليه السلام :

هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد ورد ذكر يوسف – عليه السلام – في القرآن الكريم ٢٧مرة ، جميعها في سورة يوسف ، عدا مرتين واحدة في سورة الأنعام والأخرى في سورة غافر ، وهذه المواضع مرتبة كما يلي: الآيات (٤-٧-٨-٩-١٠-١١-١٧-٢١-٢٩-٤٦-٥١-٥٦-٥٨-٦٩-٧٦-٧٧-٨٠-٨٤-٨٥-٨٧-٨٩-٩٠ مرتين -٩٤-٩٩) جميع هذه المواضع في سورة يوسف ثم الآية " ٣٤ " من سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ . وكذلك الأنعام الآية ٨٤ .

الآيات موضع الدراسة:

١-

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤]

٢-

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

[يوسف : ٤٣] .

٣- قال تعالى :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف ، ٤٦: ٤٩] .

العرض الموضوعي :

نعرض خطوطا رئيسة من قصة يوسف عليه السلام ، متضمنة الآيات موضع الدراسة ، لتكون تمهيدا للتحليل الفني .

كان يوسف – عليه السلام – أثيرا عند أبيه يعقوب ، وذات يوم استيقظ ليقص على أبيه أنه رأى في منامه أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رآهم له ساجدين .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف :٤]

فنصحه أبوه أن يكتم هذه الرؤيا عن إخوته ؛ لأن هذا سيزيدهم حقدا عليه ، فهو غير شقيق لهم ، أثير عند أبيه . ولكنهم تآمروا عليه بليل ، واتفقوا في نهاية الأمر على أن يلقوا به في أحد الآبار. وكان ما دبروا . ثم التقطته من البئر إحدى القوافل المارة.

وبعد ذلك ، باعوه إلى عزيز مصر ، الذي طلب من زوجته أن تحسن تربيته ، وتكرم مثواه ، ﴿ **وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..** ﴾ [يوسف :٢١] .

وتمر الأيام ، ويبلغ يوسف مبلغ الشباب وتفتن به امرأة العزيز ، وتدعوه إلى الفاحشة ، فيأبى ويستعصم بالله ، ويشهد شاهد من أهلها ، أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه. وعلى الرغم من ذلك ، يُسجن يوسف احتواء للموقف ؛ ولحفظ مكانة امرأة العزيز .

وفى السجن يلتقى يوسف بساقي الملك وخبازه ، ويؤوّل لهما رؤاهما ، ويطلب من الناجي منهما ، أن يذكره للملك عند خروجه ، وعندما يرى ملك مصر رؤيا يعجز العلماء والمنجمون عن تفسيرها ، يتذكر الناجي – ساقي الملك – يوسف عليه السلام .

﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ...** ﴾ [يوسف : ٤٣]

ويذهب ساقي الملك إلى يوسف ، فيؤول له رؤيا الملك : ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩] .

ويأمر الملك بخروج يوسف – عليه السلام – من السجن ، ولكنه يرفض الخروج حتى تثبت براءته ، وهنا تعترف امرأة العزيز بذنبها ، وتبرّىء يوسف – عليه السلام – ويخرج من السجن مرفوع الرأس ، ويطلب من الملك أن يوليه خزائن المال ، وكان له ما أراد .

وتمر البلاد بسنوات الرخاء وتمتلىء الخزائن بالطعام . ثم تأتى سنوات الجدب ويجيء أخوة يوسف بالمال ليشتروا به الطعام من مصر ، وتعرّف عليهم وهم لا يعرفونه . وأعطاهم ما أرادوا ، وطلب منهم أن يحضروا أخا لهم من أبيهم في المرة القادمة.

وكان له ما أراد ، وأحضروا معهم أخاهم الأصغر " بنيامين " ، وسر يوسف برؤية أخيه ، وأخبره بأنه أخوه ، وبحيلة ما ، استبقى يوسف أخاه معه .

وقد أحزن هذا الأمر يعقوب – عليه السلام – حزنا عظيما ، فطلب من أبنائه أن يذهبوا للبحث عن يوسف وأخيه . وبالفعل ذهبوا إلى مصر ، وهم في حالة سيئة وفقر شديد ، مما جعل يوسف يعفو عنهم . وأعطاهم قميصه ؛ ليذهبوا به إلى أبيه ، ويلقوه على وجهه فيسترد بصره .

وتحقق له ما أراد بإذن الله ، وهاجر الجميع إلى مصر ، ودخل على يوسف أبواه وإخوته وخروا له سجدا ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ..** ﴾ [يوسف : ١٠٠]

<u>التحليل الفني:</u>

﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾.. [يوسف : ٤] .

ترتبط هذه الآية بالسابقة عليها ، فهذا الحديث – قصص يوسف عليه السلام – هو أحسن القصص ، كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ...﴾ [يوسف :٣] .

وقد اختلف العلماء ، لِمَ كانت هذه السورة أحسن القصص من بين مختلف القصص ؟ ولهم تفسيرات وتأويلات عديدة . (١)

وتعد هذه الآية ، هي البداية لقصة يوسف عليه السلام ، فهي تمهيد للأحداث بعد ذلك ، حيث تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، ثم تتوالى القصة مفسرة لرؤيا يوسف عليه السلام .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾

(إِذْ) .. ظرف في محل نصب والتقدير .. أي اذكر لهم حين قال يوسف .

ونتوقف أمام هذا اللفظ " لأبيه " ، ونتساءل هل الأسلوب القرآني يفرق في سياقه بين لفظي " الأب " ، و " الوالد " ؟ ولو تم استبدال هذه الكلمة " لأبيه " بكلمة " لوالده " ، هل يستقيم السياق ؟

لقد حسمت قضية المرادفات ، منذ زمن بعيد ، حيث تناولها كثير من علماء اللغة والمفسرين ، وأجمع معظمهم على أن ، ما من لفظ في القرآن يمكن أن يقوم غيره مقامه.

لذلك فالأدق والأليق للسياق القرآني الذي نحن بصدده ، لفظ " لأبيه " وليس " والده " ، حيث إن الأسلوب القرآني ، يطلق كلمة " الأب " على " الوالد " الذكر، سواء أكان مفردا أو مجموعا جمعا مذكرا ، وتتضح هذه الظاهرة الأسلوبية من خلال استقراء الآيات التالية على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) راجع " القرطبي" / مجلد ٤ / صـ ٣٤٤١ / ط دار الغد العربي.

قال تعالى :

﴿ وإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ ﴾ [الأنعام :٧٤] .

﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة :١٧٠] .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] .

أما كلمة " **الوالـــد** " فلا ترد في حق الأب ، إلا في الحديث عن الأم معه [١] ؛ لأن الأم هي الوالدة الحقيقية، وهذه دقة في التعبير القرآني لم تتعداه لسواه ، تشـــهد بإعجاز القرآن الكريم ، ومؤكدة على أن اللفظ أحد وجوه هذا الإعجاز .

(**يَا أَبتِ**).. لقد جاء في كتب التفسير واللغة ، أن هذه الكلمة أصلها " يا أبى " ثم حذفت ياء المتكلم ، وعوّض عنها بالتاء وحركت بالكسر ، لتدل علـــى اليـــاء المحذوفة ، ولا يجمع بينهما لئلا يجمع بين العوض والمعوض . [٢]

ويرى الشيخ ابن عاشور ، أن هذا التفسير غير وجيه ، ويقدم تفسيرا لوجـــود هذه التاء يقول فيه : " والذي يظهر لي أن أصلها هاء السكت ، جلبوها للوقف على آخر الأب لأنه نقص من لام الكلمة ، ثم لما شابهت هاء التأنيث بكثرة الاستعمال ، عوملت معاملة آخر الكلمة إذا أضافوا المنادى فقالوا : ياأبتى ، ثم استغنوا عن يـــاء الإضافة بالكسرة لكثرة الاستعمال " . [٣]

---

(١) انظر مثلا سورة البقرة آية (٨٣) ، (١٨٠) .

(٢)انظر " التبيان في إعراب القرآن " للعكبرى .. جـ ٢/ صـ ٤٨ / مكتبة دار الدعوة .

(٣) التحرير والتنوير / مجلد ٦ / جـ ١٢/ صـ ٢٠٦، ٢٠٧/ ط . دار سحنون . تونس.

في حقيقة الأمر ، فإن كلا من الرأيين ، له وجاهته اللغوية ، ولكن البحث يحاول أن يجد علة لهذه الظاهرة اللفظية في التعبير القرآني ، أي إيثار الأسلوب لهذا اللفظ (**أبت**) ، في نداء الابن لأبيه ، دون " أبي " ، حيث لم يرد النداء مطلقا بلفظ " أبى " مضافا لياء المتكلم . وعند استقراء مواضع النداء بهذا اللفظ القرآني ؛ وُجد أنها ثمانية مواضع هي :

١- ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ **يَا أَبتِ** إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] .

٢- ﴿ وَقَالَ يَا **أَبَتِ** هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ.. ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

٣- ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ **يَا أَبَتِ** لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ.. ﴾ [مريم :٤٢]

٤- ﴿ يَا **أَبَتِ** إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي.... ﴾ [مريم : ٤٣]

٥- ﴿ يَا **أَبَتِ** لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا.. ﴾ [مريم: ٤٤] .

٦- ﴿ يَا **أَبَتِ** إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن .. ﴾ [مريم :٤٥] .

٧- ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا **أَبَتِ** اسْتَأْجِرْهُ ... ﴾ [القصص :٢٦] .

٨- ﴿ قَالَ يَا **أَبَتِ** افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات :١٠٢]

تلك هي المواضع الثمانية ، نلاحظ فيها ما يلي :

أولا : الآيتان (٤ ، ١٠٠) من سورة يوسف ، تخص نبي الله يوسف عليه السلام .

فهو في الآية الأولى ، يخبر أباه برؤياه ، وفي الثانية يذكره عليه السلام بأن ما فيه الآن من التمكين والملك ، هو تأويل رؤياه من قبل ، وأن الله عزوجل قد جعلها حقا ، وفي الآيتين نلاحظ أن الأسلوب القرآني ، يعبر عن حالة نفسية وديّة حانية ،بين الابن وأبيه ، اتفاق روحي ، علاقة حميمة ملؤها الحب والرحمة ، وتبجيل الابن لأبيه .

ثانيا :

أن الآيات الأربع التي وردت في سورة مريم ، تتحدث عن نبي الله إبراهيم، تتناول دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام ، لأبيه حيث يترفق به ويدعوه إلى ترك عبادة الأصنام ، التي لا تغني من الله شيئا ، ويؤكد له أن الله أمده بالعلم، ومن ثَم فعليه أتباعه ، ثم يحاول معه متوسلا ، ألا يتبع طريق الشيطان ، فإنه كان للرحمن عصيا، وأنه لا يريد له إلا الخير ، ويخاف عليه أن يمسه عذاب الرحمن بسبب كفره وعصيانه .

ويبدو عند تحليل تلك الآيات ، أن المقام فيها ، مقام الرحمة والترفق والأدب الجم من نبي الله إبراهيم – عليه السلام – تجاه أبيه ، فنداؤه لأبيه نداء المتوسل الرحيم نداء الابن البار ، الذي يرى ببصيرته وبما يوحَى إليه ، عاقبة الأمور فهو نداء الابن المؤمن ، الذي يحاول مع أبيه الضال ، مشفقا عليه من المصير المشئوم الذي ينتظره ، هو نداء الرحمة والرفق والتوسل ، أمام عناد الأب وتكبره ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٦] .

فكيف يكون رد نبي الله إبراهيم ، ذلك الصديق النبي ؟ إنه رد الابـن البـار الشفيق ، إنه الأدب الرفيع الذي أظل إبراهيم – عليه السلام – خلال كل الحوارات السابقة مع أبيه .. ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] .

ثالثا :

آية ابنة نبي الله " شعيب " ، عندما قالت لأبيها عن نبي الله موسـى – عليـه السلام – بعد أن سقى لها هي وأختها ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ . [القصص : ٢٦] .

إن من يتدبر هذه الآية ، لابد أن يصل إليه الإحساس بتلك العلاقة بين البنت وأبيها ، فهي علاقة المودة والصدق ، والحب المتبادل بين الأب وابنتـه ، وإلا لما تجرأت أن تعرض على أبيها هذا العرض ، وأن تحدثه عـن ذلـك الرجـل القوى الأمين ، فهي علاقة حميمة ، ومشاعر المودة من الفتاة لأبيها، ظهرت في ندائها الودود (يا أبت) .

رابعا :

وهو الموضع الأخير ، في سياق الحديث عـن نبـي الله إبـراهيم ، وابنـه إسماعيل – عليهما السلام – قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَـيَّ إِنِّـي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

يرى إبراهيم – عليه السلام – أنه يذبح ابنه إسماعيل ، ويقص رؤياه علـى ابنه ورؤيا الأنبياء حق ، فماذا كان رد الابن المعرّض للـذبح ؟ .. كـل الطاعـة والأدب النبوي الرفيع قائلا له : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

ويبدو للبحث في ضوء هذا التحليل والاستقصاء ، أن الأسلوب القرآني قد عدل عن أي نداء بديل ، مثل " يا أبى " إلى " يا أبت " ؛ لما للثاني مــن جمــال صوتي شجي وتأثير يحمل ظلال الرحمة والمودة ، وإبراز عاطفة الحب .

أضف إلى ذلك ، هذا الجمال المعنوي ، والنغم الحنون ، والهدوء الشــجي ، الذي تشعره النفس عند سماع هذه الكلمة . ولنتأمل إيقاع هذا اللفــظ ، وتــأثيره على الأذن لندرك الفرق بين النداءين .. يا أبت .. يا أبى :

إنها موسيقا الصوت، وفحوى المعنى، وظلال الكلمة ، وسر التعبير . أنــه القرآن..

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا.... ﴾

(**إني رأيت**) .. إخبار صريح ومؤكد بـــ" إنّ " المشددة ، مضافة إلى ياء المتكلم ، يتلوها الفعل الماضي " رأيت " بدلالته على اليقين والتثبت ووضوح هذه الرؤية .

(**أحد عشر كوكبا**) .. عدد واضح محدد ، لاشك فيه ولا خلط . أحد عشر هم أخوة يوسف عليه السلام ، والشيء الملفت للنظر ذلــك التمييــز " **كوكبــا** " ، والكوكب أحد العوالم السماوية المعتمة ، التي تضيء بغيرها ، وتستمد نورها مــن الأجسام المضيئة بذاتها .

وهكذا أخوة يوسف ، بما علا قلوبهم من غشاوة وحقد عليه ، فهم كواكــب معتمة تستمد نورها من بيت النبوة ، من نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، عليهم جميعا السلام . وبذلك نلحظ الدقة في رسم الصــورة القرآنيــة ، ويبــدو إعجاز البيان اللغوي والعلمي في آن واحد .

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

الشمس والقمر ، ظاهرتان من أهم الظواهر الكونية ، وهما في رؤيا يوسف – عليه السلام – أبواه ، وقد أشار أكثر المفسرين إلى ذلك ، وهذا واضح من ظاهر النص القرآني في قوله تعالى : **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَـا أَبَـتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا... ﴾**

والشمس هو نبي الله يعقوب – عليه السلام – والقمر زوجته . [١]

ونلحظ حسن التنسيق والدقة في التعبير القرآني ، عندما عبّر عن يعقـوب – عليه السلام – بالشمس المضيئة المنيرة بذاتها ، فهو نبي الله ، ثم ينسحب التعبيـر بالقمرعن زوجته فهي تابعة تستمد منه النور .. وقد يقال.. وكيف كان الجزم بـأن الشمس يقصد بها يعقوب ، وليس زوجته ؟ حيث إن الشمس أليق بالمؤنث والقمـر لفظ مذكر ؟ وفى حقيقة الأمر أن دلالة لفظ (أبويه) هي الشاهد على ذلـك ! فهـذا اللفظ يقصد به (الأب) أولا ، ثم الأم على التغليب . [٢]

كما أن السياق لا يسمح بغير ذلك ، وهذا ما نلمحه عند استقراء الآية (١٠٠) من سورة يوسف.. قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. ﴾ فلقد توجه بالحـديث مباشرة إلى أبيه فهو محور الحديث هنا ، وهو الأول في الترتيب .. وهـذا مـا يذهب إليه البحث .... والله أعلم .

(رأيتهم) : مادة " رأى " مرة ثانية في الآية الكريمة ، فهل يعد هذا تكرارا في الأسلوب القرآني ؟

---

(١) هنالك خلاف بين المفسرين في تفسير أبويه ، فالبعض يقول أن أبويه يقصد بهـا أبـوه يعقـوب وخالته لأن أمه ماتت بعد ولادة أخيه " بينامين " . انظر قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٢٣٤. طبعـة دار الحديث .

(٢) انظر كتاب " خصائص التعبير القرآني " / جـ١/ صـ ٢٨٦ ، د. عبد العظيم المطعنى. ط. مكتبـة وهبة .

يقول المفسرون أن إيراد هذه الكلمة للمرة الثانية للتوكيد .[١] ، أي لتأكيد يوسف – عليه السلام – لرؤياه ، إذن القيمة المعنوية ، هي التأكيد ، ولكن لكي ندرك عظيم القيمة الفنية لهذه الكلمة ، لابد أن نحذفها ونستمع إلى الآية بدونها " .. يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .... لِي سَاجِدِينَ " .

نلحظ مايلي:

١- خلل في المعنى المقصود.

٢- انهيار في التوازن والتناسق اللفظي ، بين كلمات الآية الكريمة.

٣- فقدان الموسيقا المتوازنة الصادرة من تكرار هذا اللفظ .

وهكذا يتضح أنه ليس هناك تكرار لمجرد التكرار ، ولكنه تكرار لإثراء المعنى وتوكيده ، تكرار للمحافظة على النغم الموسيقى الآثر في التعبير القرآني.

واستعمال الضمير (هم) فى قوله (رأيتهم) ، بدلالته على العاقل ، قد يبدو غريبا ، عند النظرة السطحية للسياق ؛ لأنه يعود على جمادات ، هي الشمس والقمر والكواكب . ولكن من يمعن النظر يرَ ، أن ذلك الاستعمال أدق وأبلغ ؛ لما له من دلالة بث الروح والحياة في تلك الجمادات وتشخيصها ، وتغليب جانب العقل عليها، عندما وصفت بالسجود ليوسف عليه السلام .

(لي) .. جار ومجرور مقدّم ، بدلالته على التخصيص والأهمية ، فالشمس والقمر(ساجدين).. ولمن يسجدون ؟ ليوسف – عليه السلام – فالجار والمجرور منح السياق سمة التخصيص والتحديد والتوضيح ، كما أنه أبرز مكانة يوسف – عليه السلام – عند الله ، بما يتضمن الإشارة إلى إعداده للنبوة .

---

(١) التحرير والتنوير / مجلد ٦/جـ١٢ / صـ ٢٠٧ / ط . دار سحنون . تونس .

(ساجدين) .. ويتضح إيثار التعبير القرآني ، لاسم الفاعل دون غيره بدلالتـــه على الحيوية والحركة ، تلك الحيوية التي يحسها القارىء ، من تشـــخيص مظـــاهر الكون الطبيعية من الكواكب والشمس والقمر، فقد خلع الأسلوب القرآني الحياة على هذه الظواهر الكونية ، فمنحها وهي جمـــادات صـــفة الأحيـــاء ، ومنهـــا الســـجود والخضوع .

<u>الموضع الثاني والثالث:</u>

"رؤيا الملك وتأويلها ":

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُـــنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَـــا تَعْبُـــرُونَ ﴾ [يوسف:٤٣]

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُـــونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِـــن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْـــدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾. [يوسف : ٤٦:٤٩]

وما زال العرض القرآني لقصة يوسف – عليه السلام- يستمد من عناصر الطبيعة رموزا حية ، توظَّف لمعالجة وتوضيح كثير من معانى القرآن ، ومـــن أجل إضفاء روح الحيوية والجمال على تلك الآيات .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ.. ﴾ يقال : أنه عندما أراد الله عز وجل الفرج ليوسف– عليه السلام – أرى هذا الملك تلك الرؤيا.

(إِنِّي أَرَى) .. أسلوب مؤكد بـ " إنّ " والفعل الماضي " أرى " بدلالته على التيقن مما رأى .

(سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) .. العدد سبعة بالتحديد ، دون لبس أو خلط ، مما يؤكد على وضوح الرؤيا ، وأنها رؤيا حق وإلهام صدق. **(بَقَرَاتٍ سِمَانٍ)** .. بصيغة التنكير التي تفيد العمومية ، وتثبت صفة واحدة ، وهى " سمان " رمزا لسنوات الخصب والنماء وكثرة النعم . و **(سمان)** .. جمع سمينة وسمين ، على غرار ، " كبير وكبار" .

(يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) .. يأكلهن.. يلاحظ في هذا الفعل إيثار الأسلوب القرآني لصيغة المضارع دون غيرها ؛ للدلالة على الاستقبال ، فالأمر رؤيا لما سيحدث في المستقبل ، بعد سبع سنوات من الرخاء والغناء .

(سَبْعٌ عِجَافٌ) . . الاهتمام بذكر العدد بالتحديد ، يوحى بوضوح الرؤيا وصدق الإلهام دون تشويش ، وهى أيضا ، رمز لسنين الجدب والقحط . **عِجَافٌ** .. الرنين الصوتي لهذا اللفظ يشي بمعناه ، فهو لفظ يتوافق نطقه وهيئة حروفه ، مع معناه ومضمونه ، بدلالته المعجمية على الهزال والضعف والنقص .

ومما يلفت النظر في هذه الكلمة ، صيغة الجمع التي وردت عليها بوزن " فِعَال " ، حيث إن ما كان على وزن " أفعل ، فعلاء " لا يجمع على هذا الوزن، والمتعارف عليه طبقا للقاعدة ، أن "عجفاء " تُجْمَع على " عجفاوات " في السالم ، و" عُجف " في التكسير ، ولكن الأسلوب القرآني آثر هذا الجمع ، للموسيقا اللفظية والتناسق بين كلمات الآية ، فحُمِلَت هذه الكلمة " عجاف " ، على نظيرتها " سمان " وهذا جائز في اللغة. (١)

---

(١) انظر الكشاف، جـ ٢/ صـ ٣٢٣ / ط . دار الفكر .

وقد جاء هذا اللفظ في كلام شعراء العرب وأجيز منه قول الشاعر الأموي " أبو خالد القناني " في الحديث عن بناته :

وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِيَ الجَوارِي   فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجاف (١)

﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾

(سَبْعَ سُنبُلَاتٍ) .. " سبع " نفس العدد المحدد ، الدال على وضوح الرؤيا وصدقها. فما هذا التحديد المتكرر ، إلا إشارة إلى صدق هذه الرؤيا ، وتبيان لما يترتب عليها. والله أعلم .

(سُنبُلَاتٍ) .. بصيغة النكرة و إيثار الجمع السالم ، وعدولا عن جمع التكسير ، كما في " سمان وعجاف " . ولا يميز هذه السنبلات إلا سمة واحدة ، مطلوبة للسياق ، وهى الاخضرار ، بدلالته على الحياة والخصوبة ، وهو رمز لسنوات الخير والنماء.

(وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ).. وفيه إيجاز يفهم مما سبق ، وتقديره : وأرى سبع سنبلات أخر يابسات ، وباستقراء هذه الآية ، نلحظ لونا من التقابل المنسق، والتوازن بين : ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ، و سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ ، ﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ ، وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾

ولا يخفى ما يحدثه هذا التناسق والتقابل من جمال وتناغم ووضوح .

ثم يطلب الملك من علمائه وكهنته أن يفسروا له رؤياه..

(أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ).. طلب بصيغة الأمر من الكهنة، والعارفين بتفسير هذه الرؤيا، التي استشعر منها ملك مصر بفطرته أنها رؤية مخيفة لا تحمل بشرى الخير..

---

(١) انظر الكامل للمبرد / جـ ٢ / صـ ١٢٤/ ط . مؤسسة المعارف . بيروت .

(رُؤْيَايَ).. لقد عدل التعبير القرآني عن استعمال كلمة " الحُلُم " ، وآثــر عليهــا اللفظ الوارد في الآية، وذلك لدقة الأسلوب القرآني فالرؤيا صدق، والحلم أضــغاث وأخلاط مشوشة وهذا ليس هو المقصود من التعبير القرآني الصادق ، ولقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم سبع مرات كلها في الرؤيا اليقينية الحقــة ، والإلهــام الصادق ، نوردها فيما يلي:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾
[يوسف: ٤٣].

٢- ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

٣- ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٥].

٤- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفتح : ٢٧].

٥- ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ.. ﴾ [يوسف : ٥].

٦- ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَــذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ .. ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

مع مراعاة أن لفظ " الرؤيا " ورد في الآية (٤٣) من سورة يوسف مرتين ، فيكون عدد المواضع سبعة مواضع ، كلها في سياق اليقين والإلهام الصادق .

ومن استقراء المواضع السابقة ، يتضح أن لفظ " الرؤيا " ، لم يــرد الا فــي صورة مفردة ، ليست مجموعة سواء أكان مضافا أو مجردا من الإضــافة ، ممــا يشير إلى الوضوح والنقاء والصدق.

ويعجز الكهنة والعارفون عن تفسير رؤيا ملك مصر، ويسمع بذلك ســاقي الملك ويتذكر يوسف – عليه السلام – وما طلبه منه عندما خرج من السجن .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . هكذا مباشرة ، وبإيجاز معجز، يتجه ساقي الملك إلى يوسف الصديق ، فقد اختبره من قبل.

(**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**).. نداء محذوف الأداة له دلالات منها : إبراز أن هناك معرفة سابقة ، وعلاقة وثيقة بين يوسف الصديق والساقي ، كما تدل على الارتياح النفسي ، والقرب المعنوي من شخص نبي الله يوسف – عليه السلام.

(**الصِّدِّيقُ**) نداء بصيغة المبالغة الدالة على الصدق الشديد ، الذي لمسه هذا الساقي ، عندما عاشر يوسف – عليه السلام – في السجن ، وبما وجده من صدق وحق في تأويل يوسف لرؤياه من قبل .

(**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ**) .. جملة طلبية للالتماس والرجاء ، وقد وردت الرؤيا في الآية على لسان الساقي ، في غاية الدقة نقلها تماما عن لسان الملك ، وقد أثبتها السياق القرآني كما وردت من قبل ، حرصا على أن يأتي تأويلها ملاصقا لها في السياق . (١)

(**لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ**) .. نلحظ في هذا الأسلوب القرآني استعمال لفظ "**لعل**" مرتين ، في المرة الأولى تدل على التماس التأويل ، وترجّي حدوثه من يوسف – عليه السلام – فقد يكون الساقي يتشكك في استجابة يوسف الصديق له ؛ لما بدر منه من إهمال أو نسيان أمره .

وفى المرة الثانية : " **لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** " ، حيث يأمل أن يدرك الملك ومن معه مكانة يوسف ويثقون بعلمه ...

---

(١) راجع " في ظلال القرآن" / جـ٤ / صـ ١٩٩٣ / ط. دار الشروق .

تأويل الرؤيا:

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

(تَزْرَعُونَ) .. فعل بصيغة المضارع ، والسياق القرآني في ظاهره ، يحمل معنى الإخبار ، ولكن هذا الخبر في حقيقته ، أمر خرج في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب ، فيجعل كأنه وجد . [١] ومما يؤكد ذلك الرأي فعل الأمر بعد " **فذروه** " أي ازرعوا سبع سنين مستمرة ، " فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون..." .. أى اتركوه في سنبله ، على سبيل الادخار ، والتخزين لسنوات الجدب .

ولنتأمل الجمال الفني ، في أسلوب القرآن القصصي لتأويل الرؤيا، فمن يقرأ قصة يوسف ، يتخيل كل شيء أمام عينيه ... الزراعة المستمرة ، الحركة في نشاط ، ثم موسم الحصاد ، ثم ادخار هذا المحصول وبيان كيفية تخزينه " في سنبله"، لوحة فنية طبيعية رائعة ، تنبض بالحياة المحسوسة في زراعة الأرض وحصادها ، بما تحمله كلمة الزراعة ، من مخزون في العقول والنفوس ، كما يظهر في تلك اللوحة الطبيعية " السنابل " بلونها الأخضر المبهج الذي يسعد النفس عند رؤيته. ويبشر بالخير والعطاء.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾... قد يبدو للوهلة الأولى ، أن هذه الآية تخلو من مظاهر الطبيعة ، التي هي موضوع البحث لكن النظرة المتأنية ، تثبت غير ذلك ، حيث إن هذه الآية ، تؤول في ظل الآيات السابقة، فالبقرات العجاف ، رمز للسبع الشداد ، والسنبلات اليابسات ، رمز لما يدخر ، والبقرات السمان والسنبلات الخضر، رمز لسنوات الدأب ، والعطاء .

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ٩/ صـ ٧٠ / ط . دار الغد العربي .

(**تُحْصِنُونَ**) .. اختيار صيغة المضارع ، لاستحضار الصورة .

﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾..

(**ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ**) .. **ثم** .. حرف عطف للترتيب والتراخي ، ترتيب زمني جميل في السياق القرآني ، يؤكد على وضوح وصدق تأويل يوسف – عليه السلام – بوحي من الله ، وتدعيم له . و **يَأْتِي مِن بَعْدِ** .. تعبير يدل على المستقبل ، من خلال استخدام صيغة المضارع . و **ذَلِكَ** .. إشارة لما سبق ، من سنوات الجدب والضيق . **عَامٌ** .. من اللفتات الأسلوبية الجميلة في القرآن الكريم ، الدقة في استعمال المرادفات ، ومن ذلك : " عام و سنة " ، فكل منهما لها سياقها. فلفظ " عام " يأتي – غالبا– في سياق الخير والعطاء ، كما ورد في موضع الدراسة . بينما لفظ " سنة " فيرد في غير ذلك . " وأكثر ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الجدب " . (١)

كما ورد في الإتقان : " يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام ما فيه الرخاء والخصب ". (٢)

(**فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**) .. رحيق البشارة ، وتحقيق ناموس الله في الكون باليسر بعد العسر . " **يغاث** " .. من الغيث أي المطر ، الذي يغيث الناس من سنوات الجدب والقحط ، بدلالة هذا اللفظ على الخير والنماء والإنقاذ ، ويؤكد هذا ، كلمة (**يَعْصِرُونَ**) بعده ، بما يوحي بسعة الرزق والخير ، فهم يأكلون ويزيد عن حاجتهم فيعصرون . يعصرون الثمار مثل العنب والزيتون وغيرها .. وكل هذا له ظلال في الذهن... وتصور لتلك الحدائق المثمرة بأشجارها المتنوعة ، التي يعصرون ثمارها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن / للراغب / صـ ٢٥١/ ط . المكتبة التوفيقية .

(٢) الإتقان في علوم القرآن / السيوطي / جـ١ / صـ ١٩٦/ ط . المكتبة الثقافية . بيروت.

وبعد فإن الأسلوب القرآني ، لم يغفل أبدا القيمة الفنية التي تتولد عن توظيف عناصر الكون الطبيعية في السياق بما تمنحه هذه العناصر من حيوية وحياة .
حيث تبدو هذه الآيات – نطاق البحث – من سورة يوسف ، وكأنها مشهد طبيعي حيوي من مشاهد الكون المنظورة .

الخطوط الرئيسة في هذه اللوحة ، تبدأ بوجود مظهرين من أهم مظاهر الكون هما الشمس والقمر ، وكذلك الكواكب وجميعهم يسجدون ليوسف عليه السلام. ثم مشهد ينبض بالطبيعة الحية ، وهو رؤيا ملك مصر، بما تبرزه من خطوط أساسية مثل البقرات السمان والعجاف ، وسنبلات القمح الخضر النضرة ، بما فيها من حيوية وحياة ، ثم السنبلات اليابسة ، بدلالتها على الجدب والقحط ، وسنوات العدم ، ثم الغيث والمطر بدلالته على الخير والنماء ... حقا إنها مشاهد الكون الطبيعية ، التي لو حاول فنان أن يرسمها لعجز عن بيان كل ما أراده البيان القرآني العظيم .

المبحث السادس

العناصر الكونية في قصص

" داوود وسليمان عليهما السلام "

التعريف بنبي الله داود ، وابنه سليمان عليهما السلام :

هو داود بن إيشا بن عويد بن سلمون بن يحشون بن عويناءب بـن إرم بـن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم [١].

- وسليمان بن داود بن إيشا .... [٢] .

وقد ورد ذكر داود عليه السلام في القرآن الكريم ، اثنتي عشرة مرة كما يلي :

١- [الأنعام: ٨٤].

٢- [الأنبياء : ٧٨] .

٣- [الأنبياء : ٧٩] .

٤- [النمل : ١٥] .

٥- [النمل : ١٦].

٦- [سبأ : ١٠] .

٧- [سبأ : ١٣] .

٨- [ص : ١٧] .

٩- [ص : ٢٢] .

١٠- [ص : ٢٤] .

١١- [ص : ٢٦] .

١٢ - [ص : ٣٠] .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، صـ ٤٢٢/ ط .دار الحديث .

(٢) المرجع السابق صـ ٤٣٤ .

وقد ورد ذكر سليمان عليه السلام سبع عشرة مرة مرتبة كالتالي :

١- [البقرة : ١٠٢] .

٢- [البقرة : ١٠٢] .

٣- [النساء : ١٦٣] .

٤- [الأنعام : ٨٤] .

٥- [الأنبياء : ٧٨] .

٦- [الأنبياء : ٧٩] .

٧- [الأنبياء : ٨١] .

٨- [النمل : ١٥] .

٩- [النمل : ١٦] .

١٠- [النمل : ١٧] .

١١- [النمل : ١٨]

١٢- [النمل : ٣٠]

١٣- [النمل : ٣٦]

١٤- [النمل : ٤٤]

١٥- [سبأ : ١٢] .

١٦- [ص : ٣٠] .

١٧- [ص : ٣٤] .

* الآيات موضع الدراسة :

١- ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

٢- ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١] .

٣- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ ، ١٠ :١٢] .

٤- ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص ، ١٧:١٩] .

٥- ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٥ ، ٣٦].

٦- ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل ، ١٨ : ٢١] .

العرض الموضوعي للآيات :

تتناول الآيات السابقة جانبا من قصص نبيي الله داود وسليمان – عليهما السلام – حيث تتعرض لنعم الله عليهما ، فقد آتاهما الله – عز وجل – الحكم والمال والنبوة وخصهما بميزات أوضحتها آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا... ﴾ [النمل : ١٥] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠] .

هذا ما اختص الله به نبيه داود ، أن سبحت معه الجبال ، وكان سامعا وفاهما لتسبيحها ، وكان أيضا عليما حكيما ، كما ألان الله له الحديد ، فكان بين يديه لينا كالطين ، بدون نار أو انصهار ، يصنع منه الدروع المتينة خفيفة الحمل والتي لم يسبقه إليها أحد ، كما أنعم الله عليه بولده سليمان – عليه السلام – .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إنه أواب ﴾ [ص : ٣٠] .

فخصه الله – عز وجل– بنعمة العلم والملك أيضا، إضافة إلى فهمه لغة الطير ، وتسخير الجن والرياح .

ولقد ذكر القرآن الكريم ، واقعة تدل على اشتهار كل من داود وسليمان – عليهما السلام – بالحكمة والعلم .. في قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

وتشير هذه الآيات إلى واقعة الحكومة أو الفتوى ، حيث جاء إلى داود رجلان يتحاكمان ، الأول صاحب الحرث – أي الزرع – وقيل صاحب كَرْم ، والثاني له غنم دخلت ليلاً الحرث وأفسدته ، فحكم داوود لهما بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم مقابل ما لحق بزرعه من فساد ، وعندما مر الرجلان بسليمان عليه السلام ، سألهما عما أفتى به نبي الله داود عليه السلام ، وعند سماعه للفتوى ، قال : غير هذا أرفق بالجانبين ، فسمعه داوود عليه السلام واستحلفه أن يخبره بالذي هو أرفق فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض ؛ لينتفع بها ، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ؛ ليقوم عليه حتى يعود كما كان ثم يترادا ، فقال داود : القضاء ما قضيت . (١) .

كذلك علّم الله تعالى ، سليمان عليه السلام لغة الطيور ، وسخّر له الجن والإنس ، قال تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ **عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ** مِنَ **الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ** فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٦،١٧] .

وهكذا تعرض الآيات الكريمة ، فضل الله على نبييه داود وسليمان عليهما السلام ، وما اختصهما به من نعم .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٧ / جـ ٩ / صـ ٧١/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .
وكذلك انظر " الكشاف " للزمخشري / جـ٢ / صـ٥٧٩ . ط. دار الغد العربي .

التحليل الفني للآيات :

تتناول الآيات نطاق البحث ، كثيرا من عناصر الطبيعة ، ومشاهد الكون الحي مثل تسبيح الجبال والطير ، وتسخير الرياح العاصفة ، وحديث النمل وغير ذلك مما سيتناوله التحليل الفني للآيات . نبدأ بآية تجمع بين النبيين داوود وسليمان عليهما السلام.

١- ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

في الموضع السابق ، تبرز بعض العناصر الطبيعية التي وُظِّفت في عرض تلك اللوحة الرائعة ، لبيان نعم الله على نبييه داوود وسليمان ، فنجد الحرث وهو الزرع وكذلك الغنم ، ثم الجبال المسبّحة والطير ... إنها ركائز أصيلة لبناء تلك الصورة التي تمثل قضية التحكيم .

و(**داوود وسليمان**) .. عطف على ما قبلهما من قوله تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له .. ﴾ ، والتقدير : واذكر داود وسليمان ، كما سبق ذكر موسى ثم إبراهيم ثم لوط ثم نوح ثم داود وسليمان عليهم جميعا السلام ..

(**إذ**) : ظرف زمان مبني .. أي عندما كانا يحكمان .(**يحكمان**) : نلاحظ استخدام صيغة المضارع ، لما حدث في الزمن الماضي ، وذلك لاستحضار الصورة في الأذهان ، وإلقاء ظلال الحال والاستمرار، على الحدث والإسناد إلى ألف الاثنين ، يعود على داود وسليمان عليهما السلام .. وقد يكون تفضيل الأسلوب القرآني لصيغة المضارع ، لموائمة مضمون النص القرآني ذاته ، حيث أن قضية الحكومة لم يبت فيها مرة واحدة ، بل أطلق داود الحكم ، ثم استدرك عليه سليمان مما يوحي باستمرارية الحدث لوقت ما ، فيكون الأليق به استعمال صيغة المضارع .. والله أعلم .

(في الحرث) : أي يحكمان في قضية فساد الحرث ، ثم يأتي تفصيل قضية الحرث ، **(إذ نفشت فيه غنم القوم)** .. " **إذ** " : ظرف مبني ، و" **نفشت** " ، فعل ماضي ، للدلالة على وقوع الإفساد بالفعل ، حيث انتشرت الغنم في الزرع ليلاً ، بلا راع ، " فالنفش ، الانفلات للرعي ليلا، بلا راع" .[(١)] ، ونلاحظ هنا التحول من الفعل المضارع "يحكمان " ، إلى الفعل الماضي " نفشت " .

(غنم القوم) .. الغنم من مخلوقات الله ، وعنصر من عناصر الطبيعة التي وظّفت في السياق القرآني ، بما يمنح النص رؤية بصرية مشاهدة ، فهناك الحرث بما توحي به هذه الكلمة من نضارة وخضرة وثمار ، ثم هنا الغنم وقد أفسدت هذا المشهد الجميل عندما انتشرت ونفشت فيه . " **القوم** " .. بالتعريف ، نسبة إلى هؤلاء الأشخاص الذين توجهوا بالشكوى إلى داود ، فهم معروفون غير مجهولين .. " **وكنا** " بصيغة الفعل الماضي ، مرة أخرى للدلالة على وقوع الحدث ، والمناسبة لظلال الحكاية مع إثارة التشويق لدى المتلقي ، ورغبته في استطلاع المزيد ، ولننظر لو وضعنا كلمة بديلة مكان " كنا " مثل " إننا لحكمهم شاهدين " نجد أن المعنى المراد ، تتبدد ظلاله ، ولا يتحقق المرجو من الآية الكريمة ، ثم نجد أن الفعل (كان) مسند إلى" **نا** " العظمة الدالة بإيقاعها اللفظي والمعنوي على العظمة والرفعة الإلهية .

" **لحكمهم** " .. أول ما يسترعي الانتباه ، العدول عن ضمير المثنى في " **يحكمان** " إلى ضمير يعود على الجمع في " حكمهم " فما تفسير ذلك ؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن / صـ ٥٠٤/ ط . المكتبة التوفيقية .

للمفسرين في ذلك أقوال نوردها موجزة فيما يلي :

- قال الألوسي في كتابه :

" ... وضمير الجمع قيل لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال أقل الجمع اثنان وجوَّز أن يكون الجمع للتعظيم كما في " رب ارجعون " ... "(١) .

- وقال الإمام فخر الدين الرازي :

" أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له ، فإذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين " . (٢) وأرى أن رأى الإمام الرازي له وجاهته ومنطقيته .

وفيما يبدو للبحث أن العدول عن ضمير المثنى ، إلى الجمع أليق وأدق للسياق ، لأن المقام هنا ، هو الحديث عن علم الله التام ، بما دار وحدث بشأن هذه الحكومة من حاكم ومحكوم له ، والقضية ذاتها بأركانها ، والحكم الصادر من داود عليه السلام ثم حكم سليمان عليه السلام ، لذلك كان ضمير الجمع ، هو الأنسب للدلالة على الإحاطة الكاملة ،و العلم التام ، وكذلك الرعاية والحفظ ، الذي تمنحه للسياق كلمة " **شاهدين** " في قوله تعالى : " **وكنا لحكمهم شاهدين**" .

(**ففهّمناها سليمان**) .. الفاء للتعقيب ، وبيان ترتيب الحدث ، فالتفهيم جاء لاحقا لحكم داود . " **ففهمناها** " كلمة جملة ؛ فعل وفاعل ومفعول ، " فَهَّم " فعل ماضٍ بصيغة خاصة مضعفة العين للدلالة على المبالغة في إنعام الله على سليمان بتلك النعمة العظيمة ، نعمة الإلهام والفهم والحكمة . فسليمان لم يفهم بقدرته الذاتية فقط ، ولكن التفهيم كان من قِبَل الذات العلية من لدن الله سبحانه وتعالى ، ويأتي هذا الفعل بهذه الصيغة مناسبا لمضمون الآيات ، حيث إن المقام هنا مقام بيان لنعم الله على كل من داود وسليمان عليهما السلام .

---

(١) روح المعاني / مجلد ٧ / جـ ٩ / صـ ٧١/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) مفاتيح الغيب / مجلد ١١ / صـ ١٦٤ / ط. دار الغد العربي .

ويؤكد ذلك إسناد الفعل لـ " **نا** " العظمة الدالة على أن الفاعل هو الذات الإلهية ، ثم ضمير " ها " الغيبة التي تعود على الحكومة أو الفتوى .

ولمنع اللبس والفهم الخاطئ ، يستكمل الأسلوب القرآني الآية بذكر فضل الله على كل من داود وسليمان : " **وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** " فهو تأكيد واحتراس حتى لا يُظن عدم الفهم أو قلة الحكمة أو العلم ، بداود عليه السلام .

ومما يعضد ذلك ، قوله سبحانه وتعالى عن داود – عليه السلام – :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٠] .

(آتَيْنَا) .. فعل له دلالة التشريف ، والتعظيم ، يتضح ذلك من إسناده لـ "نا" العظمة . فالعلم الشريف ، يصدر عن الذات الشريفة .

(حُكْمًا وَعِلْمًا) .. بصيغة النكرة .. والتعريف والتنكير ، من طرائق البيان القرآني ، حيث إن الكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات لغوية وبلاغية دقيقة ، فالنكرة لها دلالات وإيحاءات قد لا تكون للمعرفة ، وكذلك المعرفة لها ظلالها الخاصة ، والتعبير القرآني بدقته يختار المناسب منها للسياق والمضمون .

وقد آثر التعبير القرآني هنا صيغة النكرة في قوله تعالى : " وكلا آتينا حكمًا وعلمًا " فالحكم نكرة ، والعلم أيضا ، وذلك للتعظيم ، إذ المقام مقام تفهيم لسليمان من قبل الذات الإلهية ، والحكم والعلم من لدن الحكيم العليم ، فكيف لا يكون عظيمًا ؟ ولهذا فصيغة النكرة ، أدق للأسلوب القرآني في هذا السياق وتتلاءم مع الفعل السابق عليها" **آتينا** " ، وكان لكل نبى منهما –عليهما السلام – نعم خاصة به .

*** أولاً : النعم الخاصة بداوود – عليه السلام – :**

﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

[الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

بعد أن تناول السياق القرآني النعم المشتركة بين كل من نبيي الله داود وسليمان ، تفرد بالحديث عن النعم الخاصة بكل منهما ، فكان ذكر فضل الله تعالى على نبيه داود.

حيث كانت له نعمة تسخير الجبال والطير .. ولصاحب " الكشاف " قول بديع في تفسير هذه الآية الكريمة ، يقول : " روي أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه ، وقيل كانت تسير معه حيث سار " (١) .

"**وسخّرنا** " .. آثر الأسلوب القرآني استعمال صيغة الماضي المضعف ، بدلالتها على مضي الحديث والمبالغة فيه ، وإثبات هذه الخاصية لداود عليه السلام ثم تعظيم هذا التسخير ، بإسناد الفعل لـ " نا " العظمة لبيان وتوكيد فضل الله على داود عليه السلام .

(**مع داوود**) .. ونلحظ وجود " **مع** " الظرفية ، فلم يرد في الأسلوب لـ " داود " بل " مع " داود ، وقد ورد لفظ " **مع** " في كل الآيات التي تناولت هذا الموضوع (٢) ، والسبب في ذلك أن هذه المخلوقات – جبالا كانت أو طيرا – مسخرة من لدن الله عز وجل للذات الإلهية نفسها ، فالجبال والطير مسخرات ، كما أن داود مسخر كذلك ... إذن فالكل مسخر لله ، لعبادته وتسبيحه ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري/ج٢ / صـ ٥٧٩ / ط. دار الفكر .

(٢) انظر الآيات ١٠ ، ١٢ من سورة سبأ ، ١٧ ، ١٩ من سورة ص~.

(**يسبحن**) .. بصيغة المضارع الدالة على تجدد الحدث واستمراره ، فالجبال والطير ، مستمرة في التسبيح والترديد مع داود المسبح دائما .

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾[ص: ١٧]

(**والطير**) .. تعددت فيها آراء المفسرين ، فقيل أنها عطف على الجبال أو مفعول معه ، وقيل أنها مبتدأ والخبر محذوف . [١] ، ويميل البحث إلى أنها عطف

أي وسخرنا الطير يسبح ، على حذف الفعل المفهموم من السياق قبله ، وهذا من بلاغة الأسلوب القرآني ، حيث أن الحذف هنا ، لا يحدث خللاً بالمعنى بل يضيف جمالاً للتعبير من خلال الإيجاز .

ولكن لماذا قدم الأسلوب القرآني الجبال في التسخير والتسبيح على الطير ؟ من المعروف أن الجبال يضرب بها المثل في الثبات والجمود ، ولقد اتخذ القرآن الكريم منها ، وسيلة لتأنيب المعاندين الكافرين الجاحدين أمام إعجاز القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

أي أنه حتى الجبل الجامد الراسخ ، يتصدع ويتأثر بهذا القرآن العظيم فما بال هؤلاء الناس ، الذين جمدت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة !

لذلك قدم الأسلوب القرآني ، الجبال على الطير في التسخير والتسبيح ، فهو الأعجب والأكثر دلالة على قدرة الله في تسخيره ، فهو جماد لا يشعر، ولكن الله أنطقه بقدرته ليكون مسبحا أوابا مع داود .

---

(١) روح المعاني للألوسي / مجلد ٧ / جـ ٩ /صـ ٧٣/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

أما الطيور فهي أحياء ناطقة ، تبرز قدرة الله كذلك ، ولكنها فـي الجبـال أعجب وأدل ، وقد ذهب إلى هذا الإمام فخر الدين الرازي في قوله : " فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل علـى القدرة ، وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ، والطير حيوان ناطق " .(١)
وهو تقريبا قول الكشاف أيضا .

(**كنا فاعلين**) .. تعبير بالفعل " **كان** " مسندا إلى " **نا** " العظمة ، بدلالته بهذه الصورة على التمكن والقدرة المطلقة ، مكتسبا ذلك من اسم الفاعل " فاعلين " بصيغته الدالة على استمرار هذه القدرة وثبوتها في حق الله عز وجل ، فالله هو القادر المتمكن من ذلك الإعجاز والتسخير ، هو الفاعل له دون حدود أو قيـود ، فهو تذييل يؤكد ما قبله ، وفي ذلك يقول الإمام الألوسي : " وكنا فاعليـن " تذييل لما قبله أي من شأننا أن نفعـل أمثاله ، فليـس ذلك ببدع منـا وإن كـان بـديعا عندكم "(٢) .

ونظير الآية السابقة من سورة الأنبياء ما ورد في سورتي "سبأ "، و" ص " في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ [سبأ :١٠] .

ويقول تعالى : ﴿.. **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَـالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾
[ص ، ١٧: ١٩] .

وتشخيص الطبيعة فيها واضح حيث إحياء الجبال الراسخة ، ومخاطبتها بهـذا النداء في قوله تعالى: " ياجبال " ، والطير أيضا لها الأمر ذاته فهـي مُشخصـة تسبح مع داوود عليه السلام .

---

(١) مقاتيح الغيب للرازي / مجلد ١١ / صـ ١٧٢ / ط. دار الغد العربي .
(٢) روح المعاني للألوسي / مجلد ٧ / جـ ٩ /صـ ٧٣/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت

دقائق بين الآيات السابقة :

عند التأمل المتأني في المواضع الثلاثة للدراسة في سورة الأنبياء وسبأ وص، نلحظ أن كل آية من الآيات ، تؤدي المضمون بأسلوب خاص مختلف عن الأخرى.

ففي سورة الأنبياء ، نجد تسخير الجبال والطير لتسبح مع داود ، وفي سورة سبأ نجد السياق القرآني يختلف في إظهار هذه الخاصية في الجبال والطير ، حيث نجد صورة شاخصة للجبال فيها حياة ونداء ، وأمر واستماع وطاعة ، نلحظ ذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ ... " **أوبي** " أمر من الفعل " آب " ، فيه تشخيص وإحياء ، للدلالة على الترجيع والترديد مع داود عليه السلام ، في تسبيحه ومزاميره .

ثم نجد سياقا آخر في سورة ص ، ولنتأمل قول الله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾ .. والإضافة هنا في قوله تعالى : (**يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**) ، فالتسبيح متصل مستمر ، بالعشي والإشراق أي مع شروق الشمس وبزوغها ، وفي الغروب و المساء كذلك .

ثم إضافة أخرى لم ترد في السياقات السابقة ، في قوله تعالى :﴿ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾ حيث بين هيئة الطير عند سماع مزامير داود ، فهي تصطف متزاحمة في حالة ثبات وسكون تام ، لتستمع لداود عليه السلام وتردد معه .

كما نلحظ عدول الأداء القرآني في نفس الآية عن صيغة إلى أخرى ، أقصد تحول الأسلوب من التعبير بصيغة الماضي المؤكد في قوله تعالى : " **سخرنا** " إلى الفعل المضارع " **يسبحن** " ، ثم إلى الاسم في قوله تعالى : " **محشورة** " ، وهذا مما لا شك فيه يؤدي إلى الالتفات ، وجذب الاهتمام ، وتلك دقائق جميلة لهذه الاستعمالات فالماضي أليق وأدق في قوله تعالى : " **سخّرنا** " للدلالة على الحديث عن الزمن الفائت المنقضي ، وفيها توكيد لهذا الحدث وبيان لقدرة الله المطلقة ، كما أن التعبير بصيغة المضارع في " **يسبحن** " أدق فى موضعه كذلك مما لو استخدم السياق الفعل الماضي ، كما سبق في " سخرنا " ، ولنتأمل كيف سيكون السياق مع الماضي [الجبال سبحن] سيؤدي هذا حتما إلى انهيار المعنى المراد من تجدد التسبيح واستمراره ، ولا يحقق هذا إلا صيغة المضارع ، فضلاً عن اختلال النغم الموسيقي الناتج عن تناسق الألفاظ وتحولها من صورة إلى أخرى ، وكذلك كان الأسلوب البياني غاية في الدقة عندما استعمل مع الطير لفظ "**محشورة** " بهذه الصيغة ؛ لأن هذا هو الأظهر لقدرة الله ، فمن عادات الطير اللازمة لها التحرك والطيران في كل مكان ، أما الحشر والثبات على حالة واحدة فهو عجيب ، غريب في شأنها ، وخروج عن العادة والمألوف ، لذلك كان التعبير بالاسم أبدع وأدل على قدرة الله من جانب ، وعلى جمال ترانيم داود – عليه السلام – من جانب آخر .

وهناك تفسير جليل للإمام الزمخشري في هذه النكتة ، حيث يبين السبب في اختيار " يسبحن " في الآية الأولى ، " هو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالاً بعد حال ، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح ..

وقوله : " محشورة " في مقابلة "يسبحن " ، إلا أنه لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح ، من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء جيء به اسمًا لا فعلاً ، وذلك أنه لو قيل : وسخرنا الطير يُحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئًا بعد شيء والحاشر هو الله عز وجل لكان خلفا ؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة " [(١)].

وهكذا يتأكد أن القرآن الكريم ليس كتاب دين وشريعة فقط ، بل كتاب فن وجمال بما يعرضه لنا من لوحات حية ، ومشاهد للطبيعة الشاخصة الناطقة ، فما يكاد أحد يقرأ الآيات السابقة ، إلا ويجد عقله يتخيل تلك الآيات مشاهد بديعة متحركة ، فالجبال تدب فيها الحياة لتسبح الله وتستمع إلى ندائه الجليل وتطيع الأمر وتستمر في التسبيح والحركة مع داود عليه السلام ، حقا إنها لوحة حية ناطقة ، منها تلك الطيور المصطفة المحشورة ؛ لتسبح ربها وتستمع إلى تسبيح داود عليه السلام ، الذي كدنا أن نستمع له أيضًا ، وكأننا جزء من هذه اللوحة النابضة بالحياة ، ونستشعر جمال صوت داود – عليه السلام – نسعد بترجيعه وننبهر بعبوديته الخالصة لله تعالى .

وهكذا يكتمل مشهد الطبيعة الرائع حافلاً ، بكل عناصر الحياة من صوت وحركة ولون وإحساس .

---

(١) الكشاف للزمخشري/ جـ٣ / صـ ٣٦٤ ، ٣٦٥ / ط . دار الفكر .

ثانيًا : النعم الخاصة بسليمان – عليه السلام – :

قد بيّن البحث في الصفحات السابقة النعم المشتركة بين نبي الله داود وابنه سليمان – عليهما السلام – ومنها العلم والحكمة والفهم ، ولقد اختص الله تعالى كل منهما بنعم خاصة ، فذكرنا نعمه تعالى التي اختص بها داود –عليه السلام – من خلال الآيات السابقة ، ثم نتناول في هذا الجزء من البحث تحليلاً للآيات الكونية الخاصة بنعم الله تعالى على سليمان – عليه السلام – وهي كما يلي :

١- ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء :٨١]

٢- ﴿ ... **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...** ﴾ [سبأ : ١٢]

٣- ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ [ص:٣٥ ، ٣٦].

نلاحظ أن المواضع الثلاثة السابقة تتناول تسخير الرياح لسليمان – عليه السلام – وهي إحدى نعم الله الجليلة على نبيه ، حيث أبدله الله الرياح المسخرة عن الجياد الصافنات .

كما نلاحظ استعمال حرف الجر " اللام " في المواضع الثلاثة ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً** ﴾، ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾، ﴿ **وسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ** ﴾ ... مما يدل على أن التذليل والتسخير ، كان خصيصا لشخص سليمان ، وأن هذه الريح منقادة لأمره ، ممتثلة له ، فهو تسخير يختلف عن تسخير الجبال والطير لداود – عليه السلام .

﴿ **وسَخَّرْنَا مع داود الجبال** ﴾ فهذا التسخير بالنسبة لداود كان معه وليس له، وليس هو المتحكم فيه ، بل التسخير لله – عز وجل – مع تبعية هذه الجبال وتلك الطيور لداود – عليه السلام – .

ونورد هنا لطيفة للعلامة الألوسي في هذا الصدد يقول فيها :

" ولسليمان الريح أي وسخرنا له الريح ، وجيء باللام هنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من تفاوت ، فإن تسخير ما سُخر لسليمان – عليه السلام – كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه خلاف تسخير الجبال والطير لداود – عليه السلام – فإنه كان بطريق التبعية والاقتداء به عليه السلام في عبادة الله تعالى". (١)

وهكذا كانت طبيعة التسخير مختلفة لكل من نبيي الله – عليهما السلام – وعند مقارنة المواضع الثلاثة السابقة ، نلحظ أن كلاً منها يبين وصفًا لهذه الريح، ففي سورة الأنبياء ﴿ **الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ** ﴾ ، وفي سورة سبأ ﴿ **الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾ ، وفي سورة ص ﴿ **الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ** ﴾.

وكيف يستقيم الوصف لها بأنها (**عَاصِفَةً**) أي شديدة الهبوب ، ثم توصف في موضع آخر بأنها (**رُخَاء**) أي هادئة لينة ؟

في ذلك يقول الإمام " فخر الدين الرازي " :

" لا منافاة بين الآيتين ، فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء". (٢)

---

(١) روح المعاني / مجلد ٧ / جـ٩ / صـ ٧٤/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

(٢) مفاتيح الغيب / مجلد ١٣ / صـ ٣٣٣ ، ط. دار الغد العربي .

والوجه الثاني لتفسير ذلك عند الإمام الرازي :

" أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة مرة أخرى ولا منافاة بين الأمرين " (١).

ويبدو للبحث أن التفسير الأول للإمام الرازي ، هو الأدق والأصوب ... والله أعلم . فذلك يتضح من خلال إمعان النظر، وتقصي الآيات الكريمة على النحو التالي :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ ، حيث قيد الأسلوب القرآني الريح العاصفة ، بأنها تجري بمشيئة سليمان – عليه السلام – وإرادته ، وإذا كان لسليمان كل هذه السلطة اللدنية ؛ فله – عليه السلام – تسييرها بالكيفية التي يرغبها ، فتصبح رخاء أو عاصفة إذا أراد ذلك ، كما ورد في الموضع الآخر : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ، فقد ورد لفظ " **رُخَاء** " بعد قوله تعالى : ﴿ **تَجْرِي بِأَمْرِهِ** ﴾ مما له دلالة على أن الريح " **العاصفة** " أصبحت " **رُخَاء** " لما جرت بأمر سليمان – عليه السلام – ، وهي تجري بأمره ومشيئته حيثما قصد وأراد .

وهناك تفسير قيم – كذلك – للرياح العاصفة ، للعلامة الألوسي ذكره في كتابه حيث يقول : " ... وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب ولا ينافي وصفها بذلك هنا وصفها في موضع آخر بأنها رخاء ، بمعنى طيبة لينة لأن الرخاء وصف لها باعتبار نفسها والعصف وصف لها باعتبار قطعها المسافة البعيدة في زمان يسير كالعاصفة في نفسها فهي مع كونها لينة تفعل فعل العاصفة ". (٢)

---

(١) مفاتيح الغيب / مجلد ١٣ / ص ٣٣٣ / ط. دار الغد العربي .

(٢) روح المعاني / مجلد ٧ / جـ٩ / صـ ٧٤/ ط . دار الكتب العلمية . بيروت .

وهذا تفسير وجيه طيب من الشيخ الألوسي ، لا يتعارض في جـوهره مـع تفسير الإمام الرازي حيث جاء فيه ما يلي : (كيف يكون الجمع بينهما ؟ أي بين الريح العاصفة والرخاوة ؟ والجواب بأنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال : " غدوها شهر ورواحها شهر " وكانت جامعة بين الأمرين رخاء في نفسها وعاصفة في عملها " [١] .

وأخيرا لا تكرار بين الآيات ، حيث نلحظ أن آية سورة الأنبيـاء ، وكـذلك سورة ص، تبين طبيعة وصفة هذه الريح ، ففي سورة الأنبياء ﴿ **الرِّيحَ عَاصِـفَةً .....** ﴾ ، أما في سورة سبأ ﴿ **الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾ ، وفي سورة ص~ ﴿ **الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ ، وبذلك نجد أنه لا تكرار بـين الآيات الثلاثة ، ولكن كل آية اختصت بمعنى معين يضيف جديدا ، ويمنح جمـالاً للسياق القرآني ، وإن كان المحور العام للمعنى واحدًا.

---

(١) مفاتيح الغيب/مجلد ١١ / صـ ١٧٤ / ط. دار الغد العربي .

خاتمة الفصل:

من خلال ما تقدم في المباحث السابقة ، وبعد رحلة من الدراسة والاستقصاء، تبين بوضوح أن الأسلوب القرآني لم يغفل أبدًا أهمية إبراز الطبيعة، وتوظيفها بكل عناصرها لخدمة البيان القرآني ، وكذلك لم يهمل توظيف الكونيات لخدمة السياق ، بل لقد احتفى احتفاءً عظيمًا بتلك الكونيات ، التي أضفت على الأسلوب القرآني ظلالاً من الجمال والحياة ، والدقة والثراء .

ولقد رأينا هذا في النماذج المتقدمة في هذا الفصل بداية من قصة " نوح – عليه السلام – ومشهد الطوفان العظيم ، الذي تعجز ريشة الفنان عن وصفه وتجسيده بهذه الدقة وهذا الجمال ، وكذلك قصة هود – عليه السلام – وعقاب الله تعالى لقومه الكافرين المعاندين بالريح العقيم ، والريح الصرصر ، وكيف أوضح الأسلوب القرآني المعجز أن قوانين الطبيعة التي سخرها الله لخدمة الإنسان ، قد تكون نقمة عليه وتسير في الاتجاه المضاد إذا عاند واستكبر ، وأبى إلا الكفر والعصيان .

ثم توظيف الطبيعة من شمس وقمر ، وكواكب في بيان رحلة الإيمان واليقين في قصص إبراهيم – عليه السلام – ، وكذلك تسخير العناصر الكونية ومشاهد الطبيعة الحية في قصص يوسف – عليه السلام – ، بداية من رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر الساجدين له ، ومرورا بتأويل رؤيا صاحبيه في السجن، ثم تأويل رؤيا الملك ، وكيف كان للطبيعة دور في تجسيد هذه الرؤى وتوضيحها.

وأخيرا .. المعالجة الفنية الرائعة للطبيعة في قصص داود وسليمان – عليهما السلام – ، وكيف كانت الجبال الراسخة تسبح مـــع داوود – عليـــه الســـلام – ، والطير محشورة تردد تسبيحه ، وكيف كانت الريح العاصفة رخاء بأمر سليمان – عليه السلام – مسخرة له وتجري بأمره .

وبعد ... فهذا غيض من فيض ، حاولت به أن أقدم نموذجًا للطبيعة الحية ومشاهد الكون الجميلة ، وكيف كان لذلك أعظم الأثر في مـــنح الحيـــاة لتلـــك الكونيات ، بحيث تصبح الآيات واقعًا حيا مُعاشا ، ومشاهد متحركة ناطقة تشاهدها العين وتسمعها الأذن ، وتستشعرها الحواس ، وصورا يتمثلها العقل عندما ينطقها اللسان .
